الحديث ذو شجون

دكتور زكي مبارك



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مبارك، زكي، ١٨٩١- ١٩٥٢

الحديث ذو شجون / زكي مبارك – القـاهرة: الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

٤٨٨ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٦ ٣٨٠ ٤١٩ ٩٧٧

١- القصص العربية القصيرة.

(أ) العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٨١٩/ ٢٠٠٦

I.S.B.N 977- 419- 380-6

ديوي ٨١٣,٠١

الحديث ذو شجون

دكتور زكي مبارك



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٦

الإشراف الفني والغلاف:

صبري عبد الواحد

"لا أريد أن يكون الكاتب مصريًا، وإنما أريد أن يكون إنسانًا مصريًا، إنسانًا تعنيه الوشائج الإنسانية ومصريًا تعنيه الأواصر المصرية، فالكاتب الحق لا يخاطب العصر وحده وإنما يسكب رحيق قلمه في أذن الزمان وقلب الوجود".

(زكي مبارك)

المقدمة

بقلم: كريمة زكي مبارك

الكتاب الذي بين أيدينا اليوم لأمير البيان الدكاترة "زكي مبارك" بعنوان "الحديث ذو شجون" وليس لي فضل في اسم الكتاب، فالحديث ذو شجون هو عنوان تلك المقالات الممتعة التي كان الدكتور زكي مبارك ينشرها في مجلة الرسالة وجريدة البلاغ. ولكن، هل جميع مقالات زكي مبارك، في مجلة الرسالة وجريدة البلاغ كانت تحت عنوان "الحديث ذو شجون"؟!

الجواب: لا.. فقد كانت هناك مقالات تحمل عناوين أخرى تحولت بعضها إلى كتب كـ"ليلى المريضة" في العراق و"بين آدم وحواء".. وما زالت آلاف المقالات مبعثرة هنا وهناك في انتظار النشر.

والسؤال الآن: هل يضم هذا الكتاب جميع مقالات الدكتور زكي مبارك بعنوان "الحديث ذو شجون".

الجواب: طبعًا لا... فقد كان زكي مبارك يكتب أسبوعيًا في الرسالة وعلى مدى سبع سنوات، في حين كان يحرر الصفحة الأدبية في البلاغ الأسبوعي ثم في جريدة البلاغ اليومية سنوات وسنوات وسنوات، ونشر آخر مقال في جريدة البلاغ لزكي مبارك بعد رحيله إلى عالم الخلود في يناير سنة ١٩٥٢.. ومن هنا كان من اليسير جمع محصول السنوات السبع وعلى هذا يمكن القول بأن هذا الكتاب النفيس يضم جميع المقالات الممتعة لأمير البيان الدكتور زكي مبارك والتي نشرها في مجلة الرسالة تحت عنوان "الحديث ذو شجون".

وقد عاون زكي مبارك مجلة الرسالة بالمجان فلم يأخذ منها درهمًا واحدًا وكان يقول[١]: "‘إن معاونة الرسالة فريضة على كل مصري لأنها صوت مصر في الشرق".

وكتابنا اليوم "الحديث ذو شجون" وثيقة نادرة ومهمة عبرت سنوات وأحداث كانت مادة خصبة لقلم أديب وناقد إنسان وفنان، وكاتب فذ كزكي مبارك ليصول ويجول، وزكي مبارك كاتب له رأي في الكتاب، وفي ذلك يقول زكي مبارك في كتابه: زكي مبارك ناقدًا"[٢].

---

(1) من مجلة الرسالة في العدد ٥٧٢ بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٩٤٤.

(2) "زكي مبارك ناقدا" كتاب جديد صدر للدكتور زكي مبارك عن دار الشعب في يونيو سنة ١٩٧٨ ونلتقي برأي زكي مبارك على صفحة ١٢١ من هذا الكتاب.

"لا أريد أن يكون الكاتب مصريًا، وإنما أريد أن يكون إنسانًا مصريًا، إنسانًا تعنيه الوشائج الإنسانية، ومصريًا تعنيه الأواصر المصرية، وأنتظر أن يكون الكاتب المنشود رجلاً قديرًا على تشريح العواطف والأحاسيس قبل أن يكون الكاتب المنشود قديرًا على توفيق الألفاظ والتعابير، وأرجو أن يفهم الكاتب أن لهم مهمة أسمى وأعظم من القناعة بإعجاب أهل هذا الجيل فالكاتب الحق لا يخاطب العصر الحاضر وحده وإنما يكسب رحيق قلمه في أذن الزمان وقلب الوجود.

الكاتب الحق هو الذي يعرض علينا أن ندرس عواطفنا لا أهواءنا في كل وقت ويشعرنا بأن حساب الضمير لا يقل قدسية عن أداء الصلوات.

الكاتب الحق هو الذي يروضنا على الاقتناع بأن نعمة القلم الصوال أعظم من جميع النعم وأنفس من جميع الذخائر وأشرف من جميع ألوان التكريم والتقييم والتشريف لأنه يمكن صاحبه من مناجاة الضمير والقلوب ويوحي إلى القارئ أنه قبس من السر المكنون في سرائر الغيوب.

الكاتب الحق هو الذي لا تصرفه الأكاذيب والأراجيف عما يجب عليه من الفناء في خدمة الواجب، هو الذي يستعذب الأذى في سبيل الشريعة الأدبية والأدب من الشرائع.

الكاتب هو الذي لا يرى أنه لا بأس عليه من الحرمان في أبشع جوانبه ونواحيه، ما دام يؤمن بأنه كاتب موهوب، لأنه يعرف أن نعمة الكتابة لا توهب لغير المصطفين من أذكياء الرجال، الكاتب الحق لا يستوحش زمانه إلا وهو متكلف لأنه يستفيد من الظلم أكثر مما يستفيد من العدل، ولأنه ينتفع بالفوضى أكثر مما ينتفع بالنظام، ولأن الإساءة من أهل زمانه قد تصيره رجلاً لا يعتمد على غير صاحب العزة والجبروت..

"الكاتب رجل مؤمن، ألا ترون كيف يحتقر ما بأيديكم يا ظالمي أنفسكم بعبادة المنافع المادية".

ويرى الأديب زكي مبارك أن الأدب هو سفيرنا في الشرق ولكن أي أدب؟[٣]

الأدب الرفيع الذي يشرح جميع الأهواء الإنسانية بحيث يشعر كل امرئ في الشرق أن له نصيبًا من العواطف التي يهتف بها أدباء وادي النيل.

---

(3) العدد ٣٦٦ من مجلة الرسالة.

ويقول زكي مبارك(٤):

ما هجوت أحدًا بالمعنى الحرفي لكلمة هجاء، ولكن النقد الأدبي يراه الناس من الهجاء بسبب فساد الذوق في هذا الزمان.

الحديث ذو شجون هو جهد سنوات، وقد أهداني عمي الغالي الأستاذ "مبارك عبد السلام مبارك" مجموعات كاملة من الرسالة والبلاغ ساعدتني كثيرًا في الوقوف على بعض تراث زكي مبارك وعاونني في نقل هذه الصفحات وتصحيحها حفيد زكي مبارك الطالب عمرو الشامي.

ثم أذهب برائعة زكي مبارك الجديدة "الحديث ذو شجون" هذا العمل الضخم الذي تعجز الجهود الخاصة عن طبعه ونشره. أذهب به إلى الأستاذ/ الشاعر صلاح عبد الصبور رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب فيفرح به كأنه التقى بزكي مبارك... ويرسل الكتاب فورًا إلى المطبعة فأتذكر أيام زكي مبارك والمعاناة التي عاشها زكي مبارك حتى تخرج كتبه إلى النور..

يقول زكي مبارك في الفصل الواحد والأربعين من كتابه "ليلى المريضة في العراق" قدمت كتاب "التصوف الإسلامي" إلى مطبعة دار الكتب وأنا أتوهم أني سأنجز طبعه في شهرين، ولكن مدير دار الكتب وهو سعادة الدكتور منصور فهمي أعلمني أن الإذن بطبعه قد يحتاج إلى أسابيع طوال، لأن اللجنة المختصة بمراجعة الكتب لا تجتمع إلا في أحايين قليلة بسبب عطلة الصيف. فقلت: هذا كتاب أقرته الجامعة المصرية... وكنت أنت من أعضاء لجنة الامتحان فكيف يحتاج إلى من ينظر فيه من جديد؟!

قال: لابد من مراعاة الشكليات.

وقد خرجت من مكتبه محزونًا لأن اطلعت على مرض جديد من أمراض الشرق: هو مراعاة الشكليات وحياتي ملئت بالأكدار لأني لم أكن أراعي الشكليات في بلاد الشكليات.

ترى.. هل هناك داع الآن للمزيد؟!

أظن أنها شكليات، وتكفي هذه الكلمات الرائعة لزكي مبارك: "يا مصر إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يلقون منك.. حسن الجزاء".

---

(4) البلاغ ١٩٤٩/١١/١١.

والآن مع حديث عذب وجريء... مع "الحديث ذو شجون بصحبة أمير البيان زكـــي مبارك.

كريمة زكي مبارك

١

حديث الإسكندرية ذو شجون (*)

"في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي أقامت جمعية

الشبان المسيحيين في الإسكندرية احتفالاً أسمته

"عيد الورد" ودعت إليه جماعة من أدباء القاهرة."

وفيما يلي خطبة الدكتور زكي مبارك في ذلك الاحتفال:

في هذا المساء أيها السادة يحتفل المسلمون بعيد المولد النبوي وتحتفلون بعيد الورد، فالمسلمون يحتفلون بعيد الحق، وأنتم تحتفلون بعيد الجمال، والصلة وثيقة جدًا بين الحق والجمال.

أما بعد فقد اقترح صدي عزيز أن تكون خطبتي في الإسكندرية حديثًا ذا شجون، فما الذي ينتظر ذلك الصديق من تلك الشجون؟

أيكون لاحظ أنني كثير الحديث عن الإسكندرية، وأن هواي بها وصل إلى حد الافتضاح؟

هو ذلك، ولكن هل يعرف لأي سبب تزداد شراهتي في انتهاب مفاتن الإسكندرية كلما سنحت الفرص في الصيف أو في الشتاء؟

السبب يرجع إلى أني دخلت الإسكندرية أول مرة وأنا حزين: دخلتها في قفص، دخلتها في سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية في أيام الثورة المصرية، دخلتها في الظلام، فلم أر من جمالها غير أطياف، ثم نقلني ذلك "السجن المتحرك" إلى مقر الاعتقال في ضاحية نائية، هي اليوم ملاعب صبابة ومدارج فنون، ومن يصدق أن ضاحية (سيدي بشر) كانت معتقلاً بسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال؟

قضيت في هذه المدينة شهورًا طوالاً بدون أن أشهد من جمالها غير ما يطوف بالأوهام والظنون، ولن أنسى أبدًا كيف كان هدير البحر يقرع سمعي وقلبي في غفوات الليل، ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لأرى الإسكندرية بعيني، ولأطوف في رحابها حيث أشاء بلا حارس ولا رقيب، ولأقول لنفسي: إن شهور الاعتقال قد ذهبت إلى غير معاد..

---

* العدد ٣٥٦ من مجلة الرسالة في ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٠.

هذا هو السبب في هيامي بالإسكندرية، ولن أشبع منها أبدًا فجنوني بها هو انتقام من الزمن الجائر الذي قضى بأن أراها أول مرة في ظروف أفظع وأشنع من أعمار الأحزان.

أحب أن أفرح في الإسكندرية، أحب أن أرى فيها أيام نعيم بعد أن رأيت فيها شهور بؤس، أحب أن أراها وتراني في بشاشة وأريحة وصفاء، فخذي بزمامي إلى حيث تشائين، يا مهد الشهامة والنضارة والجمال.

لك قلبي يا إسكندرية، فامنحيني من العطف ما أنسى به تلك الأيام السود، أيام الاعتقال، واصفحي عن، يا إسكندرية، إن افتضحت في هواك، فما يكون تلاقينا إلا بلسمًا لجرح عميق تعتادني آلامه من حين إلى حين...

أيها السادة:

لمدينتنا هذه تاريخ وتواريخ.

فيها وقعت أعظم فاجعة غرامية، وهي فاجعة صيرت الحب شريعة من الشرائع. ألم يكف أن يصل اسم كليوباترا إلى جميع البلاد وأن تؤلف فيه المئات من الأقاصيص؟

ومدينتنا هذه هي التي حفظت ذخائر الفلسفة اليونانية بعد غفوة العقل اليوناني.

ومدينتنا هذه هي التي عرفت الاستشهاد في سبيل المسيحية أعوام اضطهاد المسيحية.

ومدينتنا هذه هي التي استقبلت طلائع الجيش الإسلامي وجعلت للإسلام دولة على شاطئ المحيط، وقد كان بحرنا هذا أول بحر خفقت فوقه الراية الإسلامية، وسيظل إلى الأبد صلة الوصل بين حضارة الإسلام في الشرق وحضارة النصرانية في الغرب، ولن تكون شواطئه الشرقية إلا بأيدينا مهما بنى الاستعمار واستطال.

ومدينتنا هذه هي التي خلدت اسم من نسبت إليه. وما بناها الإسكندر كما يتوهم الجاهلون، وإنما بنى حيا من أحيائها، وسيأتي يوم لا يعرف فيه من الإسكندر إلا بوصل اسمه الفاني بهذه المدينة الباقية على الزمان.

وقد سميت باسم الإسكندرية مدن كثيرة في المشرق والمغرب، ولكنها ذهبت جميعًا، ولم يبق غير مدينتنا هذه لأنها مصرية ومصر عريقة في الخلود.

أيها السادة:

كتب أد أدبائكم يقول إن الإسكندرية تقتل الروح الأدبي، وهو أديب لا أسميه لئلا أعرض سمعته للإيذاء، فهل تروه على حق؟

اسمعوا ثم اسمعوا:

في مديننا هذه خلقت المعارضة السياسية بطريقة صحيحة لأول مرة بعد الثورة المصرية، وفي مدينتنا هذه وجد الناس من الشجاعة ما يقاومون به سعد زغلول وكان اسمه قد ملأ جميع الأرجاء.

وما يهمني أن أقول إن تلك المعارضة كانت بحق أو بغير حق، فلذلك حديث غير هذا الحديث، وإنما يهمني أن أقول إن أول معارضة ثارت في مصر بطريقة صريحة كانت المعارضة الموجهة إلى مشروع ملنر، وتلك المعارضة لم ترفع رأسها إلا في الإسكندرية بجريدتين سيذكرهما التاريخ وهما جريدة "الأمة" وجريدة "الأهالي".

فكيف جاز أن يسيطر سعد زغلول على سائر المدن المصرية ولا يجد مقاومة في غير هذه المدينة؟

لا تتهموني بالعصبية للحزب الوطني، فأنا في نفسي أعظم من كل عصبية وإن اعتمدت على الحق، وإنما يهمني أن أسجل محامد مدينتنا هذه فأقول إن سكانها الوطنيين يرجعون في الأغلب إلى عنصرين اثنين: العنصر الوافد عليها من الصعيد وهو عنصر معروف بالعناد، والعنصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الأندلس في أيدي الأسبان وهو عنصر معروف بقوة المراس، ومن أجل هذا ترون الإسكندرانيين الوطنيين قومًا غلاظ الأكباد يغضبون بسرعة ويستوحشون من الدخلاء كأهل المغرب وأهل الصعيد، أما سكان الإسكندرية من أهل الوجه البحري فهم أقلية. وهم مصدر اللطف الذي نلمحه في الإسكندرية من وقت إلى وقت في غيبة الغضب واللجاجة والعمد.

وهنا يسمح المقام بتسجيل خاطر غريب.

في هذه المدينة الثائرة بالفطرة وبوحي البحر نرى شواهد من النظام لا نجده في أية مدينة مصرية.

في هذه المدينة وضعت قواعد النظام للمعاهد الدينية، فأول معهد ديني نظامي هو المعهد الإسكندري، وقد أشرف عليه رجل صعيدي حاد الطبع، ولكنه في روحه مفطور على

النظام هو أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمد شاكر الذي كان يرضى ويغضب في لحظات، والذي كان يمثل قلق الإسكندرية، وحمية الصعيد، وسكينة القاهرة.

ومن الإسكندرية نقل النظام إلى سائر المعاهد الدينية، وهو نظام ثار عليه الأزهر ثورة عنيفة لن أنساها ما حييت لأنها عطلتني من الدروس أسابيع وأسابيع قبل أن تولد عرائس هذا الحفل البديع.

والمعهد الإسكندري منسي في هذه الأيام، ولكن الذين عاشوا قبل الحرب الماضية يذكرون كيف استطاع أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان أن يقيم به زعامة دينية يصل روحها إلى أكثر المدن المصرية.

وإن كشف غطاء التاريخ فستعرفون أن الشيخ اللبان كانت له يد في تأريث الثورة المصرية، فهو الذي جمع بين أعضاء الحزب الوطني وبين حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون، ومن تلك الحركة تهيأ الجو لحركات شهدتها سنة ١٩١٨ ثم استفحلت في سنة ١٩١٩ ثم كان ما كان إلى أن شهدتم سقوط الحماية وإعلان الاستقلال.

فما معنى هذا؟ معناه أن الإسكندرية التي ألقى فيها مصطفى كامل أعظم خطبة وطنية هي الإسكندرية التي سبقت إلى الثورة على الأحكام العرفية في أعقاب الحرب الماضية والتي سنت لأهل مصر شريعة النضال في سبيل الاستقلال.

وهل سمعتم بحديث الدكتور محجوب ثابت؟

بفضل الإسكندرية جاز أن يكون في مصر نائب عن العمال، وهذا شيء غريب في بلادنا ولم يقع أو مرة إلا في الإسكندرية، وله مدلول يشهد بأن مدينتنا هذه مدينة أصيلة في قوة الشخصية، ألم يكف أنها تحتفل الليلة بالمولد النبوي احتفالاً أفخم وأعظم من جميع الاحتفالات بسائر المدن المصرية؟ ألم يكف أنها أول مدينة في الشرق بعد القاهرة مع أن القاهرة تملك من السحر مات تعجز عنه جميع المدائن في الشرق؟

أيها السادة:

إن الحديث ذو شجون، فهل سمعتم أن الإسكندرية تسيطر في هذه الأيام على وزارة المعارف؟

قيل إن النقراشي إسكندري المولد، وقيل إن السنهوري إسكندري المولد وقيل إن شفيق غربال إسكندري المولد فهل هذا صحيح؟ إن صح هذا فانتظروا مني ثورة تزلزل رواسي الجبال، فما يرضيني أن يكون لمدينتكم كل هذا السلطان؟

ولكن ما الموجب للثورة وأنا أعرف مقاتل هؤلاء الرجال؟ فالنقراشي العنيد إسكندراني تأسره قوة المنطق، والسنهوري أضعف الضعفاء أمام القانون، وشفيق غربال يعجز كل العجز عن مقاومة الحق.

وأرجوكم باسم الذوق ألا تظنوا أنني أجامل رؤسائي، فما خلقت للمجـاملات، وإنمـا أدلكم على مقاتل هؤلاء الرجال وهذا ينفعكم أجزل النفع يوم يبدو لأحدكم أن يستفيد من قـوة الحق والمنطق والقانون.

ومدينتنا هذه التي وضعت قواعد النظام للتعليم الديني هي أول مدينة بعد القاهرة تقوم فيها جامعة مدنية في العصر الحديث فكان لها فضل السبق على المنـصورة وأسـيوط، مـع الاعتراف برشاقة المنصورة ورزانة أسيوط.

ولأول مرة في تاريخ مصر يحرم الوزراء بدل السفر حين ينتقلون لشأن من الشئون، وما حرم ذلك إلا بالنسبة إلى الإسكندرية، فهل كان ذلك لأن الإسـكندرية تـستهو الـوزراء فتحملهم على تكلف أسباب الانتقال؟ لا، إنما كان ذلك التحريم لأن الإقامـة فـي الإسـكندرية غنيمة من المغانم، ومن واجب الدولة أن تمن على الوزير بأن مصالحها هيأت لـه الفرصـة للإقامة يومًا أو يومين بالبلد الذي يفتن في الصيف ويشوق في الشتاء.

ومع أن الإسكندرية سبقت القاهرة إلى البلاء بقسوة اشتباك المنافع مع الأجانـب فقـد صح للإسكندرية أن تسبق القاهرة إلى استخلاص بعض المنافع من الأجانب، فـأول "تـرام" سيطرت عليه الحكومة هو ترام الإسكندرية، وفي ذلك ما فيه من قوة الشخصية.

والإسكندرية تفوق القاهرة في أشياء.

فالوافد على الإسكندرية من الجنوب تلقاه المنازل البيض الخفيفة الروح، وتلقاه نخلات بواسق تأنس برؤيتها العيون، أما الوافد على القاهرة من الشمال فتلقاه منازل مهدمـة تقـبض النفس، فمتى تفطن حكومتنا إلى هذه الظاهرة؟ ومتى تمد يدها لرفع تلك الخرائب وتحويلها إلى حدائق ورياض ليشعر الوافد على القاهرة بأنه مقبل على مدينة تفهم قيمة الجمال؟

آن للقاهرة أن تعرف أنها تسيء إلى سمعة مصر بالعفو عن تلك الخرائب التي تواجه من يقدم عليها من الشمال، آن للقاهرة أن تعرف أنه لا يجوز أن نلقى القادمين بغير الابتسام، وتلك الخرائب الشبراوية تدخل على أرواح القادمين أثقالاً من الانقباض البغيض.

أتذكرون المحطة القديمة، محطة الإسكندرية؟

لقد كان الداخل إليها يشعر بأنه يفد على أطلال، وقد عز ذلك على الملك فؤاد رحمه الله فأشار بأن يكون للإسكندرية محطة تناسب ماضيها الجليل وحاضرها الجميل.

ومحطة القاهرة هي رابع محطة في العالم من حيث الفخامة والرونق، فكيف يجوز أن ندخل إلى القاهرة في مضايق محفوفة بمنازل محرومة من نضرة النعيم؟

يجب أن تسارع الحكومة إلى تجميل مدخل القاهرة، فمن العيب أن تكون لها تلك الحواشي المطرزة بأكواخ البائسين.

ويوم يتم ذلك أستطيع أن أتحدث في موضوع جديد هو تغيير الشاطئ الذي تدخل فيه البواخر إلى "عروس الماء".

فالشاطئ الذي يستقبل البواخر مطرز بحواش يقذى مرآها العيون، ويجب تغييره أو تجميله في أقرب فرصة، فما يجوز أن يكون أول ما يقع عليه البصر عند دخول الإسكندرية شوارع ضيقة ومنازل دميمة وحوانيت ترجع في تكوينها إلى ما قبل التاريخ الجمال، الجمال، الجمال!!!

ليس الحديث عن الجمال هزلاً، وإنما هو جد صراح والأمم التي لا تقدر الجمال لا تستحق نعمة الوجود.

فهل خطر في بال من يثورون على التبرج في شواطئ الاستحمام أن من واجبهم أن يثوروا على الدمامة في مراسي السفائن؟

وهل فيهم من حدثته النفس بأن ينظر في البقعة الموحشة التي تستقبل الوافدين من ورمان ولندن وباريس وبرلين؟

أين المحافظ وأين مدير البلدية وإليهما يتوجه من يتألمون من التبرج في الشواطئ؟!

هل عند هذين الرجلين علم بما نعانيه حين ندخل مدينتنا هذه بعد قضاء شهور أو أعوام في ديار الغرب، الذي يرى الزينة مطلوبة في جميع المواطن وجميع الأشياء؟

قلتم في الدعوة إلى "عيد الورد" إن الإسكندرية لها حق على الجميع فمن حقي عليكم وعليها أن تستمعوا وتسمع هذا القول وأنا أدعو إلى تغيير أو تجميل موقع الميناء، فأين من يسمع وأين من يجيب؟

الحديث ذو شجون، أليس كذلك، فما الذي – يمنع من القول بأن مدينتكم أخلفت الظن بها كل الإخلاف؟

هل تصدقون أن مدينتكم هذه كان لها صوت صحفي مسموع في أيام مصطفى كـــالم وأيام سعد زغلول؟ فأين صوتها اليوم وهي صدى لأصوات القاهرة؟

أنا أعرف أن الساعة الثامنة صباحًا والساعة السابعة مساء موعدان لقـــدوم الجرائـــد والمحلات وأحس لوعة الشوق إلى هاتين الساعتين لأنهما موعد اتصال الإسكندرية بالقاهرة، ولكني أتوجع كلما تذكرت أن الحكومة المصرية التي تعسكر بالإسكندرية في الصيف لا تسمع صدى أصواتها إلا بفضل جرائد القاهرة، فمتى يستيقظ النائمون من أهل هذا الثغر الجميـــل؟ أيها السادة.

أتكر حديث المؤاخذات إلى حين، وألتفت إلى حديث القلب فأقول: سيأتي يوم قريـــب يجتمع فيه زعماء مصر حو شاطئ بحر العرب الذي سمى خطأ بحر الـــروم، وســـيقام فـــي الإسكندرية مؤتمر يؤلف بين أهواء الرجال ويغسل الضغائن ويدفن الحقود.

ويومئذ نقيم "عيد الورد" وفي ليلة الاحتفال بعيد "المولد النبوي" ويومئذ نطمئن إلى أن بحرنا يسمى "البحر الأبيض المتوسط" لأنه جمع بين بياض القلوب، وتوسط في جمع أهـــواء النفوس.

ويومئذ ننسى أن الهيام بشواطئ الإسكندرية يجرح رجال الدين، لأننا سنكون يومئـــذ ملائكة رفع الله عنهم إصر التكليف، المستقبل لنا. بإذن الله صاحب العزة والجبروت.

وهذا البحر لنا، بإذن فاطر الصباحة والملاحة والجمال.

ومصر لنا، بفضل سواعدنا وعزائمنا وقلوبنا.

فمن أراد بناء السوء فلينتظر غضبات الأسود عند جياع الأشبال.

نحن حفظنا مصر للعروبة والإسلام ثلاثة عشر قرنًا، وســـنحفظ لأبنائنـــا وأحفادنـــا وأسباطنا هذا التراث الغالي والله مع المجاهدين.

٢

الصداقة الروحية.... (*)

كانت قسوة الشواغل قضت بأن أحرم أنس الحديث مع قراء "الرسالة" نحو شهرين وهي شواغل متصلة بخدمة اللغة العربية في آفاق لا يسايرنا فيها القراء لأنها متصلة بحياة التعليم وهي حياة لا ينشر من أخبارها شيء إلا بعد أن يستوثق الباحث من أنه وصل فيها إلى آراء تستحق التسجيل بطريقة علنية، وذلك لا يتيسر إلا بالجهاد العنيف في الأعوام الطوال، كالذي تيسر في الأبحاث التعليمية التي نشرتها في الجزء الثالث من كتاب "ليلى المريضة في العراق" وفي كتاب "البدائع" وكتاب "وحي بغداد".

وأنا بهذا الكلام أعتذر عما قيل من أنني جنحت إلى الراحة في الأسابيع الماضية، فما كان من ذلك شيء، وإنما حرصت على تأدية واجباتي الرسمية تأدية ترفع عن صدري كرب الغيظ من أن يكون في الزملاء من هو أحرص مني على تأدية الواجب، فقد قلت مرة على صفحات "الرسالة" أن في وزارة المعارف رجالاً يجري في خواطرهم أنهم ليسوا موظفين، وإنما يدبرون ملكهم الخاص، وأنا من هؤلاء مكروب مغيظ، ومع ذلك أتمنى أن يكثر الله من أمثالهم في الدولة المصرية، والفرص أمامي لأسبقهم في ميادين الكفاح الصادق حين أشاء.

انتهى العام الدراسي بخير، ولم تبق إلا أعمال خفيفة لا تستنفذ الوقت:

فما عسى أن أصنع؟

هل أذهب لقضاء الصيف في باريس؟

وكيف وقد انقطع بيني وبينها الطريق؟

هل أمضي لقضاء الصيف في الإسكندرية؟

وكيف وقد انفضت الملاعب حول الشواطئ وضاعت الفرصة على مواعظ الشيخ أبي العيون، وما أسخف الحياة التي تستقيم استقامة مطلقة فلا يثور عليها واعظ، ولا يتطاول في تثريبها عاذل، ولا يشفى في تعقبها رقيب!

هل أذهب لقضاء الصيف في سنتريس؟

---

* العدد ٣٦٥ من مجلة الرسالة بتاريخ أول يوليو سنة ١٩٤٠.

وكيف وهي تضيق عنين وأخشى أن أكدر صفو أهلها بأحاديثي عن معضلات الحياة الدولية؟ وهل تتسع الحياة في الريف لرجل يريد أن يشهد أعنف قلقلة من قلقلات التاريخ؟

لم يبق إلا المقام في القاهرة فأقضي صدر النهار في الاستفادة من خبرة من ألقاهم في وزارة المعارف، ثم أقضي بقايا الوقت في تحبير الكلمات التي ألقى بها القراء من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، في الجرائد والمجلات.

والحق أننا من الفكر في كرب، فالحوادث التي نعانيها في هذه الأيام لا تكفي لتغذية مطامعنا الفكرية، فنحن نفزع إلى الأدب لنملأ به فراغ الأرواح والقلوب والأذواق، ومن هنا تفهمون كيف أتفق في أحيان كثيرة أن تقام الحفلات لذكريات الأدباء والمفكرين في ميادين القتال.

لا سبيل إلى تخفيف مكاره هذه الأيام "البيض" إلا بالأنس إلى الصداقة الروحية، والصداقة التي يعقدها الأدب بين الكاتب والقارئ، وهي أثمن ذخائر الوجود.

وفي ظلال هذا الأمل الجميل أقضي هجير هذا الصيف، فأحادث قرائي، وقد رفع بيني وبينهم التكليف، فقد ضقت ذرعًا بما في الدنيا من قيود، واشتقت إلى تنسم هواء الحرية بين صرير القلم وزئير الروح.

الطلبة والجاموس:

كنت نشرت مقالاً في المقطم موضوعه: "التصوف في الوطنية" سردت فيه بعض الأسباب التي أحب من أجلها وطني، ومن تلك الأسباب أن أرض مصر تصلح للزراعة أربع مرات في العام الواحد، فكتب إلي حضرة "م. ع. ف" خطابًا ينكر فيه أن تكون مصر كما وصفت، ويؤكد أن أهل مصر لا يعرفون غير سوء الحال، وأن في مصر آلافًا من الأعيان حكم عليهم بالسجن لعجزهم عن سداد المال.

والظاهر من خطاب هذا السيد أنه يتعقب أعمال الحكومة، فقد ذكر أشياء تشهد بأنه يساير خطوات الحكومة في جميع الميادين، ويتناولها بالثناء والملام على حسب الظروف!

وأقول بصراحة إن الأمة التي تنتظر من الحكومة كل شيء وتطالبهم بكل شيء هي أمة في دور الطفولة، والطفل يعتقد أن أباه على كل شيء قدير، وأقول أيضًا أنه ليس من المعقول أن يكون في مصر آلاف من الأعيان حكم عليهم بالسجن للعجز عن سداد الضرائب، وإذا صح ذلك فهو شاهد على أن الأعيان في مصر لا يصلحون لتدبير ما يملكون من الأموال والأطيان.

وهذا السيد له منزلة في الصعيد، ولم أصرح باسمه لا خوفًا عليه مـن النقـد الـذي سأسوقه إليه بلا ترفق. فهو يرى من الإسراف أن يكون في الميزانية مال مرصـود لجـسر شبرا وجسر سمنود، وهو ينكر أن يكون للأوبرا وحمام السباحة في أسيوط نصيب من أموال الميزانية، وهو في النهاية يعجب من أن تنفق الدولة ثلاثين ألفًا من الجنيهات لتحـسين نـسل الجاموس مع أن في طلبة الجامعة من عجز عن دفع المصروفات!

تحسين نسل الجاموس؟

يا سلام؟ يا سلام؟

كيف يليق بحكومة رشيدة أن تفكر في تحسين نسل الجاموس مع أنها تعرف أن بعض طلبة الجامعة عجزوا عن دفع المصروفات الدراسية؟؟

ذلك منطق هذا السيد الذي يشغل مكانًا مرموقًا في الصعيد؟ وعذر هذا السيد أنه قـرأ في مجلة "آخر ساعة" كلمة جرت مجرى الدعابة، فظن أن من العيب أن يهتم وزير الزراعـة بتحسين نسل الجاموس، وهو جاموس.

هو حقيقة جاموس يرعى البرسيم ويأكل الفول ويشطح وينطح بلا فهـم ولا تمييـز، ولكن هذا الجاموس الأعجم هو من صنع الثروة المصرية، والاهتمام به لا يقل خطـرًا عـن الاهتمام بالقطن والقمح والعنب والتين والبطيخ.

فكيف يجوز لرجل أن يعد الاهتمام بتحسين نسل الجاموس عيبًا من عيوب الحكومـة، إلا أن يكون هذا الرجل من الصالحين للسجن بسبب العجز عن تسديد الضرائب؟

المقتل الخطير لأهل مصر هو الغرام بالنكتة، ومن هنا جـاز أن ينتهـزوا الفرصـة فيعيبوا على حكومتهم أن تهتم بتحسين نسل الجاموس.

ويقول هذا السيد أن اشتغالي بالأدب صرفني عن مواجهة الواقع وأقول إنه لو اشتغل بالأدب كما اشتغلت لقرأ في كتاب البيان والتبيين كلامًا معناه أن أحد العرب قال: لو كان لـي ألف بعير فيها بعير واحد أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره؟

ومعنى ذلك أن الاهتمام بالبهائم والأنعام لا يغض من أقدار الرجال، وإنما هو دليـل على العناية بأصول الاقتصاد.

أيها الغافلون من أهل هذه البلاد.

راجعوا وزارة الصناعة والتجارة تخبركم عما تستهلك في كل عـام مـن الـواردات المصنوعة من الألبان، وعندئذ تعرفون أنه ليس من العيب أن نهتم بتحسين نسل الجاموس.

اللهم ارزقني جاموسة أو جاموستين لأنسى مرارة الإفطار على الشاي الأسود في كل صباح.

وأنت أيها الجاموس هل تحفظ هذا الجميل فتذكر أني دافعت عنك في مجلة الرسالة الغراء؟

لقد ضاع الجميل عند الحيوان الناطق، فهل تحفظه أنت يا جاموس؟؟ وكيف نطالبك بحفظ الجميل، وما حفظنا لك الجميل؟

كانت فطرة العربي في الصحراء ألطف وأصدق، فقد نظم في ناقته أعظم القصائد، أما المصري فقد ظلم جاموسته أقبح الظلم ولم يذكرها بغير السخرية والاستهزاء.

فهل تكون للبداوة تلك المحاسن وتكون للحضارة هذه العيوب؟

كان الفراعنة أعرف الناس بأصول المنافع فعدوا البقرة من المعبودات لأنهم رأوها ن صورة الحنان ولأنهم عرفوا ما يصدر عنها من الخيرات والجاموسة أغزر نفعًا من البقرة، ومع ذلك صح لأدبائنا أن يسخروا من الوزير الذي اهتم بصحتها الغالية؟

ولكن لا بأس فنحن في زمن تغلب فيه السخرية من المنافع، وهو زمن مقلوب الأوضاع، ولولا ذلك لرُسمت الجاموسة بجانب الفلاح على ورق "بنكنوت".

لبن الحمير:

ومن جناية النكتة على أهل مصر نفرتهم من شرب لبن الحمير، مع أنه بشهادة الطبيب أطيب أنواع الألبان، وهو في أمان من الجراثيم التي يتعرض لها لبن البقر والجاموس.

ومن المؤكد أن هذه الكلمة ستفوز بطوائف من النكت حين تظهر في مجلة الرسالة، كما ظهرت الكلمة التي نشرتها عن فضائل الحمير في كتاب "ذكريات باريس".

والمهم عندي أن يعرف المصريون خيرات بلادهم، وأن يذكروا أن الحمير كانت ولا تزال من أطايب الثروة المصرية وإليها يرجع الفضل في خدمة الفلاح الذي يذرفون من أجله دموع التماسيح؟

وقد ورد التنويه بالحمار المصري في كتاب الأغاني، وهو أصبر من الحمار الحساوي، المنسوب إلى الحسا من بلاد البحرين، وهذه فائدة قد ينكرها بعض من يحفظون الجميل.

ولا مؤاخذة يا أرباب الذوق المصقول من أعداء الحيوان.

معركة في غير ميدان:

دهش الناس للمعركة الحامية التي ثارت فوق صفحات "الأهرام" بين الصديقين أحمد الصاوي وتوفيق الحكيم حول الفكر والحرب، وقد وقعت في تلك المعركة ألفاظ غلاظ لا يصوبها صديق إلى صديق.

وخلاصة رأي الصاوي أن زمن الشعر قد ولى وفات ولم تبق إلا دولة الطيارات والدبابات.

ويقول الحكيم إن الأمم القوية من الوجهة الحربية هي الأمم القوية من الوجهة الفكرية.

والرأيان يلتقيان بكل رفق، فما الواجب للتراشق بالألفاظ الغلاظ؟

وقد فصل الأستاذ سعد اللبان في هذه القضية حين قال: أولئك قوم يتجادلون في البديهيات.

ولعل الأستاذ توفيق الحكيم يعترف اليوم أني هديته إلى أصل الفكرة حين حاورته في جريدة الأهرام، فقد كان يتوهم أن الفكر منفصل عن الحرب كل الانفصال.

لعله يذكر إني قلت وأنا أحاوره:

"إن الحرب الدموية ترج الأذهان والعقول، ولكنها في الأصل من صنيع الأذهان والعقول، والعالم غير مقبل على الخراب – كما يقول حين نقرأ أخبار الحرب- وإنما هو مقبل على يقظة روحية وعقلية واقتصادية سيعرف مداها من يشهد تطور الوجود والمستقبل القريب، وهو مستقبل نشهد تباشيره منذ اليوم برغم ما نعاني من الضجر والاكتئاب كلما طالعنا أخبار التدمير والتخريب في الصبح والظهر والمساء.

الإنسانية اليوم في حومة هائلة من يقظة الفكر والرأي، فليس القتال نزاعًا بين جنود وجنود، وإنما هو صراع بين آراء وآراء، كما كان في العصور الخوالي نزاعًا بين دين ودين، وما تغيرت المعاني وإن تغيرت الأشكال".

ذلك ما قلته في الحادي والعشرين من شهر مايو، وهو أصدق من آراء الصاوي والحكيم، على ردهما القديم ألف تحية وألف سلام.

كنت أظنهما صديقين، ثم عرفت –مع الأسف- أنهما من إخوان الزمان:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

حمار الحكيم:

وفي هجوم الصاوي على الحكيم وردت عبارات مقتبسة من كتاب "حمار الحكيم" وهي عبارات يقول فيها المؤلف إن الوقت عنده ليس من ذهب، وإنما هو من تراب، ويقول: إنه يخاف من العفاريت.

وأقول: إن الصاوي لم يدرك ما في هذه الكلمات من السخرية، السخرية من المجتمع الذي نرى صوره في بعض البيئات وهي سخرية رأينا صداها في مقال نشرة سعادة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بك في مجلة الصاوي.

وقد آن لبني آدم من أهل البلاد أن يفهموا أن المؤلف لا يسأل عما يرد في كلامه من العبارات التي يديرها حول نفسه ليتمكن من السخرية بالمجتمع فقد آذتني جريدة لا أسميها في بلد لا أسميه، لأني قلت في كتاب "ليلى المريضة في العراق".

"أنا رجل لئيم، ويجب أن أستفيد من فساد المجتمع".

فقد قالت تلك الجريدة: كيف يجوز لحكومة رشيدة أن تعتمد على هذا الرجل في تثقيف الشبان، وهو يعترف بأنه لئيم يستفيد من فساد المجتمع؟

وإذا جاز لصديقنا الصاوي أن يؤول كلام صديقه الحكيم بلا فهم لغرضه الصحيح، فقد جاز لي أن أصفح عن ذنوب الجاهلين ممن فاتهم سر التأليف يوم قرءوا كتاب "ليلى المريضة في العراق".

الرفيق قبل الطريق:

تلك الحكمة عربية أوحتها ظروف الحياة البدوية، فقد كانت المسالك وعرة، ولم يكن للمسافر بد من رفيق يعينه على متاعب الطريق.

وطريقنا في هذا العهد هو الكتابة والتأليف، والرفيق هو رئيس التحرير، أو القارئ، أو الرقيب في الأيام التي تفرض فيها الرقابة على الكتابة والتأليف.

ولي في هذه النواحي تجارب، وأستطيع أن أقول إن أعظم من عرفت من رؤساء التحرير هم عبد القادر حمزة وخليل ثابت وأميل زيدان ومحمود أبو الفتوح وأحمد حسن الزيات، فهؤلاء نشروا لي مقالات لم يكن يجوز أن تنشر لولا إيمانهم بقيمة الحرية الفكرية.

ولم أكن أعرف الرقيب الذي كنت اصطدم به يوم كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ فقد كان يفصل بيني وبينه فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفاني بك، طيب الله ثراه.

أما الرقيب في هذه الأيام فهو الأستاذ محمود عزمي، وأستطيع أن أقول إنـــي كنـــت أملك نشر ما أشاء دون تهيب ولا تخوف، لأني كنت أملك الاحتكام إليه حين أريد.

وفي الأستاذ محمود عزمي عيب فظيع هو الخضوع للحرية الفكريـــة، وهـــو عيـــب جميل، أكثر الله من أمثاله بين الرقباء.

بقي الرقيب الأعظم وهو القارئ

وأستطيع أن أقول إن رقابة القارئ لم تكن رفيقة في أكثر الأحايين، فقد كان يفهم عني غير ما أريد، وكان يراني بعين الحقد والمقت في بعض الأحيان.

ومع ذلك بقيت صداقتي للقارئ كما كانت، فلم أتحول ولم أتبدل، ولم أســتبح الريـــاء لأظفر منه بالإعجاب، لأني أعتقد أن الكاتب الذي يتلمس المواقع من هو القارئ ليس بكاتـــب، وإنما هو مأجور، والكاتب المأجور لا يصلح لشيء ولو استمد بيانه من وحي السماء.

الكاتب الحق هو الذي لا يخاف غضبك ولا يرجو رضاك.

الكاتب الحق هو الطبيب الذي لا ينزعج من صراخ المريض.

الكاتب الحق هو الذي يفزع إلى القلم والقرطاس كما يفزع الجائع إلى الطعام والظامئ إلى الشراب.

الكاتب الحق هو النهر الذي يحمله الطغيان على الهدير، أو الأسد الذي يحمله الغضب على الزئير.

الكاتب الحق لا يعرف قراءه أبدًا، وإنما يعرف أنه ينفس عن صدره بـــالتعبير، كمـــا ينفس الوجود عن صدره بسعير الحروب.

فمن كان يظن من القراء أننا اشتقنا إليه فهو مخطئ، فما بنا شوق إلـــى أحـــد، إلا أن تصلح الدنيا فترجع الأنوار إلى بالميش في باريس، وشارع فؤاد في القاهرة، وشارع رشيد في بغداد.

أفي الحق أن الدنيا ردتني إلى هذا الحد من القسوة والعنف؟

أفي الحق أني أمسيت لا أهتم بعواطف قرائي؟

هو ذلك، فمنذ أسابيع وأنا جاثم بالدار التي بنيتها على حدود الصحراء.

وعن الرمال التي يلهبها القيظ، يتحرك القلم الذي يلهبه الغيظ، فإن عشت وعشتم إلـى عودة السلام فسيكون لي معكم حديث غير هذا الحديث، ألم تسمعوا أني كنت شاعر الصباحة والجمال؟ أل تلوموني على عنف الهيام بالعيون والقدود؟

ذوقوا بأس الحرب يا عشاق الحرب، ذوقوا بأس البلاء يا عشاق البلاء، فلن أنسى أنكم سخرتم مني حين كنت أتغنى بالجمال في أيام السلام؟

متى تعود أيامي وأيامكم؟ متى تعود؟ متى تعود؟

عشنا وشفنا:

شهدت حربين في حياتي، الحرب الماضية والحرب الحاضرة، فمن كان يعجب من أني قضيت حياتي في حرب فليعرف أني أخذت الوقود الأدبي من سعير هاتين الحربين، ولا يملك الفرار من حوادث زمانه غير المزود بالغفلة والجمود، وما كنت من الغافلين ولا الجامدين.

في الحرب الماضية كنت طالبًا بالجامعة المصرية، وكانت أملاكي بالقاهرة لا تزيد عن مكتبة صغيرة سارعت بنقلها إلى سنتريس ورجعت لأشاهد تلك القلقلة التاريخية.

وفي هذه الحرب، الحرب التي يقال إنها قد تؤذي مصر بعض الإيذاء صار لي في مصر الجديدة منافع هي المكتبة التي لا يمكن نقلها إلى سنتريس، فأنا معها إلى أن يقضي القدر بما يشاء وأقسى ما أعانيه هو الفزع الذي يقاسيه جيراني حين تولول صفارة الإنذار بغارة جوية في أعقاب الليل، فهم ينزعجون ويتواصون بالنزول إلى السراديب ليأمنوا شر الويل، فأنزعج لانزعاجهم لحظة ثم أسلم جفوني إلى النوم العميق.

الحياة ليست غالية جدًا، يا جيراني، فلا تخافوا ولا تجزعوا فأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في أعماق السراديب.

وما قيمة الحياة وهي دنيا بحق؟

ألم نشهد فيها غدر الصديق، بالصديق، ونوم الحليف عن نصر الحليف؟ لن أقبل النزول إلى السرداب ولو سقطت السماء فوق الأرض! ولو كان أبنائي في مثل عزيمتي لأبيت عليهم الرحيل إلى مرابع السلامة في سنتريس.

وما الذي فاتنا من نعيم الحياة أو بؤس الحياة حتى نحرص عليه؟

أنا باق في داري على حدود الصحراء إلى أن ينفد زاد الموت، والمستميت لا يموت.

٣

أوهام أدبية تخلقها الحوادث:(*)

للحوادث العنيفة تأثير شديد في تلوين الحقائق والأباطيل، وفي خلق الآراء والأضاليل والمرء حين تصدمه الحوادث يتلفت ليرى كيف صار إلى ما صار إليه من بؤس وشقاء وكيف استهدف للمعاطب وتعرض للازدراء، وذلك هو الفرق بين اليقظ والغافل من الرجال وحكاية "السمكات الثلاث" في كتاب "كليل ودمنة" تؤيد هذا الرأي إن كان يفتقر إلى تأييد.

أقول هذا وقد قرأت في هذه الأيام كلمات نفيسة لجماعة من أدبائنا في تعليل الهزيمة التي منيت بها فرنسا وهم يكادون يجمعون على أن تلك الهزيمة ترجع إلى ما درج عليه الفرنسيون بعد انتصارهم في الحرب الماضية من إيثار الدعة والسلامة والإقبال على الخلاعة والمجون.

والأدباء الذين قالوا هذه الكلمات لم يقولوها إلا لغرض شريف، هو تحذير أمتهم من عواقب البطالة والفراغ ومآثر الترف واللين.

والأديب ينتهز الفرص ليضرب لأمته الأمثال. ولكن تلك الكلمات النفسية وقعت فيها أغلاط تستوجب التصحيح.

فهل من الحق أن فرنسا كانت فسقت عن أوامر الأخلاق؟

هل من الحق أن باريس لم تكن إلا ملاعب صبابة ومدارج فنون؟

هل من الحق أن الأندية الفرنسية لم تكن تعرف غير قول السوء ولغو الحديث؟

تلك أوهام يقول بها من لم يعش في فرنسا زمنا يسمح بالتعرف إلى أخلاق هؤلاء الناس ليدرك المستور من شمائلهم الصحاح.

تلك أوهام يقول بها من يعرف فرنسا بالسماع لا بالعيان.

ولو كانت فرنسا كما وصفوا لكان من المستحيل أن تملك السيرة الأدبية والحربية في تلك الأزمان الطوال التي سبقت محنتها الدامية في هذه الأيام السود...

---

* العدد ٣٦٦ من مجلة ٨ يوليو ١٩٤٠.

إن الخلق الفرنسي نموذج للخلق الصحيح فالرجل الفرنسي يلعب في حين ويجد في أحيان، وهو في لعبه وجده مثال للرجل الذي تنأى به رجولته عن اصطناع أخلاق الضعفاء الذين يردون سلامتهم في التستر والتصنع والرياء.

والأدب الفرنسي هو في جوهره صورة صحيحة للأدب الإنساني لأنه نزع إلى الصدق في تصوير ما تخضع له الإنسانية من قوة وضعف ويقين وارتياب وهدى وضلال.

وإذا اندحرت فرنسا السياسية فلن تتدحر فرنسا الأدبية.

ولو صدقت فرنسا في السياسة كما صدقت في الأدب لكانت هزيمتها من المستحيلات وقد قلت في مقال قدمته لمجلة الهلال أني أنتظر اليوم الذي تسمح فيه الظروف بأن أعلل هزيمة فرنسا السياسية.

فهل أجد اليوم منفذا لكلمة وجيزة بعد أن استباح المسيو بيتان ما استباح في تعليل تلك الهزيمة النكراء..؟

إن المسيو بيتان رد أسباب الهزيمة إلى ما تخلق به الشعب الفرنسي بعد الانتصار في الحرب الماضية من إيثار المرح على التضحية وتقديم الحقوق على الواجبات.

فما الذي يمنع من تصحيح رأي المسيو بيتان؟

ما الذي يمنع من القول بأن ساسة فرنسا كانوا أضعف من ساسة الألمان؟

إن السياسي الألماني قدم لجنوده قضية تستوجب الاستقتال فهل قدم السياسي الفرنسي لجنوده قضية تستوجب الاستقتال؟؟

قال السياسي الألماني لجنوده: أنتم جياع ويجب أن تقاتلوا لتجدوا القوت أما السياسي الفرنسي فقد قال لجنوده:

هلموا للدفاع عن الشعوب الصغيرة، وكذلك سبت الحرب بين جنديين أحدهما جائع موتور، والثاني شبعان ريان بتكلف الغيرة على مبدأ لا يفقه ما يعبر عنه من ألفاظ وحروف فإلى متى تؤذون شعوبكم بلا موجب أيها الساسة "المحنكون".

لو أعلن ساسة فرنسا أنهم يدافعون عن بلادهم ومستعمراتهم لاستبسل الجندي الفرنسي واستمات لأنه عندئذ يعرف أنه يدافع عن الشرف والقوت؟؟

ولكنهم ساقوه إلى الميادين لاعتبارات مثالية لا تثير النخوة في أشجع الجنود.

وقد قال الفرنسيون ما قالوا في عذر ملك البلجيك وفات ساستهم أن الوقــوف علــى الحدود كان أنفع وأمنع ولو فعلوا ذلك لكان من الجائز أن يتغير مصير الحرب. ولكــان مــن المحقق أن يستبقوا من الجيش قوة يدفعون بها شر العدو المحتاج.

ولكن من الذي يملك القدرة على توجيه آراء الساسة والزعماء؟

أما بعد فلهذا الحديث حواش وذيول سنعرض لها بالتفصيل بعد حين.

والمهم هو تذكير بعض الأدباء بحق الأدب، فما نريد أن يخضع الأدب لأي اعتبار من الاعتبارات وإن كان من واجبه أن يتعرض لجميع الشئون.

الأدب لا يزدهر إلا إذا تحرر من جميع القيود.

الأدب هو الترجمان الصادق للغرائز الإنسانية، ولا يجوز أن نطالب الأديب بأن يكون عبدًا لزمانه وأهل زمانه، وإنما يجب أن يسيطر الأديب على الزمان وأهــل الزمــان ليــؤدي رسالته في قوة وصراحة وإخلاص.

الأديب أقوى من الناس، من الزمان وأنه لا يصور غاية زمنيــة أو محليــة، وإنمــا يتسامى إلى غايات تشرف على طوائف الإنسانية ومراحل التاريخ.

ليس الأديب مسمارًا مأجورًا يترنم بما توحي أحوالكم من إطراب وإشباع وإنما هــو قيثارة سماوية يحلق لها أن تصدح بغير ما تشتهون في أيام الفرح وما تبتعون في أيام البكاء، وإن كانت أخوته لكم تفرض عليه أن يكون سنادًا لآمالكم في جميع الأحايين.

ألحان الأدب كأزهار الربيع.

فإن كنتم سمعتم أن أزاهير التفاح في نورمنديا تلتفت إلــى المعــارك الدمويــة بــين الفرنسيين والألمان فانظروا أن يكف الأدباء عن التغريد فوق أفنــان الوجــود، لأن دنيــاكم عجزت عن تذوق المرح الذي يتموج في أعطاف الوجود.

أيها الناس:

أسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا:

الأديب يسيطر على الحوادث ويرفض الاستعباد للحوادث والأديب أشجع منكم جميعًا لأنه لا يبالي متى يموت، وهل نسيتم أن الأديب هو الذي صنع بقلبه ولسانه وقلمــه حــوادث التاريخ؟

ستذكرون يومًا أن أعظم المعارك التي قامت أو كُسبت بسبب لفتة ذوقية صدرت عن شاعر مجيد أو كاتب بليغ أو خطيب صداح.

وستعرفون يومًا أن ضمائر الأمن لم تخلقها غير أفكار الأدباء الموهوبين.

الأديب ليس جنديًا يتلقى الأوامر وإنما هو بطل يطاع فليكف قوم عن التنديد بأهل الأدب... ولتذكروا أنهم لم يكونوا إلا حاكين لأقوال أهل الأدب في الوطنية ولولا أقلامنا لعجز أولئك اللائمون عن صياغة عبارات الملام.

أسرار الجزع في باريس:

وبهذه المناسبة أذكر أن في أهل مصر من شكت جفونهم قسوة الأرق حين سمعوا بسقوط باريس بين أيدي الألمان.

فبأي حق جزع الجازعون على باريس المدينة الوحيدة التي يموت فيها الرجل من لجوع حين يعوزه القوت؟

جزع المصريون على باريس وليس لهم فيها أعمام ولا أخوال لأنهم سمعوا أنها كانت مثابة للحرية الفكرية والروحية والذوقية.

جزعوا على مدينة سمعوا أن أهلها في أمان من أوزار النفاق.

جزعوا على المدينة التي سمعوا أن الرجل قدي يعيش فيها طوال عمره بدون أن يتعرض للهوان ما دام معتصمًا بالأدب والحياء.

وتلك معان لم يسمع عنها الناس في غير باريس.

وإلا ففي أية أرض يستطيع الرجل أن يعيش وهو في أمان من أهل اللغو والفضول؟ في أية أرض يستطيع الرجل أن يعيش وهو من أدبه في حصن حصين؟

باريس هي البلد الوحيد الذي لا يجازى فيه الرجل بغير ما تجترح يداه...

الرجل المهذب يعيش ويموت في باريس بدون أن تتعرض سمعته للزور والبهتان.

فأين نشأت هذه المعاني؟

أليست من ثمرات الأدب الرفيع؟

باريس هي البلد الوحيد الذي يتجاور فيه حزب الله وحزب الشيطان بلا بغي ولا عدوان.

باريس هي البدل الذي لا يتقدم فيه رجل بغير حق إلا في النادر القليل.

في باريس يقوم الملعب بجانب الكنيسة ثم يلتقي اللاعبون والمصلون وهـم يتبـادلون تحيات المروءة والاحترام فإن كانت باريس ضيمت بجانية الأدب والذوق، فهي ضحية كريهة للأدب والذوق.

وهل يكون الانتصار في الغزو دلالة باقية على شرف المغيرين.

إن كان ذلك فهل عد التاريخ من الشرف أن ينتصر التتار على بغداد.

وهل عد التاريخ من الشرف أن ينتصر أعداء العرب على إطفـاء نـور الحـضارة الإسلامية بالأندلس؟

وهل عد التاريخ من الشرف أن ينجح نيرون في إحراق ذخائر الرومان؟

المعاني الروحية والأدبية هي الباقيات على وجه التاريخ فمن كان يرى الفـضل كـل الفضل في أن ينتصر جيش على جيش بقوة النار والحديد فستريه الأيام عواقب ما رأى فكرة المنخوب والزمن كفيل برفع الغشاوة عن بعض القلوب.

الأدب هو سفيرنا في الشرق:

ويتحدث قوم عن صوت مصر في الشرق، وأقول أن الأدب هو سفيرنا فـي الـشرق ولكن أي أدب؟ هو الأدب الرفيع الذي يشرح جميع الأهواء الإنسانية بحيث يشعر كل امـرئ في الشرق أن له نصيبًا من العواطف التي يهتف بها أدباء وادي النيل.

ولسست بهذا القول أعادي أنصار الفكرة المصرية الذين يرون أن تكون مصر بمثابة أفكارهم فيما يظنون ويكتبون فمن حق المصري أن يجعل مصل قبلة هواه. ولكن من واجبـه وهو أديب أن يذكر أنه أديب والأديب أعظم وأرفع من أن يقصر هواه على الشئون المحلية.

الأديب المصري مسئول عن الطب لإدواء من وثقوا به من أهـل الـشرق الأديـب المصري مطالب بأن يكوون صوته لجميع آمال الشرق ولجميع آمال الشرق.

الأديب المصري هو الأسى لجروح الشرق وهو القيثارة التي تصدح بأفراح الـشرق وهذا واجب كفاية كما يقول الفقهاء، فلست أطالب كل أديب بأن تكون نوازعه شـرقية وإنمـا استنكر أن يعاب على رجل مثلي أن تكون له سياسة أدبية تتجه نحو الـشرق ولمـصر فـي الشرق أهل وأصدقاء.

والواقع أني أتهم قومي بلا موجب، فأدباء مصر جميعًا يضمرون أصـــدق العواطــف للشرق ولكن يعوزهم التعبير المقبول، فهم يوهمون قراءهم أنهم لا يعرفون غير مصر، ولـــو نطقت الضمائر لقالت أن عواطف أدباء مصر لم تكن إلا جراح تحس آلام الشرق.

وهل يلام أدباؤنا على إعلان هواهم لمصر في أوقات الشدائد والخطوب نحـــن نغـــر على مصر لغرضين:

لأنها مصر ولأنها مفتاح الشرق فإن أمدنا الله بالقوة والعافية والتوفيق فـــسنجعل مـــن مصر قاعدة حربية تدفع عدوان الغرب على الشرق.

آه ثم آه...

إني أخاف طغيان الحوادث على مصير اللغة العربية، وعلى العقيدة الإسلامية وأنا مع ذلك غير يائس لأن مصر باقية ولأن الشرق لن يزول... والله هو المستعان على مكاره هـــذا الزمان.

الهجرة إلى الريف:

الهجرة في أصلها اللغوي تدل على معنى المشقة فهي تشده بأن المهاجر ينتقـــل مـــن حال الاستقرار إلى حال القلق، فهل يكون الأمر كذلك في الانتقال من المدن إلى الأرياف؟

أعترف مع الأسف بأن الأمر صار كذلك، لأننا بالغنا في تجميل الحواضـــر المريـــة مبالغة مرهقة.

بحيث صار المسكن الواحد يتكلف من الماء والنور ما يكفي لتموين أسرتين من أهـــل الريف وقد زادت الأمور الكمالية زيادة لا تطاق ثـــم أمـــست تلـــك الكماليـــات وهـــي مـــن الضروريات فنحن اليوم بفضل الحضارة في شقاء وعناء.

وكنت لأول عهدي بحياة القاهرة أعيش عيشة بسيطة فلم أكن أشعر بفـــوارق مثيـــرة حين أنتقل لقضاء الصيف في الريف ثم تحضرت رويدًا رويدًا إلـــى أن صـــرت لا أســـتطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم في سنتريس.

ولولا الأموال التي خاطرت بتبديدها في بناء منزل جديد هناك لكان مـــن العـــسير أن أهاجر من وقت إلى وقت لزيارة أهلي.

الحق أن الحواضر المصرية شلت قدرتنا على الأنس بالريف، فالأنهار الجارية فـــي الأرياف لا تغيثنا عن صنابير المياه التي ننعم بها في الحجرات والغرفات....

والقمر الذي يسطع بأنواره الفضية في سهول الريف لا ينسينا جاذبية النور الذي نتلقاه عن مصابيح الكهرباء ومن هنا صح القول بأن الذهاب إلى الريف هجرة فيها ما فيها من القسوة والعنف فهل تكون هذه "الهجرة" فرصة للتداوي من أمراض المدينة؟ إن كنتم سمعتم أن الترف يقتل الممالك والشعوب فقد آن الأوان لشرح تلك النظرية فالحضري الذي يعجز عن المبيت بديار الريف هو اعجز الناس عن تحمل العيش في ميادين القتال.

ولو شئت لاقترحت أن يمنع النوم فوق الأسرة في المعسكرات حتى لا يعرف الجنود طعم اللين فمن الصعب على من تعود النوم فوق الحشايا أن يفترش الأرض الصماء حين تقهره على ذلك ظروف الهيجاء.

يرحم الله أيامي حين كنت فلاحًا لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء فقد وقذتني الحضارة وأضرتني حتى صارت جنوبي لا تطمئن إلا إلى الحشايا تنجد في العام الواحد مرتين أو مرات، وذلك داء عضال.

لا فائدة من الندم على ما فات ثم أوجه الكلام إلى أولئك المهاجرين فأقول: أنتم تفدون على أقوام تحصنوا بالقناعة فما يعرفون من ألوان الطعام غير لون أو لونين فلا تفتنوهم برؤية الموائد المثقلة بأطايب الطعام والشراب ولا تحملوهم على أن ينظروا إليكم نظر المحروم إلى الطعام، فلذلك عواقب يخشاها من تهمهم سلامة القلوب في الريف...

أنتم تقدمون على أقوام لا يملك الشخص منهم غير ثوب أو ثوبين فلا تفتنوهم بكثرة الأثواب ولا تشعروهم بأنكم أقدر منهم على الزينة، فلذلك آثار ستسوءكم أوزارها بعد حين.

وما الموجب لأن يتخطر بعض الشبان "المهاجرين" فوق شطوط الجداول وقد لبسوا البيجامات وتركوا رءوسهم العارية تداعب النسيم بالشعر المعطر المشكول؟

ألا يعرف هؤلاء الشبان أن أهل الريف لن يلقوهم بغير السخرية والازدراء.

يجب أن نعيش في الريف بأخلاق أهل الريف فتحلق رأسك وتكتفي في مطعمك وملبسك بما يتسق مع المأثور من شمائل أولئك الناس. فإن خالفت هذه الوصية فلست أهلاً لنعمة الله عليك ولن تترك في الريف غير ذكريات لا يسرك أن تعاد.

هل عندك من قوة الأخلاق ما تقدم به لأهل الريف زادا جديدا من أدب النفس؟

هل تستطيع أن تروض أهل الريف على الاقتناع بأن لأهل المدن شمائل هي السبب في سبقهم أطايب المنافع وكرائم الطيبات؟

هذا يوم من أيامك أيها المهاجر إلى الريف فكن قبسًا من الهداية يدفع ما في الريف من ظلمات وكن في سيرتك مثالاً يحتذيه من رحبوا بقدومك أجمل ترحيب.

إن الذين يهاجرون إلى الريف بالألوف سيعرضون الريف لرجة اجتماعية فما عسى أن تكون تلك الرجة؟ أتكون خيرًا؟ أتكون شرًا؟

عندك – أيها المهاجر – جواب هذا السؤال – لطف الله بك وهداك.

ابدأ بنفسك

كثر التواصي بالوطنية في هذه الأيام وأصبحت الجرائد والمجلات ميدانًا لأقلام أهل الحمية من أبناء الوطن العزيز.

وهذه فرصة لامتحان النفوس والعزائم والقلوب فكل امرئ يعرف ما يملك من زاد الوطنية وكل امرئ يعرف ما عنده من عناصر الأمانة والصدق والإخلاص.

والمهم هو أن تبدأ بإعداد نفسك لدعوة الواجب وأن تؤمن بأنك المسئول الأول وأنك وحدك المعني بالنداء يوم يدعو الوطن أبناءه لتفديته بالأموال والأرواح.

ويلي ذلك في الأهمية أن تشعر بمعنى الأخوة والوطنية وأن تثق بأن جميع من تصادفهم في غدوك ورواحك هم أخواتك وأنصارك وإن لم تعرفهم من قبل وأن تعرف في قرارة نفسك أن منافعهم هي بعض منافعك وأنك عن تفديتهم مسئول.

التماسك الأخوي هو الحجر الأول في بناء الوطنية ويوم يصح هذا التماسك لا يضيرنا أن تفسد الدنيا يوما فينفرط عقد الأمان.

هل سمعت بالقوانين التي تشرع للطوارئ؟

إن كنت سمعت فاعلم أن الأمة الكريمة هي التي لا تفتقر إلى مثل تلك القوانين في غياهب الأزمات وظلمات الخطوب.

نحن لا نحتاج إلى أدب النفس في أيام السلام وإنما نحتاج إلى أدب النفس في أيام الحرب فمن أنت بين أصحاب النفوس؟؟

الوطن يعتمد بعد الله على نفسك العالية، فكن عند ظنه الجميل.

الوطن يرجو أن تفي له في أيام الشدة كما وفي لك في أيام الرخاء.

الوطن هو أنت فمن أنت؟

إن في الدنيا ناسا يتخذون أيام الحرب وسيلة لورم الجيوب وأعيذك أن تكون من أولئك الناس، لمثل هذه الأيام تدخر الأخلاق فكن من أقطاب الأخلاق.

ابدأ بنفسك فنزهها من مآثم الجشع والخيانة والبهتان، فإن فعلت فستظفر بثروة روحية تدفع عنك ظلمات الحوادث وتمنحك القدرة على الاستهانة بالخطوب.

العاقبة للصادقين.

العاقبة للصادقين.

العاقبة للصادقين.

فكن في جميع أحوالك من أهل الصدق.

واحذر أن يكون أحد في الدنيا أصدق منك، فما يليق برجل كريم أن يكون من أهل الطبقة الثانية في الصدق.

الأحزاب السياسية والأدبية:

في أعقاب الأزمة الوزارية الأخيرة أدركت قيمة الحياة الحزبية إدراكًا أوضح من الإدراك الذي أتمثلها به من قبل فقد صح عندي بصورة صريحة أنها تعاون على إظهار أقدار الرجل ومن المؤكد أن في كل أمة رجالاً يصلحون للحكم بأفضل مما يصلح بعض رجال الأحزاب ولكن حرمانهم من الأنصار يحول بينهم وبين أداء واجبهم عن طريق المناصب الوزارية، وهي مناصب تمكن الرجل المخلص من أداء الواجب الوطني على الوجه المنشود.

وقد يتفق في بعض الأحيان أن يصل الرجل المستقل إلى تلك المناصب ولكنه مع ذلك يظل مقلقلاً مزعزعًا بسبب عزلته عن الأسنده الحزبية وهي دعائم تحول الضعفاء إلى أقوياء والمرء كثير بأخيه، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

"من حق الرجل أن يتحزب بل من واجبه أن يتحزب على شرط أن يكون صحيح النية في خدمة المبدأ الذي ينتمي إليه، وعلى شرط أن يكون التضامن الحزبي وسيلة لغرض سليم هو استعمال الفرصة للاضطلاع بحمل الأعباء الثقال في خدمة الوطن عن طريق الوزارة أو عن طريق البرلمان".

ولا يعاب التحزب إلا بآفة واحدة هي ما يقع من السرف في اللجاجة والعنف، كالذي نراه من بغي بعض الأحزاب على بعض من حين إلى حين...

ولكن من السهل على الرجل الحكيم أن يتجنب هذه الآفة فلا يشتم ويظل محترمًا من الجميع كأن يكون مثل مصطفى بعد الرازق من الدستوريين، ومثل زكي العرابي بين الوفديين ولهذين الرجلين أمثال في سائر الأحزاب، وإليهم تتجه الأنظار في الظروف التي توجب أن تتقدم لحمل أعباء الحكم رجال ليس في مسلكهم الحزبي ما يهيج الخصومة ويثير الخلاف.

تلك هي الحال في الحياة السياسية فكيف تكون الحال في الحياة الأدبية؟

الواقع يشهد بأن النجاح في الأدب قام على إسناد من العصبيات الممثلة في الأندية والجمعيات، فعندنا في مصر أحزاب أدبية وإن لم تصطبغ صراحة بالصبغة الحزبية وبفضل ذلك التحزب المسور لمعت في عالم الأدب أسماء كانت أهلاً للخمول لو واجهت الحياة الأدبية بلا إسناد من الأصدقاء والحلفاء.

أقول هذا وقد فاتني التحزب في السياسة والأدب فأنا صديق الجميع وعدو الجميع ومن كان كذلك فهو خليق بأن يعيش بلا أنصار وبلا أصفياء.

سمعت أن في مصر حزبًا يسمى حزب المستقلين وهم الذين قرروا الاجتماع في حديقة الأزبكية ليعلنوا رأيهم في الصورة التي تؤلف بها الوزارة الجديدة ثم سمعت أيضًا الوزارة ألفت قبل أن ينفض اجتماعهم "المعقود".

وأنا في الأدب من حزب المستقلين فليس من العجب أن تؤلف اللجان وتعقد المؤتمرات بدون أن أخطر في البال، فتلك مزية الاستقلال.

سأتحزب، سأتحزب، سأتحزب.

ولكن كيف؟

سأعقد محالفة بيني وبين قلمي وهو أقوى وأنفع من ألوف الأصدقاء.

قضيت دهري بلا نصير ولا معين وسأظل كذلك طول حياتي لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع.

فإليك يا فاطر السموات والأرض وأنت وحدك الولي والنصير أقدم واجب الحمد والثناء.

٤

الكتيبة الأدبية(*):

في اليوم الثالث من شهر يونيو قدمت إلى وزير المعارف السابق معالي النقراشي "باشا" اقتراحًا أدعو فيه إلى تأليف "كتيبة أدبية" من رجال المعارف يتطوع فيها المدرسون والمفتشون وتكون مهمتهم تقوية الروح القومي وحراسة العزيمة الوطنية من عدوان الأراجيف بما ينشرون على صفحات الجرائد والمجلات وبما يذيعون من خطب ومحاضرات ثم قلت:

"ولي مطلب أوجهه إليك: وهو أن تدعو رجال الأقلام من وقت لآخر لتشير عليهم بما تراه في تشديد العزائم الوطنية ولتشعرهم بأن الدولة ترى أن القلم من أدوات الجهاد وقد أشر النقراشي "باشا" على هذا الاقتراح بعبارة كريمة من عبارات التأييد والتشجيع.

ومضيت أفكر في تكوين تلك الكتيبة على مهل ولكني سارعت فنشرت في المقطم والأهرام مقالات حماسية في نطاق الغرض الذي دعوت إليه راجيًا أن يكون ذلك بتكوين (الكتيبة) الأدبية وتذكير لأهل الأدب بواجبهم في هذا الميدان وفي الأسبوع الماضي وجه الأستاذ أحمد أمين دعوة إلى الكتاب على صفحات الأهرام يقول فيها إنه يرجو من أرباب الأقلام أن يتناولوا بعض المشكلات الحاضرة بالدرس فيتحدثوا عن الهجرة إلى الريف وتنظيم الشئون الاقتصادية بما يضمن السلامة من القلقلة التي تحدثها الحرب إلى آخر ما نص عليه من المسائل التي تستوجب الدرس فرد عليه الدكتور طه حسين في اليوم التالي بمقال صرح فيه بأن الجرائد تحت رقابة الأحكام العرفية وأن الكاتب لا يملك من الحرية ما يساعد على درس تلك المشكلات بصراحة وعد السكوت تضحية فعجب الأستاذ توفيق الحكيم من ذلك وكتب يقول إنه لم يكن يعرف قبل اليوم أن السكون من التضحيات فوخزه الدكتور طه وخزة أليمة جاء فيها أنه يدعو إلى الأدب الرخيص في حين أن الأستاذ أحمد أمين يدعو إلى الأدب الثمين وانزعج الأستاذ توفيق الحكيم فكتب يرجو الدكتور طه أن يعد الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرفيع لأنها على كل حال مما يدعو إلى الواجب في هذه الظروف.

(*) العدد رقم ٣٦٨ بتاريخ الثاني والعشرين من يوليو سنة ١٩٤٠.

أولئك كتابنا الأماجد وهم قوم يمزحون في غير أوقات المزاح فالأستاذ أحمد أمين في يده مجلة أسبوعية وكان يقدر على معالجة تلك الشئون منذ اليوم الذي نعب فيه نفير الحــرب وقد كان مفهومًا أن مصر لن تترك بغير إيذاء فما الذي قهره على السكوت إلى اليــوم إلا أن يكون تذكر فجأة أن الدنيا فيها أشياء غير الحديث عن أدب المعدة وأدب الروح.

وأحمد أمين الغيور على الريف هو نفسه أحمد أمين الذي صرح في إحدى مقالاته بأن الموت بالقنابل في القاهرة أفضل من الموت بالميكروبات في الريف وذلك إيحاء أثيم ســيلقى عليه (أطيب الجزاء) بعد حين..

أمن الحق أن الريف ليس فيه غير الميكروبات، وكيف أمكن إذًا أن تعيش كــل تلــك الخلائق في الريف؟! وكيف عاش آباؤنا وأجدادنا جميع تلك العصور الطوال؟

تلك وسوسة سخيفة لا تبلبل غير المتحذلقين ولو أنصف أحمد أمين نفسه وقلمه لقــال إننا فرطنا كثيرًا في حق الريف ومن الواجب أن ننتهز هذه الفرصة لنرجع إليــه بالتحــسين والتجميل عساه ينسينا ما تعودناه من القرار الراكد في الحواضر أيام الصيف والــدكتور طــه حسين أمره عجب فهو يدعي أن الرقابة لا تسمح له بشيء ويدافع عن كسله بأن البرلمان يلجأ في بعض الأحايين إلى عقد جلسات سرية، فمن حقه أن ينتظر إلى أن تنتهــي تلــك الحــرب ويستطيع الكتاب أن يقولوا ما يشاءون.

ومن الذي يضطر الدكتور طه إلى الوقوف عند درس المسائل التي لا يعرض لمثلهــا البرلمان إلا في جلسات سرية؟

أتكون كل مشكلاتنا القومية من اقتصادية واجتماعية وسياسية مــشكلات لا يتحــدث الناس عنها إلا في الخفاء.

أيؤمن الدكتور طه بأن من لمحرم عليه أن يتحدث في الشئون التي تصور مــستقبلنا بين أمم الشرق وأمم الغرب؟

أيعتقد أن الحديث عما نفترض لمصر من المصاير الاجتماعيــة والاقتــصادية بعــد الحرب أمر قد يستوجب الوقوف أمام المحكمة العسكرية؟

وما هذا الذي يدعيه الدكتور طه حسين حين يقول بأن الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرخيص؟ ومن الذي أوحى إليه هذه الحكمة "الغالية" وعمن أخذ القول بأن الحديث في تقوية الروح الوطني هو المقصود بالحديث المعاد الذي نهى عنه الحكماء؟

لقد دافع توفيق الحكيم عن هذه القضية ولكن توفيق الحكيم رجل قصير ونحيل ولا يقدر أبدًا على صرخات طه حسين وغاراته.

للدكتور طه حسين أن ينسحب من الميدان بحجة أنه مشغول بشواغل أدبية تصرفه عن الحرب وأخبار الحرب وما يجب على مصر أيام الحرب ولو قالوا ذلك لكان له ذر مقبول فالدولة تطالب كل رجل بالتفرغ لما يصلح له من أعمال والأديب الذي يشغل بالأدب الصرف أيام الحرب هو أيضًا من المجاهدين لأن الجهاد في سبيل الوطن له ميادين مختلفات منها ميدان الأدب الصرف الذي ينسي صاحبه أنه يعيش في غمرات الحرب.

وقد اتفق الدكتور طه في أحيان كثيرة أن يتناسى المكاره القومية ليفرغ لعمله الأدبي في الجامعة العربية فما لامه على ذلك لائم ولا اتهمه أحد بالجبن عن الاستجابة لنداء الواجب الوطني لأن الوطن يعرف أن المتفرغ للأدب الصرف هو أيضًا جندي في الميدان لم يحمل السلاح ويتقدم للقتال ولكن الدكتور طه يأبى ألا أن يقع في خطيئتين: خطيئة الدعوة إلى السكوت عن درس المشكلات القومية إلى أن تنتهي الحرب وخطيئة السخرية من الكتابة في تقوية الروح الوطني بحجة أنها من الأدب الرخيص. ألا يفتح الله عليك مرة واحدة يا دكتور طه فتكتب مقالاً واحدا يسلم من إثم المغالطة والتلبيس؟

بقيت حكاية توفيق الحكيم، الكاتب الذي يجمع بين الظرف والضعف، وأنا أقترح أن يمحى اسم هذا الكتاب من سجل القومية الوطنية، هذا الكاتب خفيف الروح في بعض نواحيه ولكن روحه يثقل جدًا حين يتحامل على القومية العربية وحين يتوهم أنه من المصلحين ومن خلفاء قاسم أمين..

وما ظنكم بكاتب يزعم أن الفكر لا يساوره في مصر وإنما يساوره حين ينتقل إلى الهضاب السويسرية أو الفرنسية؟ العفو يا سيد الملاح؟

فمصر يا أخي فيها منادح الفكر والبيان وهي بشهادتك قد عزت على عدوان الغرب وطغيان الشرق وقد عجزت المصائب والويلات عن قتل مواهبها الذاتية فكيف يجوز لك أن تسخر منها أقبح السخرية في بعض مؤلفاتك وأن تعجز عن الرد على كاتب مثل طه حسين؟

أما بعد فأنا ما زلت أدعو إلى تأليف كتيبة أدبية تجرد ألسنتها وأقلامها لتقوية الروح الوطني لتحول الوطنية إلى عقيدة راسخة لا تزعزعها النوازل والخطوب.

وفي الأدب الصرف نفسه يتسع المجال لتأييد العقيدة الوطنية.. فالشاعر الذي يتغنى بجمال الليل حين يتموج نور القمر فوق صفحات النيل هو شاعر وطني، والكاتب الذي يتألق في وصف ملاعب القاهرة والإسكندرية ودمياط هو كاتب وطني، والباحث الذي لا يعنيه غير

درس مشكلات التعليم هو باحث وطني واللاعب الذي يقضي أوقاته في التأهب للاشتراك في مباراة رياضية هو لاعب وطني، والتاجر الذي يغلق أذنيه عن الحـوادث اليوميـة ليتفـرغ لمصاعبه التجارية هو تاجر وطني، وطه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكـيم يـستطيعون أن يكونوا من الوطنيين إذا قصروا جهودهم على ما يعنون من الأعمال.

المهم يا بني آدم أن تعاونوا على إيقاظ الروح الوطني في أية ناحية من نواحيـه وأن يكون لكم شأن في تحرير البلاد من يقود الركود والحركة.

دمياط والمنصورة:

وهتف سائل يقول: ما الذي أوجب أن نرى في مؤلفاتك ومقالاتك إشارات رقيقة إلـى دمياط؟. وأجيب بأني لم أمر دمياط إلى اليوم، ولكني موكل بالحديث عن البقاع الكريمة فـي وطني، فدمياط من ثغورنا البواسم وكان لها مقام محمود في صد الغارات الصليبية ولا تـزال دمياط مرجع طوائف كثرة من كرائم الأفئدة والقلوب، ولن أنسى أبدًا طغيان البحـر والنيـل حول دمياط حيث غرق الروح الشفاف الذي أوحى إلى خاطري بعض القصائد الجياد.

وأخونا الزيات يقيم اليوم بالمنصورة ليتقي الغارات الجوية وأنا والله في خوف عليـه وما أخاف الميكروبات التي يخافها أحمد أمين وإنما أخاف على الزيات غارات العيون، العيون الفواتك التي تصاول الآمنين والغافلين، فتحول أرواحهم إلى أقباس أقسى وأعنف من طغيـان السعير.

وكيف يذوق العذاب من ترحمه المقادير فلا تدله على الطريـق إلـى المنـصورة أو دمياط؟ أرجع إلينا يا أحمد قبل أن تعضك سمكة من سمكات النهر الذي أعرف وتعرف، وإلا فانتظر قدومي إليك لأشاطرك النشوة بغناء الملاحين في غفوات الليل.

ولكن هل عندكم ملاح تذكر أغاريده بأغاريد الملاح الذي سمعته مرة وهـو يـصدح فوق متن النيل في الأقصر بهذا النشيد:

فايت علـى جـسر النيـل　　قـابلوني أتنـين حلـوين

أخد مـين وأسـيب مـين　　يــا بــوي...

وحدثتنا الجرائد بأن النيل يهدر بعنف في أعالي السودان فانتظرني عندك لأرى معك بعد شهر واحد كيف يسهل صيد السمك فوق ذلك الشط بأيسر عناء..

أتخاف الحرب؟ لا تخف فأعمار الأشقياء باقية...

ارجع إلينا يا أحمد قبل أن تعضك السمكات بشط المنصورة فقد عرفت بالتجربة؟ أنها أفتك من سمكات شط العرب حرسك الله وحماك.

أمن الإثم هتـافي بالجمـال في بلاد كل مـا فيهـا جميـل

لو بعيني نظر اللامي وجال لرأى الفتنة فـي كـل سـبيل

أكحلوا عين الزمان بمرود الحياة:

أنتم تسمعون أن الدنيا كلها حرب، أليس كذلك؟

بلى لكن الحياة لها مطالب روحية وعقلية تنسي الناس أحيانًا مخاطر الحرب، الرجـل الضعيف هو الذي تقهره الظروف على أن يكون في مهب الخطوب أما الرجل القوي فتصطدم به المتاعب كم تصطدم الموجة العالية بالصخرة العاتية.

لقد قذيت عين الزمان فأكحلوها بمرود الحياة..

كونوا أحياء في كل وقت واحذروا أقوال المرجفين الذين يزعمون أن الدنيا لـم يبـق فيها مجال لطرب الأفئدة وجموح القلوب.

لا تصدقوا الأستاذ فكري أباظة حين يحدثكم في المذياع عن عجبه من أن تعجز أعوام الحرب عن قتل تغريدة يا عين يا ليل فهذا الأستاذ نفسه لم ينقطع عن الغناء وإن كان صـوته "أرخم" الأصوات.

هذه الحرب التي تعانون بلاءها عن قرب أو من بعد هي أيـضًا شـهوة إنـسانية أو حيوانية كسائر الشهوات، والمحرمون من حب الدنيا ومن الهيام بما فيها من نعيم لا يصلحون أبدًا للتحرس في ميادين القتال.

يجب أن تبقى حواسكم كلها سليمة حتى حاسة الذوق وحاسة الجمال لأن هذه الحواس هي الجوارح "التي تصولون بها في ميادين الوجود. وهل يصلح إنسان للتفكير فـي المنـافع القومية حين يشل تفكيره في المنافع الذاتية؟

الجندي لا يصلح أبدًا لاستماتته في الدفاع عن الوطن إلا إذا كانت لـه فيـه مـآرب وأهواء أما الجندي الفارغ الرأس والقلب من المطالب الذاتية فهو أداة عاطلة لا نفع فيهـا ولا غناء.

زادكم الأول هو مطامعكم وزادكم الثاني مطامعكم وزادكم الثالث مطامعكم وأزوادكم الأصلية والفرعية هي مطامعكم فلا تعيشوا في دنياكم بلا أطماع لئلا تنعدم قدرتكم على الجهاد.

لا تصدقوا الذين ينهوكم عن الابتسام للدنيا والوجود.

لا تصدقوا من يزعمون أن صرح النفوس في أيام الحرب من نذر الفناء الدنيا لكم ولسائر المزودين بالحيوية والأريحية والجذل والابتهاج فما سكوت الشعراء وما سكوت المغنيين عن التغريد فوق أفنان الجمال، وما الموجب للدعوة الأثيمة التي تريد أن تحول دنيانا إلى ملاطم ومناحات؟!

عزائمكم وأرواحكم وقلوبكم هي الذخائر الباقية... وهي أسلحتكم في مقارعة الخطوب فلا تضعفوها باستماع الأراجيف ولا توهنوها بالخضوع لخداع الأباطيل.

ود أعدوائكم لو تنقلبون إلى أشباح بلا عواطف ولا أحاسيس فاحذروا الفتنة فتنة الدعوة إلى تسريح الأماني والآمال واعلموا أن الرجل الحق هو الذي يعيش في كل وقع بعواطف الأقطاب من الأحياء.

٥

إليك أعتذر، أيها الغزالي(*):

في سنة ١٩٢٢ كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب "الأخلاق عند الغزالي" وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت بها نار الثورة المصرية، وأكتوت يـدي بلهـب الجـدل، والصيال حول المطالب الوطنية، فأثر ذلك في عقلي وتفكيري إلى أبعد الحدود، وحملني ذلـك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالي للمجتمع السياسي وابتعاده عن الضجيج الذي كانـت تثيره الحروب الصليبية في ذلك الحين.

ثم مرت أعوام راضني فيها الدهر بعد الجموح، فعرفت أن الغزالي لـم يكـن مـن الجبناء، وإنما كان من الحكماء.

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء، عن الاشتغال بالسياسة؟

وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة: ساس يسوس؟

دلوني على رجل واحد غمس في السياسة ثم سلم من الأقاويل والأراجيف؟

لا بأس من تجريح الرجل الآثم، ولكني أستطيع أن أذكر عددًا من الرجال، أهينوا في السياسة بغير حق، وأعجب من ذلك أن أستطيع الإشارة إلى عدد من الرجال أهينـوا بـسبب الانسحاب من ميدان السياسة، فهي عقرب تلسع بلا تمييز بين الغوي والرشيد.

إن أقطاب السياسة في مصر هم عيون الأمة من الوجهة القومية، وهـم أيـضًا مـن الأقطاب في ميادين العلم والأدب والذكاء، ولكن ما نصيب الأديب ممن الاستفادة بعقول هؤلاء الزعماء؟!

الريبة تلاحقك إن فكرت في زيارة هذا الزعيم أو ذاك، والشبهات تحيط بك إن رأيت أن تزود عقلك بمعرفة أهل زمانك فتزور الأندية السياسية من وقت إلـى وقـت، وسـمعتك غرض رجيم لأهل الظنون إن طاب لك أن تحفظ الأدب مع أقطاب عصرك فتـؤدي واجـب التهنئة أو واجب العزاء في بعض الظروف.

(*) العدد رقم ٣٦٩ من مجلة الرسالة بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠.

لك أن تجالس الفارغين من أجلاس القهوات، وليس لك أن تظفر بمجالسة رجل كبير له منزلة سياسية، فإن فعلت فأنت وصولي ينتظر الجزاء القريب أو البعيد.

أليس هذا هو الواقع في هذه البلاد؟

بأي حق يحرم الأديب في مصر من التعرف الصحيح إلى من يسيطرون على السياسة المصرية؟

وعمن يأخذ معاني التفكير في مصائر الأمور الوطنية إذا حرم التزود بأفكار أولئك الرجال؟

لو اتصل أدباؤنا بالزعماء لوجدوا لأدبهم آفاقًا أوسع من الآفاق التي يعرفون الآفاق المحدودة التي لا تمتع غير البصر الكليل، الآفاق المزدحمة بأهل العقم والنضوب من الأشباح التي تغدو وتروح وليس لها زاد غير مضغ الحديث المعاد من فئات الزور والبهتان.

كيف يجوز لأديب أن يقول إنه عاش في هذا العصر مع أنه لم يعرف أحدًا من أمثال مصطفى النحاس ومحمد محمود وعلي ماهر وحلمي عيسى وعلي الشميسي وعبد الفتاح يحيى ومحمود النقراشي ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق وحسن صبري وعبد الرحمن عزام وحافظ رمضان ولطفي السيد وأحمد ماهر ومكرم عبيد وصبري أبو علم ونجيب الهلالي ومحمود بسيوني، ومن إلى هؤلاء من الوزراء والنواب والشيوخ، فإنما نريد التمثيل لا الاستقصاء.

الأديب الذي لا يعرف أمثال هؤلاء معرفة صحيحة ليس بأهل لمعرفة روح العصر الذي يعيش فيه وهو أيضًا أكذب الكاذبين حين يدعي أنه أثر في عصره تأثيرًا قويًا أو ضعيفًا، فما يمكن لأديب أن يكون من أصحاب السلطة الأدبية إلا حين يستطيع بلسانه أو بقلمه أن يواجه المسيطرين على مصاير البلاد إلى غاية سامية أو مطلب شريف.

ثم ماذا؟

ثم تقع البشاعة التي نشهد آثارها في كثير من الأحايين.

فالزعماء ناس كسائر الناس، وعندهم أوقات يزجونها بالسمر والحديث، فماذا يصنعون وقد غاب من ناديهم كبار الأدباء؟

يلتفون فيرون أنديتهم قد اكتظظت بأهل اللغو والفضول من الذين يؤذيهم أن يكون لرجل من أهل الأدب أديم صحيح.

وعندئذ يصح عند الزعماء أن دنيا الأدب دنيا حقد وغيظ وليس بها مجال للفكر الثاقب والرأي الرشيد، فيكتفون بالزاد الخبيث الذي يقدمه إليهم الأفاكون من أشباه الأدباء: قاتلهم الله أنى يؤفكون!

سعد زغلول أعز أدب مصطفى المنفلوطي.

وعبد الخالق ثروت أعز أدب طه حسين.

ومحمد عبده أعز أدب حافظ إبراهيم.

فهل تعرفون بعد هذه الأسماء أن زعيمًا مصريًا عاون على خلق الفرص لأديب جديد؟

وكيف نصل إلى التعاون المنشود والعوائق تقوم من الجانبين؟ فالأدباء ينفرون من الاتصال برجال السياسة خوفًا من تهمة الوصولية.

والساسة لا يعرفون من الأدب إلا أنه وسيلة للدعاية الحزبية، وبين خوف أولئك وغرض هؤلاء تضيع الفرص على الأدب الصحيح الذي يمثل ما في المجتمع من آراء وأهواء، وحقائق وأباطيل.

أما بعد فالأدب في خطر، لأن أصحابه في عزلة عن الساسة، والساسة يملكون أكثر الوسائل في توجيه المجتمع، لأن الحاكم يملك في اليوم الواحد مالا يملك الأديب في الأعوام الطوال.

فإن كنتم في ريب مما أقول فتذكروا حوادث التاريخ، فقد كان الناس منذ أقدم العصور يعرفون أن الأدب لابد له من سناد ليؤدي واجبه على الوجه الصحيح، وسناد الأدب هو الدولة، والدولة هي الساسة الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأحسن القول هو التوجيه الذي يصدر عن كبار الأدباء.

أليس من العجب أن يكون قدماء اليونان أعقل منا وبيننا وبينهم أجيال وأجيال؟

ومن أجل هذا كان الأدب اليوناني القديم غنيًا بالحديث عن سياسة الأمم والشعوب، وكذلك كان الأدب العربي في العصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، فلما خمدت جذوة العرب تخاذل الأدب وترك الحديث عن السياسة العالية ليتحدث عن المنافسة بين الربيع والخريف، وليكثر القول في الألغاز وخصائص الأيام والأسابيع.

أين ما دعوت إليه ألف مرة من خلق الصلات الروحية والذوقية والقومية بين الساسة والأدباء؟

إن طالت هذه الفجوة بين هاتين الطائفتين فسيكون مصير الأدب من أقبح المصاير، فسيحصر وهو راغم في الحديث عن مشكلات الحاجة خدوجة والمعلم مشحوت!

وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل سعد زغلول ليلة الحادث الذي خرج به الجيش المصري من السودان ليخلق منه قصة أروع من قصة الزوج الذي خانته زوجته الحسناء؟

وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل علي ماهر في الليلة التي مات فيها جلالة الملك فؤاد ليصور عواطف الوزراء في قلقلات التاريخ؟

وأين؟ وأين؟

وتلك أيام خلت، فليستعد الأدباء لفهم هذا القول، فقد ينفعهم في الأيام المقبلات.

حصار مزعج:

ويمكن بعد هذا أن ندرك بوضوح أن الأدباء يعانون ضربًا من الحصار المزعج، فهم بعيدون عن الأوساط السياسية خوفًا من تهمة الوصولية، وهم بعيدون عن الأجواء الشعبية خوفًا من تهمة الإسفاف، وهم بعيدون عن الأوساط الفنية خوفًا من تهمة النزق والطيش، فقد شاع صدقًا أو كذبًا أن الفنانين لهم بدوات تخرج عن الوقار في بعض الأحيان.

نحن إذًا في حصار، ومع ذلك يطلب منا أن نصف جميع طبقات المجتمع، وأن يكون أدبنا صورة صحيحة لما يثور في ضمير المجتمع من عواطف وآمال.

وأنا أشهد على نفسي بالمرض من هذه الناحية، فأنا أجانب رجال السياسة مجانبة مقصودة، لأني أتوهم أن اتصالي برجال السياسة قد يصورن أمام الجمهور بصورة من يطلب الصيد، وقد حاولت إبراء نفسي من هذا المرض فلم أفلح، وكان من آثار هذه العلة أن تمضي الأعوام ولا أنتفع بمحادثة زعيم أنقل عنه وينقل عني، فعندنا بالتأكيد آراء وأفكار قد تنفع الزعماء بعض النفع، وقد توجههم إلى التعصب للأدب الرفيع، وهو في حاجة إلى عصبية قوية ترفع ما يعترض طريقة من عقبات وأشواك.

وقد أزعجت قراء الرسالة مرات كثيرة باقتراح لم أجد من يصغي غليه، وهو أن يكون للأدباء مكان في الحفلات الرسمية، فجميع الطوائف تمر في خواطر رجال الدولة عند المناسبات الخطيرة ولا ينسى غير الأدباء. إلا فأين الأديب الذي دعى بصفته الأدبية إلى حضور إحدى الحفلات في قصر عابدين أو قصر الزعفران؟

ويزيد الحرج حين يكون الأديب موظفًا، فهو لا يدعى لأية حفلة رسمية إلا حين يصل إلى درجة مالية تضيفه إلى طبقات الأعيان، والعياذ بالذوق.

الدرجات المالية للموظفين هي الميزان في كثير من الشئون، لا سيما شئون التشريف، يكاد يكون من المستحيل أن يمر في خاطر أية جهة رسمية إلا بعد أن يصل مرتبة إلى كيت وكيت، ولو كان من أقطاب الأدب والبيان.

وكان المأمول أن يعتدل الميزان في وزارة مثل وزارة المعارف وقد تولى شئونها وزراء من رجال الأدب أمثال: محمد علي علوبة، ومحمود فهمي النقراشي، ومحمد حسين هيكل. ولكن الأمور ظلت تسير في طريقها القديم، فلم يستفد الأدب شيئًا من الوزراء والأدباء، وإن كنت أذكر بالخير الكثير أن بعض هؤلاء راعى منزلتي الأدبية فتناسى إن تطاولت عليه في أحدى المجلات:

قد يقال: أن الدولة تفتح بابًا من الشرحين تفكر في الاعتراف الرسمي بالقيمة الأدبية، فكل إنسان يدعي أنه أديبًا، وأن له حقًا في حضور الحفلات الرسمية.

وأجيب بأن الأدب لم يعد فوضى كما كان في الأزمان الخوالي، فالجمهور يكاد يتفق على الإعجاب بأفراد معدودين هم عند الطبقة الأولى من الأدباء، وهو كذل يعرف من هم رجال الطبقة الثانية ومن هم رجال الطبقة الثالثة، فما الذي يمنع من أن يكون في ذهن الدولة صورة لأدباء الطبقة الأولى لتفكر في دعوتهم إلى الحفلات الرسمية، كما تفكر في دعوة من يمثلون بعض الجوانب من حياة المجتمع؟

أليس من العجيب أن يشهد الحفلات بعض المجهولين من موظفي السفارات والقنصليات ثم يحرم رجال الأقلام من شهود تلك الحفلات، ولهم فيها زاد نفيس هو تذوق ما في المجتمع العالي من دقائق تعود على العلم بأجزل النفع؟

إن وزير المعارف اليوم هو صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا، وقد سألت عنه زملائي بالمعارف فأكدوا لي أن الدكتور هيكل، الأديب المشهور الذي كان يحمي عن الأدب وأهله في جريدة السياسة، وأجمعوا على أنه هو بعينه صاحب كتاب "ثورة الأدب".

والحق أن وزيرنا الجديد في مشابه من الدكتور هيكل وإن كنت أخشى ألا يكون إياه، فمن واجبي نحو الأدب الذي أتشرف بالانتساب إليه أن أطلب من الوزير الذي يشبه الدكتور هيكل أن يتفضل فيخص الأدب بنظرة من نظراته الثواقب، ونحن بكل تواضع نقترح أن يكون لكبار الأدباء بعض ما لكبار العلماء من منازل التشريف، فإن كان العلماء. وهم اصطلاحًا

رجال الدين – أولى منا بالرعاية لأنهم من أهل الآخرة. فنحن أحق بالعطف العاجل لئلا يكتب علينا الحرمان في الدارين.

وليكن مفهومًا جدًا أني أقول هذا الكلام وأنا أتوهم أن هيكل باشا هو الدكتور هيكـل، فإن ثبت أن زملائي بوزارة المعارف خدعوني وأن هيكل باشا شخص غير الدكتور هيكل فأنا أعتذر لمعالي الوزير عن هذه الكلمات الحافية، وأرجوه أن يثـق بـأني بـريء مـن الأدب والأدباء.

ولو صح أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل لكانت فرصة ذهبية لنصرة الأدب الرفيـع، فقد نغريه بالوعود فنزعم أن أهل الأدب يحفظون الجميل وأنهم لن ينسوا فضله فـي إعـزاز الشخصية الأدبية بالديار المصرية.

اللهم أجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل.

عواطف نبيلة من شعب نبيل:

في صباح اليوم السادس عشر من حزيران تلقيت إشارة تليفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألني عن اسمي الكامل وعن منـصبي بـوزارة المعـارف، وأردت أن أعـرف الموجب لهذه الأسئلة المفاجئة، فقيل: إن أجوبتها ستقدم إلى قصر جلالة الملك تمهيدًا لوسـام سأتلقاه من حكومة العراق.

وفي صباح اليوم الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم السيد عبـد القادر أحمد الموظف بمديرية الدعاية في بغداد يهنئني بوسام الرافدين.

ومعنى تلك الإشارة وهذه البرقية أنني خطرت في بال أهل الصدق والوفاء من أقطاب بغداد.

وأنا مع ذلك لا أعد "وسام الرافدين" تحية شخصية، وإنما أعده رمزًا لتوكيد الـصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق، وقد جاهدت في ذلك جهاد الصادقين.

وإذا كان الله أراد أن أتشرف بعضوية نادي القلم العراقي، وأن أتشرف بعضوية نادي المثنى، وأن أتشرف بهدية من جلالة الملك غازي الأول، وأن أتشرف بحمل وسام الرافـدين، فإن الله تباركت أسماؤه خصني بمزية جليلة وهي وسام الود الصحيح الذي شرفني به الشعب العراقي، النبيل الذي قيدني في هواه بقيود متينة من شرف الحب وكرم الإخاء.

وإذا قيل إن العراق يجزيني وفاء بوفاء، وإخلاصًا بإخلاص فأنا أقول إنـــي سأقــضي دهري كله مدينًا للعراق، ولن أستطيع أداء ما للعراق في عنقي من ديون، ولو بـــذلت دمـــي وروحي في حب العراق وأهل العراق.

ومن واجبي في هذا المقام أن أقدم واجب التحية لحضرة صاحب السمو الأمير عبـــد الإله، الرجل العظيم القلب والروح، وقد عرفته معرفة صحيحة في جلال شخــصيته، الذاتيـــة قبل أن يضاف إليها جلالة الوصاية على عرش العراق، ثم زرته بعد ذلـــك فلـــم أره زاد إلا كرمًا إلى كرم، وصفاء إلى صفاء، وكذلك تكون المعادن الكريمة لعظماء الرجال.

ومن واجبي أيضًا أن أقدم التحية لفخامة رئيس الوزراء، ومعالي وزيـــر المعـــارف، وفخامة وزير الخارجية وسعاد رئيس الديوان الملكي في بغداد، راجيًا أن يكون عهـــد جلالـــة الملك فيصل الثاني من العهود البواسم في بلاد الرافدين، بلاد دجلة والفرات.

المرء كثير بأخيه، ولي في العراق إخوة يعدون بالألوف فلله الحمد وعليه الثناء.

٦

موجة صوفية(*):

في عصرية الاثنين "١٩٤٠/٧/٢٢" توجه جماعة من الأصفياء إلى سنتريس، وفـيهم المسيو دي كومنين والمسيو جوزيه كـانيري والـدكتور إبراهاميـان والمـسيو بولـدربني والموسيقار محمد عبد الوهاب وسرب من كرائم الفرنسيات.

ولم تكن تلك القافلة تحتاج إلى دليل[٨] فقد شرفت سنتريس بزياراتها مرات كثيرة، ولا سيما مدام دي كومنين التي تأنس كل الأنس بزيارة سنتريس، والتي تعد زيارتها لداري مـن مواسم الفرح عند أبنائي.

إنما يحتاج إلى الدليل ذلك الموسيقار السابح في لجج الأحلام محمـد عبـد الوهـاب، وكذلك أتيحت الفرصة لأن يترفق فيدعوني لمرافقته في طريقنا إلى سنتريس وماذا أستفيد من مرافقة محمد عبد الوهاب؟

وهل يفيق هذا الحالم حتى يعرف رفيقه في الطريق؟

ابتدأ صاحيًا في المرحلة الأولى، فسأل عن منازل الكتاب المـصريين وعـن مبلـغ تأثيرهم في مصر والشرق، وما كدنا ننتهي من الكلام عن طه حسين والزيات والعقاد وتوفيق الحكيم حتى أسلم خياله لأحلام أوابد لا ينقصها غير القلب الذي رضاه الحب علـى التمـرس بملاحقه أبكار المعاني. ومحمد عبد الوهاب قناص أحلام وألباب، وإن كان أرق مـن الزهـر المطلول.

ونظرت إليه في غيبوبته الروحية فرأيته يغمغم بأجراس صوتية لا تبين عن لفظ معين أو غرض محدود.

وفي لمحة من لمحات الوجد تمثلت لي شفتان ورديتان لو سبح الله بهما مـسبح لكـان فيهما غناء عن تسبيح كل ما حوى الملكوت من أرواح وأشباح.

(*) العدد ٣٧٠ من مجلة الرسالة في ٥ أغسطس سنة ١٩٤٠.

(8) لم يصب أبو علي الغالي في تخصيص "القافلة" بالراجعة من سفر، وأكثر اللغويين على أن القافلة هـي الرافقة، ويقال للمبتدئة بالسفر قافلة تفاؤلا لها بالرجوع.

أيصير عبد الوهاب إلى مثل هذا الحسن الفاتن كلما نقله الخيال إلى عالم الروح؟

ثم انتبه بغته، وقد وخزته نظراتي فقال: أتزور سنتريس في كل أسبوع؟

فقلت: وما الذي يهمك من ذلك؟

فأجاب: إن هذا إن صح قد يفسر نزعتك الصوفية، فما شعرت بمثل هذه الأقباس الروحية إلا في هذا الطريق الذي يصل بالأفئدة إلى سنتريس.

وما كاد يتم هذه الجملة حتى هوى إلى الغيبوبة من جديد، وحتى عدت إلى التأمل في أسارير الوجه ذلك الذي خلق ليكون مصدر هداية ومبعث فتون.

وبعد لحظات كانت أقصر من ومضة القلب بالتشوف إلى موعد غرام وصلنا إلى القناطر الخيرية، ثم وقفنا عند قنطرة الرياح المنوفي لننتظر سيارات الأصفياء قبل أن نغذ السير إلى سنتريس، وهنالك وجدنا على غير موعد جماعة من الشبان الفنانين يترنمون بأغاريد عبد الوهاب، وهم ينظرون وفود القمر لمصافحة النيل؟

ثم وصل الأصدقاء الفرنسيون فطربوا لذلك المنظر الجذاب وسرهم أن يكون في مصر فنان يرى طلائع فنه في كان يتوجه إليه على غير ميعاد.

ودخلنا سنتريس والشمس تجنح للغروب والناس يرجعون إلى دورهم وفي أيديهم مقاود المال الناطق، وتلك طلائع نعيم تكون أوفر ما تكون في سنتريس: فأخصب أقاليم مصر هو إقليم المنوفية، وأخصب مراكز المنوفية مركز أشمون وأخصب البلاد في مركز أشمون هو سنتريس، وأخصب بقاع سنتريس هو ما ورثته عن أبي وجدي، وأجمل دار في سنتريس هي دار شاعر سنتريس.

فإن ضاق بعض الناس صدرا بهذا الازدهاء، فليذكر أني تحدثت عن الريف وجال الريف قبل أن تخلق وزارة الشئون الاجتماعية بأعوام طوال، يضاف إلى ذلك أن بلدي أجمل البلاد حقًا وصدقًا، وهو الشاهد على أن مصر موطن الخيرات والثمرات ومهد الأفئدة والعقول، ولو قلت: إن بدلي يفوق جميع البلاد من الوجهة العلمية لكنت أصدق الصادقين.

ثم جلسنا نتجاذب أطراف الأحاديث مع الأهل والأصدقاء، وقد ذاع في أرجاء البلد أن عبد الوهاب حضر ومعه عوده الحنان فأقبلوا يتسابقون لتزويد أفئدتهم بأطايب البواكير من أغاريد الخلود.

ثم وقع ما لم يكن في الحسبان فقد قيل إن في سنتريس مغنيين يغنون أصوات عبد الوهاب بأطيب وأوقع مما يغنيها عبد الوهاب.

وتنادى أولئك المغنون ليباروا مطرب الأمراء والملوك، وليروضوه على الاقتناع بأن التواضع خلق جميل، فانسحب من الميدان قبل انتهاء السهرة ليرجع إلى القاهرة بحجة أن عنده موعدًا في منتصف الليل.

وعند باب الحديقة سأل عبد الوهاب عن العود ليكون رفيقه في الإياب ثم سارت بـه السيارة وهو يترنم يقول أحد الشعراء:

تنظر الساعة من حين لحين ليت شعري مات الذي يستعجلك(*)

إن هذا الوصل أحلام سنين فـاتق الحـب ودع مـا يـشغلك

وانصرف جمهور المعجبين بالموسيقار عبد الوهاب وبقيت مع الـضيوف الأعـزاء نتحدث عن الآداب والفنون، ونسمع مداعبات من كان في السهرة من الحنيات.

ومضينا نواجه النيل وقد طلع القمر وطاب النسيم فرأينا طوائف من أدبـاء سـنتريس يسمرون هناك كما كنت أسمر مع أصفيائي قبل أن يصنع الدهر بقلبي ما صـنع، وقبـل أن أحرم من قضاء ليالي الصيف في سنتريس، فما ذقت طعمًا للحياة الهادئة منذ قضت الأيام بألا أزور سسنتريس إلا كما يزور طيف الخيال.

ثم هتف هاتف بأن الليل قد انتصف وآن أوان الرحيل عن سنتريس.

وفي القناطر الخيرية وقفنا مرة ثانية نشهد صراع الأمواج في قنطرة الرياح المنوفي، فأخذت المسيو كانري من يده، واقتربت به من معركة تلك الأمواج.

ثم وثب القلب وهو يسأل: أين الموعد، موعد فلانة، الموعد الذي عقدته فـوق "سـدة الهندية" منذ أكثر من عامين؟

فأجبت: تلك يا قلبي مواعيد البنان المخضوب:

وتلفت إلى المسيو كانري وأنا أقول: ألا يكون النوم في ضيافة هذه الأمواج الصواخب أطيب من النوم في الغرف المغلقة النوافذ؟

فأجاب: ذلك نعيم خاص بأهل الشرق.

فقلت: ومن أجل هذا النعيم يوصي بعض الفلاسفة بأن تكون مدافنهم في ثنايا الأمواج.

(*) العدد ٣٧٠ من مجلة الرسالة في ٥ أغسطس سنة ١٩٤٠.

ثم رجعنا إلى القاهرة لنأنس بالعيش الرتيب من جديد فإن سألتموني: أين كنا؟

فأنا أجيب: كنا في رحلة صوفية، وكان معنا عقل دي كومنين وبلاغة وعذوبة عبد الوهاب، وكانت معنا أشياء، فلا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تزدكم أسفًا على الحرمان من أطايب الوجود... وهل كانت تلك الأشياء إلى القلوب الأواهل بأرواح الصفاء؟

خطاب ضائع:

كان صديقنا الأستاذ صادق عنبر –طيب الله ثراه– قد نشر في مجلة "النهضة النسائية" سنة ١٩٢٧ خطابات غرامية قال إنه وجدها ملقاة في الطريق، وصح عندي يومئذ أنه ابتدع تلك الخطابات، فكتبت إليه من باريس أهنئه على ذلك البدع الطريف، فأجاب بأنه لم يبتدع تلك الخطابات، وإنما وجدها مصادفة في شارع الدواوين وهو ذاهب إلى "جريدة الأهرام" ولم أصدقه فيما ادعاه فتعقبته في جريدة البلاغ بمقال لاذع بدد ما كان بيني وبينه من وداد.

ثم تشاء الأقدار أن تصحح رأيي في ذلك الصديق المظلوم فقد وجدت أنا أيضًا خطابًا ضائعًا، وجدته في شارع فؤاد وأنا ذاهب للسمر مع الأستاذ "وحيد بك الأيوبي" في قهوة السلام بميدان إبراهيم، واطلعت عليه جماعة من الفضلاء الذين صادفتهم هناك.

وإلى القارئ فقرات من ذلك الخطاب الضائع، ستر الله كاتبه وهداه(*)؟:

"تعاتبين؟ تعاتبين؟ وما الموجب للعتاب وقد صد قلب عن قلب، وزهد روح في روح؟

ومن تعاتبين، يا شقية، وقد انتهى عهد العتاب، ولم يبق من الذكريات غير أطلال؟

لا أراك الآن إلا حجرًا أصم أبكم، لا يسمع ولا يتكلم، وإن كنت تحسنين زخرف القول حين تكتبين إليَّ من حين إلى حين...

وتقترحين أن أزورك في مدينة.. فهل تظنين أني أطرب لزيارة مدائن الأموات؟

تلك غمرة من غمرات الكرب عانيتها حين توهمتك إنسانة لها وعي وإحساس، ثم لطف الله فأفقت، وما كنت أحسبني أفيق، كان غرامي نزوة من نزوات الطيش، وقد عقلت، والحمد لله على نعمة العقل.

أمثلك يُزار بوحي من القلب، وأنت رسم من الرسوم الهوامد، وقد انتهى عهد البكاء على الرسوم والطلول؟

(*) الخطاب بقلم الدكتور زكي مبارك نفسه.

ما أبكي عليك، يا شقية، وإنما أبكي على النعيم الذي ذهب منذ اليوم الذي انزاحت فيه الغشاوة على قلبي.

كنت توهمت أني عشقت، وكانت الدنيا لا تسمعني كلما خطر في البال أني أملك قلب امرأة لها في دولة الحسن تاريخ.

ثم انجابت: ظلمات الغواية فرأيتك مخلوقة من خزف، مخلوقة غبية بليـدة حرمتها الأقدار نعمة الفهم لسرائر الأرواح والقلوب.

خرجت من هواك كما دخلت، فما أمدني هواك بقصيدة رشيقة ولا مقال بليغ، والأديب لا يعشق ليقال إن عاشق وإنما يعشق الأديب ليطلع على الآفاق المجهولة من ضمائر الوجود، وأنت أنت، أنت الأنثى الغبية البليدة التي لا ينتفع الأديب من صحبتها بـشيء، إلا أن يـصير اسمه إعلانًا عن جمالها المظنون، وأنت والله جميلة، ولكن جمالك لا يزيد عن جمال التماثيل؟

إنما أبكي على نفسي، فقد كنت أحسبني أهلاً لغرام أقوى وأعنف من الغـرام الـذي عانيت، ثم عرفت مع الأسف الموجع أني شغلت قلبي بإنسانة ضعيفة لا تقدر على نقل القلـب من مكان إلى مكان، فمتى تزحزح من مكانك يا قلبي؟ ومتى تعرف أن الهدى لـيس أكثـر عنصرًا من الضلال؟

لا تكتبي إليَّ بعد اليوم، يا شقية، فقلبك اصغر من قلبي، ولم تكوني إلا طفلة نـضجت قبل الأوان فتوهمت أنها قادرة على مساورة الرجال".

تلك فقرات من ذلك الخطاب الضائع، الذي وجدته في شارع فؤاد.

فهل رأيتم أسخف من كاتب هذا الخطاب؟

الدنيا في حرب وشقاء وبلاء، فكيف يجوز أن يكون فيها من يعشق ويلتاع؟

وفي قهوة بالميرا بمصر الجديدة صادفت الدكتور مشرفة بـك عميـد كليـة العلـوم فعرضت عليه هذا الخطاب على أنه نموذج من السفاهة والحمق فابتسم، وقال: العواطف مـن القوى الأساسية في حياة الإنسان، ولابد لتلك القوى من غذاء، واستطرد فحدثني أنـه طـرب حين رجع إلى معاهد الطفولة بدمياط، يوم كان يقترب إلى الله بتقبيل ضريح الشيخ مظلوم.

العواطف تحتاج إلى غذاء كما تحتاج العقول؟

هذه فلسفة لم أسمع بها من قبل.

فإن صحت هذه الفلسفة فهي سناد لكاتب الخطاب الضائع، الخطاب الذي وجدته في شارع فؤاد.

الدنيا في حرب، فلا تصدقوا الدكتور مشرفة، وإن كان عميد كلية العلوم، واقضوا أوقاتكم كلها في متابعة أخبار الحرب بين الإنجليز والألمان، فأخبار الحرب هي زاد العواطف والعقول في هذه الأيام العجاف.

ثمرة شهية من ثمار المطابع:

اليوم عرفت أن الأستاذ محمود بك تيمور وأخاه المرحوم محمد بك تيمور ورثا فن القصص عن أبيهما العظيم أحمد باشا تيمور.

أقول هذا وقد فرغت من قراءة كتاب نفيس اسمه "أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر" تحدث فيه تيمور باشا عن جماعة من الشعراء والعلماء والأعيان بأسلوب هو القصص الحق، أو هو أحسن القصص، إذ صح الاستئناس بعبارة القرآن المجيد.

كتاب كله أقاصيص، ولكنه حقائق، وله جاذبية تجعله فوق القصص المعطر بأنفاس الخيال.

في هذا الكتاب أربع وعشرون ترجمة ليست جميعًا ثوب الصدق في حدود ما وصل إلى المؤلف من أخبار من ترجم لهم. ومن المؤكد أن هذا الكتاب يسد فراغًا في تصوير بعض معالم العهد الذي عاش فيه المؤلف، ففيه أخبار سياسية وأدبية واجتماعية لم يتحدث عنها أحد من قبل بهذه الدقة وبهذا التفصيل.

ونحن نأسف على أن يكتب لتيمور باشا أن يقف جهوده على هذا اللون من التاريخ، فلو أن الله كان وفقه إلى ذلك لأتى بالأعاجيب في تسجيل الحوادث وترجمة الرجال.

وقد التزم تيمور باشا في هذا الكتاب التواريخ الهجرية أو كاد، والتزم العبارات القديمة في وصف بعض الأشياء، فالعزبة هي الضيعة، والجنية هو الدينار، ودخول الإنجليز في مدينة القاهرة كان يوم الخميس مستهل ذي العقدة سنة ١٢٩٩، وتلك من لوازم تيمور باشا الذي كان يريد أن يجعلنا عربًا ومسلمين في جميع الشئون، أحسن الله إليه بقدر ما أحسن إلى العروبة والإسلام.

وتيمور باشا في كتابه يجسم الحسنات ويتغافل عن السيئات، وإذا قهره التاريخ علـــى تسجيل سيئة أحاطها بعبارة عن عبارات التشكيك، أو اعتذر عنها بلطف ورفق، حتى لـــيمكن الحكم بأن الرجل أراد أن يكون كتابه من كتب الأخلاق الصحاح، وكيف لا يكون مراده كذلك وقد شهد عارفوه وشهدت آثاره بأنه كان من أرباب القلوب.

ولا تجد في هذا الكتاب عبارة تشير إلى تيمور باشا كان يرتب ويصنف ويؤلف، فهي أحاديث أخذ بعضها برقاب بعض في يسر وسهولة واتساقه، وذلك شاهد القدرة على التعبيـــر الخالي من التكلف والافتعال.

وقد أكثر تيمور باشا من الترحم على من ترجم لهم، فعليه رحمة الله، وعلى الهراوي رحمة الله، وعلى عبد المطلب رحمة الله، فقد كانا يريانه إمامًا في الأدب واللغـــة والتـــاريخ، ولهما في البكاء عليه قصائد جياد.

٧

العمر الضائع[*]:

هو عمري وأعمار أكثر الأدباء في الشرق فأعمارنا تضيع بين المدارة والرياء ومن أجل هذا يقل في أدبنا ذلك الجوهر النفسي، جوهر الصراحة والصدق... ومن أجل هذا أيضًا يقل السائلون عنا والراغبون فينا، لأنه يعرفون أنهم لن يطلعوا على أفق جديد من آفاق القلوب والعقول حين يقرءون ما نطالعهم به من حين إلى حين.

أقول هذا وقد أودت صفحتين كتبتهما بالأمس، صفحتين صورت بهما من عرفت من الوزراء تصويرًا يعين بعض الملامح من تاريخ العصر الحديث.

ومن أعجب العجاب أن نعجز عن القول الصدق، حتى في الأحوال التي يكون فيها ذلك الصدق خيرًا محضًا، لأن الجمهور الذي نعاصره يتأذى من الصدق الذي يسر أكثر مما يتأذى من الصدق الذي يسوء... وإنما كان الأمر كذلك لأن هذا الجمهور لا يرضيه أن يكون الصدق وسيلة لتوكيد بعض الحقوق التي غنمها بعض الناس بصدق الجهاد.

ويجب أن نسجل أن النوابغ في الشرق لهذا العهد لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل تشجيع الجمهور أو تشجيع الوزراء والآراء، فمن نبغ نابغ في الشرق لهذا العهد إلا بقوة ذاتية حمته وعصمته من كيد المخذلين والمعوقين فهم كالأشجار التي تنبت في الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير.

وهنا تظهر العلل الأساسية لغضب الجمهور من الصدق الذي ينفع وهنا يظهر السبب في أن الفضل أصبح من أكبر الذنوب، لأنه من صور الانتصار على الجمهور.. والمنتصر لا يقابل بغير الموجدة والغيظ... وهل كانت شماتة الناس بالمغلوبين إلا تعبيرًا عن هواهم الدفين في أن تزول دولة القوة والتفوق.

فالذين يغضبون من الصدق لا يغضبون لمن آذيت، وإنما يغضبون عليك لأنك ملكت من القدرة أكثر مما يملكون، وكانوا يتمنون لو كان إليهم المرجع في القدرة على الإيذاء.

---

[*] العدد ٣٧١ من مجلة الرسالة ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٠.

والذين يغضبون من الصدق النافع يعيرون بغضهم عن علة خفية هي بغض الخير للناس ويزيد الهم كلما تذكروا أن جودك بالكلمة الطيبة قد ينفعك.

وهذا يشرح أسباب حرصهم على نزيف المجاملات بحجة أنها وسائل من النفع، كأنه لا يجوز أن يقصد الرجل بمجاملة النافعين من الرجال غاية شريفة هي رفع العوائق من طريقة والاتسام بسمة التلطف والترفق والذوق.

وكنت قلت في حديث سلف أنه يجب على الأديب أن يتعرف إلى من يعاصر من الوزراء والزعماء ليساعد على توجيه الحياة الاجتماعية وليكون له مكان في تسديد خطوات الجيل فرأى بعض الصحفيين أن يقول إني أشرت إلى السماء كان أكثرها من وزراء المعارف السابقين واللاحقين.

فما معنى ذلك؟ معناه أني ألاطف قومًا قد أحتاج إلى معونتهم في بعض الأحيان.

والذي قال هذا الكلام صديق وقد نشره في جريدة هي أيضًا صديق، نسأل الله الحماية من الأصدقاء.. وأقول بعبارة صريحة إني غير راض عن نفسي لأن جوانب الهجوم لها الحظ الأوفر من أدبي، وذلك باب من الشجاعة بالتأكيد وهو يعرضني لكثير من ألوان المكاره والمتاعب، ولكن هناك شجاعة أعظم من هذه الشجاعة وهي التي تنبعث من القدرة على كلمة الإنصاف والتأييد في المواطن التي يحتاج فيها من نعاصرهم إلى الجهر بكلمة الأنصاف والتأييد.

فأنا حين أهجم على رجل أقيم الشاهد على الشرهة من المنافع الشخصية، وقد أتلقى كلمات الإعجاب بلا حساب.. وهذا المذهب لا يضمن الخلوص من هوى النفس.

وأنا حين أتردد في إزجاء كلمة الصدق لمن تنفعهم كلمة الصدق.

وإنما أحترم نفسي بإبعادها عن المواطن التي قد اتهم فيها بالتزلف وهذا في رأيي جبن بشع لأنه من صور الخوف من تزيد الناس ولا يخاف تقول المرجفين إلا الجبان.

وخلاصة القول أنه يجب أن ندرس نفوسنا دراسة عميقة لنعرف إلى أي حد نتأثر بالجمهور في غضبه روضاه، فهذا الجمهور كالطفل المدلل، ورأيه أضعف من هواه، ولا يخضع الرجل في تفكيره إلى هوى الجمهور إلا حين يكتب عليه الخذلان.

الأندية الصحفية:

يظهر أن الحرب الحاضرة سيكون لها تأثير في مصادر الأندية الأدبيـة، ذلـك بـأن الظلام الذي يقهر شوارع القاهرة في هذه الليالي قد أضاع بهجة القهوات وصرف روادها إلى أماكن جديدة هي إدارات الصحف والمجلات فقهوة نيوبار بميدان إبراهيم لم تعـد أمـسياتها ملتقى المسافرين من أهل العلم والأدب والذوق، وكذلك صارت قهوة السلام بـذلك الميـدان مجفوة من روادها بعض الجفاء، ومشرب سيسيل جفاه الأصدقاء الأقدمون، وقهوة ريجينا صد عنها من كانوا يجعلونها ندوة الصيف، وهكذا صار من العسير أن نجـد الفرصـة للتـشرف برؤية بعض الإخوان على غير ميعاد في تلك القهوات كلما دعانا الشوق إلى أطايب الأسـمار والأحاديث.

نادي المعارف:

وما أريد "نادي المعارف" في بغداد الذي يلتقي فيه جمهور المعلمين كل مساء، وإنمـا أريد النادي الذي أنشأناه بوزارة المعارف في المنطقة الشمالية من الديوان.

وندوات هذا النادي كانت بمكتب تفتيش اللغة العربية، وكان وقوده مـن المحـاورات النحوية والصرفية واللغوية، ثم انتقل إلى البهو الفسيح الذي يجتمع فيه كاتمو أسرار الـوزير والوكيلين، إن صح أن لوزارة المعارف أسرار لا تذاع.

ولنا ناد بوزارة المعارف له محاسن وعيوب، فهو يقرب بعض الإخوان مـن بعـض وينفر بعضهم من بعض.

هو ناد مبعثر، ولكنه جذاب، لأنه يجمع أشتات الألوان ولأن أعضاءه جميعًا من أهـل البصر بالأدب الرفيع، وإن كان فيهم من يقرأ المجلات الأدبية بالمجان.

وحجتهم أن وزارة المعارف لا تشترك في بعض المجلات الأدبيـة إلا لتـوفر علـى موظفيها من الأدباء بضعة قروش من كل أسبوع، وهي حجة من الوجاهة بمكان.

وليس لهذا النادي مواعيد، فأنا أذهب إليه حين يخف ضجيج الجدل بمكتب تفتيش اللغة العربية، وعبد الرحمن صدقي يخف إليه حين يحتاج إلى استعارة جريدة أو مجلة مـن أحـد الرفاق، وعلى أدهم يقرن مكانه إلى أن تنزل عليه نازلة من بعض من يسألون عن مـصاير الأدب حين تصطلح الحيتان في بحر الشمال، وسيد نوفل يتلبث ويتمكث إلى أن يجـيء مـن يحدثه عن مدارج البلاغة في غياب التاريخ.

وسيقوى هذا النادي من البشاشة التي شاعت بوجه الأستاذ فريد أبو حديد وقد تطيب الدنيا فينضم إلى نادينا فريق من الذين كانوا يظنون أن جو وزارة المعارف لا يساعد على خلق الروح الأدبي لأن وزارة المعارف فيما يزعمون ليس لها أثر مذكور في تشجيع الأدباء.

وزارة المعارف.. ذلك هو اسمها.. والأسماء لا تعلل.. كما كان يقال وإلا فكيف جاء...

لقد أنساني الشيطان ما كنت أحب أن أقول...

الإذاعة اللاسلكية:

لا تنقطع أصوات الاعتراض على ضعف مناهج الإذاعة اللاسلكية، ولا يكون من المغالاة أن نقول إن في الناس من نسى أن في مصر إذاعة توجه الجمهور بالطيبات من الأحاديث الأدبية والعلمية والاجتماعية، فصار من المألوف أن تلقى في محطة الإذاعة المحاضرات الجيدة بدون أن ينتبه لها جمهور المتشوقين، فما علة هذا؟

لا ترجع العلة إلى ضعف من يسيطرون على محطة الإذاعة، وفيهم أدباء فضلاً، ومن أمثال فلان وفلان وفلان، وإنما ترجع العلة إلى كل أولئك الأدباء والفضلاء.

ولكن كيف؟

لم يتفق للمشرفين على محطة الإذاعة أن يفكروا في الانتفاع بمواهب الأدباء الكبار انتفاعًا يشهد بأنهم يحرصون على تزويد الجمهور بأطيب ما في مصر من ثمرات العقول والقلوب والأذواق.

وإنما يقبع المشرفون على المحطة في مكاتبهم لفحص ما يرد عليهم من طلبات الشادين والمبتدئين من الذين لا يعرفون الجمهور أول مرة إلا عن طريق المذياع... من حق محطة الإذاعة أن تشجع بعض المبتدئين، ومن حقها أن ترفع أجر الخمول عن بعض الخاملين، ولكن هذه النية الطيبة ستعود عليها بالضرر البليغ، وسيكون حالها كحال المجلات التي تسقط جدرانها فوق رءوس من تشجع من التلاميذ.

ويظهر أن محطة الإذاعة تنسى أن لها جماهير في أقطار الشرق، وأن تلك الجماهير لا تنظر بعيون الارتياح إلى عنايتها بتدريب المبتدئين وتشجيع الخاملين.

أكتب هذا وقد سمعت أن المشرفين على محطة الإذاعة أقسموا بالله جهد إيمانهم ليغلقن إذاعتهم عن كلمات النصح، حتى لا يقال أنهم ضعفاء تخيفهم أسواط النقد الأدبي.

وأنا أحترم هذا النوع من الشجاعة وأرجو أن يعرفوا أني يائس من إذاعتهم كل اليأس، وما حملني على تسطير هذه الكلمة إلا الرغبة في أن تعرف جماهير الأمة العربية أن مصر بخير وعافية، وأن محصول محطة الإذاعة لا يمثل ما في مصر من حيوات القلوب والعقول.

إذاعة وزارة المعارف:

زعموا أن وزارة المعارف نظمت دروسًا للراسبين في امتحانات الثقافة العامة وامتحانات القسم الخاص.

وما يهمني إلا الدروس الخاصة باللغة العربية، لأنها تصور مواهب المدرسين بالمدارس الثانوية، وأنا أقترح أن تسجل تلك الدروس لنستطيع مؤاخذة أصحابها حين نشاء، فبعض من يلقون تلك الدروس يقعون في اللحن الفاحش ويسقطون في تفسير النصوص سقطات لا يتردى فيها العلماء، فإن اعتذروا بأن بعض من يفسرون القرآن عن طريق المذياع يقعون في أغلاط أبشع من أغلاطهم فذلك هو العذر الذي قيل أنه أقبح من ذنب.

ولو تفضلت محطة الإذاعة فسجلت طوائف من الأحاديث لاستطاع النقد الأدبي أن يطوق بعض أصحابها بأطواق من حديد.

ولكن متى تصنع وهي تزعم أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان؟ ومع ذلك يعاب علينا أن نثور من وقت إلى وقت، كان من الواجب أن نفرح بكل ما يصدر عن أبناء الوطن الغالي..

أيكون من حق بعض الناس أن يصدعونا باللحن والخطأ في جميع الأوقات، ولا يكون من حقنا أن نترك إذاعتهم في بعض الأوقات؟

سنزجي أيام هذا الصيف بتعقب أولئك "الفضلاء" إلى أن يصدر الأمر بأن محطة الإذاعة محطة حكومية وأن توجيهها إلى السداد من الممنوعات فمتى يصدر ذلك الأمر ليعرف الجمهور أن سكوت النقد الأدبي عن محطة الإذاعة ليس إلا الطاعة لأولي الأمر منا!

عفا الله عمن حرضوني على هذا النقد اللاذع من القارئين والقارئات والسامعين والسامعات وإن كان تحريضي شاهدًا على أن في مصر ناسًا يقرءون ويسمعون.. وهل من القليل أن يكون في مصر من يرجو أن تفرض الرقابة الإدارية على من يكتبون ويخطبون؟

٨

درس ينفع(*):

يظهر أن فصل الصيف تعود الجدل والعناد، ففي الصيف الماضي كانت جناية الأستاذ أحمد أمين على الأدب العربي، وقد وأدنا تلك الجناية وهي في المهد. وفي هذا الصيف يتجنى الأستاذ سلامة موسى على الأدب العربي، فهل يكون من الواجب أن توجه إليه التفاتة ترده إلى الصواب؟

ونذكر أولاً أن الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز، وأنا لا أتخلى عن أصدقائي، ولا أذكرهم بغير الجميل.

ونذكر ثانيًا أن هذه شنشنة نعرفها من أخزم، فقد وقعت بيني وبين الأستاذ سلامة موسى مناوشات كثيرة على صفحات البلاغ يوم كنا زميلين نتحارب بالأقلام ونتصافح بالقلوب.

والحق أن الأستاذ سلامة موسى له على أهل الأدب حقوق، فهو رجل بناء، وإن غلبت عليه الشهرة بحب الهدم، وقد يكون أقدر أدباء اليوم على مسايرة ما يجد من التطورات في الأدب الحديث، فهو لذلك صديق روحي لأكثر أدباء هذا الجيل.

ثم أدخل في صميم الموضوع فأقول:

تحدث الأستاذ سلامة موسى في مقال نشره بمجلة اللطائف عن الجهود الأدبية لجماعة من أدباء مصر هم: طه حسين والعقاد والزيات وزكي مبارك.

وهو يرى أن هؤلاء الأدباء شغلتهم هموم ثقافية لا يمكن أن تحرك قراءنا وتحيلهم إلى مكافحين يجاهدون أو يجتهدون لخدمة الأمة، لأنهم في حقيقتهم وشعورهم متفرجون مستمعون لأنهم يعالجون العاديات العربية التي تدرس للذة والاستمتاع وليس المغزى والكفاح.

ذلك كله كلام الأستاذ سلامة موسى، وهو كلام براق يزيغ بصائر القارئين، فمن الواجب أن ننقضه من الأساس قبل أن يفعل فعله في القلوب والعقول.

(*) العدد ٣٧٢ من مجلة الرسالة ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠.

وماذا يردي هذا الصديق أن يقول؟ إن كان يريد القول بأننا لم نلتفت إلى ما في عصرنا من ثقافات ومعارف وفنون فقد أخطأ كل الخطأ، وانحرف عن الصواب أشد الانحراف.

فالدكتور طه حسين الذي شغل نفسه بدرس عصر النبوة والعصر الأموي والعصر العباسي وتحدث عن المعري والمتنبي وهو ذاته طه حسين الذي شغل نفسه بدرس طوائف الآثار الجميلة للأدب الفرنسي الحديث، وهو ذاته طه حسين الذي التفت إلى مستقبل الثقافة في مصر فنشر عنها كتابًا في جزأين، فمن التجني أن يقال إن مثل هذا الرجل لا يعرف غير الهيام بأودية العصور الخوالي.

والأستاذ عباس محمود العاقد الذي شغل نفسه بدرس أشعار ابن الرومي، ومن إليه من أعيان الشعراء القدماء هو ذاته عباس العقاد الذي شغل نفسه بدرس جماعات من المفكرين الذين سيطروا على العقل الأوروبي الحديث، وهو نفسه عباس العقاد الذي ساير التطورات السياسية في مصر بذهن ثاقب وقلم وثاب، وهو عينه عباس العقاد الذي ترجم لشعراء مصر في الجيل الجديد، فمن التعسف أن يقال إن مثل هذا الرجل الباحث لا يعرف غير الاشتغال بالعاديات الأدبية.

والأستاذ أحمد حسين الزيات الذي اهتم بتاريخ الأدب العربي، والذي عنى نفسه بنقد كتاب ألف ليلة وليلة، والذي يحرص أشد الحرص على إحياء ما اندثر من آثار القدماء، وهو نفسه أحمد حسن الزيات الذي جاهد أصدق الجهاد في نقل الغرر من آيات الأدب الفرنسي الحديث، وهو عينه أحمد حسن الزيات الذي عالج المشكلات الاجتماعية بأسلوب يشهد بأنه مجروح القلب من أزمات هذا الجيل. فكيف يقال إن مثل هذا الكاتب لا يعرف غير الطواف برسوم العهود السوالف؟

بقي الكلام عن الدكتور زكي مبارك وهو رجل أدرك أسرار أدبه بعض الإدراك لأن اسمه يشبه أسمي.

وأعترف أني أوغلت في دراسة الأدب القديم كل الإيغال، ولكن عذري في ذلك مقبول، فقد أفهمني جماعة، منهم الأستاذ سلامة أني قضيت عشرين سنة في الحياة الجامعية، وأن من الواجب أن أقيم الدليل على أني أصلح لأستاذية الأدب العربي، والفلسفة الإسلامية، وكذلك خصصت الأدب والفلسفة بجهود لا ينكر قيمتها أحد من المنصفين.. وهل فسد الزمان حتى أحتاج إلى الاعتذار عن الأعوام الطوال التي قضيتها في تأليف "الأخلاق عند الغزالي" و"النثر الفني" و"التصوف الإسلامي" و"الموازنة بين الشعراء" و"عبقرية الشريف الرضي"؟

وإلى من أعتذر؟ إلى الأستاذ سلامة موسى الذي أعجب بهذه المؤلفات كل الإعجاب؟!

وأنا مع ذلك لم أنس نصيبي من معالجة معضلات العصر الحديث، وقد سجل الأستاذ سلامة موسى في "المجلة الجديدة" أنه كان يجدر بالدكتور زكي مبارك أن يجمع مقالاته التعليمية في كتاب خاص لتكون نبراسًا يهتدي به المعلمون.

وقد زكيت عن الأعوام التي قضيتها في فرنسا بكتاب "ذكريات باريس" وهو كتاب يشهد بأني عشت في فرنسا وأنا حاد البصر، وافر الذكاء، وهو كتاب يصور كثيرًا أزمات فرنسا في هذا الجيل.

والعام الذي قضيته في بغداد صورته به في كتاب "ليلى المريضة في العراق" أعظم المعضلات التي تعانيها فلسطين وسوريا ولبنان ومصر والعراق، ولو أن الأستاذ سلامة موسى قرأ كتاب ليلى لعجب من أن يستطيع الرجل في عام واحد أن يدرك سرائر هذه البلاد، مع أنه كان موظفًا مسئولاً يحضر في كل أسبوع نحو أثنى عشر درسًا لفتيان ناضجين هم طلبة دار المعلمين العالية في بغداد.

لا يهمني أن أدف الاتهام الموجه إليّ وإلى العقاد والزيات وطه حسين، فلي ولهم أقلام تدفع ما يوجه إلينا من العدوان بأيسر مجهود حين يشتجر القتال.

وإنما يهمني أن أدفع الشر عن الأدب العربي، فهو ليس أدبًا ميتًا، كما يتوهم بعض النسا، وإنما هو أدب يتوثب من فيض القوة والحيوية، وبفضل الأدب العربي بقيت الذاتية الشرقية إلى اليوم، ولولا الأدب العربي لكان الأستاذ سلامة موسى في أيامه هذه كاتبًا يرطن في لغة الأرض أو لغة اليونان.

ومن محاسن الأستاذ سلامة موسى أنه وطني صادق الوطنية ومن هذه الناحية أغزوه بلا رفق.

فمصر التي يحبها أصدق الحب لم تسد في الشرق إلا بقوتين عظيمتين: هما اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

وهل من القليل أن تأخذ بلاد العرب ثقافتها العربية عن مصر؟ هل من القليل أن يأخذ وطن الرسول معارفه الدينية عن مصر؟ هل من القليل أن تكون مصر هي البلد الذي صارت العربية لغته القومية الوحيدة وصار الإسلام هو دين الأكثرية الساحقة من أبنائه الأوفياء؟

قد يكون سلامه موسى في دينه أصدق مني في ديني – والله أعلم بالسرائر– ولكن من المؤكد أني أصدق منه في الوطنية، فأنا أحرص على اللغة العربية والإسلام خدمة لوطني،

وأنا أغض النظر عن هفوات كثيرة لرجال الدين، لأنهم على أي حال من الشواهد على أن وطني له سلطة روحية، وقد تطوع المسلمون في مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان لغرض وطني هو الشعور بأن الكنيسة القبطية لها سلطان روحي على عقائد الأحباش.

فهل يغار الأستاذ "سلامة موسى" على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية؟ وهل يحب المسلمون كما أحب الأقباط؟

استغفر الله وأستغفر الوطن، فالأستاذ سلامة موسى بحق وصدق من أكرم أصدقاء العروبة، والإسلام، لأنه بالفعل من مشاهير الكتاب في اللغة العربية.

وإنما أعيب على سلامة موسى أن يكون أقل وطنية من الأديب.

ولنفرض جدلاً أن طه حسين والعقاد والزيات، وزكي مبارك لا يشتغلون بغير دراسة الأدب العربي القديم فما العيب في ذلك؟

وهل من الكثير أن يكون منا عشرة أو عشرون أو ثلاثون يقضون أعمارهم في دراسة ماضي اللغة العربية، وهي اللغة القومية في مصر منذ ثلاثة عشر قرناً؟ وهل تعاب فرنسا وإنجلترا وإيطاليا بأن فيها مئات من الباحثين لا يهتمون بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان؟

وما رأي الأستاذ سلامة موسى في التوراة والإنجيل وهما من النصوص العتيقة بلا جدال؟

هل يرى أن الاهتمام بدرس التوراة والإنجيل من العبث السخيف بحجة أنهما لا يمثلان معضلات العصر الحديث؟

وهل يرى أن نحرق جميع ما حفظ الزمن الشحيح من تراث المصريين القدماء؟

الأستاذ سلامة موسى رجل مثقف، فهو يدرك أن العقل الإنساني يتطلع إلى فهم جميع الآثار الإنسانية، وإن قدم عهدها في التاريخ فهل يوجه ثروته إلى العرب لأنهم عرب؟

إن كان ذلك فلينتظر فقد أرجع إليه بعد أيام ومعي وثيقة تشهد بأنه عربي الأصل، وفي العرب نصارى ويهود ومسلمون لأن العروبة هي مصدر هذه الديانات الثلاث.

الدنيا كلها تجتمع، ونحن نفترق، مع أننا أحوج من سائر العالمين إلى الائتلاف، والعرب والمسلمون في جميع بقاع الأرض يرون مصر مشرق الأنوار العربية والإسلامية، وأخونا سلامة موسى يريد أن ينزع عن رأس مصر هذا التاج المرموق ولو كان سلامة موسى من أرباب المآرب المادية لعذرناه، وقلنا إنه رجل ينتفع من مؤازرة خصوم العروبة

والإسلام، ولكن سلام موسى رجل عفيف القلب والجيب، ولن يترك لأطفاله غير ما ورث عن أبويه الكريمين، فكيف يستبيح أن يسيء إلى سمعة مصر العربية والإسلامية بلا جزءا؟

سلام موسى من أعز أصدقائي.

فهل أرجو أن يراعى خاطر صديقه الأمين حين يتحدث عن صلة مصر بالشئون العربية والإسلامية؟

إلى صديقي سلام موسى أوجه هذا الرجاء، ففي الدنيا مكاره تشغلني عن مكايدة الصديق للصديق.

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعًا إلى سواء السبيل، فإني أو إياه لعلى هدى أو في ضلال مبين.

أدوات مدرسية:

كان المألوف في مثل هذه الأيام أن ينص أصحاب المدارس فيما ينشرون من إعلانات على ما تمتاز به مدارسهم من جمال الموقع، وكثرة المختبرات، وأهلية المدرسين، وحسن النتائج.

ولكن الزمان يأتي بالأعاجيب، فلأول مرة في تاريخ مصر تقول إحدى المدارس، في إعلاناتها أنها مزودة بمخبأ طويل عريض يأوي مئات التلاميذ.

هي محنة جديدة لم تخل أخبارها من جديد، والله الحفيظ.

أبعد الحديث عما في المدارس من أفنية وملاعب يجيء الحديث عما في المدارس من مخابئ وسراديب؟

وأنا مع هذا أرحب بهذه الشدائد، فالأمم لا تضعف إلا حين يسود فيها الأمان، والأمن نعمة عظيمة جدًا ولكنه يغري بالطمأنينة وهي ضرب من السكون والسكون نذير الجمود.

السوريون في مكاره الاغتراب:

وهنا تسنح الفرصة للجواب عن سؤال وجهه إلينا الأستاذ محمد حلمي وقد لاحظ أن السوري المسلم والسوري المسيحي يختلفان في النشاط وفي الحظوظ حين يهاجران إلى أحد البلاد العربية، مع أنهما من بلد واحد ومن جنس واحد. ثم سأل: أيرجع ذلك إلى فروق خفية بين العقلية الإسلامية والعقلية النصرانية؟

وأجيب بأن ذلك لا يرجع إلى فروق ظاهرة أو خفية بين الديانتين، وكيف والإسلام دين جهاد، وهو يدعو أبناءه إلى الكسب والمعاش والاضطراب في بقاع الأرض. على حين تدعو المسيحية أبناءها إلى الزهد في المنافع الدنيوية والتطلع إلى المصاير المأمولة في رحاب السماء.

إنما يرجع السبب إلى أن السوري المسلم حين يفد على أحد البلاد العربية يندمج بسرعة في البيئات الإسلامية بسبب اتحاد الدين: فتزول عنه وحشة الاغتراب، ويذهب عنه الخوف، ولا يشعر بالحاجة إلى التسلح بالمال، وهو عماد المغتربين.

أما السوري المسيحي فيشعر بأنه بعيد بعض البعد عن المجتمع وهو مجتمع إسلامي، وبذلك تقوى فيه القدرة على الكفاح في سبيل الحياة ليعوض ما فاته من الأنس الذي يوجبه اتحاد الدين.

ويظهر هذا جليًا حين نتمثل حالة السوري الذي يهاجر إلى أمريكا وهو مسيحي، فإنه في أمريكا أقوى منه في أي بلد عربي، لأن البلد العربي يوافقه في اللغة وإن خالفه في الدين، أما أمريكا فتخالفه من جميع النواحي وإن وافقته أحيانًا قليلة في النحلة الذهبية، وكذلك نرى السوري والمسيحي في أمريكا أقوى من أخيه في الشرق بسبب ما يعانيه هنالك من قسوة الاغتراب.

ولن يطول اختلاف الحظوظ بين السوري المسلم والسوري المسيحي في البلاد العربية، لأن التسامح الديني يزداد من يوم إلى يوم، ولأن العروبة تقوى من يوم إلى يوم، وبذلك ينعدم شعور السوري المسيحي بأنه في الشرق غريب، فلا يصل النهار بالليل مكافحًا في سبيل المعاش، اكتفاء بالأنس الذي يجده من مشاركة الجمهور في العواطف والآمال.

فمن ارتاب في هذا التفسير الفلسفي لهذه الظاهرة الاجتماعية فلينظر حالي في دنياي: فهذا النشاط الذي حيرت به الناس يرجع مصدره إلى الخوف وإنما أخاف لأني أشعر بالغربة في وطني ما خلق قلمي من الضغائن والحقود.

اللهم أدم علينا نعمة الخوف فهو أنفع من الأمان، نسألك اللهم توالي فضلك فتهبنا القدرة العارمة على وأد ذلك الخوف، كما نسألك أن ترزقنا الخوف منك حتى لا يكون في أنفسنا برعايتك العالية ما يحمل على سوء الأدب مع عبادك، ولله الحمد وعليك الثناء.

٩

عبد الوهاب عزام[*]:

قلت مرات كثيرة: إن الشجاعة الأدبية لا تقف عند القدرة علـــى أن تقــول للمــسيء أسأت، وإنما تسمو الشجاعة الأدبية فتصل إلى القدرة على أن تقول للمحسن أحسنت، لأن ذلك يشهد بأن الناقد يملك السيطرة على هوى النفس.

وأنا أحب أن أقول كلمة في الدكتور "عبد الوهاب عزام" بعد أن ســمعت المحاضــرة التي ألقاها في المذياع عن "أخلاق القرآن" فقد بهرت قلبي وعقلي، وأشعرتني بأن من العقوق أن أسكت عن توجيه القراء إلى متابعة هذا الباحث المفضال...

وإنما وجب ذلك التوجيه لأن مباحث الدكتور عزام تتسم بالدقة وتخلو من البريق، فهو لا يجذب إليه من القارئين والسامعين غير طلاب المعاني، من الذين يعرفون مــن قبــل أنــه باحث على جانب عظيم من الدقة والعمق.

فإذا استطعت بهذه الإشارة أن أدل قرائي على فضل هذا الباحث وأن أجــذبهم إليــه فسيذكرونني بالخير حين ينتفعون بما ينشر من مقالات أو يذيع من محاضرات.

شعرت وأنا أسمع محاضراته عن أخلاق القرآن أن القرآن نزل أمس فهو يحدثنا بمــا نرى وما نسمع من معضلات الوجود، ومع أن الدكتور عزام أضاء روحي بهذا المعنى فمــا أحسست أنه تكلف أو تعسف أو حاول الظهور بمظهر الغيرة على الشريعة الإســلامية، فهــو يلقي كلامًا فطريًا سمحًا لا زخرف فيه ولا تنميق، وهو ينقل إلى سامعيه آيات القــرآن فــي لطف ورفق حتى لتكاد نحسب أنه وجدها مسطورة في صفحة واحدة من صفحات المــصحف الشريف.

فإذا أضفنا إلى هذا أن الدكتور عزام رجل أريحي النفس، عذب الفكاهــة، مــصقول الحديث، حضري الشمائل، أدركنا أنه من أعيان أهل الفضل في هذا الجيل.

---

[*] العدد ٣٧٤ – ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٠.

ولو شئت لمضيت إلى آخر الشوط فقلت: إن صحبتي لهذا الصديق قد اتصلت بـالفكر والروح أكثر من عشرين سنة، وما أذكر أبدًا أني أحصيت عليه هفوة واحدة من هفوات الفكر والروح.

في الدكتور عبد الوهاب عزام عيب واحد هو الهدوء، ولكنه هدوء الطمأنينة لا هدوء الخمود، فأرجو من القراء ومن المستمعين أن يذكروا أن هذا الرجل لا يكتب أو يتحـدث إلا ليواجههم بأشياء من المعاني الصحاح في الأدب والخلق والدين والتاريخ.

ذكرى سعد:

من تحصيل الحاصل أن أقول إني لم أكن وفديًا في يوم من الأيام، والوفد يعرف ذلك، ومن أجل هذا كان يتغاضى عما أبثه في مقالاتي من الدعوة إلى مبادئ الحزب الوطني حـين كنت اشتغل بالتحرير في الجرائد الوفدية.

وكنت أحضر الحفلات التي يقيمها الوفد لذكرى سعد تأييدًا للمعنـى الجميـل الـذي ينطوي عليه، ثم هجرت تلك الحفلات بعد أن صارت تقام في مكانين: أحدهما الهيئة الوفديـة، وثانيهما الهيئة السعدية، تجنبًا للظهور بمظهر التحزب لأحد الفريقين، ولـي فـيهم أصـدقاء أعزاء.

وفي اللحظة التي أكتب فيها هذا المقال تقام حفلتان لذكرى سعد، وكان فـي نيتـي أن أحضر هاتين الحفلتين بلا تفريق لأواسي أصدقائي هنا وأصدقائي هناك.

فما الذي صدني عن حضور هاتين الحفلتين؟

أذكر السبب فأقول:

لكت ركض رفعة النحاس باشا ترفق سعادة الدكتور ماهر باشا ومضى لعيادته، علـى ما كان بينهما من ضغائن سود وقفتهما حاقدين أمام محكمة الجنايات.

ولما عرف النحاس باشا مضى لزيارة من عادوه من الكبراء، واتفـق إن لـم يجـد الدكتور ماهر باشا في داره فترك له بطاقة وانصرف، وإلى هنا أدى النحاس باشا واجبه تأدية صحيحة، ولكنه رأى أنه كان يجب أن يشعر الدكتور ماهر بزيارته لينتظره، فترفق وأخبـره بأنه سيزوره مرة ثانية: ثم كان تلاق كريم بين صديقين قديمين فرقت بينهما اللجاجة الحزبية، وهي خلاقة المآثم والعيوب.

هذا تصرف نبيل من هذين الرجلين، فهل تعرفون كيف كان تأثير هذا التصرف النبيل في الجرائد الوفدية والسعدية؟

ظل التلاحي على ضرامه بين جريدة المصري وجريدة الدستور، ولسان حالهما يقول:

إذا ما الجرح رم على فساد تبين فيه تقصير الطبيب

فهل يلام مثلي إذا أضجرته هذه الحال فلم يشترك في الاحتفال بذكرى سعد؟

للسياسة فنون، ومن فنون السياسة أن يكون الرجل أخًا صادقًا لجميع المواطنين، وكذلك تتحول السياسة إلى وطنية صحيحة تكره الهدم والتجريح.

اختلفوا ما طاب لكم الخلاف، يا بني وطني، فالخلاف دليل الحيوية، ثم احذروا العداوة والبغضاء، لأنهما لا يصدران عن أرباب القلوب.

بين الدين والوطنية:

يظهر أن مقالتي في نقد الأستاذ سلامة موسى لم يرض جميع القراء، فقد تلقيت خطابًا صدر عن مدينة فارسكور، وهو خطاب لم يخل من تحامل، وإن كانت عبارات كاتبه تشهد بأنه من المطلعين، وكيف لا يكون كذلك وهو "ضبع"؟

وأنا أحرص أشد الحرص على إزالة ما قد يقع بيني وبين قرائي من أسباب الشقاق، لأني طيب القلب إلى أبعد الحدود، وإن قال قوم بأني سأكون من حطب جهنم، لطف الله بهم وهداني:

فما الذي كنت قلت في ذلك المقال؟

أذكر أني قلت إن من واجب كل صري أن يعطف على العروبة والإسلام، لأنهما سناد مصر في الشرق، وأذكر أني قلت إن اهتمام مكرم باشا عبيد بحفظ القرآن هو مظهر من مظاهر الوطنية، فجاء كاتب الخطاب من فارسكور يقول:

أهذه هي مقاييس الوطنية؟

وأقول: نعم، هذه مقاييس الوطنية، بشهادة الأستاذ مكرم باشا عبيد.

ولكن كيف؟!

ظهر الأستاذ مكرم عبيد على مسرح السياسة سنة ١٩١٩ قبل أن يولد كاتب الخطاب من فارسكور، وكنت أنا يومئذ من المكتوين بنار الثورة المصرية، فهل يعرف الناس كيف التفتنا إلى مكرم عبيد في ذلك العهد؟

كان مكرم سكرتيرًا لأحد المستشارين الإنجليز، ثم اندهش رئيسه من أن يشترك مع الموظفين المصريين، وكان اندهاشه لأنه يعرف أن مكرم عبيد قطبي، ولأنه يتوهم أن الأقباط لا يشاركون المسلمين في الثورة على الاحتلال.

ورأى مكرم عبيد أن يصحح موقفه أمام رئيسه فكتب إليه خطابًا يشرح له كيف استجاز لنفسه أن يضرب مع المضربين، وساق في ذلك الخطاب حديثًا لأحد القسيسين الأقباط قال فيه:

"إذا صح أن الأقلية القبطية ستكون عقبة عن طريق الاستقلال فسندعو الأقباط جميعًا إلى الإسلام لتسقط حجة المحتلين".

وقد طبعنا خطاب مكرم عبيد إلى رئيسه الإنجليزي ومضينا فوزعناه على الجماهير لنذكي به روح الوحدة القومية.

ثم ماذا؟

ثم نظر مكرم فرأى أن أبويه كانا سمياه "وليم" فاستغنى عن اسمه الأجنبي واكتفى باسمه الوطني، وهو اسم عربي صريح كان علمًا لأحد أقطاب الأشراف بهذه البلاد.

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم صرح مكرم باشا في خطبة شهيرة بأنه مسلم وطنًا، وأزهري ثقافة.

فما معنى ذلك يا كاتب الخطاب من فارسكور، عليها أطيب التحيات؟

معناه أن مكرم باشا يرى الإسلام من أكبر عناصر الوطنية المصرية، وأن الثقافة الأزهرية من مظاهر تلك الوطنية.

وإنما استبحت لنفسي أن أخوض في هذه الأحاديث الشوائك لأني واثق بأني لن أجد من يتهمني بالتعصب الديني، فأصدقائي الحقيقيون في مصر أكثرهم من الأقباط، ولي بين نصارى الشام والعراق إخوان أوفياء يرونني أكرم صاحب وأوفى صديق، وأراهم من أطيب الذخائر في حياتي، ومن مسالكهم النبيلة أستمد التأييد لهذا الرأي الصريح.

سلامة موسى رجل غير موفق:

الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز، وقد تحدثت عنه في مقالاتي ومؤلفاتي بما هو له أهل، وقد دفعت عنه قاله السوق حين كنت في العراق، فقد كتب الأديب مشكور الأسدي خطابًا وجهه إليّ في جريدة "الكلام" عن حقيقة سلامة موسى.

ثم شاءت المقادير أن تعطل الجريدة قبل أن تنشر جوابي وهو ثناء مستطاب على الصديق الذي كنت أحاربه بقلمي وأصافحه بقلبي.

والحق أن الأستاذ سلامة موسى رجل غير موفق فهو يغمز العروبة والإسلام من وقت إلى وقت بلا موجب معقول، وما ذكرناه بمسك الأستاذ مكرم عبيد إلا لندله على أن عقلاء الرجال لهم مسالك غير التي يسلك، وهل كان مكرم باشا أول قبطي هدته الفطرة السليمة إلى أن القومية المصرية قومية إسلامية؟

أذكر في هذا المجال الأستاذ وهبي بك مدير المدارس القبطية في الجيل الماضي القريب، فهو الذي عرب أسماء تلاميذ من الأقباط ليزج بهم في غمار المجتمع الإسلامي.

وأذكر الأستاذ وهيب بك دوس أحد خطبائنا الكبار، وأحد المتفوقين في الأدب العربي، وأحد العارفين بأسرار الشريعة الإسلامية.. أنا المسئول عن حقيقة هذا الثناء، فما رأت عيني أديبًا في مثل براعة وهيب دوس، مع استثناء أفراد قلائل يسيطرون على الحياة الأدبية، ويذيعون الثقافة المصرية في الشرق.

وأذكر القس إبراهيم لوقا راعي الكنيسة القبطية بمصر الجديدة، وهو الذي اتهمته جريدة المكشوف بأنه ينقل عن بعض قساوسة لبنان، ولو رآه حاسدوه وهو يهدر باللغة الفصيحة لأيقنوا أنه في غنى عن انتهاب الأفكار والآراء.

وأذكر جريدة الإنذار بالمنيا وكدت أحسبها جريدة إسلامية لحرص صاحبها على نشر محاضرات الوعاظ من المسلمين.

وخلاصة القول إن جمهور الأقباط في مصر لهم نزعة إسلامية عميقة ترجع إلى صدقهم في الوطنية. وقد كان الأقباط أصهار الرسول، وهي وشيجة يحفظها الكرام من جيل إلى جيل، وكذلك يصنع جميع الأفاضل من الأقباط، إلا رجلاً واحدًا يتجنى على العروبة والإسلام من حين إلى حين، وهو الأستاذ سلامة موسى، على أرجح الأقوال.

نكتة أدبية:

قيل أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يلام على اصطفائه للشاعر حافظ إبراهيم، وكان شاعرنا حافظ فيما يذيع المرجفون رقيق الخلق والدين، فقال الشيخ محمد عبده، لقد صحبني حافظ إبراهيم أعوامًا فما استطعت أن أهديه ولا استطاع أن يضلني.

وأقول أنني صحبت الأستاذ سلامة موسى عشرة أعوام فاستطعت أن أهديه قليلاً، وما استطاع أن يضلني؟

وهل ترجع أيامنا بجريدة البلاغ، وكنا شبابًا نضطرم بجذوة الحرية العقلية؟

كنا نجلس في مكتب واحد وجهًا إلى وجه نتساقى حلو الأحاديث ومر المقالات.

وهل فر الأستاذ سلامة موسى من وجه ناقد كما فر من وجهي؟

ومع ذلك كان هذا الرجل أول من يتقدم لنصرتي في أيام الشدائد، لأن سلامة رجل والرجال قليل.

إليَّ يا صديقي، فما يستطيع الخلاف في الرأي أن يفسد ما بيني وبينك، لأن الصداقة رأي يفوق جميع الآراء، ونحن أولياء الصداقة في هذا الجيل المرتاب.

التاريخ المصري القديم:

كنت قلت في العدد الصريح الذي أخرجته مجلة "الاثنين" إن الأستاذ عبد القادر حمزة باشا إمام من أئمة العقل، ولكنه لا يجيد إلا حين يغضب، وقد قلت غضباته منذ عامين.

كذلك قلت، ولم أكن أعرف أن عبد القادر باشا سكت عامين ليستعد لإخراج كتابه النفيس "على هامش التاريخ المصري القديم".

فما هذا الكتاب؟

هو تحفه من تحف المنطق والعقل والذوق.

هو سلسلة ذهبية تربط حاضر مصر بماضيها في ترفق وتلطف، وتروض المصري على الاقتناع بأنه نشأن في بلد كان المصدر الأصيل لجميع المدنيات.

كان ابن العميد يقول: كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا.

وكذلك أقول في كتاب عبد القادر حمزة أو كتب عبد القادر حمزة لأن له أبحاث تاريخية سبقت كتابه الجديد، وهي نماذج حية لقوة الأدب وسيطرة العقل.

لا تجد في هذا الكتاب عبارة تشعرك بأن المؤلف يعتسف في تفسير النصوص، أو يحاول إعطاء مصر ما ليست له بأهل، وإنما تشعر بأنه باحث صادق يحاول تبين ما لمصر من مزايا ذاتية بلا تزيد ولا إسراف.

ويظهر من كتاب عبد القادر باشا أن المؤرخين متفقون على أن مصر هي مهد المدنية في التاريخ، هناك آراء في المفاضلة بينها وبين وطن الكلدان الذين كانوا يسكنون أحواض الفرات.

معنى ذلك أن الحضارة القديمة مدينة لبلدين اثنين هما مصر والعراق.

ومعنى ذلك أيضًا أن المنافسة بين دجلة والفرات والنيل منافسة أزلية: وأن التشابه بين المصريين والعراقيين في الألوان والوجوه ومخارج الحروف له أصول ترجع إلى مئات الأجيال.

كنا وكان العراقيون في التاريخ القديم.

فمتى نرجع إلى السيطرة على العالم في التاريخ الحديث؟

"لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة".

ولابد يومًا أن ترد الودائع، ولو طال مطال الزمان.

سعد زغلول خطيبًا[*]:

عجب فريق من القراء من حكمنا على الزعيم (سعد زغلول) خطيبًا، وهددنا أحد الرفاق الأعزاء بكتابة فصل ينقض به حكمنا من الأساس، وعاتبني بعضهم على ذلك الحكم الصريح فقلت: إنما سجلت إحساساتي بصدق، ولا موجب للمواربة في الحكم على خطيب لم تكن الخطابة إلا عنصرًا واحدًا من عناصر كثيرة تألفت منها قوته الذاتية، فمجده لا يقف عند القول بأنه كان أخطب الخطباء.

وأواجه الموضوع مرة ثانية خدمة للتاريخ الأدبي فأقول:

كان يهمني من عهد بعيد أن أدرس العصر الذي أعيش فيه دراسة صحيحة، وأن أزن المواهب عند من ألاقيهم من أهل الفكر والرأي والبيان وقد يتفق أحيانًا أن أشغل نفسي بدراسة الوجوه والملامح، وربما توغلت فدرست الصلات المجهولة من بين ما يظهر الناس وما يضمرون، فإن رأى بعض القراء خطأ في بعض ما أصدره من الأحكام الأدبية على أهل هذا الجيل، فلا يرجع ذلك الخطأ إلى المسارعة في حكم بلا روية، وإنما يرجع إلى أني قد لا أوفق إلى الصواب مع الحرص الشديد على النظر والتدقيق.

والحق إني مفتون بنفسي من هذه الناحية، ولا أعترف بأني قد أخطأ إلا تجنبًا للوقوع في اللجاجة مع بعض القراء مع أني أؤمن بأن الكبر المطبوع أخف روحًا من التواضع المصنوع، وأقول بعبارة صريحة أن التعبير اللساني له فنون. وقد تدق الفروق بين تلك الفنون، ثم تدق حتى يصبح من العسير أن تضع لها الموازين، ومن هنا ينشأ الخلاف في الحكم على طبقات المحدثين والخطباء.

وأضرب المثل بالفرق بين المحاضر والخطيب، فالمفهوم أن المحاضرة والخطابة فنان يقتربان أشد الاقتراب، لأنهما في ظاهرة الأمر يرجعان إلى أصل واحد، ومع ذلك ترى القدرة على المحاضرة والخطابة تتفاوت أشد التفاوت عند الرجل الواحد في بعض الأحيان.

---

[*] العدد ٣٧٥ من مجلة الرسالة ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٠.

فالدكتور طه حسين محاضرًا يعد في الطبقة الأولى بين المحاضرين، ولو راعينا أن الدكتور طه لا يستطيع أن يهيئ كلامًا يأخذ بعضه برقاب بعضه في دقائق تقارب الستين لجاز الحكم بلا مجاملة بأن الدكتور طه هو المحاضر الأول في هذا الجيل.

ومالي لا أقول الحق كل احلق فأصرح بأني لم أشهد في مصر محاضرًا يماثل الدكتور طه في جهارة الصوت ونصاعة الأداء.

ولكن طه حسين خطيبًا مخلوق آخر: فهو في الطبقة الحادية والعشرين بين خطباء هذا الزمان، وما سمعت الدكتور طه يخطب إلا أشفقت عليه، فمن العجيب أن الرجل لا يتحبس ولا يتوقف وهو يحاضر قد يتعرض لأبشع ضروب الغي وهو يخطب، فمن أين جاءت هذه الفروق بين الموقفين مع قرب الصلة بين موقف المحاضر وموقف الخطيب؟

أيرجع السبب إلى أن الدكتور طه محدث بارع، والمحاضرة فن من الحديث؟

أم يرجع السبب إلى أن الدكتور طه يجري على فطرته وهو يحاضر فيسلس له القول، ويتكلف وهو يخطب فيمتع "بمزايا" المتكلفين من الفضلاء؟

هذا موضوع يصلح للدرس، وهو من الدقة بمكان، وأذكر شاهدًا آخر يوضح هذه القضية بعض التوضيح.

كانت صحبتي طالت لفقيد الوطنية والدين عبد اللطيف الصوفاني، وكنت آراه أفصح الناس حين يدور الحديث حول المطالب القومية، ثم سنحت فرصة وجب فيها أن يقف ليخطب، فرأيت البون شاسعًا جدًا بين الصوفاني المحدث والصوفاني الخطيب، ولعل شاعرنا شوقي راعى هذا المعنى حين قال وهو يرثيه:

ما كان قسًا ولا زيادا ولا بسحر البيان جاء
لكن إذا قام قال صدقًا وجانب الزور والرياء

وعرف خطباء لا يجيدون إلا حين يحفظون خطبهم عن ظهر قلب، ومن هؤلاء المرحوم علي فمي كامل الذي مات في رثاء شهيد الوطنية محمد فريد.

وإنما قضيت بهذا لأن سمعته مرة يخطب نحو ساعتين بلا تلعثم ولا تردد: وكان ذلك في كلية مصطفى كامل في إحدى ذكريات الزعيم الأول، وبعد انفضاض الاحتفال بوقت قصير ظهرت جريدة اللواء، وفيها خطبة علي فهمي كامل، فرأيت النص المكتوب عين النص المسموع، لا تقديم ولا تأخير وبلا زيادة ولا نقصان.

ويؤكد من عرفوا الزعيم الخالد مصطفى كامل أنه كان يحفظ خطبه عن ظهر قلب، ويؤيد هذا خطبته التاريخية على مسرح زيزينيا بالإسكندرية، وهي أعظم خطبه، وبها ختم حياته الخطابية، وأسلوبها يشهد بأنه نظمها نظمًا ثم حفظها قبل أن يلقيها على الناس.

فكيف كان على فهمي كامل وهو يتحدث؟

كان أعجوبة الأعاجيب في قوة الأداء، وكان يطبق أسنانه بعنف في المواطن التي تحتاج إلى تأكيد، وكان يحفظ الأرقام مهما بعد عهودها في التاريخ، فلم يكن من الصعب عليه أن يذكر اليوم الذي وقع فيه حادث مأثور في أي عهد من العهود.

وقد حملته الثقة بالنفس على أن يتقدم للانتخابات في دائرة السيد زينب منافسًا للزعيم سعد زغلول، فلما راجعته في ذلك غضب وثار وأعلن أن انتصار سعد زغلول عليه أبعد تصورًا من المستحيل.

والمهم هو النص على أن علي فهمي كامل المحدث غير علي فهمي كامل الخطيب، لبعد ما بين الحالتين من العنف واللطف، والفطرة والطبع، ولم أشهد علي كامل يرتجل الخطابة إلا مرة واحدة في نوفمبر سنة ١٩٢٠ وقد وقف يخطب على قبر محمد فريد وهتف هاتف: يحيا سعد! فاغتاظ الرجل واندفع في تجريح سعد بقوة قهار فرضت على السامعين أن يلوذوا بالصمت والخشوع، في وقت لم يكن يجرؤ فيه أحد على أن يذكر سعد بغير الجميل.

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فكان يلقي خطبه بأسلوب المدرس المتمكن، وكان يغلب عليه أن يرد يده إلى أذنه بصورة من يدعو فكره إلى التجمع، وكان يهتف بكلمة "وي!" حين يرى المعاني تشرد أمام فكره القناص فترجع إليه وهي أوانس خواضع!

وكان الشيخ جاويش حين يتحدث في لحظات الصفاء أحيا من الفتاة البتول، وكان لصوته في أوقات اللطف نبرات عذاب، وكانت له ابتسامة حلوة إلى حد يفوق الوصف، وكان لعينيه بريق جذاب، فإذا غضب فحديثه ونظراته رعد وبرق وصواعق.

كنت أدخل عليه في وزارة المعارف بلا استئذان، وكانت الفرص كثيرة لمقابلته، لأنه كان يمكث في مكتبه كل يوم نحو عشر ساعات فيتغدى في الوزارة كيفما اتفق، ويصلي فيها الظهر والعصر والمغرب، وقد يحلو له الأنس بالواجب فيبقى في الوزارة إلى أن يصلي العشاء.

دخلت عليه مرة فوجدت عنده إنسانًا منزويًا في إحدى نواحي المكتب ورأيت الشيخ غضبان والشرر يتطاير من عينيه، فسلمت تسليمًا مختصرًا وجلست.

وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس، فقد صرخ:

"من يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون إلا يزور أوروبا إلا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية؟

إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا إلا في قليل من الأحوال.

فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وأدب النفس؟ وما الذي بهرك في الفتاة الأوروبية حتى تنسى بها بنت وطنك؟ ومتى يصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن وقد حرمكم الله نعمة الوطنية؟".

وخرج الشاب وهو آسف، وكانت لحظة صمت توهمت فيها عيني الشيخ جاويش مغرورقتين بالدمع، فطلب فنجان قهوة، ثم تكلف الابتسام، وقال: "لا تؤاخذني، فذلك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي، وما كنت أحب أن ينسلخ من وطنه بالزواج من امرأة أجنبية".

ومع أن المسألة فيها نظر، ومع إني كنت أراجع الشيخ في كثير من الشئون، فقد تخوفت عواقب غضبه إن راجعته في ذلك الشأن الدقيق، ثم انصرفت وقد عرفت أن الشيخ لا يرق ولا يلطف إلا في ساعات الصفاء، وإنه أخطب ما يكون وهو غضبان.

أما مكرم باشا عبيد فلم أسمعه يخطب إلا في الحفلات، وهو يحفظ عن ظهر قلب.

وقف يخطب في ذكرى ١٣ نوفمبر أيام الائتلاف، وبعد مدة تزيد على عشرة دقائق دخل عدلي باشا يكن ومعه جماعة من الوزراء، فرجع مكرم باشا إلى مطلع الخطبة من جديد فأعادها حرفًا حرفًا بلا تغيير، ولا تبديل.

أما مكرم باشا محدثًا فلم أعرفه إلا في لحظات قضيتها معه بشار ريفولي في باريس سنة ١٩٢٩، وهو يقبل عليك حين يحدثك، إقبال من يهمه أن يظفر بثقتك، فيترفق ويتلطف، وينتقل من فن إلى فنون، وهو في جميع أحواله خفيف الظل والروح.

ولم أسمع مكرم باشا وهو يرتجل لأعرف الفرق بين حاليه في الأداء، ولكن من المؤكد أن حاليه يختلفان بسبب غرامه بالزخرف والتنميق، ومن كان كذلك فأمره في الروية غير أمره في الارتجال.

ولم أسمع النقراشي باشا خطيبًا، ويقول الذين سمعوه إنه ليس من الخطباء.

أما النقراشي المحدث فهو آية في حلاوة التعبير وسلامة المنطق، على شرط أن يكون الحديث في داره لا في وزارة المعارف أو وزارة الداخلية.

وهو مرهف العقل حين يتحدث، ولكلامه مذاق خاص، لأنه لا يتكلم إلا وهو مبتسم، وقد تعجب حين يحادثك بأن يكون لمثله أعداء، لأنه ينقل أحاديثه عن قلب يفيض بالشهامة والصدق والإخلاص، وإن كثر القول بأنه مفطور على العنف والاعتساف.

والنحاس باشا خطيبًا لا يرضيني، وإن كنت أول من تنبأ بأنه سيكون خليفة سعد، يوم رأيته يصاول زغلول باشا في مجلس النواب، وكنت مضيت مع الأستاذ محمد الههياوي لشهود بعض المواقف المهمة قبل أن يموت سعد بعامين.

والعيب في خطابة النحاس باشا يرجع إلى الأداء، لأنه يؤدي المعاني بأسلوب رتيب، ولا يفرق بين مقامات الكلام إلا في قليل من الأحايين ولو جاز أن نقدم نصيحة لرجل في مثل مركز النحاس باشا لرجوناه أن يرجع إلى باب من أبواب العربية اسمه التوقف!

أما النحاس باشا متحدثًا فهو على جانب عظيم من الجاذبية في أوقات الصفاء، فهو يرسل النكتة المستعذبة بلا تكلف، وهو لكرم طبعه ينسيك أنه من الزعماء، وهو أولاً وآخرًا رجل له قلب، على قلة أرباب القلوب في هذا الزمان.

فإن تحدث النحاس باشا وهو غضبان فلا تعجب حين يقع منه مالاً يرضيك لأن الغضب يحوله إلى رجل ينكر أن في الدنيا كلامًا يقال وكلامًا لا يقال!

أما موهبة هيكل باشا خطيبًا فليست بشيء بالإضافة إلى موهبته في الحديث.

يحدث هيكل باشا وهو "ابن بلد" فتستظرفه إلى أبعد الحدود، لأنه من هذه الناحية موهوب، فإذا خطب وأراد أن يكون "ابن بلد" ضاقت به نفسك، لأن الخطابة لها وقار لا يسمح بالعبارات البلدية، وقد يعدها من الابتذال.

ويروعك من هيكل باشا صفاء عينيه حين يتحدث، حتى تكاد تجزم بأنه الشاب الذي ترفق فأشار في كتابه عن "جان جاك روسو" إلى أنه كان من أهل الفنون يوم كان طالبًا في باريس، أما مقام هيكل باشا في الصحافة والتأليف فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان، لأنه في هاتين الناحيتين من أقطاب هذا الجيل.

أما زعيم الدستوريين محمد باشا محمود.. فلم أشهده خطيبًا إلا مرة واحدة في الخطبة التي قال فيها وهو غضبان:

"نريد أن نعرف لمن الأمر اليوم: ألسعد أم للأمة؟".

وكنت سمعت أنها عرضت قبل إلقائها على الدكتور طه حسين والعهدة على الشخص الذي صحب الدكتور طه أيام سكناه بحي قصر النيل، فهو الذي زعم في جريدة "الإنـذار" أن الدكتور طه هو الذي أنشأ تلك الخطبة التاريخية.

والذي يرى محمد باشا محمود وهو يتحدث يؤمن بأنه من أفراد الأدباء في اللغة العربية، وكيف لا يكون كذلك وهو من أسلم الناس ذوقًا في الحكم على الأدب القديم والحديث؟

ولم يكن صوت ثروت باشا في الخطابة بالصوت المقبول، كان صوته لونًا من (الصرصعة)، وكان يقرأ خطبه في أوراق مكتوبة بطريقة تشهد بأنه يخشى عادلة اللحن والتصحيف.

وأعظم خطب ثروت باشا هي خطبته في الرد على معارضيه سنة ١٩٢٢، وقد صححها المرحوم محمد المرصفي، فشهد التصحيح بأنها استهدفت لطغيان قلمه البليغ.

أما ثروت باشا المحدث، فكان من الآيات في عذوبة الروح وقد استطاع بلباقته أن يسيطر سيطرة روحية على الزعيم سعد زغلول قبل رحيله عن هذا الوجود، فلما وقف يرثي سعد بعد ذلك، قهره القلب الطيب على أن يضيف إلى خطبته سطورًا من الدمع المسكوب.

ولم أسمع حافظ باشا عفيفي وهو يخطب، أما أسلوبه في الحديث فقد بهر قلبي وعقلي.

وطلعت باشا حرب ليس بخطيب ولم يخلق للخطابة، وهو مع ذلك محدث جذاب، وحاله في ذلك يشبه حال الدكتور علي باشا إبراهيم، أو حال عبد الحميد باشا بدوي.

ولا أعرف أين يقع مكان نجيب بك الهلالي بين الخطباء، ولكني أعرف أنه محدث ظريف.

أما حلمي باشا عيسى، فهو فيض من القوة والفتوة حيث يتحدث، وإن كنت لم أرض عن أسلوبه الخطابي حين سمعته في مجلس النواب، ولعل ذلك لأن موقفه كان موقف المقرر لا موقف الخطيب، والأستاذ إبراهيم عبد الهادي كان من خطباء الثورة المصرية، وكان يومئذ فصيح اللسان، وكان صدري ينشرح حين أراه على حداثة سنة يتسامى إلى منازل الخطباء القدماء في تحيز اللفظ الفخم والمعنى الوهاج، ثم ضاق به صدري حين سمعته يخطب في مسرح الأزبكية بعد الثورة بأعوام، فقد سلك في التحريض على أعضاء الحزب الوطني مسلكًا غير مقبول، ومع ذلك كان يستقر الجمهور بشواهد من القرآن والحديث!!

وكذلك انصرفت عنه وانصرف عني فلم نكن نتبادل التحيات إذا التقينا مصادفة في الطريق، ثم تعارفناه بعد طول التغاضي حين تلاقينا في المفوضية العراقية منذ أكثر من شهرين فكيف صار إبراهيم عبد الهادي الخطيب؟ أهو كعهدي به قبل عشرين عامًا حين كان يرصع خطبه بالحكم والأمثال والآيات والأحاديث؟ أم تكون الدنيا راضته على فنون من سرعة القول وبديهة الارتجال؟

يشهد ما أقرا من خطبه المنشورة أنه لا يفرق كثيرًا بين مقامات الكلام، فهو يخطب في مجلس النواب كما يخطب في الحفلات مع أن الفرق بين المقامين بعيد، فإن سنحت فرصة لشهوده خطيبًا ومتحدثًا فقد أرجع إلى هذا الرأي بشيء من التعديل، ولكن ما أهمية الخطابة والحديث في حيوات الرجال؟

لذلك أهمية عظيمة جدًا، فأستاذنا أحمد لطفي السيد باشا مدين لمواهبه في الحديث أولاً وفي الخطابة ثانيًا، وأكاد أجزم بأنه يراعي التعبير كلما تحدث، ولو كان الحديث أمرًا بتقديم القهوة للضيوف، وللحديث عنده ألوان: فهو تارة بالعامية الشرقاوية، وتارة بالفصحى البدوية، تبعًا، تبعًا لاختلاف المقامات، ولهجته البلدية عذبة حلوة تقع من آذان السامعين أجمل موقع، فإذا بدا له أن يغرب فهو أعرابي من مجاهيل البيداء، وهو في حاليه يتكلم بصوت رنان يذكر بألحان يوسف المنيلاوي، إن رضى عن هذا الوصف.

ولطفي باشا له تاريخ في الدعوة العامية، ولكنه مع ذلك يكره التبذل والإسفاف في الخطب والمحاضرات، ولو سمعته وهو يخطب لعرفت أن دعوته إلى العامية لم تكن إلا دعاية أراد بها أن يشغل الجمهور عن المناوشات التي كانت تقرأ بين أرباب الأقلام أيام الصيال بين الجريدة والمؤيد واللواء، فلما جد الجد وصار مديرًا للجامعة المصرية أعلن أن اللغة العامية لغة العوام، وأنها لا تملك القدرة على التعبير عن أفكار الخواص، وفي حديث أذيع باسمه في مجلة الهلال.

أما بعد فأين أنا مما ابتدأت به هذا الحديث.

كنت أريد أن أشرح كيف اختلفت الآراء في سعد زغلول خطيبًا ثم اندفعت إلى شجون من الأحاديث شغلتني عن الموضوع الأصيل، وإن كانت تتصل به أوثق اتصال، فإن استطاب القراء هذا الفن من التشريح فسأرجع إليه بعد حين.

شاعر ينبغ فوق سرير المرض(*):

مضت سبعة أعوام والأستاذ صالح جودت يحقد عليّ أبشع الحقد لسكوتي عن التنويه بمواهبه الشعرية، وما هدأ نار الحقد في صدره إلا عرفانه بأني لا اخصه بذلك السكوت وإنما هو مبدأ ارتضيته ودرجت عليه، وذلك المبدأ هو الضن المطلق بتشجيع الناشئين، لأن أعتقد أن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان، فالتشجيع هنا مفسدة ولا يقع إلا من "الجماعة" الذين يحتاجون إلى أسندة من الهتاف والتصفيق، والتحدث عنهم بحق وبغير حق في الأندية والقهوات والجرائد والمجلات.

وهذا المبدأ هو الذي فرض على جمهور من هذا الجيل أن ينفضوا من حولي، فما يهمهم أن يذكروني بالجميل في مجلة أو جريدة، لأنهم لا يذكرون أني طوقت أعناقهم بشيء من التشجيع، وأنا غير آسف على ما فاتني من ذلك الحظ الجزيل.

ولو أني استبحت التفريط في الحرص على هذا المبدأ مرة واحدة لاستبحته في معاملة الأستاذ صالح جودت، وهو صديق لا أذكر أنه قصر في حفظ العهد إلا باتهامي بالسكوت عنه التنويه بمواهبه الشعرية، وهو اتهام مردود، لأن لا أذكر أن أشعاره نقلت قلبي من مكان إلى مكان حتى أجثم نفسي مشقة الدرس لشعره البليغ.

كان صالح جودت يتقاضاني الكلام عن شعره في كل لقاء، وكنت أجيب بأن ذلك سيكون يوم يظفر بدرجة من درجات الجامعة المصرية، لأني أخشى إن شجعته أن ينصرف عن الدرس وينقطع لقرض الشعر ومراسلة الجرائد والمجلات، فلما سمع صالح جودت نصيحتي وظفر بالدرجة المنشودة جاء يذكرني بما كنت وعدت، فهل وفيت بما وعدت؟

حلمني الزهد في اجتلاب الموادات على وصل السكوت بالسكوت، كما كنت صنعت في معاملة صاحب "الجندول".

ثم شاءت الأيام أن أسمع أن صالحًا وقذه المرض فلم يعد بهجة الأندية الأدبية، ولم يبق رجاء في التحدث إليه إلا بعد استئذان الطبيب.

(*) العدد ٣٧٧ من مجلة الرسالة ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٠.

فإن كنتم سمعتم أن الشعراء وصفوا الدنيا بالخيانة والغدر والعقوق فاعرفوا أن ذلك الوصف لم يحق على الدنيا إلا لبغيها الأثيم على مثل هذا الشاعر، وله قلب أطيب وأطهر من قطرات الندى فوق أزهار الربيع.

ومرت ثوان ودقائق وساعات وأيام وليال وأسابيع وأشهر ولم يخرج صالح من سجن المرض، فما أطول شقائي بمحنتك القاسية، أيها الصديق العزيز.

وعلى حين غفلة أسمع أن الفتى الذي لم يرضني شعره قد نبغ فجأة فوق سرير المرض، فهو الذي يقول في تصوير ما بقي من أوتاره هواه في دنياه:

فليرحم الله آمالي وأهوائي ... إني قنعت بهذا المخدع النائي

بقية العمر أيام تدب على ... صدر تهدم إلا بعض أشلاء

أعيشها ناكسًا في ركن صومعة ... قامت على صخرة كالموت صماء

يبدو خيال الأماني لي فأطرده ... حتى كأن الأماني بعض أعدائي

ثم يصف عزلة المستشفى وأحوال ساكنيه فيقول:

أواه من عزلة كالسجن مغلقة ... على جراح وآلام وأرزاء

ما هذه الجثث الملقاة في سرر ... أنصاف موتى على أنصاف أحياء

صفر الوجوه كأن السقم عفرهم ... بحفنة من تراب القبر صفراء

لآه فيهم تراتيل منغمة ... تناسب من قصبات نصف خرساء

وما لهم من نهار فيه مرحمة ... ولا لهم ليلة ليست بليلاء

ثم يلتفت إلى الممرضة الحسناء – ومن تقاليد المستشفيات أن تكون الممرضات صباح الوجوه إلى حد الفتون ليغرسن بذور الأمل والحياة في صدور المكروبين- يلتفت إلى الممرضة فيقول:

من يا ممرضتي الحسناء قدر لي	أن ألتقيتك بأرض غير حسناء
ماذا أتى بي هنا؟ ما خطب عافيتي؟	وكيف غال شبابي غائل الداء
قد كان لي موعد في الصيف مرتقب	على الشواطئ بين "الرمل" والماء
فما لذا الصيف يمضي بي على جبل	جهنمي اللظى في جوف صحراء
وأنت.. هل عطفك المبقى على رمقي	عطف المحبين أم عطف الأطباء
إن كان ذلك فيا سعدي ويا فرحي	أو كان هذا فإني في الأذلاء
الحب يشهد أني يا ممرضتي	ما صدني عنك إلا فرط إعيائي

أما بعد فهذه الشاعرية ليست صحوة الموت، يا صالح، وإنما هي الفجر الصادق، وسترجع إلينا بعد أيام وأنت في غاية من عافية البدن والروح.

لم أسأل عنك في علتك، يا صالح، لأني شغلت بك عنك، ولو سألت قلبك لشهد بأن عطفي عليك وأنا بعيد كان أرفق من عطف طبيبك وهو قريب، واصدق الحديث حديث القلوب.

سترجع إلينا يا صالح، بعد أيام، وسنعيد سهراتنا في أندية القاهرة، وسأسمع لحاجتك في العتاب، وسأقول إن البلبل لا يجيد السجع إلا وهو سجين، لأني عرفت شاعرًا لم "يجد الشعر إلا وهو عليل".

الملك الشبل:

لم أسمع أن جلالة الملك فيصل الثاني يوصف إلا بعبارة "الملك الطفل" وهي عبارة جافية، فأرجو من الشعراء والكتاب أن يصفوه بعبارة "الملك الشبل" فهي بمقامه أنسب وأليق.

وأذكر بهذه المناسبة أن صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا تلطف فدعاني إلى مكتبه ليقدم إلي "وسام الرافدين" المهدي إليّ من حكومة العراق.

وقد وثب قلبي من الفرح والانشراح لقيمة الهدية ولقيمة من أتلقى من يده الهدية، فليس من الميسور في كل وقت أن تكون وزارة المعارف إلى أديب في منزلة الدكتور هيكل باشا، الرجل الذي أفنى شبابه وعافيته في خدمة الدراسات الأدبية والتاريخية، والذي يعد قلبه مثالاً في الطيبة والصفاء.

وقد نظرت في الوسام فرأيته متوجًا بكلمة "فيصل الأول" فأهلاً وسهلاً ومرحبًا بوسام يحلى باسم ملك هو الفيصل بين عهدين من عهود العراق: عهد العجمة وعهد الإفصاح، فقد كان فيصل الأول بمذاهبه ومسالكه هو التعبير الصحيح لعواطف العراق في التشوق إلى رجعة المجد العربي في أيام المنصور والرشيد.

ومع أن مكاره الأيام ومتاعب النضال لم تبق في صدري بقية من التأهب للجدل والانشراح فقد سرني أن تشهد جريدة "الوقائع العراقية" بأني ذكرت بالخير في "إرادة ملكية" يمضيها صاحب السمو "الأمير عبد الإله ومعالي السيد صادق البصام وفخامة السيد رشيد عالي الكيلاني جعلنا الله ممن يرعون العهد ويحفظون الجميل.

وإذا حييتم بتحية...

تفضل الزميل الكريم الأستاذ أبو بكر إبراهيم المفتش بوزارة المعارف فأعد "كلمة لمجلة الرسالة في رد التحية الجميلة التي وجهتها جريدة الهدف البغدادية إلى مصر بإصدار عدد خاص عن أديب مصري كان له نصيب في خدمة الحياة الأدبية في العراق.

ولم يكن بد من تلطف هذا الزميل الكريم برد هذه التحية الكريمة، فليس في مقدوري أن أرد تحية جريدة الهدف، فذلك امتحان لا أتقدم إليه وأنا طائع، لأني أشعر بالعجز عن وفاء هذا الدين النفيس.

في ذلك العدد الخاص تحدث الأستاذ عبد الحميد حسن الغزالي، وحميد مجيد الهلالي، وعبد المجيد لطفي، وعبد المحسن القصاب، وعبد السلام حلمي، وعبد الله محمد الطائي، وعبد الرحمن البناء، وروبين عوبديا، وصالح البدري، وعبد الرازق الهلالي، تحدث هؤلاء الأماجد عن صديق العراق زكي مبارك حديثًا هو البرهان الساطع على أن الوداد لا يضيع عند أحرار الرجال.

وقد فكرت كثيرًا في الأسباب التي جعلت لي هذا الحظ المرموق في العراق، ثم رأيت أن الأسباب كلها تنتهي إلى سبب واحد: هو الصدق فما تحدثت عن العراق بالجميل إلا وأنا صداق ولا ذكرته بالملام إلا وأنا صادق، وكيف لا اصدق في حب وطن كان ينسيني وطني؟

ولو عبرت عن نفسي تعبيرًا صحيحًا لقلت إني لم أستطع أن أتوهم أن مصر والعراق وطنان مختلفان، وما صح عندي أبدًا أني كنت غريب الدار في بغداد... وكما كان الشريف الرضي يهدد خصومه في العراق بأن له مصر في أصدقاء يستنجد بم حين يشاء، فأنا أشعر بأن لي في العراق أصدقاء استنصر بهم حين أشاء، والله سبحانه هو المفزع لأبرار القلوب.

وفي اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمة يستعد فريق من الأساتذة المصريين للتوجه لخدمة العلم والأدب في العراق، فأرجو أن يذكروا جميعًا هذه الكلمة الصادقة:

"كما تكون للعراقيين يكونون لك".

فمن أراد أن يظفر بحب أهل العراق فليصدق في حب أهل العراق، وليعرف جيدًا أن العلانية قليلة الأهمية، فالمعول عليه هو صدق القلوب فقد كنت على جانب من جفاء الطبع حين كنت هناك فما ضرني ذلك بشيء لأن قلبي كان مأهول الجوانب بالصدق في حب أولئك الرجال الصادقين في الحب والبغض، وهو برغم قالة الحجاج أبعد الناس عن الرياء.

ما أذكر أني كلفت نفسي مالا تطيق في التودد إلى العراقيين، وإنما أرسلت نفسي على سجيتها، وعشت في بغداد كما كنت أعيش في القاهرة وفي باريس، وكنت أصادق وأعادي كما أصادق في بلدي وأعادي، فكانت العاقبة ما عرف إخواني في مصر من تواتر العطف عليَّ من جميع أهل العراق، والصدق في النصح يستوجب النص على الحقيقة الآتية:

لم أفكر وأنا في العراق إلا في شيء واحد: هو أن أؤدي واجبي تأدية صحيحة لا يؤخذ عليها تقصير أو تفريط، وكنت أشعر في كل لحظة أني مسئول أمام حكومتين: حكومة القاهرة وحكومة بغداد، وأن التهاون في تأدية الواجب يضيع على مصر مزية عظيمة، هي الثقة بكفاية أبنائها وقدرتهم على النهوض بما ينتدبون له من خدمة العلم والأدب في البلاد العربية.

ويجب أن أسجل أن إخواني العراقيين قد أعانوني على تحقيق هذا الغرض الشريف، فهم الذين خلطوني بأنفسهم، ودعوني إلى الاشتراك بأنديتهم الأدبية والعلمية، وحضوني على المشاركة في توجيه الرأي العام بالمقالات والمحاضرات، حتى استطعت في أشهر معدودات أن أدون ألوفًا من الصفحات لم يظهر منها غير ستة مجلدات.

وأعترف بأني كنت أشعر بالغيرة تحز في صدري من أربعة رجال سبقوني إلى كسب ثقة أهل العراق، وهم الأساتذة: محمد عبد العزيز سعيد وأحمد حسن الزيات وعبد الرازق السنهوري، وعبد الوهاب عزام، فكان من همي أن أزاحم أولئك الرجال مزاحمة جدية تجعل

لي مقام صدق في بلاد الرافدين، وقد وصلت بحسن النية وبرعاية الله إلى تحقيق ما أردت بلا مشقة ولا عناء.

وأواجه الأمر بصراحة فأقول: إننا لم نصنع شيئًا يزيد على وضع الأساس للمودة الصحيحة بين مصر والعراق، فلست أنتظر من الأساتذة الذين يخلفوننا هنالك أن يحفظوا ما صنعناه، فذلك مطلب سهل المنال، وإنما أرجو أن يمضوا في رفع قواعد البناء بحيث لا تمر أعوام طوال قبل أن يصبح من القضايا المقررة أن لفظة الغربة لم يبق لها مدلول في ذهن عراقي يعيش في مصر، أو في ذهن مصري يعيش في العراق.

ولكن ما جزاء من ينتفع بهذا النصح؟ جزاؤه هو الشعور بأنه رجل نافع، والاطمئنان إلا أنه على جانب من قوة الأخلاق، فليس من القليل أن يستطيع الرجل كسب الثقة بوطنه في بلد مثل الحجاز أو فلسطين أو سوريا أو لبنان، والثقة لا تنال في أمثال هذه البلاد إلا بالصدق في الوطنية والصدق في الجهاد.

وقد اتفق لي في بعض الأحايين أن أناوش فريقًا من السوريين واللبنانيين فما ضرني ذلك بشيء، لأن من ناوشتهم يعرفون في ضمائر قلوبهم أني سليم القلب، وأني لا أريد إلا جذبهم إلى الانضمام إلى القافلة العربية بلا تلفت إلى دسائس من يهمهم تقسيم الأقطار العربية إلى دويلات يذوق بعضهم بأس بعض بلا موجب معقول.

ومن حسن الحظ أن تكون البلاد الشامية في طريق من يسافر من العراق إلى مصر، أو من مصر إلى العراق، فتلك فرصة ذهبية لتوكيد المودة بين الأقطار العربية، وبها نستطيع وأد الدسائس التي تحاك في أحلاك الليالي لتمزيق شمل العرب والمسلمين.

وقد شاءت الظروف أن ترى اليمن والمغرب من البلاد البعيدة لقلة رغبتنا في الهجرة والارتحال، فمتى يجيء اليوم الذي تقهرنا فيه المبادئ على التضحية بالأنفس والأموال في سبيل التعرف إلى الأقطار العربية؟

المصري لا ينتقل من وطنه إلا وهو موظف مطمئن إلى أنه سيجد وظيفته حين يرجع، فمتى يخلق المصري المجاهد الذي يستهين بجميع المنافع في سبيل المبدأ والعقيدة والرأي؟

كنت أتمنى أن أكون ذلك المصري المنشود، ولكن ماذا أصنع وحولي "أكباد تمشي على الأرض" وليس في شريعة الوطنية أو الدين ما يسمح بهجر تلك الأكباد؟

أنا مقيد بقيود من حرير هي أقسى وأعنف من قيود الحديد، فإن تلطف الله وقبل أن يكون الجهاد بالقلم مما تنصب له الموازين فلن يكون ذلك أول نعمة يسديها رجل لم يشرق أو

يغرب إلا وهو متوكل عليه توكل الواثق بأن الأمر كله إليه وأن له حكمة عالية تجعل الـشر على بشاعته لونًا من الخير المستطاب.

لا خوف من المستقبل مع صحة العزائم والقلوب:

لم يبق ريب في أن الشرق مقبل على قلقلة تاريخية بسبب عدوان أهل الغرب بعضهم على بعض. وقد شاءت المقادير أن يتأثر الشرق بمصير الغرب لأسباب لا تخفى على اللبيب، وربما جاز القول بأن العالم كله قد ربط برباط وثيق يفرض على من في أقاصي بحر الهند أن يتأثر بما يقع لمن في أقاصي بحر الشمال، فليس من المستغرب أن يرتج الشرق للمجازر التي تقع بين الإنجليز والألمان.

فمن واجبنا نحن إزاء هذه الظروف؟ واجبنا أن نذكر أن مبادئنا في تحرير الشرق لن ينالها تعديل ولا تبديل، واجبنا أن نذكر أن جهادنا في سبيل الحرية جهاد قديم، وأننـا تـسلمنا راية الكفاح من الآباء والأجداد، واجبنا أن نذكر أن الغرب الذي صنع ما صنع لم يفلح فيمـا تطاول إليه من وأد اللغة العربية والعقيدة الإسلامية.

واجبنا، واجبنا، واجبنا.

ذلك الواجب لا يحتاج إلى تعريف جديد، فهو مسطور الملامح في كل قلب، وله جذور في كل نفس، وله سلطان على كل ضمير، ولا خوف من غياهب المستقبل، إذا صحت العزائم والقلوب.

فليقلقل التاريخ كيف شاءت الظروف، وليكن ما يكون بين الإنجليز والألمان، فـنحن نحن، والعاقبة للصابرين في ميدان الجهاد، وسيعلم المعتدون على الشرق كيف تنهزم قـوتهم المادية أمام قوته الروحية في أمد أقرب مما يظنون.

١٢

جناية الجمال(*):

أكتب هذه الكلمة في مساء اليوم الرابع عشر من شعبان بعد إذ نقل المذياع دعاء شيخ الأزهر الريف بأن يكشف الله الغمة عن الأمم الإسلامية، وهو دعاء أمن عليه جمهور كبير بدعوة صاحب الجلالة الملك "ملك مصر بعون الله" أيد الله ملكه، واستجاب دعاءه، فدفع السوء عن بلاد العرب والمسلمين.

وفي هذا المساء يتحدث الناس عن المخاوف التي تساور مصر في الحدود العربية وفي بعض أقاليم السودان... وتلك أحاديث تقبض الصدر، وتحزن القلوب، ثم تقهر النفس على التفكير في جناية الجمال على الجميل، فما تلقى مصر المكاره إلا بفضل ما تعد من خيرات وثمرات، وما تمكن للظاهرين عليها من السيطرة على الغرب والشرق، لأنها منذ الأزل إقليد الغرب والشرق، وإلا فكيف جاز أن تكون هدفًا أبديًا لكل من جن له الدهر في التاريخ القديم والتاريخ الحديث، بحيث يمكن الحكم بأن جمالها لم يفارق خيال الطامعين في زمن من الأزمان.

وهل مر على مصر عام واحد بلا ابتلاء بمكايد الطغاة والمبطرين؟

من يصدق أن مصر جشمت الناس المتاعب في التاريخ القديم يوم كانت صعوبة المواصلات لا تسمح بأن يصل إليها النيرون إلا بعد التعرض للمخاطر والمعاطب في الشهور الطوال؟

وهل يعرف أحد كيف جاز أن تكون المعضلات الأخلاقية والاجتماعية في مصر هي أهم ما شغلت به الكتب السماوية؟

ومن نحن حتى تكون بلادنا أخطر البلاد التي تحدث عنها القرآن المجيد؟

من نحن؟ نحن الصابرون على مصاعب الإتقان والتجويد في العلوم والفنون منذ العهد الذي سبق التاريخ بأجيال وأجيال.

وهل لبلاد في الدنيا ماض يشبه ماضي هذه البلاد في العناية بالعلوم والفنون؟ فإن سألتم عن الحاضر فإليكم أسوق الحديث بلا تزيد ولا إسراف:

(*) العدد ٣٧٨ من مجلة الرسالة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٠.

كانت بلادنا الغالية هي الهدف الأول للحروب الصليبية، وكانت تلك الحروب مبدأ اليقظة في الغرب، وبفضل اصطدام الصليبيين بمصر عرفوا أول مرة كيف تكون الحضارة والمدنية.

ومن أين عرف الصليبيون الاستشهاد في سبيل النصرانية؟

إنما نقلوا ذلك عن مصر، فهي أول بلد تعصب لدين عيسى في القرون الخوالي، كما كانت أول بلد أذاع نظرية التوحيد، يوم كان العالم كله لا يعرف غير الارتطام في أوحال الوثنية، وذلك هو السر في حرصها على إعزاز الإسلام، لأن الإسلام هو التعبير الصحيح عن نزعتها القديمة في إيثار التوحيد.

وجو مصر له فضل عظيم على الإنسانية. وأين من يعرف أن جو مصر هو الذي هدى الناس إلى الطيران؟

فوق جبل المقطم شرقي القاهرة وقف رجل فرنسي فقير يكسب قوته من العمل بأحد متاجر القاهرة، وقف يرقب حركات الطير فوق ذلك الجبل قبيل الشروق وبعيد الغروب، وما زال يصوب ويصعد حتى اهتدى إلى سر الطيران.

فهل يذكر الألمان المغيرون بطائراتهم على لندن أو الإنجليز المغيرون بطائراتهم على برلين أن "جو مصر" هو الذي أمدهم بذلك السلاح؟ وهل يذكر الطليان الذين يهددون "مصر الجديدة" بغاراتهم الجوية أن "مصر الجديدة" فيها تمثال "مويار" الذي نقل عن "جو مصر" سر الطيران؟

ما سمعت صفارات الإنذار بالغارات الجوية وأنا قار بداري في "مصر الجديدة" إلا عجبت من إمعان بني آدم في العقوق، فكل بلد يجوز الهجوم عليه بقاذفات القنابل إلا البلد الذي يقوم فيه تمثال الرجل الذي هداه "جو مصر" إلى سر الطيران.

ولكن أين من يحفظ لمصر الجميل؟

وجو مصر صنع ما صنع في تقدم الطب الحديث، فهل الصين على بعد الدار، وشط المزار، يعرفون أنهم أصبحوا في أمان من أمراض لم تكتشف جراثيمها إلا في البلاد التي أنجبت البارودي وشوقي وحافظ ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ومصطفى كامل وسعد زغلول، كما أنجبت الفلكي والبقلي وعثمان غالب.

وما استوطن أجنبي مصر إلا خلعت عليه أثواب القوة والبهاء، وما دخل غريب مصر إلا نسى بلده الأصيل أبد الآبدين.

فإن قيل إن بلدنا موطن الأخياف فهذا حق، لأن حوض الزهر هو الوطن لجميع أمم النحل.

وهنا أذكر أن النحل المصري تفرد بالشراسة والحمق، لأنه يعرف أنه معدو عليه، ويعرف أن أسراب النحل تأتي لمنافسته من جميع بقاع الأرض، وكذلك يتهم المصري بالثورة على "الأجانب" من حين إلى حين.

وطني: إن جمالك هو الذي يجني عليك.

أما رأيت كيف تباح حرية الإضاءة في جميع الشواطئ ولا تقيد إلا في الإسكندرية وبور سعيد؟ وهل كان ذلك إلا لأن هذين البلدين هما أجمل ما تملك فوق شواطئ البحر المحيط؟

وطني: لهذا اليوم ما بعده، وسوف تلقاني وألقاك، وأن أرجف المرجف بأن لا لقاء بعد اليوم المخوف.

وطني: إن لم أحمل السيف في حمايتك فقد حملت قلمي في الدفاع عنك، والقلم أبقى من السيف، وفضلك في الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف، وقد أقسم الله بالقلم لا بالسيف، فعش إلى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان.

وطني: أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرني في العصبية لك، لأنك وطني وحدي، ولأني لا أسمح لأحد بأن يسبقني في الوصول إلى مواقع هواك.

وطني: وطني: إن عشت لك فسأحمل رايتك في المشرقين والمغربين، وسأكون سفيرك في كل أرض يصل إلى أسماع أهلها قلمي، فإن مت قبل أن أدرك في خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والإخلاص.

وسلام الله على أبرار الشهداء.

ألفاظ صحيحة:

قلت في بعض المناسبات إني سريع الإنشاء، فظن كثير من الناس أن هذه السرعة قد تعطل العناية بالأسلوب، وقد تفوت الفرصة في تخير الألفاظ الصحاح.

أقول إن السرعة في الكتابة لا ترجع إلى التحرر من قيود الألفاظ والأساليب، وإنما السرعة في الكتابة ملكة من الملكات النفسية يكسب منها ما يكسب، ويوهب منها ما يوهب، وقد ترجع إلى ما يتصف به الفكر في بعض الأحيان من القوة والمضاء.. فإن رأى أحد القراء

في مقالاتي أو مؤلفاتي كلمات أنكرها النقاد فليعرف جيدًا أن وجه الصواب لم يغب عني، وإنما أثبت تلك الكلمات وأنا أعرف ما وجه إليها من التجريح والتزييف، لأنني أدرك من أحوالها ما لم يدرك أولئك الناقدون الفضلاء، وإليكم بعض الشواهد:

تلطف كاتب كبير فأوصى أحد الأصدقاء أن يبلغني أني أخطأت في استعمال كلمة انسجام بمعنى "هارموني" وأقول إنها وردت بهذا المعنى في رسائل إخوان الصفاء.

وأنكر أديب آخر أن أجمع صناعة على صنائع، وأقول إنه جمع وله نظائر مثل رسالة ورسائل بوضاعة وبضائع.

وأخطأ المتحذلقون بوزارة المعارف حين غيروا اسم "مدرسة الفنون والصنائع" ليصيروها "مدرسة الفنون والصناعات" ولو نظروا لعرفوا أن الناس يقولون: "فلان رجل صنايعي" بالنسبة إلى الجمع وهو صحيح ولو كان في أولئك المتحذلقون من ساير كتب العرب في أبواب الاقتصاد لعرف أن العرب في مؤلفاتهم لا يجمعون صناعة إلا على صنائع. والقول بأن "صنائع" ليس إلا جمع صنيعة لا يخلو من التحكم البغيض.

وأنكروا أن ترد "النسائم" في كلامي جميعًا للنسيم، وأقول إنها وردت كذلك في نثر الشريف الرضي، وأنا راضي بأن أخطئ مع الشريف.

وأنكروا أن أقول المساهمة بمعنى المقاسمة، وقد طربت أشد الطرب حين وجدت لها شاهدًا في نثر الشريف، ثم عجبت كل العجب من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشري نص عليها في الأساس فقال: وتساهموا الشيء، تقاسموه، ثم أنشد:

تساهم ثوبها ففي الدرع رأدة ... وفي المرط لفًا وإن رد فهما عبل

وأنكروا أن أقول المرير بمعنى المر، وقد استأنست بقول الشريف:

وما كل أيام الشباب مريرة ... ولا كل أيام الشباب عذاب

ثم عجبت أيضًا من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشري ينص عليها في الأساس فيقول: وشيء مر ومرير وممر، ثم أنشد:

إني إذا حذرتني حذور ... حلو على حلاوتي مرير

وأنكر الشاعر حسن بك حمدي أن يقول الأستاذ العقاد "البديهة" في مكان "البديهية" أو البديهي، وأقول أن المعاجم نصت على البديهة لغرض واضح هو القول بوجود المؤنث. وكذلك الحال في "الهناء" وهي كلمة يموحها أساتذة اللغة العربية كل يوم من دفاتر التلاميذ بحجة أن القاموس المحيط لم يذكر غير "الهناءة" وهم ينسون أن النص على المؤنث مقصود... والشريف الرضي يقول:

وما أوفت على العشرين سني وقد أوفى على الدنيا عزيمي

والعزيم مذكر العزيمة وإن لم تنص عليه المعاجم.

فإن قيل أن كلمة الشريف هي "غريمي" بالغين المعجمة فأنا أجيب بأن ذلك تحريف لا يخفى على أهل الذوق، وأنكر قوم أن أجمع بحثًا على أبحاث فأقول في صدر كتاب "الموازنة بين الشعراء" إنه "أبحاث في أصول النقد وأسرار البيان" وأقول إن البحث يجمع على أبحاث، وقد نص ذلك على بعض اللغويين.

إلى المنصورة، إلى المنصورة:

بعد ساعة واحدة من المشروع في كتابة هذه السطور آخذ طريقي إلى المنصورة وطن الشعر والخيال، فهل تلقاني المنصورة بالضم والعناق وهي كناس الحور العين؟

ما أذكر أبدًا أن المنصورة داينت "قلبي بشيء، فما سر ذلك؟ ما سر ذلك وما كنت أغلف القلب ولا أصم الفؤاد؟

يرجع السر إلى أني قضيت دهري مثقلاً بفوادح الأعباء فما دخلت بلدًا شرقيًا أو غربيًا إلا وفوق كاهلي واجب مفروض وما ظهرت بمظهر المتلهى والمتفرج إلا لأكايد خصومي فأزعم أني أعاقر من صهباء الحياة ما يعاقرون.

فإن كنت زرت المنصورة قبل اليوم مرة أو مرتين أو مرات فما ذلك إلا تأدية لواجب أسأل عنه مرة أو مرتين أو مرات، لأن قلبي يحدثني في كل وقت بأني مضطهد، وبأن خصومي يسرهم أن يعلموا ولو من طريق الوهم أني قصرت في حد الواجبات... وإذا كان الدكتور طه حسين لم ينس كلمة جافية سمعها من أبيه منذ أكثر من أربعين سنة فأنا لم أنس أن أحد الرؤساء بوزارة المعارف واجهني بالكلمة الآتية:

"في كل موسم لك كتاب جديد، ولك في أكثر الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية مقالات وبحوث، فمتى تشتغل لنا؟".

وكذلك كان الأمر في زيارة المنصور فلم أدخلها إلا مثقلاً بواجب تـأبى فداحتـه أن أتلفت إلى ما في رياض المنصورة من غرائب الأزهار والرياحين.

إلى المنصورة إلى المنصورة.

ولكن كيف؟

كان في مقدوري أن أسير إليها على نفقة الدولة لتأدية بعض الواجبات هناك، ولكنـي رأيت أن تكون الزيارة على جيبي الخاص، "ليعرف القلب أن له حقوقًا تذال من أجلها نفـائس الأحوال".

وما حق القلب هناك؟ أيكون هو الشوق إلى الصديق أحمد حسن الزيات الذي اتهمـه أحد كتاب جريدة الهدف بالفزع إلى المنصورة خوفًا من المعاطب؟

هو ذلك، مع إضافة واجب بسيط سأؤديه للدولة بالمجان.

ولكن هل يخف الزيات لاستقبالي بالمنصورة النجلاء؟

سألقاه مشغولاً بتصحيح تجارب "الرسالة" وسيدعوني إلى معاونته على تصحيح تلـك التجارب، وسيرى حضوري فرصة ترفع بها عن عينيه متاعب الإجهاد.

فإن كان في بلاد الشرق أو بلاد الغرب من يحسد أدباء مصر على ما وصلوا إليه من نعمة السيطرة الأدبية فليذكر أننا وصلنا إلى تلك النعمة بجهاد شاق لم نقدم لـه مـن ناضـج الوقود غير أقباس العزائم وألفاف القلوب، ونحن مع ذلك نؤمن بأننا لم نـصنع غيـر حفـر الأساس، فمتى نرى بأعيننا طلائع الجيل الجديد؟

ومتى نطمئن إلى أن كتاب اللغة العربية لا يعدون بالعشرات وإنما يعـدون بالمئـات والألوف؟ متى؟ متى؟ الجواب عند أبناء اللغة العربية وهم يزيدون على مئة مليون.

وقد رجعت من المنصورة بعافية، لأني لم أبت فيها غير ليلة واحدة، فلم يتسع الوقـت لعقابيل الوجد حتى تجرب حظها في القدرة على تجريح قلب تكـسرت فيـه النـصال علـى النصال.

لم ألق أحدًا في انتظاري على محطة المنصور، فأين الزيات؟ وهل يشق عليه أن يغير قدميه بخطوات قصار لاستقبال صديق قضى في الطريق ثلاث ساعات، وإن مرت كومـضة البرق في صحبة الأستاذ عبد العزيز صقر شاهين؟

وأتلفت فأرى الأستاذ محمود البشبيشي، الصديق العزيز الذي لم أر منه غير كرم الأخوة وصدق الوداد، ثم أنظر فأرى الأستاذ عبد اللطيف علي، وهو مدرس فاضل قد مكنه التنقل من التعرف إلى ملامح البلاد المصرية.

هذه القهوة المنشودة، وتلك الكافورة الغيناء، وذلك الأستاذ محمود زناتي، فأين الزيات؟

لقد ذهب الشقي إلى "رأس البر" وخلاني، فهل أعود إلى القاهرة قبل أن أنفض عن ثيابي غبار الطريق؟

وما هي إلا لحظة حتى طاب المجلس وحلا الحديث، وأقبل المنصوريين فأحاطوني بوداد يذكر بوداد أهل بغداد، حتى كدت أتوهم أني بين الرصافة والجسر، أو فوق الجزرة في مواجهة كلواذ، على ليلتي بالجزرة التحية، وأذكى السلام؟

وأنظر في الساعة من ثانية إلى ثانية ومن دقيقة إلى دقيقة لأرى كيف أفر إلى دار تعودت المضي إليها بلا دليل غير وحي القلب، ولكن شياطنين منصوريين يصدان عن سبيل القلب ويأبيان إلا مرافقتي حيثما توجهت ونعوذ بالله من كيد الشياطين.

فإن كان حظي في تقبيل تلك الجدران قد ضاع فحسبي من العزاء أن أطمئن إلى أن هواي لم يزل من السر المصون.

أنا في المنصورة في صحبة القمر والنيل والنسيم، وفي ضيافة الأستاذ محمود زناتي وبرفقة جماعة من أفاضل الأدباء والمدرسين، فإن كان في الدنيا من يصدق أن الحديث الجذاب قد يكون أطيب الطيبات وقد نسى القلب لواعج هواه فليعرف أن سهرتنا كانت من تلك الطيبات العذاب ألم أسهر حتى يبلل الندى ثيابي على نحو ما كان يصنع معي في سهرات بيروت؟

ثم استيقظ على صفير القطار، وهو يزفر زفرة الشوق إلى القاهرة فأهب لأداء بعض الواجبات، ثم أتجه إلى القاهرة قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء.

فإن بدا للزيات أن يعض بنان الندم على ضياع حظه من لقائي بالمنصورة فليفعل، فقد كانت معي أطايب من الحديث لا تذاع إلا هناك، وكان في نيتي أن أدله على أشياء وأشياء من أسرار المنصورة الفيحاء، وكان وكان، ولكنه قليل الحظ من الطيبات.

كان الزيات يهدد ويهدد: كان يقول إن زيارة المنصورة تكف شر المنصوريين في التزيد على "ليلى المريضة في العراق".

وذلك والله هو السر في زيارة المنصورة بعد موسم الصيد: صيد الأسماك أما بعد فللمنصورة حقوق تعرفها القلوب، فإن قضى الدهر بألا أبيت فيها غير ليلة واحدة فقديمًا صنع الدهر ما صنع في حرمان أرباب القلوب.

رباه؟ متى تعود أيامي؟

متى أرجع إلى تدوين الملاحة في البلاد التي يسقيها النيل الوفي الأمين؟

متى يتسع الوقت لدرس ما في مرابع الوطن الغالي من غرائب السحر والفنون؟

ما هي بلد في وجه القطار إلا وثب القلب، فما في وادينا بلد خلت أرباضه من آثار الحروب بين العيون والقلوب، حتى كدت أؤمن بأن كل بلد في مصر هو صورة من صور سنتريس أو بغداد أو باريس.

وطني؟ أنا أحبك، أنا أحبك،

ولو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب علي ذنوب

١٣

اللغة العربية في المدارس الأجنبية(*):

تحت هذا العنوان نشرت "الرسالة" بحثًا سمته "توجيهات لأحـد المـشتغلين بـشئون التعليم؟" فهل أستطيع التعقيب على ذلك لبحث أداء لحق الواجب في أمثال تلك الشئون؟

اهتم ذلك الباحث بتصوير حال اللغة العربية في المدارس الأجنبية وشغل نفسه وشغل القراء بالنص على ما يجب من حرص وزارة المعارف على الاهتمـام بـالتفتيش والاهتمـام بالمواد التي تكون الثقافة المصرية رعاية لمصاير التلاميذ المصريين بالمدارس الأجنبية.

وأقول أن ذلك الباحث لم يأت بجديد، فوزارة المعارف لا تحتاج إلى من ينبهها إلـى التدقيق في التفتيش على المدارس الأجنبية، ولا تحتاج إلى من يدلها على أهمية الحرص على تدريس المواد التي تكون الثقافة المصرية بالمدارس الأجنبيـة، فمـن المعـروف أن معـالي الدكتور هيكل باشا معني بهذه الشئون عناية جدية، ونظار تلك المدارس يعرفون عنـه هـذه العناية، وهم يبذلون جهودًا محمودة في تحقيق هذه المطالب.

ولكن المهم هو النظر في الوسيلة التي تمكن وزارة المعارف من المعاونة على تحقيق تلك الأغراض، وهي وسيلة معروفة، ولكن معالي وزير المعارف يتجاهلها مراعاة للظـروف الاقتصادية، وليست هذه أول مرة يكون فيها "تجاهل العارف" من صور الكلام البليغ؟

الحق أن معالي هيكل باشا يعاني صعوبات كثيرة في تدبير المال المطلوب لتحقيق ما يسمو إليه من كرائم الأغراض، وهو يعطف ويترفق في كل وقت ليقنع وزارة الماليـة بـأن للتعليم شئونًا هي من أوائل الضروريات، وأن الاقتصاد فيما يمس شئون التعليم قد يكون مـن الشح البغيض.

وهنا أجد الفرصة لإقناع معاليه بأن تقوية اللغة العربية في المـدارس الأجنبيـة لـن تضطره إلى الوقوع في نزاع مع وزارة المالية، فهو يستطيع بكل سهولة أن يدبر لهذا العـام أربعة آلاف جنية للشروع في تحقيق ذلك الغرض النبيل، ومن هذا المبلغ تقدم الإعانات لعـدد كبير من المدرسين الفنيين في المدارس التي تتطلع إلى إعانة وزارة المعارف... ولمعاليه أن

(*) العدد ٣٨٠ من مجلة الرسالة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٠.

يتصور كيف يكون فرح اللغة العربية بهذه الأربعة الآلاف وهي مبلغ ضئيل بالقياس إلى مـا تجره من النفع الحق في تقوية اللغة العربية بالمدارس الأجنبية.

بأربعة آلاف فقط، وهي مبلغ يقدم لممارسة واحدة من المدارس المـصرية، بأربعـة آلاف فقط، يشهد التاريخ بأن معالي الدكتور هيكل باشا قدم يدًا كريمـة للمـدارس الأجنبيـة، وبأربعة آلاف فقط يشهد الأجانب بأن المصريين يعرفون معنى الحرص على إعـزاز اللغـة القومية.

وقد أمضى إلى نهاية الشوط فأقول: إن معالي الدكتور هيكل باشا يستطيع أن يـصدر قرارًا باعتباره مدرسي اللغة العربية بالمدارس الأجنبية مدرسين منتدبين من وزارة المعارف كالمدرسين الذين ينتدبون للتدريس في الحجاز والشام ولبنان والعراق، وعندئذ يعرف هـؤلاء المدرسون أن لهم حقوقًا محفوظة في الأقدمية والترقية فتقل رغبتهم في التطلع إلى الالتحـاق بالوظائف الحكومية ويشعرون بأنهم في رعاية الدولة، وبأنهم ليسوا من المنسيين، وبأن مـن الهوان أن يردوا إلى مدارس الحكومة، لأن ذلك معناه أنهم عجزوا عن الظفر بثقة المـدارس الأجنبية، وهي ثقة لها معنى دقيق.

فما رأى معالي هيكل باشا في هذين الاقتراحين، وما رأيه إذا صارحته بأن اهتمامـه بمصاير اللغة العربية في المدارس الأجنبية لن يؤتي الثمرات المرجـوة إلا بتحقيـق هـذين الاقتراحين؟

يجب أن يذكر معالي هيكل باشـا أن المـدارس الأجنبيـة فـي طريـق التمـصر والاستعراب، وهي خطوات تستأهل التشجيع، فإلى من نتوجه إذا بخل بهذا التشجيع، وله أبناء يتعلمون بالمدارس الأجنبية، ولهم عليه حقوق؟

ولو كنت أعرف أني أحرج معالي وزير المعارف بهذين الاقتراحين لمـا اسـتبحت نشرهما بطريقة علنية، وإنما أعرف أنه اهتم بهذا المسألة مرات كثيرة، ولم يعد من الأسـرار أن يقال إنه يبالغ في الحرص على إنهاض التعليم الحر، وفي نفسه أن ذلـك طريـق لجـذب المدارس الأجنبية إلى تقوية مواد اللغة العربية والثقافة المصرية عساها تستطيع الظفر المطلق بثقة آباء التلاميذ في زمن لم يبق فيه مجال للحياة في مصر أمام الشبان العاجزين عن مسايرة المجتمع المصري، وهو مجتمع يعبر عن مطامحه في المجد والحياة باللغة العربية.

كلمة صريحة:

هي كلمة أوجهها إلى مدرسي اللغة العربيــة بالمــدارس الأجنبيــة، فأغلــب أولئــك المدرسين ينسون أن يتناسون أن وجودهم بتلك المدارس فرصة ثمينة لتعليم اللغات الأجنبيــة، والتعرف إلى ما عند الأجانب من آداب ومذاهب في الميادين الاجتماعية والاقتصادية.

كنت أرجو أن يفهم من يشتغل بالتدريس في مدرسة فرنسية أو إنجليزية أو إيطالية أو ألمانية أنه انتقل إلى جو من أجواء باريس أو لندن أو روما أو برلين.

ولكن أولئك المدرسين يعيشون بمعزل عن الجو الروحي لتلــك المــدارس، وتظــل صلاتهم بها صلات منافع تحد بحدود المرتب ولا تجاوزه إلا في قليل من الأحايين، وتكــون النتيجة أن ينعدم التآلف والتعاطف، ولذلك تأثير في سير الأعمال المدرســية، لأن التجــاوب الروحي بين النظار والمدرسين يعاون على تخفيف ما في مهنة التدريس من أعباء ثقال.

أنا أحب لمن يشتغل بتدريس اللغة العربية في مدرسة أجنبية أن يضمر في قراره نفسه أنه لن يفارق مدرسته أبدًا وأنه سيجعلها داره إلى أن يفكر في الراحة من عناء التدريس.

وقد اتفق لي فيما سلف أن أقضي أعوامًا كثيرة في التدريس بالمدارس الأجنبية، ومــا أذكر أبدًا أني لقيت من أصحابها ما أكره، وما زلت أذكر بالخير والعطــف والحــب أيــامي بالليسيه فرنسية والجامعة الأمريكية، وإن كنت أذكر بالحسرة واللوعة أنه فاتني أن انتفع مــن صحبة أولئك القوم أكثر مما انتفعت، فقد كانت قلوبهم مفتوحة أمامي، وكنت أستطيع الانتفــاع بمعارفهم وتجاربهم في كل وقت.

وخلاصة القول أنه يجب على مدرسي اللغة العربية بالمدارس الأجنبيــة أن يعتبــروا أنفسهم في دورهم، وأن ينسوا أنهم "أجانب في دور الأجانب" فما كانوا ولا كان رؤسائهم بتلك المدارس إلا جنودًا في الميدان العلمي، وهو مكان تظهر فيه المواهب وتختفي الأجناس.

إلى الوكيل المساعد لوزارة المعارف:

لم يتفضل سعادة الأستاذ شفيق غربال بدعوتي إلى الاشتراك في اللجنة التــي ألفهــا لوضع القواعد الأساسية لاختيار المدرسين الذين ينتدبون للتدريس بمدارس العراق، ولم أتطفل فأتشرف بعرض آرائي عليه في هذا الموضوع الدقيق، وليتني فعلت فقد يجب التطفــل فــي بعض الأحيان.

فماذا صنع وماذا صنعت اللجنة البصيرة بالعواقب؟!

أعلنوا في الجرائد عن موضوع يضر فيه الإعلان أكثر مما ينفع، فاستجاب لهم مئات المدرسين، إن صح ما أذيع.

فهل من الحق أن عندنا مئات تسمح لهم المواهب والكفايات بأن يكونوا أساتذة بالمدارس الثانوية والعالية بالعراق؟ ولنفرض أننا نملك هؤلاء المئات من المدرسين الأكفاء، فهل تراهم جميعًا صالحين للتمرس بأعباء مهنة التدريس في ديار الرافدين؟

لم يبق إلا أن نتخير، ولكن كيف نتخير عشرات من أولئك المئات؟ وقد تخيرنا بالفعل، فماذا وقع؟

وقع أن بعض من تخيرناهم عادوا فآثروا التخلف، فهل فكرت الوزارة في معاقبة أولئك الجنود الفارين، وقد اكتفوا من التشريف بخطورهم في بال وزارة المعارف؟

يجب أن تكون للوزارة سياسة ثابتة في هذه الشئون، ويجب أن تكون عندها إحصانة دقيقة بالمدرسين الذين يصلحون لأمثال هذه الواجبات وعندئذ يكون من حق الوزارة أن تنقل المدرس المنشود من القاهرة إلى بغداد أو للبصرة أو الحلة أو الموصل كما تنقله من القاهرة إلى دمنهور أو المنصورة أو أسيوط أو أسوان ثم لا يكون من حق ذلك المدرس أن يتخلف لأنه جندي ينقل من ميدان إلى ميدان.

أكتب هذا وأنا أعرف أن وزارة المعارف العراقية في انتظار جواب وزارة المعارف المصرية عن هذا السؤال: "مال الرأي في المدرس الذي يتخلف عن موعد افتتاح الدراسة أسبوعًا أو أسبوعين أو أسابيع وإلى من يحتكم التلاميذ الذي تضيع منافعهم بتخلف المدرسين؟".

ولكن لا بأس، فالمصريون والعراقيون أشقاء، ومن واجب الشقيق أن ينسى تقصير الشقيق، فهو على كل حال أخ "شقيق".

أسئلة وأجوبة:

استطاع الأديب الذي وجنا إليه عشرة أسئلة وأجوبة حول بيت من الشعر وقعت فيه غلطة مطبعية لا تحتاج إلى عناء في التصحيح، لأنها لا تزيد عن التنبيه إلى أن خبر المبتدأ واجب الرفع، استطاع ذلك الأديب أن يجيب إجابة صحيحة عن ثلاثة أسئلة، وأن يشرع في الإجابة عن سؤال رابع، ثم حاول الإجابة عن سائر الأسئلة فلم يوفق، فأرجوه أن ينظر ممن جديد في الأجوبة فأنها تخرجه من ذلك الموقف الحرج، إن كان يهمه أن يقال إنه سئل فأجاب:

وليعرف إن لم يكن يعرف أني لا أعادي قرائي، وإنما أهتم من وقت إلى وقت بجذبهم إلى المراجعة والاستقصاء، فإن كان تأذى من هجومي عليه فليذكر أني أتحت له فرصة ثمينة للنظر والتعقيب. وقد كنت هممت بشرح الأخطاء التي وقعت في أجوبته "السديدة" ثم رأيت أن أوكل ذلك إليه، فتلك فرصة لمحاورة نفسه في الخطأ والصواب.

القلب الذي تلفت:

جاء في الكلمة الروحية التي نشرتها "الرسالة" للأستاذ محمود البشبيشي أن قلبه تلفت فرأى وسمع، ثم أكد المعنى فقال:

"يا دكتور، إن القلوب لتسمع وترى وتتلفت".

هو ذلك، يا صديقي، منذ الفطرة الأزلية، أو منذ اليوم الذي "تلفت القلب" فيه عند وقفة الشريف الرضي على ديار بعض الأحباب.

ولكن أين حظي من ذلك، يا صديقي؟

ما كاد قلبك يلتفت إلى صاحب "النثر الفني" حتى رأيت وجهه وسمعت صوته في مدينة جميلة هي المنصورة العصماء.

وقلبي يتلفت ويتلفت منذ شهور طوال طوال إلى روح غالية كانت خلائقها الروحانية هي الشاهد على أن في دنيانا نسائم من فراديس الجنان.

وعلى طول التلفت والتسمع "تلفت القلب وتسمع القلب" فلم أظفر من أخبارها بشيء، ولعل الشريف كان في مثل حالي يوم قال:

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم ... وأعلاق وجدي باقيات كما هي

ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلابد أن يأتي بشيرًا وناعيًا

فماذا تضمر في أيامها المقبلات؟

وماذا عن القدر من مكنون النعيم أو الجحيم للقلب الذي صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود؟

أين بائع النسيان، يا صديقي، وأين بائع السلوان؟

وأين من يوهمني بأن تلك الزهرة لم تكن نفحة سماوية وإنما كانت نفحة أرضية لا نصيب لأريجها العطر من روح الخلود.

لقد بدأ قلبي يخمد من لفح اليأس، وأن دام هذا الحال فلن ترى في أحاديثي إليك غير التوجع للقلب الذي أضاعه تقلب القلوب.

وما ذنبي عند تلك الروح؟

ذنبي وذنوبي وعيبي وعيوبي أن لم أطعها بالافتضاح في الحب ولم أسطر في هواها مئات الصفحات كما صنعت مع "ليلى المريضة في العراق" كأنما كان مكتوبًا عليَّ أن أقضي الدهر في الهيام بالعيون العسلية والعيون السود، عيون أهل القاهرة وعيون أهل بغداد، والله وحده هو الذي يعلم مواقع هواي فلن أضيع تلك اللئيمة في الترحيب بمآثم الافتضاح.

وما الموجب لقتل الوقت والعافية في تذكر القلوب الغوادر وفي دنيانا تكاليف تميد من أثقالها الجبال؟ ما الموجب؟!

الموجب معروف وهو الوثاق المسطوح في اللوح المحفوظ بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح.

أما بعد فإن قال قوم إني كاذب في الحب فقد صدقوا وإن قال قوم إني صادق في الحب فقد صدقوا، فأنا كاذب في تصوير ما أعاني من شقاء؛ لأن الواقع يشهد أن الحب لم يشغلني عما اضطلع به في حياتي الخصوصية والعمومية من أعباء ثقال وأنا صادق في تصوير ما أقاسي من لواعج وأشجان: لأن الواقع يشهد أيضًا أن حياتي لم تخل من التأثر بمكايد السحر والفنون.

كم تمنيت أن أكون في الحب من الكاذبين! وكم تميت أن أكون في الحب من الصادقين، لو كان في المقدور أن ينال الرجل ما يتمناه! وأنا على كل حال أحكمت أحبولة الرياء فقلت ما قلت وأنا في أمان من كيد الوشاة والغزال... وكيف يعظم عليّ الرياء وأنا أول من تقرب إلى الله بالرياء؟

إني أرائي من أحب، ولكني لا أرائي من أبغض، فلأعدائي الويل إن توهموا أني سأجزيهم رياء برياء. كتب الله لي في تأريق جفونهم الهواجد أجر المجاهدين.

١٤

الواقفون بالمرصاد[*]:

قرأت في "الرسالة" كلمة كريمة للأستاذ محمود غنيم[٩] دعا فيها كاتب هذه الأحاديث إلى الحذر من عواقب العنف والجموح، لئلا يقع القلم في سقطة تشمت به الأعداء الواقفين بالمرصاد، وهو يرجو أن يخصص يومًا من أيام "الرسالة" نحدث فيه القراء بهدوء، على نحو ما يكون النيل في غير أيام الطغيان، ثم استطرد قسم قراؤنا إلى فريقين: فريق عدو، وفريق صديق، ونص على أن الصديق لا يملك أن يقول فينا كلمة الثناء لئلا نتهمه بالتزلف، بأن العدو لا يستطيع مجاهرتنا بالعداوة لئلا نمسه بسنان القلم مسًا غير رفيق.

والصورة التي قدمها الأستاذ غنيم صورة واضحة صحيحة، ولا تحتمل المناقشة إلا من جانب واحد: هو القول بأننا قد نصم من يثنون علينا بوصمة التزلف، فما يسمح لنا أدب النفس بأن نلقي كلمات الإعجاب بغير الحمد والثناء، وإنما ينهانا العقل عن استزاده المعجبين فرارًا من أخطار الزهو والخيلاء.

وقد ترفق الأستاذ الزيات مرات كثيرة فدعاني إلى النظر فيما يرد إليه من كلمات الاستحسان لأقدم منها للنشر ما أريد، فنهاني الذوق عن الاستجابة لهذا الاقتراح النبيل، واكتفيت بالمرور عليه من وقت إلى وقت لأطلع على عواطف الأصدقاء من القراء، وهم بحمد الله أكثر عددًا من أعدائي، وفيهم أفراد في جانب كبير من شرف النفس وعظمة الروح.

وإنما نصصت على هذا الفريق من القراء ليعرف بعض ما أمسكت عن كلماتهم الطيبات أنهم يخاطبون رجلاً وفيًا، وأني أخط لهم في أعماق القلب أطيب الذكريات، وأن "الرسالة" لم تهمل كلماتهم عن استهانة أو بخل، وإنما هو الواجب، الواجب الحازم الذي ينهانا عن الإصاحة لكلمات العطف والتشجيع.

ثم ماذا؟ ثم ألتفت إلى الأعداء الواقفين بالمرصاد فأقول:

---

[*] العدد ٣٨٢ من مجلة الرسالة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠.

(9) هو غير الأستاذ محمود غنيم الشاعر.

لم أرزق من الغفلة ما أطمئن به إلى أني أعيش بلا خصوم وبلا أعداء وكيف وحياتي كلها قامت فوق مخازن من البارود لو وقعت عليها شرارة واحدة من الخطأ لحولتني في مثـل لمح البصر إلى رماد تذروه الرياح فمن كان يريد أن ينتفع من تجارب الرجل الـذي اكتـوت يداه بنار الحياة الأدبية فليسمع هذا القول:

من الخطأ القبيح أن يعتمد الكاتب على ماضية الجميل، وأن يتـوهم أن القـراء قـد يذكرون حين يخطئ أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن الذي يخلق ألف مرة قـد يغتفـر لـه الإسفاف مرة أو مرتين.

هيهات، هيهات، هيهات، فليس للقراء ذاكرة، وليس للقراء ميثاق.

إنما يعرف القراء آخر مقال، فإن كان جيدًا فالكاتب مجيد، وإن كان وسـطًا فالكاتـب ضعيف، وربما أضافوه إلى أهل الغثاثة والهزال.

الكاتب يواجه ميدان السباق في كل وقت، وهو معرض في كل شوط للحكـم لـه أو عليه، ولو كان الكاتب كالجواد لخلف الأمر وهان، لأن السباق بين الجياد لا يحتاج فيه الحكـم إلى ذكاء، فأغبى الناس يدرك بنظرة عابرة من السباق ومن المسبوق، ولا كذلك الحكـم بـين كاتب وكاتب، فهو يحتاج إلى ذوق وفطنة وذكاء، ولا يظفر الكاتب بقصب الـسبق إلا حـين يكون له من اللوذعية ما يقهر به أهل الغرض واللجاجة والعناد، وهو لا يصل إلـى ذلـك إلا بقوة قاهرة عاتية لا يفلح في صدها المكابرون إلا كما يفلح نجم الأرض فـي مـسايرة نجـم السماء.

نحن أشقى الناس يا صديقي، لأن من حق كل مخلوق أن يحكم لنا أو علينا، وإن كان من مواليد العقد الثالث من القرن العشرين.

وحظنا يا صديقي حظ ممسوخ، لأنه معرض لانتقاص الممسوخين وأعيذك أن تظـن خيرًا بسماحة الأقطاب من أهل البيان، فأولئك قوم يصعب عليهم أن تذكر بالجميـل، لأنهـم يتوهمون أنك تعتدي عليهم حين تقضي ليلك ونهارك في تزويد عقلك وذوقك بـذخائر الأدب الرفيع.

وهل عانى أحد في دنيا الأدب مثل الذي عانيت؟

لقد انتزعت حظي من أنياب الحيات السود، فهو حظ مدوف بالسم الزعـائف، ولـو استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلوا، ولكن كيف يستطيعون وقد ضيقت علـيهم الخنـاق وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين على مكاره الجهاد.

وهل كانت مكايدة الأعداء هي أصل النار التي يقذف بها قلمي؟ العدو الحق هو الغلطة الطبعية التي وقعت في سفر الوجود.

وهذه الغلطة قد تسمى أوهامًا أو عادات أو تقاليد، ومن واجب القلم أن يصحح تلك الغلطة بلا ترفق ولا استبقاء.

وأنا أصنع في محو تلك الغلطة مثل الذي كان يصنع يأجوج ومأجوج، فأنا أمحوها في كل يوم، وهي ترجع إلى ما كانت عليه في كل يوم، ولكني سأنتصر ولو بعد حين، لأني أملك من الصبر واليقين ما لم يملك يأجوج ومأجوج.

وهل يغيب عني أن كتاب "التصوف الإسلامي" سيزعزع أقوامًا وخلائق في آماد قصار أو طوال؟

إن وصل كتابي إلى سرائر المجتمع الإسلامي فسيغير ما غير ويبدل ما يبدل، وهو سيعيش لأنه لم يخلق ليموت، وكيف يموت وهو مقدود من صخر الوجود؟

ما بيني وبين نفسي:

ويقترح الأستاذ محمود غنيم أن يعني زكي مبارك بشرح سرائر زكي مبارك، وأجيب بأني أخاف من ذلك أشد الخوف، فما رجعت إلى نفسي مرة إلا تهيئت اقتحام ما في شعابها من وعور وصخور وأشواك، وقد وقفت مرة على ساحل النفس في ظلمات الليل فرأيتني عندها من الغرباء، وكيف لا أكون كذلك وأنا منها على بعد سحيق سحيق يعد بالملايين من الأميال؟!

وقد حاولت الاقتراب من نفسي مرات كثيرة ولكن الخوف في كل مرة كان يشعرني بصدق الحكمة التي تقول:

الرفيق قبل الطريق.

فأين الرفيق الذي أعتمد عليه في مواجهة لحج النفس وحولها عواصف وأنواء؟

الرفيق هو القارئ، ولكن أين القارئ الذي يفهم عنك ما تريد؟

كان لأسلافنا قراء، ولنا قراء، أما قراء الإسلاف فكانوا فئة قليلة تعد بالآحاد والعشرات، وكان يندر جدًا فكان الكاتب أو الشاعر أو المؤلف يلقاها بلا تكلف ولا تصنع كما يلقى أخوانه الأصفياء، وكذلك كان الحال في أكثر الأمم الشرقية والغربية، ولهذا السبب وحده كانت الآداب القديمة أصدق وأروع، لأنها خلت من الزور والرياء.

أما قراؤنا فيعدون بالألوف وقد يصلون إلى الملايين وفيهم الغبي والذكي والعدو والصديق، وفيهم من يطيب له أن يحمل أقوالك، غرائب التفسير والتأويل، فمن حدثك من كتاب هذا العصر وشعرائه ومؤلفيه أنه يصدق كل الصدق فيما يكتب وما ينظم، وما يؤلف فهو خادع أو مخدوع، إلا أن يصنع مثل الذي أصنع في إيثار الرمز والإيماء.

وإليك هذا الشاهد الطريف.

في وزارة.... موظف أديب هو الأستاذ فلان حفظه الله، ومن هذا الموظف الأديب علمت وعلم جمهور من الأدباء أن مطبعة الرسالة نقلت إلى المنصورة ولن ترد إلى القاهرة إلا بعد انتهاء الحرب.

فهل تعرف كيف استقي ذلك الموظف "الأديب" هذا الخبر "الصحيح"؟

استقاه من "خواطر مهاجر" التي ينشرها أخونا الزيات في الرسالة من وقت إلى وقت كلما بدا له أن يسجل مشاهداته عن أهالي الريف مع هلال شوال.

ولو كان هذا "الأديب" أديبًا لعرف أن نقل مطبعة الرسالة من القاهرة إلى المنصورة عسير لأسباب كثيرة أيسرها تكاليف ذلك النقل، لأن نقل مطبعة مثل مطبعة الرسالة من مدينة إلى مدينة يتكلف نفقات لا تغيب عن ذهن ذلك الأديب.

وما دام الحديث ذا شجون فأنا أذكر ما قصه علينا المرحوم "أبو شادي بك" في إحدى خطبه بالأزهر أيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩، قال الخطيب رحمه الله:

"أردت أن أعرف إلى أي حد تجوز الخرافات على الناس فقلت صباح الأمس وأنا راكب بالترام إن الألمان قد أتوا بالأعاجيب في عالم الاختراع، ومن ذلك أنهم حفروا بئرًا في المنطاد زبلن ليغنيهم عن حمل الماء في الأسفار الطوال، فلما كان المساء رأيت الناس يتحدثون عن ذلك الاختراع في إحدى القهوات.

ذلك ما قصه علينا أبو شادي بك، فهل أستطيع القول بأن أعاني من بعض القراء لواعج هي أشد وقعًا من ذلك القصص الغريب.

تصل إليّ من يوم إلى يوم رسائل أفهم منها أن في القراء من يحرف كلامي أبشع التحريف، وهم في الواقع على حق، لأن مذهبي في الأدب يقوم على أصول من الرمز والإيماء، ولكن لا مفر من التصريح بجزعي من هذا المصير المخيف، فقد كنت أتوهم أني فررت من جماهير العوام حيث تحصنت بمجلة الرسالة وقرائها خواص، لأنهم في الأغلب من

الصفوة المختارة بين أبناء هذا الجيل، فإلى أين أفر إذا كان في أمثال هؤلاء القراء من ينتظر أن أقدم إليه كلامًا في وضوح الكلام الذي يقدم إلى قراء الجرائد اليومية؟

وهل قلت الرقابات حتى تحسب حسابًا لرقابة القراء، وهم فيما نفترض إخوان أصفياء؟!

حولنا رقابة المنافسين "وهم أكثر من الهم على القلب"، وحولنا رقابة المتجاهلين، ورقابة المتعالين، وحولنا رقابة عنيفة جدًا هي رقابة أعداء الأدب الصريح، وليس لنا أصدقاء غير القراء، فهل نيأس أيضًا من القراء؟

وإلى من نتوجه إذا يئسنا من قرائنا، وإليهم نبث نجوانا بعبارات هي نجوى الحبيب إلى الحبيب في محضر الرقباء؟

ومن موجبات الأسى أني لا أستطيع السكوت بحال من الأحوال ولا يمر يومًا واحدًا بدون أن أخلو إلى قلمي ساعة وساعتين، ولو كان أخونا الزيات ينشر كل ما أقدم إليه لظفر في الأدب بألوان كثيرة من الحلم والجهل واليقين والارتياب.

ومن موجبات الأسى أني لا أستطيع السكوت بحال من الأحوال ولا يمر يومًا واحدًا بدون أن أخلو إلى قلمي ساعة وساعتين، ولو كان أخونا الزيات ينشر كل ما أقدم إليه لظفر في الأدب بألوان كثيرة من الحلم والجهل واليقين والارتياب.

ولكن الزيات يرى أنه أعقل مني، وأنه يعرف من العواقب ما لا أعرف، وبذلك يستبيح التغافل عن بعض ما أكتب في بعض الأحايين، وهو يعرف كيف يوشي ذلك التغافل بوشي الترفق والتلطف، كما كان يصنع سعادة عبد القادر حمزة باشا يوم كان يهذب ما أرسل إليه من المقالات والجوامع وأنا في باريس.

وفي ظلال الرقابة التي يفرضها المجتمع ويفرضها القراء الأوفياء يراد منا أن نصدق كل الصدق في جميع الظروف، فهل رأيتم مثل هذا التحكم العنيف؟

وأنا مع ذلك سأنتقم – وقد انتقمت– من أهل زماني. سأتركهم في بلبلة فكرية لا تنجيهم من أهوالها صفارة الأمان. سأتركهم في حيرة أقصى وأعنف من حيرتي حين أهم بمواجهة نفسي، ولن أموت إلا وقد أوقدت في صدر كل قارئ جذوة لا تخمد ولا تبيد. وتلك هي رسالتي الأدبية، فأنا موكل بتأريق الجفون وتأريث النفوس، ولن يرى مني الناس غير ما يروع ويهول، فقد ابتلتهم المقادير بقلم يتقرب إلى الله بتوزيع الروع والهول على أغنياء الآمنين.

أمثلي يجزى بمثل الذي أتلقاه من بعض الناس من يوم إلى يوم، وما كنت في كل أدوار حياتي إلا نموذجًا من الصدق والأمانة والإخلاص؟

لبعض الناس الويل، وما أحب أن أزيد.

طلعت حرب:

أخرج الأديب مصطفى كامل الفلكي كتابًا نفيسًا عن طلعت حرب باشا، وهو كتاب يسجل أعمال ذلك الرجل العظيم في الميادين الاقتصادية بنزاهة وصدق.

وهل يكذب الباحث حين يضيف ألوف الصفات الجميلة بلا تحقيق إلى طلعت حرب؟ إن كلمة "بطل الاستقلال الاقتصادي" هي أصغر كلمة يوصف بها ذلك المصلح الهائل الذي استطاع بالصبر والصدق والمثابرة أن يروض المصريين على الثقة بأنفسهم في ميادين الجد والكفاح والنضال. ولو أن طلعت حرب ظهر في ظروف غير هذه الظروف لكتب عنه الباحثون ألف كتاب، فهو أهل لكل تكريم وإعزاز وإجلال، وقد ينسى الشعب المصري كثيرًا من الأسماء اللوامع، ولكنه لن ينسى اسم طلعت حرب إلا ناحية واحدة هي الناحية الاقتصادية وإلا فأين طلعت حرب الأديب والمفكر والمصلح الذي كانت له مواقف في مخاصمة قاسم أمين والاهتمام بمصير قناة السويس؟

وهل صور هذا الكاتب جهود طلعت حرب في إنهاض "الجمعية الخيرية الإسلامية"؟

هل صور هذا الكاتب جهاد طلعت حرب في اعتزاز الشخصية الأدبية؟

إن كتاب الأديب مصطفى كامل الفلكي على نفاسته قد أغفل هذه الجوانب، فهل يعود على ترجمة طلعت حرب من جديد لتعرف كيف يصير الأديب رجل عمل واقتصاد؟

هنا المشكلة الحقيقية وهي درس الصلة بين الأدب والمعاش، فأين من يفهمنا كيف صار طلعت حرب الأديب، طلعت حرب الاقتصادي؟ وأين من يفهمنا كيف جاز أن ينتقل الرجل من نقد الألفاظ إلى نقد الأموال؟

١٥

أدباء مصر الجنوبية(*):

مصر الجنوبية هي السودان، وهو تعبير جميل، ويزيده جمالاً أنه لم يصدر أول مـــرة إلا عن أدباء تلك البلاد.

والحق أننا فرطنا في حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية، وإن لم نغفل عنـــه من الوجهة السياسية، ولو أننا بذلنا في خدمة السودان أدبيًا معشار ما بذلنا في خدمته سياســـيًا لوصلنا إلى نتائج باهرة في توحيد القلوب بين من يقيمون هنا ومن يقيمون هناك، ولكننا تركنا أمر السودان للساسة، والساسة عندنا لا يفكرون كثيرًا في الوسائل التي تجعل تعاطف ســـكان وادي النيل أمرًا طبيعيًا لا يحتاج إلى تعب أو نضال.

ومن العجيب أن يفكر السودان فينا قبل أن نفكر فيه، فهو يهتم بأخبارنا، ويساير حياتنا الأدبية والاجتماعية والسياسية، ويرى من الواجب أن يعترف إلينا في كل وقت، فأين نحن من هذه الشمائل الروائع.

أين الباحث الذي في قضاء شهر أو شهرين في السودان لدرس ما هنالك من تطـــور في الآداب والفنون والأذواق؟

أين الشاعر الذي رأى من واجبه نحو وطنه أن يستلهم الوحي من منابع النيل؟

أين المؤلف الذي خاطر بجزء من وقته وماله ليخرج كتابًا عن السودان، وهو اليـــوم في يقظة أدبية تستحق التسجيل؟ (مع عرفان الفضل للباحثين داود بركات وعبد الله حسين).

ولنفرض جدلاً أن السودان لا يرتبط من الوجهة القومية أو السياسية، فكيف يغيب عنه أن السودان قطر أصيل في العروبة، وأن أهله من النماذج الجميلـــة لأدب الـــنفس وشـــرف الوجدان؟ ومن كانوا كذلك فهم جديرون بعناية الباحثين والكفرين من كتاب وشعراء.

الفطرية السليمة لا تزال من حظ أهل السودان، ولو أن معالي الدكتور هيكل باشا كان أقام بينهم مدة أطول من المدة التي أثمرت كتابه الطريف "عشرة أيام فـــي الـــسودان" لظفـــر بمحصول نفيس في تقييد الأوابد من مكارم الأخلاق.

(*) العدد رقم ٣٩٥ من مجلة الرسالة ٢٧ يناير سنة ١٩٤١.

أقول هذا صادقًا، فما أذكر أبدًا أنني رأيت ما أكره فيمن عرفت من السودانيين، فالسوداني مفطور على طيبة القلب، وهو يرى نكران الجميل من أفظع العيوب وله بوارق من الذكاء تؤهله لاحتلال الصف الأول بين رجال الفكر إذا ظفر بالتوجيه الرشيد.

فمتى نعرف واجبنا نحو أدباء مصر الجنوبية؟

ومتى نفهم أن الأخوة لها حقوق؟

أما بعد، فأنا أتأهب لكتابة سلسلة من المقالات عن الأدب الحديث في السودان، ولكن المصادر بعيدة مني، إلا شذرات قليلة قدمها إلى أحد أعضاء النادي السوداني بالقاهرة، وهي شذرات لا تحقق ما أريد، فماذا اصنع؟

كنت أتمنى أن تتاح فرصة لزيارة السودان والوقوف على أخبار الحياة الأدبية هناك لأحدث قراء "الرسالة" في جميع الأقطار العربية عن إخوان مجهولين حفظوا عهد العروبة والإسلام في بلد جميل، يغفل عن جماله أكثر العرب والمسلمين.

كنت أتمنى أن أرى السودان، ولو في وقدة الصيف، لأقول لإخواني هناك: إن مصر لا تنساكم، ولن ننساكم، ولو ضرب بينها وبينكم ألف حجاب.

فمتى أرى السودان؟ متى؟ متى؟

سأسارع فأراه في وجوه شعرائه وكتابه وخطبائه في حدود ما أصل إليه من آثارهم الأدبية، على أن يمن الله بزيارة أشرب فيها ماء النيل ممزوجًا بالطين، كما شربت ماء الفرات ممزوجًا بالطين، لأقول: إني ذقت رحيق النيل كما ذقت رحيق الفرات.

متى أشرب أول كوب من النيل وأنا بنادي المعلمين في الخرطوم، كما شربت أول كوب من دجلة وأنا بنادي المعلمين في بغداد؟

لن أنسى أبدًا كيف ذقت ماء دجلة أول مرة، ولن أنسى أبدًا كيف رحلت إلى "الفلوجة" لأذوق ماء الفرات في طبعه الأصلي قبل أن ترفع عنه الأقذاء.

اللقاء قريب، يا إخواني في السودان، فسأتحدث عن أدبكم بعد أسابيع، على شرط أن تذكروا أن الخطأ يغلب في الحكم على المجهول، وقد قضت الأقدار بأن تكون أحكامي على أدبكم منقولة عن السماع، وهو يخطئ أكثر مما يصيب.

أما وفائكم لمصر، فلن يجيزكم عنه قلمي، وإنما يجيزكم عنه من شاءت إرادته العالية أن تكونوا مضرب الأمثال في الصدق والمروة والإخلاص.

العقاد الحقود:

في صبيحة اليوم الذي ظهر فيه مقالي عن نقد كتاب "المطالعات في الأدب والحياة" طلبني الأستاذ عباس العقاد بالتليفون وأنبأني أن صدره انشرح لذلك المقال، وأنه موافق على ما ورد فيه من الملاحظات، إلا عبارة واحدة آذته أشد الإيذاء وهي العبارة التي تسجل أنه رجل "حقود" فأجبته بأني نظرت إلى الحقد من بعض جوانبه الأخلاقية، ثم وجهته بتوجيهًا يرتضيه رجال الأخلاق، وأضفت نفسي إلى جملة الحاقدين لتكون سوءاً في التخلق بهذا الخلق الجميل! مع الاعتذار لحضرة الأستاذ نجيب هاشم الذي ساءه أن يكون لي بين أهل الحقد مكان.

وهل ينكر العقاد أن رجل حقود؟

إليكم القصة الآتية:

في مصر شاعر "مشهور" هو الدكتور أحمد عارف الوديني المقيم في شارع العجم في مصر الجديدة[١٠] وهو شاعر قصر شعره على الإخوانيات، فلا يقرض الشعر إلا في تحية صديق، أو تهنئة زميل، وقد تسمو به همته في مجاملة الأمراء والملوك في المواسم والأعياد.

لقيته مرة في "المترو" بصحبة الأستاذ العقاد، فسألني عن الرأي في شعره، فقلت: أنت يا دكتور وديني أشعر رجل في مصر بعد الأستاذ الجارم، فظهرت عليه أمارات الاكتئاب. ولكن الأستاذ العقاد تلطف فصرح بأنه أشعر من الجارم في بعض الفنون.

ومضى الدكتور الوديني إلى الجارم بك فحدثه بما قلت وبما قال العقاد، فأعلن الجارم أن الرأي ما رأى العقاد، ثم لقيني الدكتور الوديني بعد أشهر وهو يقول:

- هل تعرف كيف ناقضك العقاد؟

- وكيف ناقضني العقاد؟

- العقاد يرى أنني شاعر العرب.

- أنت شاعر العرب؟ أنت؟

- وبشهادة العقاد.

- وكيف والعقاد يرى نفسه أمير الشعراء؟

---

(10) سنعرف تيمة النص على اسم الشاعر بعد لحظات.

– هو أمير الشعراء، وأنا إمام الشعراء، والأمير يأتم بالإمام، كما قال الجارم الصناج.

– هذا جائر، ولكن ما الدليل على أن العقاد يعدك شاعر العرب؟

– كتب إليّ خطابًا يقول فيه:

"إلى المفرد المعلم، صاحب الأنبيق والقلم، شاعر العرب في شارع العجم، عزيزي ونور عيني، الدكتور عارف الوديني".

– وهل ترى أن العقاد مدحك بهذا القول؟

– تلك غاية المديح.

– وهل ترى أن العقاد صنع معك أجمل مما صنعت؟

– بالتأكيد.

– أسمع، يا دكتور، أنا جعلتك أشعر الناس في مصر بعد الجارم والعقاد جعلك شاعر العرب في شارع العجم.

– وما العيب في ذلك؟

– العيب أنه جعلك أشر من الأستاذ أمين الخولي ولم يزد، والخولي جارك!

وعندئذ تربد وجه الدكتور الوديني وقال: يظهر أن العقاد رجل حقود!

والحق أن العقاد حقود حقود، وإلا فكيف جاز أن يجعل الدكتور الوديني شاعر العرب في شارع العجم، فقط، مع أنه شاعر العرب بعد الجارم!

والحق أيضًا أن الخطأ لم يقع إلا مني، فالدكتور الوديني كان استراح إلى ذلك اللقب الطريف وعده تلطفًا من الأستاذ العقاد، والعقاد يلاطف أصدقاءه في أكثر الأحايين، ولكنه في هذه المرة يسيء مع سبق الإصرار، فقد غاظه أن تتسع آفاق الشاعرية "الودينية" بحيث يكون صاحبها أصغر الناس بعد الجارم، والشعراء يحقد بعضهم على بعض.

وعزاء للوديني، فلن يكون إلا شاعر العرب في شارع العجم، بفضل ما في هذه العبارة الطريفة من عذوبة الطباق والجناس.

أين متحف وزارة المعارف؟

عرف قراء الرسالة خبر الخطاب الذي تلقيته وأنا في باريس من الدكتور طه حسين، الخطاب الذي قال فيه "أحمد الله إليك" وهي العبارة التي عدها من المخترعات، وصار يبدي ويعيد بأني تعود الافتراء عليه، ثم ظهر أن الخطاب صحيح بشهادة كاتبه الأمين "توفيق" وقد رجوت الدكتور طه أن يشتري مني ذلك الخطاب قبل أن أبيعه لمتحف وزارة المعارف، ولكنه لاذ بالصمت البليغ.

أترك الدكتور طه لشأنه فقلبي يحدثني بأنه رجل لا يحفظ العهد، وانتقل إلى الأستاذ مصطفى أمين المفتش المساعد لكبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف.

عندي ذخيرة للبيع، ذخيرة أدبية ولكن أين المشتري؟ وأين من يعرف حاجتي إلى المال وقد شاع وذاع أني من الأغنياء؟

عندي كتاب لا يصلح للاقتناء من حيث هو كتاب، ففي مكتبتي منه نسختان، وإنما يصلح للاقتناء حين يتبرأ منه من أهدى إليه، وهو صديق "أمين".

هذا الكتاب هو "تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي" للمرحوم الشيخ أحمد الإسكندري وعليه إهداء بإمضاء المؤلف "إلى حضرة صديقه المفضال مصطفى أمين" وبتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٣.

فأي أثر أعظم وأشرف من كتاب يهديه الشيخ أحمد الإسكندري إلى صديقه الأستاذ مصطفى أمين في مثل ذلك العهد البعيد، يوم كان الناس يعرفون قيمة الوداد؟!

أين نحن من سنة ١٩١٣؟

وهل هان كتاب الشيخ الإسكندري وكان من المراجع التي اعتمد عليها مؤلف "ذكرى أبي العلاء؟

هو كتاب وجدته عند أحد البقالين بمصر الجديدة وقد اشتريته بنصف درهم، فأين من يشتري مني هدية أحمد الإسكندري إلى مصطفى أمين؟

وأين تحف وزارة المعارف لأقدم إليه تلك التحفة السنية؟ أين؟ أين؟!

جريمة الكتمان في نظرة الجنية الحسناء:

لم يكن الكتمان جريمة قبل أن أسرف على نفسي بالكلمة التي نشرتها في "الرسالة" عن الجرائم الأدبية، وكنت نسيت تلك الكلمة، فلم يذكرني بها غير الملام الذي عانيته من الجنية التي كانت ترى أني أعلم الغيب فأعرف لأي سبب قضيت أيام الصيف في الصعيد، الجنية الرخيمة الصوت التي تزلزل وجودي حين تباغتني الحديث من وراء الحجاب، الجنية التي تقرأ الأشعار والمقالات والأقاصيص وتزعم أني أسرق أفكارها المبتكرة في كل ما أحدث به قرائي من ألوان الجد والفنون، والتي تهدد برفع أمري إلى القضاء، إن عدت إلى انتهاب ما تسر إلى أذني أو عيني من معان وآراء[11] من الذي يهدد، يا شقية، أنا أم أنت؟

ومن السارق والناهب؟ أنا أم أنت؟

أتحداك في السر والعلانية أن نمضي خطوة واحدة في تنفيذ ذلك التهديد، فإن فعلت فسوف ترين كيف أقتلع جميع الأشجار والأزهار من الجيزة الفيحاء، وكيف أسيرها أقفر من الفؤاد الذي جازه غيث الحب فأمسى وهو يباب.

ومن أنت حتى أسرق منك؟ هل كنت إلا طيفًا شفافًا يحاور روحي وهو معتصم بأجواز السماء؟ هل كنت إلا روحًا يتمثل في صوت رنان حنان نقل من وادي الخلود إلى وادي الفناء، إن جاز القول بأنك من أهل دنيانا الفانية؟

من أنت حتى أسرق منك، ومن دمي المسفوح على سنان القلم خلق روح الظلوم؟ أنا أسرق منك وما كان ذكاؤك الوهاج إلا شرارة طارت عن فؤادي؟ ويطيب لك أن تحتجبي عني لتصح دعواك في التأبي والتمنع. فهلا نطقت بقوله الحق فاعترفت بالخوف من المصير المحتوم لمن يواجه اللهب العاصف؟

حماك الله من روحي، يا شقية، وكتب لك السلامة من غزوات قلبي.

ثم تعالى إلى كلمة سواء:

لقد هددت بالقطيعة الباغية أن لم أكتب "الصفحتين الممزقتين من جديد، الصفحتين المظلومتين بسبب التخوف من الأكاذيب والأراجيف.

فمن يرد عني عدوان أبناء الزمان، إذا خرجت على شريعة الكتمان؟

---

(11) لا أرى إعلال كلمة "معاني" في حال الخفض، لأنها تجر بالفتحة والفتحة لخفتها بقيت في حال النصب فلا موجب لحذفها في حال الخفض.

أنت يا طفلتي جاهلة جهلاء، ولو كنت تعرفين من خلائق أهل العصر بعض ما أعرف لعز عليك أن تعدي الكتمان من الذنوب.

أهل العصر، يا طفلتي الغالية، لا يسرهم أن ينبغ فيهم كاتب بليغ إلا أن يكون بوقة ضجاجة تهتف بما يرتاحون إليه من الإفك والرياء.

الكاتب، يا طفلتي الغالية، قد يستبيح ما لا يباح من النقد الجريء وبعض أهل العصر يفهمون جيدًا أن منازلهم الأدبية لم تكن إلا ضربًا من المتاع المسروف، فهم يتصورون الناقد في شبح رجل يقدم عنهم بلاغًا للنيابة العمومية.

ومن أجل هذا يحرص قوم على إفهام الجمهور أن الرجل لا تكون له إلا شخصية واحدة، فهو موظف فقط، أو كاتب فقط، وليس من حقه أن يكون موظفًا بالنهار وكاتبًا بالليل، وكيف يحق له وهو بشر مثلهم خلق للوظيفة بالنهار، ولمنادمة السخفاء بالليل؟!

الكاتب، يا طفلتي، رجل مهدد في كل وقت، لأنه من عنصر غريب لا يرتاح إليه المجتمع، إلا أن يكون من أهل البراعة في ختل المجتمع؟ وذلك خلق لم أفكر فيه، ولا يسرني أن أصير إليه، لأني أمقت الفناء في أقوام كل محصولهم من الشرف أن يقال أنهم يبغضون الاستعباد، وكنت أرجو أن يكون قرائي ملوكًا يسيطرون على جميع الممالك والشعوب، فعزة الكاتب من عزة القارئ، ولا يستريح إلى السامع الذليل إلا المحدث الذليل.

وقد أنفقت من شباب القلم ما أنفقت في خلق جيل يفهم عني ما أريد، ثم كانت فجيعتي فيك يا شقية، فأنت تريدين أن أخضع للجمال، وأنا لا أعرف إلا خيلاء السيطرة على الجمال، والرجال قوامون على النساء، ولو كره المتظفرون من أبناء الجيل الجديد.

وأنا مع هذا شديد الرغبة في الخضوع لإرادتك السامية، كما يتطامن الصائد في أصول الأدغال، فلماذا تريدين أن أقول؟ هل تريدين أن أكتب الصفحتين الممزقتين من جديد؟

أنا عندما تريدين لتكوني بإذن الهوى عندما أريد؟

وإلى قلبك البكر أسوق الحديث في غير هذا الحديث.

١٦

في قصر جلالة الملك(*):

كان من الحظ السعيد أن ألتفت إلى الروح اللطيف الذي يسد جو التشريفات يوم دخلت قصر عابدين مع المهنئين بقدوم العام الهجري الجديد.

فماذا رأيت هنالك؟

كنت أحسب أن الناس يقيدون أسماءهم في الدفاتر ثم يخرجون، كما كنت أصنع قبل أن التفت إلى ذلك الروح اللطيف، لكني في هذه المرة عرفت ما لم أكن أعرف، فقد رأيت المهنئين من وزراء ونواب شيخ وأعيان وعلماء يتلاقون فرحين مبتهجين، ثم يتبادلون الأحاديث الطوال، وكأنهم تلاقوا على ميعاد في مكان يرحب بتلاقي القلب أطيب الترحيب.

كان الرجال يستقبل بعضهم بعضًا في بشاشة وأريحية، وكان كل زائر يرى نفسه في داره، وقد تجرد مما يجري خارج القصر من مختلف الشئون فهو في حرم مقدس لا تهتف فيه النفوس بغير معاني الرفق والصدق والإخلاص في قصر جلالة الملك ترى للوجوه ملامح لا تراها إلا هنالك، فقد ترى رجالاً يتلاقون مبتسمين منشرحين، وكنت تعرف من قبل أنهم لم يكونوا إلا متباعدين متنافرين، فتدرك أن جلال المكان يوحي بالتآخي والصفاء.

إن بابا ذلك القصر يفتح للجميع في المواسم والأعياد، فما الذي يمنع من اغتنم هذه الفرصة السخية لنتخذ منه ملتقى لأرواحنا وقلوبنا في كل موسم وفي كل عيد؟

لابد من لحظات ننسى فيها شواجر الخصومات اليومية، ونلتقي فيها منازعين عن أسباب التعادي والشقاق، فكيف يفوتنا أن نجعل رحبات ذلك القصر ميادين لسباق العواطف في تلك اللحظات؟

أقول هذا وقد شفى الله صدري من خصومات محاها تلاقي الوجوه والقلوب في قصر جلالة الملك، فرجعت وفي صدري أنوار لم أشهد مثلها من قبل، والمكان الطيب كالبلد الطيب لا يثمر غير الخيرات والبركات.

(*) العدد ٣٩٦ من مجلة الرسالة في ٣ فبراير سنة ١٩٤١.

التجني على مصر والشرق:

أنا لا أقول بوجوب التغاضي عما في مصر والشرق من عيوب فالدعوة الإصلاحية قد توجب أن نكشف عن مواطن الضعف في مصر والشرق، وإنما اكره أن نتجنى على بلادنا بلا موجب معقول، فذلك يوحي إلى القراء أننا خلقنا متخلفين عن جيش العبقرية والنبوغ.

أكتب هذا وقد قرأت كلمة الأستاذ "محمود" عن روزفلت وهو العبقري "الكسيح" ففي رأي هذا الكاتب أن الشلل لو أصاب طفلاً مصريًا أو شرقيًا بمثل ما أصاب به روزفلت لكان مصيره أن يكون "تافهًا ساقط النفس خائر العزم مريض القلب" وما لمثل هذا التجني حملنا الأقلام، أيها المربي المفضال.

في مصر والشرق مئات من أصحاب العاهات وصلوا إلى منازل لا تقل في قيمتها الجوهرية عن منزلة روزفلت، إلا أن تكون "رياسة الحكومة" هي المثل الأعلى بين منازل التشريف.

وما خطر الكساح في أرض مثل أمريكا، وقد عرف أهلها إن مرجع الحكم إلى العقل؟

إن كان عندك بقية من الأصناف، أيها الأستاذ، فوجهها مشكورًا إلى المجادين في مصر والشرق، ولا أقصد المجاهدين من أصحاب العاهات فأولئك رجال أقاموا ألوف البراهين على ما يملكون من قوة العزائم والنفوس وإنما أقصد المجاهدين من أهل السلامة في الأجسام والحواس فأولئك أقوام يعانون كساحًا أفظع وأثقل من الكساح الجثماني، فالكسيح جسميًا يشعر بأنه مشدود إلى الأرض من وجهة حسية، أما الكساح الذي يرزأ به الرجل السليم من أهل النبوغ والعبقرية فيرمي عليه من المجتمع المتخلف، المجتمع الذي ينظر إلى النوابغ العبقريين بارتياب باحتراس، ثم يشدهم بعنف ليقيموا حيث أقام في حضيض الغفلة والجمود في أوروبا وأمريكا يتلهف الناس إلى المبكر الطريف في الآداب والفنون، فيمضي الأديب إلى غايته وهو مطمئن إلى السلامة من تجني المجتمع عليه فكيف ترى الناس يصنعون في "إفريقيا آسيا" أو في "مصر والشرق" وقد أقفل باب الاجتهاد في الأدب، كما أقفل باب الاجتهاد في الدين.

كل ما ظفرنا به من الحرية في الأدب هو الجدال حول القديم والجديد. قد ظهر بعد انجلت المعركة لأن الخلاف لم يدر إلا حول الأسلوب، ففلان من أنصار الجديد لأنه لم يستأسر لمثل أسلوب الجاحظ أو ابن العميد، وفلان من أنصار القديم لأنه لم يتحرر من أساليب القدماء.

أما التجديد في الفكر، فهو محرم علينا تحريمًا قاطعًا. وليس من حقنا أن نصارع الأموال الفكرية إلا إذا جازفنا بحقوقنا المشروعة في التمتع بثقة المجتمع، وهو لا شق إلا أن جاريناه فيما درج عليه من إيثار القرار والركود.

وليس هذا شهادة على أننا خضعنا لأهواء المجتمع فيما نعالج من فنون الفكر والعقل، فقد ثرنا عليه في كثير من الظروف لنوجهه كما نريد، لكن تكل الثورة الم تمر بلا عقبا، فقد رأينا أن المناصب الفكرية أصبحت وقفًا على الموسومين بمسايرة المجتمع في ضلاله وهداه، ولم يصل إليها من أحرار العقل إلا أفراد آزرتهم قوى سياسية لا فكرية. ولو كان العقل وحده هو الذي يقدم ويؤخر لرأينا في مصر والشرق موازين غير تلك الموازين، ولكان من المؤكد أن تشهد مصر ويشهد الشرق موسمًا جديدًا من مواسم المذاهب والآراء.

إن رئيس الحكومة يستهدي جلالة الملك ألقاب التشريف لمن يتبرع بمبلغ من ماله الموروث لإحدى الجهات الخيرية، ذلك تشجيع واجب، وهو يخص الأغنياء على بذل أموالهم في أبواب الخير، ويروضهم على اقتناع بأن الدولة ترعى الضمائر اليواقظ، فتجزيها خير جزاء.

ولكن الدولة التي تحفظ جميل المحسنين بأموالهم تنسى جميل المحسنين بعقولهم، وإلا فهل تذكر الدولة جماعات المكافحين في سبيل الأدب والبيان وهم يؤدون خدمات تعجز عنها المدارس والمعاهد والكليات!

المال يعد فيكون له حسبا، أما الدم الذي يسفح على سنان القلم في تجاليد الليالي فليس له حساب. ولو أن حملة الأقلام الجياد كانوا أنفقوا أعمارهم الذواهب في الاتجار بالتراب لوصلوا إلى إدانة الدولة بما يستوجب أن تستهدي لهم من جلالة الملك ألقاب التشريف، بدون انتظار أو اقتضاء... فمتى تسمع الدولة هذا الصوت وهو تذكير بواجبها في إعزاز العقل؟ لقد حفى قلمي وهو يذكر الدولة بحقوق الأدب الرفيع والأدب الذي تدين له الدولة دينًا أرزن من الجبال، وهي تعرف وكأنها تجهل، وتجاهل العراف قد يثقل في بعض الأحايين.

ذلك المصير المحزن هو مصير أرباب الفكر في مصر والشرق فمن توهم أنهم في بلادهم سعداء فهم مخلوق نقلته الغفلة من أرض الواقع إلى سماء الخيال... وما أسعد الغافلين.

هل سمعتم بالأدب القديم عند السريان؟

قيل: إن السريان كانوا أقدر الأمم القديمة على نظم أغاني الحزن والبكاء فهل كان لذلك من سبب غير ابتلائهم الموصول بالكوارث والخطوب؟

ونحن في مصر أمعنا في الدعوى إلى نظم أناشيد الجهاد، مع أننا كل لحظة في جهاد، فمتى ندعو إلى نظم "نشيد العدل، ومن بلوانا بالظلم صرخ الدهر صرخة الإشفاق؟

كم مرة فكر فينا من نخاطر في سبيل إسعادهم بأعز ما نملك وهو العافية.

إن الزميل الذي يعرف سريرة قلبه إنه مدين لك ولو بلمحة من لمحات القلب والعقل، والذي يؤمن بأن الحياة الأدبية مدينة بعض الدين لصرير قلمك، والذي يوقن بأنك نقلت صوت مصر إلى أسماع الشرق، هذا الزميل يتلقف أخبارك من أفواه أعدائك ليجوز له التطاول عليك في غيبتك، عساه يشفى صدره الموبوء بجراثيم الضغائن والحقود.

وفي مثل هذا الهواء الفاسد يعيش الأديب في مصر والشرق ثم ينسى الناسون أنه لم يكن من المكافحين، وإن الشلل لو أصابه بمثل ما أصاب روزفلت لأصبح من المتسولين؟

حدثتنا إحدى المجلات أشن جرائد أمريكا عابت على روزفلت أن يرقى كاتبه بلا استحقاق، وأنه أجاب: كيف لا يستحق الترقية وهو الذي يكتب خطبي؟

فأي رئيس في مصر أو في الشرق يطمئن إلى عقل أمته فيصرح بمثل هذا التصريح؟

وأين من يعترف للكاتب بأنه عنوان مصر من الوجهة العقلية أو السياسية؟

وله يستطيع "خلف الأحمر" أن يميط اللثام عن وجهه ليقول: إنه المنشئ الأصيل لهذه الخطبة أو تلك، والمؤلف الأصيل لهذا الكتاب أو ذاك؟

وهل صدق الناس قول "خلف الأحمر" قديمًا حتى يصدقوا قوله حديثًا.

الفرق بين "الخلفين" أن الأول استفاد من تزويد القصائد أو الأراجيز، أما الثاني فلم يظفر بغير الخيبة والحرمان.

أما بعد، فأين أنا مما أريد، وقد انتقلت من الدفاع عن مصر والشرق إلى الهجوم على مصر والشرق؟

أنا أريد القول بأن الحيوية لم تنعدم أبدًا من مصر والشرق، والكساح الذي فرضته الصروف على الأفكار والعقول لم يمنع المصريين والشرقيين من الجري في ميادين الفكر والعقل، ولو اعتدل الميزان لعرف قوم أن القليل منا كثير وفوق الكثير، لأنه يبذل من دماء القلوب، ولأنه يقدم بلا انتظار الثواب، وقد يقدم مع انتظار العقاب، فالفضل ذنب من لا ذنب له في "بعض البلاد.

السائر الذي يقطع ألف ميل في طريق مسلوك ليس أعظم من السائر الذي يقطع مائة خطوة في طريق شائك، ولكن أين من يعرف؟

والكاتب الذي يعد قراؤه بالملايين ليس أعظم من الكاتب الذي يعد قراؤه بالألوف، وقد ظهر الأول في الغرب وظهر الثاني في الشرق ارفعوا عن كواهلنا الأثقال، وانزعوا من أقدامنا الأغلال، ثم انظروا كيف نستبق إلى أجواز الفكر والخيال.

فإن عجزتم عن تحرير كواهلنا وأقدامنا فحرروا قلوبكم من آصار الحسد والحقد لنشعر بأننا سنجزى على صدق الجهاد، ولو بالبسمات والدعوات الصالحات.

إلى من يتوجه قلب الأديب في أمثال هذه البلاد، وهو من كيد الزملاء في عناء إلى من يتوجه؟

يتوجه إلى الله الذي جعل سواد المداد أشبه الأشياء بسواد العيون فهو يحيي ويميت كيف يشاء.

يتوجه إلى الله، وهو الأنس الأنيس لغرباء الأرواح والقلوب.

الله الذي أقسم بالقلم في كتابه المجيد، فكان بشهادته السامية أكرم ذخائر الوجود.

يتوجه إلى الله الذي جعل بأس القلم أفتك من بأس النار والحديد، ومن القلم يخاف من لا يخاف، ومن صريره استعاذ من لا يهولهم زئير الأسود يتوجه إلى الله الذي جعل من عزلة الكاتب دنيا صاخبة هي العوض الأنفس من كل ما يفوته من الأنس بالمجتمع الصخاب، وهل يعرف الكاتب ما هي العزلة ودنيا الناس جميعًا ليست إلا سم الخياط بالقياس إلى دنياه الفيحاء؟

يتوجه إلى الله الذي يخلق الضر للنفع، والذي يبتلى الأديب بما يشاء ليصوغه كما يشاء، وليكن حجته البالغة على أن العاقبة للصابرين متى أؤمن بك يا ربي؟ ومتى أعرف حكمتك في بعض ما سويت من المخلوقات؟

ارفع الحجاب لحظة واحدة لأومن بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان حول أهل الكهف أحسن فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في استدراكه قد توهم أن ذلك هو ا لرأي الإسلامي بدون موجب لذلك، والحق إني لم أرد غير إثبات رأي كان قال به فريق من المسلمين قبل نزول سورة الكهف، وفي هذا الرأي ما يكفي لمناقشة المؤلف في خلق بيئة الرواية المسرحية، لأن هذا الرأي كان يجعل جمهوره أعظم وأضخم فيتيح له فرصة التعمق لدرس طوائف من المعضلات الاجتماعية.

أما كلمة الأديب حسين محمود البشبيشي فهي تشهد بأنه قرأ الرواية وقرأ النقد بفهم وعقل، ولكني أرجوه أن يلقاني بعد عامين، فقد يعرف من الإيمان والارتياب ما لم يعرف، وقد يدرك أني رميت إلى غرض فات عليه، لأني أرمز إلى معاني كثيرة في أغلب ما أعرض له من الشئون.

وهنا يجب النص على أن مقالتي في نقد رواية أهل الكهف وقع من الأستاذ توفيق الحكيم موقع القبول، ولم يعترض إلى على عبارة واحدة، وهي العبارة التي تقول بأنه ليس من أرباب الفكر العميق، وهو اعتراض يؤيد أسف الشاعر صاحب (الجندول) فهو يرى أن الحكيم مفكر متعمق وإن أظهرته السخرية بغير ما هو عليه. وأنا أيضًا أرى الأستاذ الحكيم من ذخائرنا الأدبية، وقد أعلنت إعجابي بكتابه "عصفور من الشرق" في كثير من المناسبات، وفي بيئات لا تخطر له في بال، فقد وجهت إليه أنظار أهل الأدب في العراق، وليس ذلك بالقليل في تكريم الصديق.

الأستاذ الحكيم رضى على مقالي في نقد مسرحية أهل الكهف، فما شأنك أنت، يا سيد حسين؟

التفت إلى دروسك، أيها التلميذ النجيب، قبل أن أشكوك أبيك.

حشو اللوزينج:

سألنا الأديب فخر الدين عزى عن كتاب الثعالبي في "حشو اللوزيج" أين يوجد؟

وأجيب بأن الثعالبي قال إنه كتاب "صغير الجرم لطيف الحجم" ومعنى ذلك أنه رسالة صغيرة سجل بها ما صعب عليه تسجيله في كتاب "ثمار القلوب" لئلا يخرج على شرط التأليف ولم يتفق لي أن أضفر بهذه الرسالة، فأرجو هذا الأديب أن يؤلف رسالة في معناها، فقد وضع المنهاج، ولم يبق إلا تقييد الشواهد وهي مبثوثة في رسائل الكتاب وقصائد الشعراء.

مناجاة القمر ومناجاة الشمس:

خطرت في بال الأستاذ محمود البشبيشي وهو ينظم مقاله في مناجاة القمر، فهل يعلم أنه خطر في بالي وأنا أنظم مقالي في مناجاة الشمس؟

سأوجه إليه هذا المقال بعد أن تنشر "الرسالة" كلمتي عن البلبل والروض، تعقيبًا على كلمة وجهها إليَّ منذ أسابيع، وهي كلمة لم يسرقها من "الجنية الحسناء" لأنها سافرت في اليوم الذي تلقيت خطابها فيه، فكان ادعاء السرقة من المستحيلات!

آه، ثم آه!!!

لقد ذكرتني نجوى القمر حين صدرت عن البشبيشي وهو في المنصور بنجوى القمر حين صدرت عن صاحب "مدامع العشاق" وهو في سنتريس، فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما نصه بالحرف:

"وإنك لتعلم، أيها القمر، كيف كنت أصدق عنك، وأنا أطالع ذلك الوجه الذي نعمت معي بثغرة المفلح، وأنفه الأقني، وطرفه الأحور، وجبينه الوضاح، وإنك لتعلم، أيها القمر، كيف هجرتك حين غاب، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السرار لأرى كيف يفعل الشحوب بك وكيف تنال منك الليالي! وإنها لشماته طفيفة أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه، وعلى عودتك لشبابك، في حين أني أودع كل يوم جزءًا من شبابي، وواحسرتاه على ما أودع من أجزء الشباب!!".

ولكن لا بأس، فقد نويت أن أعيش إلى أن أرى الشمس والقمر من بعض ما أملك، وما دام هذا القمر طوع يميني فلن يبيت قلب إلا وهو مني على هوى أو بغض، فما كنت زماني إلا صوت القلب والوجدان نويت أن أعيش، نويت أن أعيش، وليس على الله بعزيز أن ينصر أرباب القلوب.

إلى طلبة السنة التوجيهية:

تقليت خطابًا من الأقصر "بفتح الهمزة وسكون القاف وضم الصاد، وهي جمع قصر، وبذلك سمى العرب تلك المدينة لكثرة ما رأوا فيها من أقصر الفراعين" أقول تليت خطابًا من الأقصر بإمضاء "غريب جادو" يثني فيه على الدراسات التي نشرتها "الرسالة" في تشريح الكتب الخاصة بمسابقة الأدب العربي ثم يقترح أن أكتب مقالاً مفصلاً عن كتاب "المكافأة"، ومقالاً آخر عن كتاب "الأدب التوجهي".

وأجيب بأني فصلت القول عن كتاب المكافأة ومؤلفه أحمد بن يوسف في بحث يقع في تسع عشرة صفحة من كتاب "النثر الفني".

وليس عندي ما أقوله بعد ذلك البحث المفصل، فمن كان يهمه أن يعرف أسرار "الكافأة" فليقرأ ذلك البحث، أما كتاب الأدب التوجيهي فسأخصه بمقال أو مقالين بعد أسابيع.

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي:

كثرت الخطابات التي ترد إلي في تحقيق ما ادعاه الأستاذ السباعي بيومي في حق الشيخ سيد المرصفي، وكنت أغفلت هذا الموضوع عن عمد، لأن الأستاذ السباعي له عليَّ حقوق، فقد كان دائمًا من أنصار، ولم آخذ عليه ما يريب، ولأن مقام الشيخ المرصفي أقوى من أن يهدم بكلمة جارحة تساق إليه في إحدى المحاضرات.

ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصاف للشيخ المرصفي أزعجني، وكنت أجو أن يكون دعا واقيًا لهذا الشيخ الجليل هو رجل لم ير مثله الأزهر منذ أجيال طوال.

فماذا أصنع؟

مضايقة الأستاذ السباعي بلاء، لأنه صديقي، والسكوت عن نصرة الشيخ المرصفي بلاء، لأنه أستاذي، فماذا أصنع؟

سأنقل القضية من وضع إلى وضع، فأصيرها قضية أدبية لا قضية شخصية وأبين أن السباعي بيومي يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي ولكن كيف؟

سيرى صديقنا السباعي أن "تهذيب الكامل" لم يكن إلا جناية أدبية وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره فليستعد للدفاع عن النظرية التي نهبها نهبًا من كتاب "النثر الفني" ونشرها في مجلة "السراج".

ولكن على شرط أن يؤمن في سريرة نفسه بأني أكره البغي على أصدقائي، وأن أمري لم يكن إلا شبيهًا بأمر أكثم بن صيفي حين قال: "إن قول الحق لم يدع لي صديقًا".

وإلى اللقاء في غير بغي ولا عدوان، فما أستبيح إيذاء أصدقائي، ولو ظلموا أنفسهم فظلموني.

١٧

البلبل العائد إلى الروض(*):

كنت أحب أن أجزي الأستاذ البشبيشي ثناء بثناء، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ولكن غرامي بالمشاغبة غير مقام لخطاب، فأنا سألقاه بالملام لا بالثناء، وهو المسئول عما سيقع في كلامي من قسوة وعنف، لأنه حدثنا أنه مقبل على أمر عظيم هو العودة على الروض، وقد كادت كلمته بالرسالة تشهد بأن يعاني مشقة أليمة في رياضة جناحية بعد طول الفرار بأرض الهجرة، إن جاز الوهم بأن الغفوة تجوز على قلب ذلك الصديق.

وما لي ألا أقول الحق فأصرح بأني أخاف على الأستاذ البشبيشي عواقب العودة إلى روض الأدب والبيان؟

أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف، لأن ماضيه القريب دلني على أنه تعرض لغضب الأدب مرتين، ولو شئت لقلت أنه تعرض لغضب الله مرات... ولكن كيف؟

نسى الأستاذ البشبيشي أو تناسى أن الله يسوق المكاره إلى النوابغ من وقت إلى وقت ليفتح عيونهم وقلوبهم على ما في الوجود من أنوار وظلمات، ونسي أو تناسى أن الله يطالب أولئك النوابغ بالحمد على تلك المكاره لأنها في الواقع نعم سوابغ.

فما الذي صنع ذلك الصديق وقد تفضل بامتحانه مرة ومرتين ومرات ليشرع القلم في وصف ما يعتلج في ضمير الوجود من آراء وأهواء وحقائق وأباطيل؟

أوذي البشبيشي بالظلم والغدر والعقوق، فهل استفاد قلمه من ذلك الإيذاء؟

أيبكون أثر العفو عن ظالميه؟ إن كان ذلك فما الذي صدر عن قلمه في ذلك الصفح الجميل؟

المهم هو أن ينتفع الكاتب من جميع الظروف، فيكون لقلمه حنين ورنين وصرير وزئير، وفقًا لاختلاف الأحوال من قلق وهدوء وبؤس ونعيم، فإن ضيع هذه الفرص السوانح

(*) العدد ٣٩٧ من مجلة الرسالة في ١٠ فبراير سنة ١٩٤١.

وترك عواطفه تخمد وتبيد فهو غير أهل للعودة إلى الروض، ونحن على صده قادرون، فليس منا من يضيع فرصة الانتفاع بمواسم القلوب في القبض والبسط واليأس والرجاء.

إن روض الأدب ليس حديقة مصقولة الحواشي كالحدائق التي تقام في قصور الأمراء والوزراء، فتلك حدائق لا تغني فيها البلابل إلا وهي محبوسة في أقفاص، أو ما يشبه الأقفاص من المغاني المسقوفة بأسلاك الحديد.

روض الأدب ليس من تلك الحدائق حتى يقول الأستاذ البشبيشي إنه قادم للغناء وفـي يده وتر حنان وهو قلمه البليغ.

هيهات، هيهات، وإنما روض الأدب جنة وحشية تشبه الجنة التي اعترك فيها الخيـر والشر والهدى والضلال لعهد آدم وحواء.

في روض الأدب أزهار ورياحين، وفيه أيضًا أشواك وحيات وشياطين.

هو روض وحشي تجاوز فيه الكناس والعرين، واقترب فيه عش الطائر مـن وكـر الثعبان، وأنت واجد بذلك الروض ما شئت من صنوف السم والترياق، ففيه أنهار من الـشهد وبحار من الصلب، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أفـانين الود والحقد والصدق والبهتان.

في ذلك الروض الوحشي لا يغرد البلبل إلا وهو مطمئن إلى أنه تفرد بالقـدرة علـى السباحة في لجج الهواء... وفي ذلك الروض يزأر الأسد وهو واثق بأنه السيد المطلق، وفيـه يبغم الظبي حين يعرف مسالك الأمان من كيد أولئك "السكان".

كل شيء حي في ذلك الروض حتى هوامد الأعشاب وصوامت الغدران، فمـا الـذي أعددت، أيها البلبل، لزيارة هذا الروض؟

ما أشد خوفي عليك، يا صديقي، فأنت فيما يظهر لم تسمع بأفاعي الرياض.

البلبل في ذلك الروض يغني بالنهار، ويسهر خائفًا بالليل، لأنه يعرف أن فـي ذلـك الروض خلائق مؤذيه تتسلق الأشجار في الظلمات لتعصر رقاب البلابل ثم تبتلعهـا برفـق، والموت ولو جاء في أعقاب النشوة بكئوس الرحيق.

وأنا جربت الحياة في روض الأدب، وعرفت من أهوال ذلك الروض ما لا تعـرف. وهل تعرف أني كنت في روض الأدب بلبلا وأفعوانا ورئبالاً؟ هل تعرف أني غنيت ولـدغت وهصرت؟ هل تعرف أني قابلت خلائق ذلك الروض بأسلحة مختلفات: منها الصوت الرخيم، والناب المسموم والمخلب الفاتك؟

وهل ألام على ما صنعت وأنا أعيش في مسبعة سميت تفاؤلاً بالروض؟

وتقول: إنني اجتذبتك إلى هذا الروض، وما قلت إلا الحق فقد كان قلمي ولـن يـزال مسموع بالصوت، مستجاب الدعاء، ولكن كيف اجتذبتك؟ ما صنعت ذلك ترفقًا بك ولا عطفًا عليك، وإنما أردت أن تكثر النفوس في تلك المسبعة الفيحاء، ليذهب عني بروحـك المـؤنس بعض ما أقاسي من مضجرات الاستيحاش، إن صح لمثلي أن يتهيب العزلة والانفـراد فـي روض السباع الضاريات.

أما بعد، فهذا روض الأدب، وهذا بلبل يعود بعد طول الغياب، ليغـرد فـوق أفنـان "الرسالة" الشجراء.

والحق أنه لن يرى من أول وهلة أن روض الأدب من الغابات الوحشية، وكيف وفي ذلك الروض كتاب وشعراء وعلماء؟ ولكن العبرة بالخواتيم، والخواتيم في أيدي أنـاس غيـر أولئك، ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه، وهم الذين يحكمون على الأدب وهو منهم براء.

لو فهم كل قارئ ما تريد أن تقول، لكان من السهل أن يأتلف الأسد والغزال، والبلبـل والثعبان.

لو فهم كل قارئ أن للكاتب حقًا في أن يؤدي رسالته بالأسلوب الذي يختـار لعـرف القوم ألا موجب للحيرة في أمري وقد طويت محاسني ونشرت عيوبي، لأسـلم مـن آصـار التكبر والازدهاء، ولأجعل الرأي في سعادتي وشقاوتي لمن تفرد بالعزة والجبروت، وله الحمد وعليه الثناء هذا روض الأدب، وهذا بلبل يعود.

أهلاً وسهلاً ومرحبًا!!

ولكني يجب أن يعترف الأستاذ البشبيشي بأننا خصصناه بالأهل والسهل والمرحـب، وهي ألفاظ تسمع بها في هذا الروض فما كان إلا مسارب صلال ومدارج ذائب.

الأدب؟ الأدب؟

ماذا جنينا من أيامه ولياليه وقد سبقنا المتجرون بالنمائم والدسائس والأراجيف؟

إن الجاسوس يملك من الثروة أضعاف ما يملك الأديب، وأهون الحظوظ في الدنيا هي حظوظ الأديب، فأين من يتوجع لبلائنا بالدنيا والناس؟

آمنت بالله، وتبت إلى الله فما عرفت نعمة أعظم من نعمة الخلوة إلى القلم في لحظات السيطرة الروحية على زمام الوجود.

إلى القلم، إلى الروض، إلى معترك الهدى والضلال إلى حيث نصافح بالفكر والروح شياطين النفوس وملائكة القلوب.

ومن الله الذي أقسم بالقلم وما يسيطرون نسأل الأمان من أخوان الزمان.

بيني وبين أصدقائي:

وأصدقائي في هذا الحديث هم قراء الرسالة" الذين تطيب لهم مراسلتي من حين إلى حين، وهم خير أصدقاء، لأن الصلاة الروحية أعظم وأنفس من جميع الصلات، ومع اعترافي بهذه الحقيقة التي تؤنس روحي فأنا لا أؤدي حقوق هذه الصداقة إلا في أندر الأحايين لأن صفحات الرسالة تضيق عن تسجيل ما يدور بيني وبينهم من فنون الأحاديث، فماذا أريد أن أقول لهم في هذه الكلمات؟

١- أريد أن أطمئن الأديب "البيسي" الذي نقل إلى عواطف بعض إخوانه في الإسكندرية عما كتبته في تأنيب الشاب المقيم بإحدى قرى المنوفية فقد عدوا كلامي تثبيطًا العزائم الشبان، وتخوفوا عواقبه في قتل مواهب ذلك الأديب الناشئ.

وأجيب بأن ذلك الشاب لم ينتحر -كما توقعت- وإنما أجاب جوابًا يشهد بأنه خلق للحياة لا للموت، وذلك، ما كنت أبغي، فما يسرني أن تكثر الأرقام، وإنما يسرني أن تكثر الأعلام، وأديب واحد متمكن أنفع للأمة من ألوف الأدباء الموسومين بالجهل المصقول، وأعيذ الأديب "الدسوقي" أن يكون من هؤلاء.

٢- وأريد أن أقول للأديب "...." إن ثناءه على ما أكتب في النقد الأدبي لا يغريني بالسير في ذلك الطريق إلى نهاية الشوط، لأن الجمهور يغيب عنه الفرق بين النقد والتجريح، وهو يتوهم أن لنا غية في تعقب الآثار الأدبية بالتزييف والتصحيح... يضاف إلى ذلك أني أكره أشياء من بعض الناس، ففيهم من يعيش بوجهين، فيكتب إليّ مشجعًا، ويكتب إلي من أنقذهم متوجعًا، كالذي صنع فلان حين رجا أن يكون كتابه خاصًا لا يصل إلى أسماع القراء، فهل تراهم سمعوا منه شيئًا؟! وهل عرفوا أنه يقيم في بلد فيه شاعر كبير اسمه أحد الكاشف؟

٣- وأريد أن أقول لصاحب "جريدة مصر العليا" إني راض عن التسمية الطريفة لمصر الشمالية ومصر الجنوبية، وهو يعرف ما أعني.

٤- ثم أنظر في جريدة "الأحوال" البغدادية فأجد صورة "شارع فيصل" بجانب الكرخ، وتحت الصورة كلمات موجهة إلي برفق ولطف، كلمات دبجها أديب كريم عز عليه أن أشكر زماني فهو يقول:

"أنت أكبر من الزمان، ما دام لك إخوان أوفياء".

وعندئذ أتذكر أن لي في العراق ذخيرة روحية، ثم أتذكر تمثال فيصل، فمع من جلسات في رحاب ذلك التمثال وصدري يفيض بالكروب في ليلة عتاب:

يا روعة البدر في سماه	وفتنة الزهر في الغصون
تناس ما شئت سوف تخبو	حرارة الدمع في الشئون
وسوف تبلى على الليالي	غرائب السحر في العيون
استغفر الحب سوف يبقى	على صروف الأسى حنيني

وتذكرت الخطابات التي تلقيتها من الكرخ، وأجبت عنها بالصمت، فرارًا من عواقب الافتضاح، وهل كنت إلا طيفًا زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد؟!

٥- وهذا خطاب من الأستاذ جاسم الرحب يشرح خلافًا بينه وبين الأستاذ شاكر الجودي حول مقال نشر في "الرسالة" بدون إمضاء، ثم فندته بعنف، ويرى السيد جاسم أن الناقد هو الكاتب، وأجيب بأني نسيت ظروف ذلك المقال!

أما ثورة السيد جاسم على فيلم "فتاة متمردة" ودعواه أنه يغض من المجتمع المصري فهو كلام لا أوافقه عليه، فذلك الفيلم من الأفلام الجيدة، وقد شاهدته فأبكاني، وهو يمثل صورة من أزمات النفوس تقع في مصر كل يوم، وقد تقع أيضًا في العراق لو التفت هذا الصديق إلى ما يمر بالنفس من مكاره وخطوب.

٦- وذلك خطاب من أخ صادق يقول فيه: "هل يذكر الدكتور زكي مبارك أنه ألقى في البريد المصري تذكرة واحدة لإخوان في بغداد وما عرف فيهم غير الصدق والوفاء؟!".

وأجيب بأن العراق شغلني عن العراقيين، ولو جمع ما كتبه في الجرائد المصرية عن العراق لكل مادة تكفي، فهل ينفعني هذا الاعتذار الطريف؟

وأنتهز هذه الفرصة فأوجه العتاب إلى رقابة البريد في مصر، فهي تفتح جميع الخطابات التي ترد إلي من العراق، فماذا ينتظر الرقباء: هل يتوهمون أن من المحتمل أن يكون في تلك الخطابات ما يستوجب السؤال والجواب؟

وماذا يصنع رجل مثلي أكثر من الذي صنع ليقنع قومه بأنه لا يعرف غير الهيام بخلق المودات لمصر في أقطار الشرق؟ وكيف كانت تصبر الصلات بين مصر والعراق لو فصح قلمي عمن حاولوا تكدير تلك الصلات؟

الرقباء ينفذون خطة يقضي بها الواجب، ولكن من حقنا على الدولة أن نذكرها بأننا نعرف من المسئولية مثل الذي تعرف، فنحن جنودها الأمناء، وما يجوز لها أن تؤذينا ولو بالتلميح، إلا أن يقال إن الرقباء لا يعرفون اسم زكي مبارك، وهو عذر مقبول.

٧- وأريد أن أشكر للأديب الذي يكتب إلي من "فارسكور" حماسته البالغة من ملاحقتي بالنقد العنيف، ثقة بأن خفاء اسمه ينجيه من بطش قلمي ثم أرجوه أن يتذكر أن عنوان هو "مصر الجديدة" فلا موجب لهيام خطاباته بين إدارة الرسالة ووزارة المعارف، فقد يعرضها ذلك الهيام للضياع.

أما التوجيه الذي ينتظره مني فهو سله، فقد دلت رسائله على تباشير من الفهم الصحيح، ويكفي أن يثابر على المطالعة الجدية بدون انقطاع وليقصر مطالعاته مؤقتًا على أطايب المؤلفات في الأدب الحديث، لأنه أقرب على الإفهام والعقول، إذا كان صورًا تمثل أذواق الناس في هذا الجيل، وله بعد ذلك أن يطالع من الأدب القديم ما يشاء.

وأعتقد أن من حقه أن ينشر في "الرسالة" بعض خواطره، لأنه يملك القدرة على التعبير المقبول.

٨- وأريد أن أقول للأستاذ "م. م. م" إن نثرك من شعرك وقوة الروح لا تعوزك، وإنما يعوزك ما كان يسميه القدماء "شدة الأسر" في صوغ القصيد، فأرجو أن تكثر من حفظ القصائد الجياد ليرتاض طبعك على النظم الرصين.

أما الأديب "مجنون القريض" فسيكون له بين الشعراء مكان.

٩- وأريد أن أقول للأديب "الصنعاني" إني تلقيت خطابه بأطيب القبول، ونحن أنصار الحرية في الرأي، فمن واجبنا أن نرحب بكل ما يؤيد دعائم الحرية، وإن أخطأ صاحبه في التعبير عن قلبه السليم.

١٠- وأقول للأديب إلياس سليمان بحوث أني لا أصدق أن في الدنيا رجلاً أغير مني على لغة العرب، فليس من حقه أن يتوهم أني لا أبالي قواعد النحو والصرف حين ألتمس وجهًا لضم الظاء من "الظرف" في نطاق المصريين، وما شأن هذه المسألة بالنحو الصرف، يا حضرة الأديب؟

أنا أقول إن "الظرف" أخذ حكم "اللطف" عن طريق الإتباع، ثم بقى له الحكم مع الانفراد، وهناك علة ثانية وهي التمييز بين المحسوس والمعقول، والمصريون عرب، وهم لا يخطئون في لغتهم عن جهل، وإنما "يخطئون" لأسرار قد تخفى على بعض القراء، فنتوهم مخطئين وهم على صواب.

والحق أنه لابد من التماس العلل والأسباب لانحراف النطق عند بعــض الجمــاهير، فذلك الانحراف قد يصدر عن سليقة مستوردة لا يتنبه لها اللغويون، وهذا مــا أردت الــنص عليه، يا سيد "سليمان"!

١٨

اتجاه جديد في وزارة المعارف(*):

لا يمر أسبوع بدون أن يطلع الجمهور على أخبار جديدة عن وزارة المعارف، فهي في هذه الأيام مثار حكة ومجال ونشاط، والحركة في أقبح صورها أجمل من السكون، لأن السكون في أجمل صوره من نذر الفناء.

ومن مظاهر الحيوية في وزارة المعارف لهذا العهد خطاب الدكتور هيكل باشا، وهو بذلك خليق، فلهذا الرجل لفتات ذوقية واجتماعية تضعه في الصف الأول بين أقطاب الفكر في هذا الجيل.

والظاهر أن وزارة المعارف أصبحت من الوزارات المحدودة فهي منذ أعوام طوال صاحبة الحظ الأوفر من أحرار الرجال. ألم يتول أمورها أعلام كان منهم: زكي أبو السعود، وأحمد ماهر، ولطفي السيد، وبهي الدين بركت، وعلي ماهر، ومحمد علي علوية، وحلمي عيسى، وعلى زكي العرابي، وأحمد نجيب الهلالي، ومحمود فهمي النقراشي؟

وزارة المعارف هي تاج الوزارات وإليها يرجع الفضل في تكوين العقول والقلوب والأذواق، وعن وزارة المعارف يصدر النشاط الأدبي والفني والاجتماعي، وهي صوت مصر في الشرق والغرب، يوم يوضع للفصل ميزان.

تلك وزارة المعارف، فما حالها في هذه الأيام؟

كان يظن أن المسيطرين على وزارة المعارف قد يفوتهم النظر فيما يوجه إليهم من الملاحظات عن طريق الجرائد والمجلات، ثم ظهر أن في الوزارة رجالاً يقرءون ما يكتب ويسمعون ما يقال، وإن كان فريق منهم يعيش في أبراج من العاج.

لقد آمنت وزارة المعارف بأن من الواجب أن يظفر التلميذ المتوسط بالنجاح في امتحانات النقل والامتحانات النهائية، فأوصت بأن "توضع الأسئلة بحيث تكون الإجابة في متناول الأوساط من التلاميذ".

(*) العدد ٣٩٨ من مجلة الرسالة في ١٧ فبراير سنة ١٩٤١.

وهذا فتح جديد، فقد كان مفهومًا أن الامتحان من ضروب التأديب، ليصح القول بأن "من المحنة جاء الامتحان".

وماذا تغنم الأمة حين ينجح التلميذ المتوسط؟

يقول المتحذلقون إن نجا الأوساط من التلاميذ قد يجيء على سمعة العقلية المصرية، وهؤلاء المتحذلقون هم مصدر البلاء، وهم عند التحقيق بعيدون كل البعد عن السياسة الحكيمة في رياضة العقول، والزمن الغافل هو الذي قضى بأن يكونوا من المربين.

إن النجاح، -ولو عن طريق التسامح الرقيق- يقوى الشخصية المعنوية، ويزيد في عزائم التلاميذ، ويشعرهم بأن الجد له جزاء، ولو كان أقل مما يجب أن يتحلى به الطالب الرشيد.

ثم يعرف المربون في مصر أن نتائج الامتحانات العمومية -تلك النتائج الضعيفة الهزيلة- كانت الشاهد على أنهم حرموا نعمة التوفيق في إيقاظ الغوافي من عزائم التلاميذ، وكانت البرهان على أن الجاذبية بينهم وبين تلاميذهم قد انقطعت أقبح انقطاع، وإلا فكيف جار أن يقضي التلميذ سنة كاملة بين أيدي أساتذته بدون أن يستفيد، أو بدون أن تعي آذانه نصف ما يسمع أو بدون أن يتجه قلبه إلى معاني جديدة تسوقه سوقًا إلى منازل الفضل والتشريف؟

المربون هم علة العلل فساد هذا الجيل، فهم السبب في ذهاب البشاشة من الحياة المدرسية، وهم الذين حاولوا الجو المرسي إلى مجازر نفوس، ومصارع قلوب، بفضل ما وقر في أذهانهم بأن وزارة المعارف لا تزيد إلا أن يكونوا جبابرة مستكبرين.

لا يصلح المدرس لمهنة التدريس إلا حين يشعر التلميذ بأنه أبر به من أمه وأبيه أما المدرس الجهم الوجه، الغليظ الكبد، القاسي القلب، فله مكان آخر هو حراسة المساجين، ومن العجيب في مصر ألا تنال المدارس من العناية بعض ما تنال السجون! فالسجون مصدر خير على من يعيشون فيها لأنها تؤهلهم للحياة، أما المدارس فهي تؤهل بعض أبنائها للتشرد البغيض، لأنها ترمي ثلاثة أرباعهم في الشوارع بلا رحمة ولا إشفاق، بحجة أنهم لا يجيبون وفقًا لنماذج الإجابة، وهو صور لا يضعها من شابت نواصيهم في التعليم إلا بعد إجهاد الفكر في غفوات الليل.

ليت المدرسين يعلمون! ليت المدرسين يعلمون! ولو استطعت لكررت هذه العبارة ألف مرة! ولكن أين من يسمع؟!

يدخل المدرسون إلى أماكن التصحيح في الامتحانات العمومية لا يدركون ما يقبلون عليه من شئون لا يجوز فيه المزاح، فيصنعون ما يصنعون بمصاير جيل بريء لا ذنب له

غير الاعتراف بأبوة أولئك الراحمين"، وتكون النتيجة أن نفقد أكثر الشبان فضيلة "الاكتراث" لأنهم يشهدون أن المقصر قد يفوز، وأن المجاهد قد يخيب. أين الفوز في امتحانات لا ينجح فيها بين كل مائة تلميذ أكثر من ثلاثة وعشرين ثم لا يقبل منهم في الجامعة غير آحاد!

والأمة المصرية التي تبحث عن المعادن المطمورة في الصحراء الشرقية والغربية هي ذاتها الأمة المصرية التي تقتل عواطف شبانها بسيف الامتحانات العمومية، ثم يأخذ بعض جلاديها جزاءهم على ذلك القتل، ولم يبق إلا أن تحلى صدورهم بالأوسمة والنياشين.

غيروا ما بأنفسكم يا بني آدم، من المدرسين بهذه البلاد.

غيروا ما بأنفسكم، قبل أن يضع الله السم فيما تنالون من أجور الامتحانات.

المعروف للجميع أن البكالوريا في مصر أصعب منالاً من البكالورياس في فرنسا وإنجلترا وألمانيا. فهل نحن أعظم من الفرنسيين والإنجليز والألمان؟

وماذا غنمنا من قوة البكالوريا في مصر وهي لا تكفي للانتساب إلى الجامعة المصرية إلا في حدود أضيق من سم الخياط؟

نريد أن نعرف مصاير أبنائنا في هذا البلد الذي قيل فيه إنه مجمع الغرائب!

نريد أن نعرف إلى أي حد تنتهي الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف؟

ولكن من يبلغ هذا الصوت إلى الرجال المسئولين؟

من يبلغهم هذا الصوت والشيوخ والنواب لا يهتمون إلا بغير مسائل فردية يتقدم فيها طالب على طالب بدرجة أو بدرجتين؟ ليس المهم أن يستجوب وزير المعارف عن هذه التوافه من الشئون، وإنما المهم أن يستجوب عن مصاير المتعلمين في هذا الجيل.

المهم حقًا وصدقًا أن يسنى الوزير أنه مسئول أمام الشيوخ والنواب، وأن يذكر أنه مسئول أمام الضمير المصري، والضمير المصري يصرخ صراخ الجزع والرعب من ضياع أبنائه بين الجامعة ووزارة المعارف.

وقد ظهرت تباشير تشهد بأن الوزير قد سمع صراخًا الضمير المصري لهذا العهد، فمتى قال أنه نودي فأجاب؟ ومتى نسمع أن التعليم صار من سائل الحياة الكريمة في هذه البلاد؟ متى؟ متى؟ علينا أن ندعو: وعلى الوزير أن يجيب!

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفي.

في العدد ٣٩١ نشرت الرسالة كلمة بإمضاء محمد فهيم عيبة جاء فيها أن الأستاذ السباعي بيومي وصف الشيخ المرصفي "بكثير من الأخلاق الذميمة كالغال والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم" وأنه "حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العصوف بسحيق التربا".

وفي العدد ٣٩٢ نشرت الرسالة ردًا بإمضاء عبد الرحمن أيوب مع كلمة من الأستاذ السباعي بيومي تشهد بأنه اقر ما جاء بذلك الرد، وهو يلخص بأن الأستاذ السباعي حكم بأن الشيخ المرصفي، "كان يملكه الغرور" وأن "الأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدر في ذلك عن دراسة بهذا الأمد وإن كتابه ظهر في سنة ١٩٢٣ على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفي إلى في سنة ١٩٣٠، وغن فهارس كتاب الشيخ المرصفي وعناوينه سرقت من كتاب الأستاذ السباعي، وإن المرصفي لم يكن أستاذ السباعي.

وفي العدد ٣٩٢ نشرت لي الرسالة كلمة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعي بيومي، وقد جاء في تلك الكلمة أن الأستاذ يحدث عن أخلاق الشيخ المرصفي بما لا يليق "فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفه في العدد المقبل، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار، إبقاء على ما بيني وبينك من وداد فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ المرصفي بسوء، ولو كان من أعز الأصدقاء".

ثم لقيني صديق عزيز فقال: لم يرضني تحديك للأستاذ السباعي بيومي، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدروس -بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب.

وعندئذ رجعت إلى نفسي فحفظت للأستاذ هذا الفضل، وآثرت الصمت، ولكن الأديب علي محمد حسن كتب إلي خلاصة ما تجنى به السباعي على المرصفي وأكد أنه قال:

"أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفي فإن فيه من الخطأ أكثر مما يتوهم أن يكون في كتاب الكامل من الخطأ، وان أدعو كم مرة أخرى إلى إساءة الظن بهذا الرجل، فقد كان ممتلئًا غرورًا" وأكد هذا الأديب أن الأستاذ السباعي لم ينكر ذلك الكلام "وقد كان الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب".

ومع هذا فقد كان في النية أن أسكت عن الأستاذ السباعي لأنه صديق، ولأن هجومه لن يقلل من مركز الشيخ المرصفي وهو أرزن من الجبال، ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعي من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكي صفوت، وهذه الزمالة تمنحه عندي طوائف من الحقوق.

ثم ماذا؟ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفي، وأن أقدم في الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعي، ولن يخدم الأستاذ السباعي وهو صديق إلا بجذبه إلى الجدل على صفحات الرسالة في أسلوب رفيق لا يغض من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم.

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرون من وجهي بحجة أنني لا ألقاهم إلا بقلم تطير من أسلاته شظايا الشراسة والعنف.

وقد استجاب الأستاذ السباعي لهذه الدعوة، وأعلن على صفحات الرسالة أن في الخصومات الأدبية مجالاً واسعًا للبحث والتدقيق.

وما دام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية:

أولاً– قضى الشيخ المرصفي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهد بكتاب اسمه: "رغبة الآمل في شرح الكامل" وقضى الأستاذ السباعي بيومي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: "تهذيب الكامل".

فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين "رغبة الآمل" و"تهذيب الكامل" كالفرق بين المرصفي والسباعي، وهو بون شاسع جدًا، بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الإنجليز والألمان، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق في أجواء الادعاء.

ثانيًا: أعلن الأستاذ السباعي إن كتاب الشيخ المرصفي ظهر في سنة ١٩٣٠ والصواب أنه ظهر في سنة ١٩٢٧ وليس لهذا التاريخ أهمية، وإنما الأهمية للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح الكامل، وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس "الكامل" لطلاب الأدب من الأزهريين، ففي ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطي وطلب إلغاء ذلك الدرس، وكان مفهومًا عنده أن المبرد أكبر من يتسامى إلى نقده رجل من المحدثين، ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ إبراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطي ومعه ملزمه من شرح الشيخ المرصفي، فدهش الشيخ الشنقيطي وسارع إلى الاعتذار، ثم صارح الشيخ محمد عبده بأن المرصفي لا يقل علمًا بأسرار اللغة عن المبرد.

ثالثًا:– كان كتاب "رغبة الآمل" كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس في سنة ١٩١٥ وقد رأيته بعيني في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الزنكلوني طيب الله ثراه.

ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدم إلينا شرحه عن كتاب المبرد، لن أنساها أبدًا، فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرد:

"الله على أيامك، يا بطل".

والكتاب الذي كان كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذي سرقت بعض فهارسه من كتاب ظهر في أواخر سنة ١٩٢٣.

رابعًا: لم يكن الشيخ المرصفي يطلع على الشيء من مؤلفات المعاصرين فكيف أختص الأستاذ السباعي بتلك العناية؟ تلك والله إحدى الأعاجيب!

خامسًا: كان الشيخ المرصفي أول رجل تسامى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء، وكان أول رجل أقر "كرسي الأدب" في الأزهر الشريف، وكان أول رجل جعل للأديب مكانًا بين "جماعة كبار العلماء" فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال.

فماذا صنع الأستاذ السباعي في دار العلوم، ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار، مع التسامح الشديد؟

سادسًا: برأ الأستاذ السباعي نفسه وظهر تاريخه من التلمذه للشيخ سيد المرصفي فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفي وكان منهم محمد إبراهيم هلال، ومحمود حسن الزناتي، وأحمد حسن الزيات، وعلي عبد الرازق، وطه حسن؟

سابعًا: ترك الشيخ المرصفي ذخيرة عظيمة، منها: شرح الكامل الأمالي، وشرح الحماسة، وشرح العقد الفريد، وشرح أراجيز رؤبة وأراجيز العجاج، ومنها: التعقيب على لسان العرب، والنص على أغلاط صاحب المفصل والكشاف فماذا صنع الأستاذ السباعي، وكان عمره موقوفًا على نفس نصوص الكامل من مكان إلى مكان؟!

ثامنًا: أثر المرصفي في عصره أبلغ التأثير، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه، كمنا صنعت حين رثيته يوم وصلن نعيه وأنا طالب في جامعة باريس، فكم طالبًا يسرهم أن يقولوا: إنهم تلاميذ السباعي بيومي؟!

تاسعًا: كان تلاميذ المرصفي يقيدون جميع ما ينطق به، ولو عن طريق المزاح، وقد قيدت من كلامه ثلاثين كراسًا، فأين ما قيد تلاميذ السباعي من كلامه البليغ؟

عاشرًا: دخلت مؤلفات الشيخ المرصفي على القلوب بدون استئذان، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعي دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذًا بتلك الدار، وبعد أن مات الشيخ علام.

أما بعد، فهذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع إلى وضع، وذلك فضلى عليه، وهو واجب الصديق نحو الصديق، وقد تلطف فأشار إلى أنه سيخاصمني خصومة أدبية، وهوي خصومة أرحب بها كل الترحيب، لأني أشعر شعورًا صادقًا بأني موكل بإحياء العزائم والقلوب.

وقد أسرفت في الكرم فأعلن أني لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر في "الرسالة" كلمتين، وأقول: إني لن أصفح عنه أو يشتغل محررًا متطوعًا بمجلة "الرسالة" ثلاث سنين، كما قهرت أخًا له من قبل على أن يشتغل محررًا متطوعًا بجريدة "البلاغ" ثلاث سنين.

هي محنة صبت من شاهق على الأستاذ السباعي، فليتحملها صابرًا، وليوطن نفسه على أن الخصومة بيني وبينه لن تنتهي قبل بداية شهر مايو وهو الموعد الذي حدده الشيخ الأسيوطي لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان.

وكيف يخيفني تهديد الأستاذ السباعي وليس في ماضيه الأدبي غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان، وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودة؟!

أمثلي يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهري ممتحنًا بعدوات الرجال؟

الأستاذ السباعي يهدد بمقالتين اثنتين، وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرفن فهل يتوهم أني سأخلي له الميدان ليخاطر نفس كيف شاء؟!

لقد تلطفت معه أكثر مما يجب، ولم يحفظ جميلي، فكيف يراني أعطف عليه وقد تردى بثوب العقوق؟

ثم أما بعد، فقد حكمت على الأستاذ السباعي بترك دروسه في دار العلوم ليشغل نفسه بمخاطرتي، وليقول: "إن تهذيب الكامل" أعظم من "رغبة الآمل" كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء.

وماذا يمنع من أن يكون السباعي أعظم من المرصفي؟ وماذا يمنع وقد اختلفت الموازين وفسدت الدنيا إلى أبعد حدود الفساد، حتى جاز للأستاذ السباعي أن يهدد صديقه القديم: زكي مبارك.

١٩

هذا عيب، ولكنه جميل[*]:

أشار أديب غاب عني اسمه في مقال نشره بمجلة "الرسالة" إلى أن أتقاضى أجرًا على ما أنشر من المقالات والبحوث في الجرائد والمجلات، وهي إشارة جرت مجرى التعريض، فكان معناها أن قبول الأجر على المقالات والبحوث عيب، وهو حقيقة عيب، ولكنه عيب جميل، إن كان الكسب الشريف من العيوب.

ويظهر أن جمهور الفقهاء في مصر لا يعرفون ما صارت إليه الصحافة المصرية، فهي اليوم أعمال اقتصادية يراد منها الربح كما يراد التثقيف، ورجال الاقتصاد لا ينفقون إلا بحساب، ولا يخرج الدرهم من أيديهم إلا بعد أن يطول حوله الجدال، وتلك أكبر مزية من مزايا رجال الأعمال، فهم الصالحون صلاحية حقيقية لتصريف الأمور بعقل وتدبير وسداد، والكرم رذيلة شنيعة حين يصدر عن رجال الأعمال، لأنه يشهد بأنهم حرموا مزية الضبط والتدقيق، فإن سمعتم أن كاتبًا يتقاضى أجرًا على مقالاته في أحدى الجرائد فاعرفوا أن ذلك لم يقع إلا في سبيل الحرص على منفعة تلك الجريدة، فهو ليس إعانة تقدم إلى الكاتب وإنما هو ربح حلال يناله الكاتب تعويضًا على ما بذل من إجهاد الفكر في التحرير والإنشاء.

وإن سمعتم أن في مصر جريدة لا تنشر إلا ما يقدم إليها بالمجان فاعرفوا أن تلك الجريدة صائرة إلى البوار ثم الزوال، لأن القراء لا ينتظرون المجهولين، وإنما ينتظرون الكتاب المعروفين، والكاتب لا يعرف في وطنه إلا بعد أن يشيب فؤاده في مساورة الأبكار من الحقائق والمعاني.

وما أريد بهذه الكلمة أن أقول إني جدير بالانتفاع بما أنشر في الجرائد والمجلات، فهذا القول قد يعد من الزهو في موطن لا أريد فيه غير توجيه النصح إلى من يسألوني من وقت إلى وقت عن إمكان الاستفادة المادية من الصحف المصرية، وفي توجيه النصح إلى هؤلاء أقول:

(*) العدد ٤٠٣ من مجلة الرسالة في ٢٤ مارس سنة ١٩٤١.

لا تصدقوا أن في مصر جريدة تدفع قرشاً واحدًا لكاتب على سبيل المعونة والتشجيع، ولا تصدقوا أن الصحفيين اليوم يجوز عليهم التلطف، كما كان يجوز على أسلافهم الكرماء من أمثال علي يوسف وعبد العزيز شاويش وأمين الرافعي، فتلك أيام خلت أصبحت الصحافة قوة أدبية واقتصادية لا ينتفع بخيرها إلا أقطاب البيان، من أجل هذا صح القول بأن الصحافة المصرية تحتل المكان الثالث في العالم بعد الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية، وستظل كذلك ما دام فيها رجال يعرفون أنه لا عيب في أن تقوم الأفكار بالأموال إن جاز الوهم بأن الأفكار توزن بموازين الأموال.

الظلم البغيض:

للظلم أشكال وألوان، فهناك ظلم حلو عذب هو ظلم من يستملح منهم الدلال، وهناك ظلم تافه هو ظلم من لا يقدمون ولا يؤخرون، وهناك ظلم بغيض هو ظلم من تحسن إليهم فيسيئون إليك، فالذين يعيبون علينا أن نتقاضى أجرًا على ما ننشر في الجرائد والمجلات فيهم أناس يظنون فينا القدرة على كل شيء فهم يدعوننا في كل وقت إلى تزكيتهم عند أصحاب الجرائد والمجلات، ليجولوا ويصولوا، كما يجول ويصول من وهبوا القدرة على التصرف بالخواطر والقلوب.

ولو علم هؤلاء أن حرفة الأدب الغانم قد تحكم على صاحبها بأن يموت قبل الأوان بعشرين عامًا أو ثلاثين لزهدوا في الظفر المكسوب بثقة القراء، وهل يثق القراء بكاتب إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنه يسود القرطاس بالدم لا بالمداد؟ ثقة القارئ عروس غالية يقدم إليها الكاتب خاتمًا قد اتخذ حديده من الدم الذي سفحه على سنان القلم في الليالي الطوال.

آه، ثم آه!!

من يصدق أن الكاتب الموثوق بكفايته البيانية لا ينقل بعواطفه إلى قرائه إلا بعد أ تنفعل خاطره انفعالاً يحولها إلى نسيم تنتعش به أرواح الوجود؟

من يصدق أن الكاتب الذي يؤثر في عصره وزمانه لا يجود بكلمة من كلماته إلا وهو يجوب بأكواب حرار من دم الكبد والقلب.

ومع هذا يقال إنه أجر لأصحاب الجرائد والمجلات.

ولو قدرت مصر الكاتب حق قدره لعرفته أنه عنوانها الصحيح في الشرق والغرب، فيفضل الكاتب قيل إن مصر زعيمة الأمم العربية، وبفضل الكاتب قيل أن صحافة مصر

تزاحم الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية وهل من القليل أن نكون في الصحافة أعظم من أمم كثيرة تفوقنا في الأنفس والأموال؟

عتاب موجه إلى الزيات:

إذا صح هذا وهو صحيح -فكيف يجوز للأستاذ الزيات أن ينشر في مجلته تعريضًا بأجر يتقاضاه صاحب "الرسالة" بصدق وإخلاص أكثر من أربع سنين؟

من الزيات الصديق؟

هو الرجل الذي يؤذيني بين قرائي وأصدقائي، فما ينشر لهم كلمة أقدمها إليه إلا بعد اختبار دقيق.

أريد أن أعرف كيف يجوز للزيات أن يسمح بنشر كلمة فيها تعريض بمن ينتفعون بجهاد الأقلام، وهم أعظم من الذين ينتفعون بجهاد السيوف؟

وكيف يكون من العيب أن ننتفع بجهودنا الأدبية وهي جهود نخدم بها المجتمع كما يخدمه المشتغلون بالمحاماة والتدريس؟

وإذا جاز أن ينشر في الرسالة تعريض بما ينتفعون بثمرات أقلامهم ففي أي مكان ينتظر أرباب الأقلام كلمة الحق في الثناء على ما يقدمون من تضحيات وهم أقل المجاهدين حظًا من الثواب على الجهاد؟ ومتى نجد روح الوفاء إذا عز وجوده عند من قضوا أعمارهم في الأنس بمعاني الأدب الرفيع؟ وما الأجر الذي يقدم إلى الكُتاب في مصر حتى تصوب إليهم سهام التجريح؟

ما زلنا نشكو الغبن الذي يلاحق الصحافة الأدبية في هذه البلاد، فليس أمام الكاتب الأدبي فرصة واحدة من الفرص التي يتمتع بها الكاتب السياسي، لأن مصر التي برعت في خلق العصبيات السياسية، لم تفكر في خلق العصبيات الأدبية، والكاتب السياسي قد يستطيع التمتع بإجازة يتذوق فيها طعم الراحة شهرًا أو شهرين مع حفظ حقه في المرتب، أما الكاتب الأدبي، فهو مقهور على معاقرة الكدح الموصول، إلا أن يغنيه الله عن ذلك الأجر المنون.

من المزعج أن تنسى حقوق الكاتب الأدبي، وهو يعاون معاونة جدية على ترقية الصحافة الأدبية، وهي صحافة لم تكن ولن تكون إلا لونًا من ترف العقول، وهي الشاهد على أن الأمة لها في عالم الفكر مطامح وآمال، ولكن أين المنصفون؟

ونحن قد زهدنا في خدمة الصحافة السياسية، وهي الصحافة التي يخطب ودها أقطاب السياسية ورجال الأعمال، والتي تمكن أصحابها من نواصي المناصب العالية، فهل كنا من

الموفقين في إيثار ذلك الزهد؟ هيهات... فما كان زهدنا في الصحافة السياسية إلا ضربًا من الخذلان.

قد نعزى أنفسنا فنقول: إن الجهاد في الميدان الأدبي أبقى على الزمان وكل والله علالة المهزومين، وإلا فكيف يحسد الكاتب الأدبي على الانتفاع بجهوده الأدبية، وهي لن تصل به إلى منازل المجد إلا يوم يتولى أمور الناس رجل في حصافة ابن العميد، أو عقل سعد زغلول؟

وما تلك المنافع التي نعير بها في مجلتك، يا صديقي الزيات؟

وما الذي استفدته أنت من خدمة أنت من خدمة الأدب، وبيدك مجلة أدبية تضر بها وتنفع؟

كل ما غنمته هو السلامة من مزالق الشبهات، وذلك مغنم عظيم جدًا، ولكنه قليل الوزن في العصور الممسوخة، عصور الزهد في معالي الأمور، ولو اعتدل الميزان -كما رجونا ألف مرة- لكن للصحافة الأدبية مكان مرموق في هذه البلاد، ولكنه لن يعتدل إلا بعد أحيان طوال، ويومئذ ينسى الناس أن مصر عاش فيها أقوام حفروا الصحافة الأدبية بأسنة الأقلام، وهم محرمون من عطف الصديق المواسي، والناصر الرفيق.

ومهما تكن العواقب، فذلك حظي وحظك، وحظ إخوان كرام رضوا بالشقاء في خدمة الصحافة الأدبية ليرضوا شهوة العقل، وللعقول شهوات أقوى وأعنف من شهوات العيون والقلوب.

وهل أقبلنا على الصحافة الأدبية طائعين؟

لا، والله، فما أقبلنا على هذا المورد إلا مسوقين بسواق حطمه القلم المفتون بافتراع المعاني.

وجملة القول إن ما يعاب عليّ يعاب عليك، فمتى تكثر هذه العيوب؟ ومتى يكثر القادرون على الانتفاع بثمرات الأقلام؟

العيب الحق هو أن تشهد الوقائع بأن الذين ينتفعون من الصحافة الأدبية لا يزيدون عن آحاد لأن أدباء مصر لم يستطيعوا إلى اليوم أن يصيروا الأدب غاية وجودية، يحيا بها الناس كما يحيون بالطعام والشراب.

فهل يستطيع من عابوا على الانتفاع بقلمي أن ينتفعوا بأقلامهم؟ وهل فيهم من جعل رزقه على سنان قلمه، كما جعل رزقي في سنان قلمي؟

ليت الله يكثر من المنتفعين بأقلامهم، لنؤمن ونصدق بأن القلم صارت له دولة في هذه البلاد.

ليت، ثم ليت!!

الدين الإسلامي في المدارس الأجنبية:

قرأت في الجرائد خلاصة ما انتهى إليه البحث بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فيما يتصل بتعليم الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين بتلك المدارس، وقد فهمت مما قرأت أن البحث وصل إلى غايتين:

الأولى: أنه لا يجوز أن يعلم تلميذ دينًا غير دينه ولو رضى أهله بذلك.

الثانية: أنه يجب تعليم الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين بالمدارس الأجنبية وقد حدثني من شهدوا تلك المحادثات أن نظار المدارس الأجنبية لم يعترضوا على النص الذي يوجب ألا يتعلم التلميذ دينًا غير دينه، لأنهم لا يريدون فتح باب الفرقة والخلاف بين أبناء هذه البلاد، ولأنهم يعرفون أنهم مؤتمنون على ضمائر من يدخل مدارسهم من أبناء المسلمين.

أما النص الذي يوجب أن يتعلم التلاميذ المسلمون مبادئ الدين الإسلامي فقد وافق عليه نظار المدارس الأجنبية بعد جدال بسيط، وكانت حجة المجادلين أن بعض المدارس قد تتعدد فيها الديانات والمذاهب، فمن الإرهاق لجدول الناس أن تخصص فيه ساعات لتدريس ديانات التلاميذ على ما بينها من تباعد واختلاف، وهنا وجدت وزارة المعارف الحل فرضيت أن تكون دروس الدين الإسلامي في أيام الآحاد.

وذلك ما حدثني به الصديق الذي شهد تلك المباحث فما الذي أملك في التعقيب على هذا الموضوع الدقيق؟

أواجه الموضوع بصراحة تنفعنا وتنفع ضيوفنا الأجانب فأقول: تنقسم المدارس الأجنبية إلى قسمين: مدارس مدنية ومدارس دينية.

أما المدارس المدنية: فهم على أتم استعداد لتدريس الدين الإسلامي في دورها، لأن نظامها يقوم على احترام جمع الديانات وإن كانت غير ملزمة بتدريس الديانات، وما دام الرأي العام في مصر يرى أن الدين الإسلامي مادة أساسية في تثقيف التلاميذ المسلمين فهي لا تمانع في أن يكون في دورها مكان لتعليم أولئك التلاميذ مبادئ ذلك الدين.

بقية المدارس الدينية، وهي مدارس لا يطلب منها غير الحياد، فكيف نفرض عليها أن تعلم الدين الإسلامي في دورها؟ إنما يجب أن نسهل عليها هذه المهمة فتتولى تعليم من بها من التلاميذ المسلمين في دور المدارس المصرية وفي أيام الآحاد.

ذلك ما رآه وزارة المعارف، وهو رأي أرادت به مجاملة المدارس الدينية، حتى لا يقال إن وزارة المعارف تجرح إحساس الأجانب من رجال الدين.

كل هذا جميل، وجميل جدًا، وجدًا جميل، كما يعبر الدكتور طه حسين.

ولكنه إن واقع فسيشهد بأننا جميعًا نعيش في عصور الظلمات، فنظار المدارس الأجنبية لا ينكرون أن الإسلام دين يتقرب به إلى الله مئات الملايين، فكيف تضيق به مدرسة يديرها أوروبيون أو أمريكيون، وقد نشأوا في بلاد لا ترى من العيب أن تدرس الأوهام والأضاليل حتى تشعر بالحرج في السماح بتدريس الدين الإسلامي "وهو إن لم يكن وحيا من السماء كما يزعم من خاصموه فهو بلا جدال أقوى صورة من صور الضمير الإنساني، وأعظم شاهد على سيطرة الفكر والعقل والوجدان" لو جاز لي أن أتهم وزارة المعارف لقلت إنها تريد اختبار بعض رجال الدين من الأجانب، فهي تريد أن تجرب مبلغ استعدادهم لتقبل التعاون السليم من شوائب الأغراض، فما الذي سيصنع أولئك الرجال في الرد على وزارة المعارف؟!

أنا أرجح أنهم سيفكرون في منافع تلاميذهم من المسلمين فينظمون فهم دروس الدين الإسلامي بطريقة تعفيهم من التردد على المدارس المصرية وفي أيا الآحاد.

فما تلك الطريقة؟

في المدارس الأجنبية نظام مدرسي وهو النظام الذي يسمح بأن يقسم التلاميذ إلى فرق مختلفة في وقت واحد. فمن السهل أن ينبع هذا النظام في تدريس الديانات في المدارس التي تختلف فيها الديانات، وعندئذ يذهب الخطر المتوقع من إرهاق جدول الدروس.

دفع اعتراض:

قد يقال إن في تدريس الدين الإسلامي بالمدارس الأجنبية فتحًا لأبواب الشقاق بين التلاميذ المختلفين في الدين.

وأجيب أن إغفال الدين الإسلامي هو الذي يخلق ذلك الشقاق، لأنه يفرض على التلاميذ المسلمين أن يتصوروا أنهم مضطهدون، ويوحي إليهم فكرة الوهم بأنهم يتعلمون في مدارس تضمر لدينهم معاني العداء المكشوف أو الملفوف.

فما مصلحة تلك المدارس في إغفال الدين الإسلامي؟

وما الموجب لأن يتعبونا بتجديد خصومات نحب أن تموت؟

الواقع أن بغض نظار المدارس الأجنبية لم يجدوا من يدلهم على اتجاهات الأفكار والعقول في هذه البلاد، ولو وجدوا من يرشدهم لأعفونا وأعفوا أنفسهم من الدخول في محرجات تؤذينا وتؤذيهم أعنف الإيذاء.

للمدارس الأجنبية ماض جميل في نشر اللغات الحية بالديار المصرية، وذلك الماضي الجميل يحتاج إلى حارس أمين من الحاضر الجميل.

فمن يبلغ بعض نظار المدارس الأجنبية أن الصديق الحق هو الذي يرشدهم بصدق وإخلاص إلى جلية الأمر في مواطن قد اشتبكت فيها الأوهام والظنون؟

إن صدقت النيات في تحقيق ما تم عليه الاتفاق بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فسيكون لتلك المدارس مستقبل أروع وأجمل من ماضيها الرائع الجميل.

ثم دفع اعتراض:

قيل وقيل إن وزارة المعارف قد انتهزت فرصة الاضطرابات الدولية لتصفي ما بينها وبين المدارس الأجنبية، وذلك القيل كذب وافتراء، فوزارة المعارف تفكر في هذه الشئون منذ أعوام طوال وهي بالفعل قد قررت التفتيش على جميع المدارس الأجنبية منذ سنة ١٩٣٨ يوم كان الحديث عن وقوع حرب عالمية رجمًا بالغيب، فمن التجني على وزارة المعارف أن يقال إنها تنتهز فرصة الاضطرابات الدولية لتحقيق أغراضًا سليمة لا يطعن في سلامتها إلا أهل الأغراض والأهواء.

أما بعد فقد علمت أن قانون التعليم الحر سيعدل بعد تلك المباحثات تعديلاً يضمن السلامة من أخطار الخلاف بين المصريين والأجانب، ويؤكد الثقة والصفاء بين أولئك وهؤلاء.

للحق والتاريخ:

حدثين صديق شهد تلك المباحثات أن أعضاء اللجان الفرعية من الأجانب عز عليهم أن ننتهي في أسابيع، فقد راعهم أن يعرفوا أن في وزارة المعارف رجالاً موسومين بالرفق واللطف في معالجة الدقائق من المعضلات، وكانوا يتوهمون أنهم لن يلقوا إلا رجالاً يغنيهم الاعتصام بالحق عن مراعاة الرفق واللطف.

وكذلك حدثني ذلك الصديق أنه لم يكن ينتظر أن تتم تلك المباحثات في أسابيع فقد كانت الأراجيف شاعت أن تصور بعض رجال التعليم من الأجانب بصورة من يعادون العروبة والإسلام في هذه البلاد. ثم شاء الله أن تشهد الظروف بأنهم أبرياء من ترهات تلك الأراجيف.

ذلك ما حدثني به الصديق الذي شهد تلك المباحثات، وهو لم يخبرني بجديد، فقد اتصلت بنظار المدارس الأجنبية عددًا من السنين فلم أجد غير الأدب واللطف والذوق، ولم أشهد عليهم غير الاهتمام بمراعاة العواطف المصرية، كتب الله لنا ولهم التوفيق في خدمة العلوم والآداب والفنون.

٢٠

حرية الرأي(*):

كنت قلت: إن الناس في عصور الظلمات كانوا يجهرون بآراء لا نستطيع روايتها في هذا الجيل، فهل يكون معنى ذلك أن القدماء كانوا أشجع؟ وهل يكون معناه أنهم كانوا أبصر بمذاهب النفوس، واقدر على تصريف الآراء؟

الواقع أن أرباب الفكر في هذا العصر أكثر نفاذًا إلى الدقائق، وأعرف بشئون المجتمع، وأهدى إلى أسرار المشكلات والمعضلات، بفضل ما أتيح لهم من وسائل الفهم والإدراك.

فكيف يتفق أن يكون المحصول الفكري في هذا الجيل أقل من أمثاله فيما سلف من الأجيال؟ أو كيف جاز أن يمر محصولنا الفكري بدون ضجيج يوقظ غافيات العقول؟

يرجع السبب فيما أرجح إلى ظاهرتين تتصل أولاهما بالقارئ وتتصل الثانية بالكاتب، وفي تفصيل ذلك أقول:

كان القراء قديمًا من الخواص، أو خواص الخواص، بسبب شيوع الأمية، وبسبب غلاء المؤلفات، وندرتها في بعض الأحايين، فقد قضى ابن خلدون عمره وهو يتشوف إلى الإطلاع على جزء من كتاب الأغاني، ولعله قد مات قبل أن يظفر بما يريد، وحدثنا صاحب "الطراز" أنه عجز كل العجز عن الوصول إلى مؤلفات عبد القاهرة الجرجاني في البلاغة، على أنه كان على جانب من الغنى والجاه، وعلى اتصال بجماعة من الأمراء في مختلف الحواضر الإسلامية [١٢] وعرفنا فيما قرأنا أن بعض الباحثين كان يقصد مناسك الحج لينادي علنًا في عرفات عن رغبته في اقتناء كتاب لم يستطع الوصول إليه برغم ما بذل في سبيله من عناء.

هذا يؤكد أن القراء قديمًا كانوا من الخاص، أو خواص الخواص، وذلك هو السر في عدم تهيب المفكرين من إعلان ما يجول بصدورهم من آراء وأهواء، فقد كان المفكر يحادث

(*) العدد ٤١٤ من مجلة الرسالة في يونيو سنة ١٩٤١.

(12) كان صاحب الطراز يلقب بأمي المؤمنين.

قراءة كما يحادث أصفياءه، لثقته بأنهم فئة ممتاز تفهم عنه ما يريد بلا تزيد ولا تحريف، وذلك أيضًا هو السر في أن تعابير القدماء تغلب عليهم الصراحة، ويسود فيها الصدق، وقد توصم بالعرى في بعض الأحيان.

ولا كذلك القراء في هذا العصر، فهم يعدون بالألوف، وألوف الألوف، فمن العسير أن يكونوا جميعًا من الخواص وربما جاز القول بأن جمرتهم من العوام، أو عوام الخواص، وهذه الحال تفرض على المفكر أن يحتاط في عرض ما يجول بصدره من آراء وأهواء، وذلك هو السبب في أن تعابير أهل العصر تعوزها الصراحة، ويقل فيها الصدق، ولا تخرج سافرة أو عارية كبعض تعابير القدماء، وإنما تخرج ملفوفة في أثواب من الرمز والإيماء والتلميح، إن لم يحملها الإسراف في حب السلامة على التدثر بأثواب من المداهنة والمصانعة والرياء.

فإن رأيتم جماعة من المفكرين يدورون حول أغراضهم في تردد وتهيب وإشفاق فاعرفوا أنهم يصانعون قراءهم "الألباء"، واذكروا أنهم لا يملكون من حرية التعبير غير أطياف، وإن قيل وقيل بأنهم يعيشون في القرن العشرين!

وهل كان التفاوت بين طبقات القراء هو كل ما يعوق الفكر في هذه الجيل؟

هنا يجيء القول بالفرق بين حال الكاتب في هذا العصر وحال الكاتب في العصور الماضية.

فالكاتب قديمًا كان في أغلب أحواله رجلاً قليل التأثر بضجيج المجتمع، لأن آراءه لم تكن تصل إلا إلى جمهور ضئيل بعد إفراده بالعشرات أو بالمئات، ولأنه لم يكن يفكر إلا قليلاً في التطلع إلى المناسب التي تفتقر إلى ثقة المجتمع، فأكثر المفكرين القدماء لم يكونوا رجال سياسية ولا رجال سياسية ولا رجال أعمال فقد كان فيهم جماعات يعيشون في عزلة رهبانية ولا يهمهم غير التعبير عن أغراضهم بحرية وصراحة وجلاء، ولم يتعرض منهم للأذى والقتل غير من طاب لهم أن يواجهوا مشكلات السياسة أو معضلات الدين.

أما الكاتب في هذه الأيام فله حال وأحوال.

هو أولاً رجل يخاطب الألوف، وألوف الألوف، وفيهم أذكياء وأغبياء وأعداء وأصدقاء، وهو عن مراعاة أهوائهم مسئول.

وهو ثانيًا رجل يهمه أن يتمتع بحقوقه المدنية، وقد يتسامى إلى كبار المناصب، وذلك يوجب الحرص على مسألة المجتمع في أكثر الشئون.

الكاتب في هذه الأيام يعرف جيدًا أنه يعيش تحت رقابة عنيفة من الدولة ومن المجتمع، وهو مقهور على مراعاة تلك الرقابة ما دام يتطلع إلى بعض المناصب العالية، وهي مناصب لا تمنحها الدولة إلا لمن يرضى عنهم المجتمع، وهنا يكون الخطر على حرية الفكر والرأي، ويكون الجحود لما وهب الله الناس من قلوب وعقول.

التضامن الأدبي:

وبعد عرض هذه الصورة التي تمثل ما صرنا إليه نوجه الأسئلة الآتية:

هل من مصلحة مصر، ولها الزعامة الأدبية في الشرق العربي والإسلامي أن يشعر المفكرون من أبنائها بأن لا سبيل إلى الظفر بما تؤهلهم له مواهبهم من كبار المناصب إلا بمصانعة الدولة ومصانعة المجتمع؟

وهل من الخير لمصر أن تكون مناصبها العلمية والأدبية وقفًا على من يملكون أكثر نصيب من القدرة على إخفاء ما يثور في صدورهم من آراء وأهواء؟

وهل من الممكن أن يزدهر الأدب العربي وهو مصدود عن الترجمة الصحيحة للأزمات التي تضطرم في صدور أهل هذا الجيل؟

وكيف تقوى لغتنا على منافسة اللغات الحية وهي أداة ضعيفة بسبب الكبت المفروض على قادة الفكر وحملة الأقلام؟

نترك الدولة ونترك المجتمع إلى أن تفهم الدولة ويفهم المجتمع أن حرية الكفر والرأي هي المزية التي يفضل بها الشعوب على بعض، ونسأل رجال الفكر والرأي عن واجبهم في حماية الأقلام والعقول. وما سألناهم هذا السؤال إلا ونحن نعرف أنهم آخر من يتقدمون لحماية الفكر والرأي من عدوان المخادعين والمرائين.

ومعاذ الأب أن أنكر أن الأدباء يتعاونون ويتساندون من وقت إلى وقت، ولكني مع ذلك أشعر بأن التضامن الأدبي غير موجود بمعناه الصحيح.

وكيف أطمئن إلى وجود التضامن الأدبي وأنا أعرف أن الأديب لا يجد من ينصره إذا تنكرت له الدولة أو تنكر له المجتمع؟

الأديب لا يعيش عيشًا مقبولاً في مصر إلا إذا راض نفسه عن كل ما اتفق عليه العُرف من عادات وتقاليد، وكأن يتبرأ من كل من يتعرض لنقد الشرائع والقوانين.

لا يعيش الأديب في مصر إلا إذا تخلق بأخلاق فلان.

وفلان هذا رجل عاقل إلى ابعد حدود العقل، هو رجل قومه بما يحبون، فيدعوهم إلى السلم إن جنحوا للسلم، ويدعوهم إلى الحرب إن مالوا إلى الحرب، وهو يساير أهوائهم بخضوع لا نظير له ولا مثيل، وكأنه حمل مشدود إلى ظواعن القطيع!

ولفلان هذا زملاء يشاطرونه التمتع بنعمة "العقل" ولن يتقدم الأدب على أيديهم خطوة واحدة، لأن الأدب لا يحيا إلا في جو الحرية الفكرية والوجدانية.

ولأن الأدب لا يعترف بوجود المرائين، ولو جن الدهر فخلع عليهم أثواب الغنى والأمان(١٣).

الأدب ينتظره ثورة وجدانية وروحية وعقلية ليعلن حقه في الوجود.

الأدب يطمع في أن يكون أداة التعبير عما في هذا العصر من أوهام وأحلام وحقائق وأباطيل، فيرج الأذهان والعقول بأقوى وأعنف مما يصنع الزلزال.

الأدب يزيد أن يكون صورًا صوادق لما عند أهل العصر من فجور وعفاف وإلحاد وإيمان، ليشعر الناس بأن الأدب ليس زخرفًا من القول، وإنما هو بعث وإحياء.

ولكن الأدب سيظل مقيدًا مغلولاً إلى أن يعرف أهله قيمة التضامن الأدبي، فمتى يعرفون؟ ومتى نطمئن إلى أن حرية الرأي لها أنصار بين أعلام الفكر وأقطاب البيان؟

لو ضمنا عطف الأدباء بعضهم على بعض لزهدنا في رفق الدولة وعطف المجتمع، فنحن ننتظر أن تقوم للأدب دولة تعصم أبناءها من التعرض لأذى الجاهلين، وتغنيهم عن انتظار الرزق الحرام، وهو الرزق المجلوب بمصانعة أهل الغفلة والجمود.

المال والبنون:

كنت أنكر على علماء النحو أن يقولوا إن واو العطف لا تفيد الترتيب، وكانت حجتي أن البليغ يقدم الأهم على المهم حين يعطف بالواو، بدليل قول القرآن: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (الكهف، ٤٦)، فما قدم المال إلا لأنه آثر في زينة الحياة من البنين.

ثم تذكرت هذه الحقيقة النحوية حين قرأت كلمة الأستاذ عباس العقاد في التعقيب على الكلمة التي نصصت فيها على حقوق الوارثين، فقد كنت قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم الإنسانية، ويروض الناس على الاكتفاء بجمع من يغنيهم يومًا بيوم.

---

(13) شخصية فلان شخصية رمزية تصور جوانب من المجتمع الأدبي، ولا يراد بها التعريض بفلان.

ويرى الأستاذ العقاد أن طلب المال كطلب العلم، فهو فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء.

وهذا الرأي حق، وقد تذكرت به الكلمة المنسوبة إلى الرسول:

"جائعان لا يشبعان: طالب علم وطالب عمال" أو لعله قال: "منهومان" فما أذكر بالضبط نص هذا الأثر النفيس.

وصدق الأستاذ العاقد فيما رواه من أحوال ناس ليس لهم أعقاب ولا يخشى على أموالهم النفاذ لو بسطوا فيها الأكف بالإنفاق عشرات السنين.

وأنا لم ابعد من الصدق حين قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم الإنسانية، فأمامي أحوال كثيرة تشهد بأن الرجل تفتر عزيمته في جمع المال حين يشعر بأن أملاكه قد تصير إلى غير من يحب من الأقربين، أو حين يرى أن أبناءه ليسوا من النجباء، وأن أملاكه قد تبدد بعد موته بقليل. وتلك أحوال يعرف منها الأستاذ العقاد مثل الذي أعرف، وهو نفسه قد نصل على لون من لوعة الآباء حكاه الدكتور يعقوب صروف.

الذي يهمني هو رأي الأستاذ العقاد فيمن يجمعون المال ويحرصون عليه مع يقينهم بأنه لا وارث لهم غير من يتمنون لهم الموت من لئام الأسباط أو لئام الأقرباء.

ما رأي الأستاذ العقاد في هؤلاء من الوجهة الأخلاقية؟

الجمهور يرى هؤلاء من الغافلين، وقد نظمت فيهم أشعار، وقيلت فيهم أمثال، وتعقبهم الناس بالغمز واللمز في جميع العصور وفي جميع البلاد.

أما أنا، فأرى هؤلاء على جانب عظيم من قوة الإحساس بالوجود، وأراهم نماذج حسنة من الوجهة الخلقية... ولكن كيف؟ وهل من السهل أن ننقض نظرية رحب بها الناس منذ مئات الأجيال؟

أخاطر مرة جديدة فأقول: إن حب المال دليل على العافية الروحية فما يحب المال غير الأصحاء، ولا يزهد في المال غير الأموات أو أشباه الأحياء.

والمال يفرض على محبيه أن يكونوا من أهل النشاط والنظام والتدقيق، وتلك شمائل لا يتصف بها غير أهل العافية الروحية وإن أعوزتهم العافية البدنية، أما الزاهدون في المال، فهم خلائق ضعاف لا يصلحون لدنيا ولا دين.

والشخص الميت هو الذي لا يعرف قيمة المال، ولا يفهم –لأنه ميت– أن المال سناد الأحياء، وأنه شاهد على أن أصحابه أدوا واجبهم في مصارعة أمواج الوجود.

وأنا أؤكد هذا القول بعنف يصل إلى الإلحاح البغيض، لأني أرى أهل مصر في احتياج على من يدق ناقوس الخطر ليذكرهم بوجوب التأمل في هذه المعاني.

أنا أكترث من القول في هذه الشئون حتى صح للدكتور إبراهيم ناجي أن يقول في إحدى المحاضرات بأن أدب زكي مبارك مستوحى من غريزته في حب الحيازة والامتلاك.

ولو كان هذا القول صدقًا في صدق، لبحثت عن أسلوب غير الأسلوب الذي ارتضيته في حياتي وهو احتراف التعليم والتأليف، فمن المؤكد أن الأوقات التي ابذلها في خدمة الحياة الأدبية، كانت تجعلني أغنى الناس لو بذلتها في الاتجار بالتراب.

الحياة خدعتنا فزينت لنا احتراف التعليم والتأليف، فما الذي يوجب أن نطوي عن قومنا ما فطنا إليه بعد فوات الوقت؟

نحن نرى أن جمع المال ليس بعيب، ونحن ندعو مواطنينا إلى الاعتصام بالمال، فقد قدمه الله على الاعتصام بالبنين.

المفتونون بجمع المال هم في نظري أعرف الناس بقواعد الأخلاق!

وهل أخطأ أسلافنا حين قرروا أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؟

الفقر كريه الطعم، قبيح اللون، فاقتلوه حيث ثقفتموه.

الفقر فضيحة علنية، الفقر أكبر الذنوب، وأشنع العيوب.

حاربوا الفقر، حاربوه، حاربوه، فهو أقدر البلايا على إذلال الرجال!

ويرى الأستاذ العقاد أن طالب المال كطلب العلم، فهو فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء.

بقول المثل الفرنسي: "قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت".

وأنا أقول: "قل لي ماذا تملك، أقل لك من أنت"[١٤].

أقبح عيب يوصم به الغني هو البخل، وأقبح عيب يوصم به الفقير هو السؤال، وما أبعد الفرق بين البخل والسؤال!

هل يعرفون الغافلون من الذين يشتموننا ظالمين أننا لم ندعهم إلا إلى إكرام أنفسهم بالحرص على طلب الرزق الحلال؟

---

(14) لا يا دكتور مثلك هذا يزيفه التدقيق أو التطبيق، فهل سمعت بثروة "الغربي"؟ (الرسالة).

الذي لا ينفق عشر ساعات من كل يوم في طلب الرزق ليس بأهل للعيش.

والذي لا يجعل من همه أن يعيش مستورًا ويموت مستورًا ليس بأهل للظفر بنعمة الكرامة الذاتية.

والذي يعجز لفقره عن إنجاد إخوانه من وقت إلى وقت لا يجوز له التوهم بأنه من أحرار الرجال.

الغني أجمل مظهر من مظاهر الأخلاق، جعلنا الله جميعًا من الأغنياء!

الباقيات الصالحات من الشمائل الإنسانية:

يذكر أخونا الزيات -حفظه الله ورعاه- أني أرسلت إليه كلمة سايرني خيالها في تجوالي بين الإسكندرية وأسوان، وأنه طوى تلك الكلمة لأسباب لا يجهلها القراء، فهل أستطيع أن أسجل أن الإنسانية لا تزال فيها شمائل من الباقيات الصالحات؟

من شمائل الإنسانية في هذا العصر أن من الممكن أن تعفي بعض المدائن من أهوال الحرب، إذا شاء أهلوها أن يجعلوها في أمان من البلاء.

ومن شمائل الإنسانية في هذا العصر أن يعفي (اتحاد البريد) من التعطيل، ولو وجهت رسائله إلى ميادين الحروب.

وبفضل هذه الشمائل الإنسانية حمل إليَّ البريد كتابًا من حضرة/ الأستاذ غالب المؤيد العظم، وهو يعلن رضاه عن مجلة الرسالة، وعن المقال الذي نشرته بعنوان: "الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع".

فإلى ذلك الأستاذ الفاضل أقدم أصدق التحيات، وأرجوه أن يعفيني من نشر قصيدته في الثناء على صاحب المقال.

وإن عاد السلام فسيكون لنا مع أصدقائنا في جميع البلاد العربية أحاديث وأحاديث.

لا تنزعجوا:

ظن الغزاة أنني أطيع جماعة الثائرين فانسحب من الميدان الأدبي الأدبي، فكتب فريق منهم رسائل طريفة يدعونني فيها إلى الثبات في الميدان.

وأجيب بأن أعز أصدقائي هم أولئك الثائرون، وأنا بثورتهم مزهو مختال، لأنها تشهد بأنهم يسايرونني بيقظة والتفات، فثورتهم ليست إلا فنًا من فنون الإعجاب.

والحق كل الحق أني لا أفكر أبدًا في إيذاء قرائي بعرض ما قد ينكرون من المذهب والآراء، وإنما أنا مسئول أمامهم عن التزام الصدق في جميع الأحوال ولو تعرضت لغضبهم المهتاج، وثورتهم عليَّ بسبب الصدق أخف وأهون من ثورتهم على بعض الناس بسبب الرياء!

إن الكاتب الذي يرائي قراءه ليس بأهل للحياة الأدبية، ومن الواجب أن نقول للقراء بصراحة إننا لا نستوحيهم ولا نستهديهم، حتى ننتظر ما يتفضلون به من حمد وثناء، وإن كان الحرص على منافعهم أول ما يشغلنا حين نمتشق القلم في سبيل الحق، وهل كان هوانا إلا فيضًا من هواهم، وإن غفل بعضهم عن حقائق ما نريد؟

وإذًا فمن حق السيد ناصر الدين النشاشيبي أن يطمئن إلى أننا لن نخرج أبدًا من الميدان الأدبي، ولن نأتمر أبدًا بأوامر أهل الحقد والبغضاء.

تهديد طريف:

وبهذه المناسبة أذكر أن قارئًا لا أسميه هدد بالكتابة إلى الأستاذ الزيات ليبلغه آراء القراء في صاحب هذا الحديث!

وأقول إني تطوعت بتبليغ هذه الآراء إلى الأستاذ الزيات وإلى جميع القراء، فما الذي يراد من أمانتي أكثر من ذلك؟

أنا أشتهي أن أرى في الدنيا أقوامًا يغضبون ويحقدون، فما تأخر الشرق إلا لعجزه عن الغضب والحقد، وهما من شواهد الحيوية في الغرائز والطباع.

أغضبوا واحقدوا، ثم اغضبوا واحقدوا، غي باغين ولا عادين، وكونوا رجالاً يؤذيهم ما يكرهون فيثورون عليه ثورة الحليم العاقل الحصيف.

اغضبوا واحقدوا، يا بني آدم من أهل مصر والشرق، ولا تنسوا أن الذي أملى عليكم دروس البغض والحقد هو الكاتب الذي يحبكم أصدق الحب: زكي مبارك.

٢١

امتحان جديد(*):

ومن المحنة جاء الامتحان، كما جاء الابتلاء من البلاء!

وقد امتحنت مصر في هذه الأيام، بضروب من الخوف والجوع بسبب الغارات الجوية، فما الذي أعددناه لنخرج من هذه المحنة بسلام؟

السياسة الرسمية للسياسيين الرسميين، أما السياسة القومية فملقاة على عواتقنا، إن كنا أهلاً للظفر بثقة الوطن الغالي، فما واجبنا اليوم وقد جدت شئون لا يباح معها لعب ولا مزاح؟

قيل إن الذين هاجروا من الإسكندرية سبعون ألفًا أو يزيدون، فإلى أين تتوجه تلك الألوف؟

ندع الحكومة تدبر من هذه الشئون ما تستطيع، ثم نلتفت إلى أغنيائنا فنقول:

هذه فرصة سنحت لشكر الله على نعمة الغنى والعافية، والأمان، فماذا عندكم من فنون الشكر والحمد والثناء على واهب الغنى والعافية والأمان؟

إن كان الله ابتلى فريقًا من الفقراء بتعريضهم للخوف والجوع فقد ابتلى جماعات من الأغنياء بتعريضهم للشح والبخل في أوقات لا يبخل فيها غني بماله إلا وقد عرض نفسه لغضب الله صاحب العزة والجبروت.

قلت خمسين مرة: "إن الأمم بأغنيائها" ولمثل هذه الأيام الفواجع أعددنا أغنيائنا، ليزدادوا قوة إلى قوة، فما ينمي الخيرات والثمرات غير الجود بها في أوقات البلاء.

هذا يوم الامتحان، وهو امتحان يؤديه أغنياؤنا طائعين لا كارهين فما نحب أن يكون عليهم رقيب غير ضمائرهم، ولا نقبل أنه تتدخل الحكومة لحملهم على البر والإفضال فيضيع المعنى الشعري الجميل، الذي يمثل رفق الأغنياء بالمهاجرين الفقراء، عن طيب نفس وبلا انتظار لأمر يصدر من هنا أو هناك!

(*) العدد ٤١٦ من مجلة الرسالة.

أغنياؤنا اليوم مدعوون لوليمة روحية لا تتاح في كل يوم، فأمامهم فرصة للشعور بمعاني جديدة لم يشعروا بمثلها من قبل، الشعور بمعاني الكرم والإيثار والإفضال، وهي معان أشهى وأطيب من الأنس بالمال المكنوز في أوثق الحصون.

فالبائس الذي يكرمون اليوم، ليس صعلوكًا يتسول حتى يملكوا كف أيديهم عن الإحسان إليه، وإنما هو أخ مواطن صدته الظروف القواهر عن مواصلة عمله في مدينة معرضة لعدوان الباغين عن الحق وعلى الإنسانية.

وهذا المواطن المصدود عن طلب الرزق يستطيع أن يؤدي خدمة تنفعه وتنفعكم إذا أردتم أن يدفع ثمن القوت والإيواء.

نحن لا ندعوكم إلى تدليل المهاجرين حتى ينسوا أن الدنيا دار كفاح ونضال، وإنما ندعوكم إلى تيسير وسائل الرزق الحلال لمن يستطيعون أن يعملوا بلا إجهاد ولا إرهاق.

أما الذين لا يصلحون للعمل من الأطفال والعجائز، فهم غيوث تساق إليكم، وما أسعد من تواتيه الظروف على تربية طفل يتيم، أو إسعاد عجوز فقد من يعوله من أهل وأبناء!

جربوا هذه الألوان من طعوم الحياة، يا أبناء هذه البلاد جربوها ثم حدثوني عما وجدتم من شهي المذاق.

سبعون ألفًا يبددون كما يبدد العقد المنظوم، ثم لا يلتفت إليهم أحد من الأغنياء التفاتة الرفق والعطف والإشفاق؟

فلأي يوم ادخرنا أغنياءنا، إن لم نكن ادخرناهم لمثل هذا اليوم.

الرفق باليتامى لا يمر بلا إجزاء، والإشفاق على المنكوبين لا يفوت بلا ثواب، وإن الله لينظر إلى ما تعاملون به أولئك وهؤلاء، فما أنتم صانعون؟

سيخرج المحاربون بمغانم جديدة أقلها القدرة على تعديل صحائف التاريخ، فما غنائمنا في هذه الحروب؟

ما غنائمنا إن لم نفز بفتح جديد هو تفجير ينابيع العطف والتآخي في الصدور المصرية؟

وما قيمة الحياة إن لم نذق فيها من طعوم الرغد غير الشبع والري في عزلة عن بلايا المجتمع؟

ما قيمة الحياة إن لم نثق بأننا أهل الإغاثة الملهوفين حين يعتسف البلاء؟

رحمة الله على أيامنا السوالف، ثم رحمة الله على ليالينا الخوالي.

كنا أجود من الغيث حين نسمع بنكبة حلت بشعب من الشعوب ولو ضعفت بيننا وبينه الأواصر والصلات، ألم يتوجع شعراؤنا الكبار للزلازل التي وقعت في بلاد الطليان وبلاد اليونان؟

ألم نؤلف اللجان لمنكوبي الحرب الفلندية؟

فما سكوتنا اليوم النكبة حلت بسكان الإسكندرية وطن الفتوة والجمال؟

كان مصطفى كامل يقول: الإسكندرية معقل الحزب الوطني.

وكان سعد زغلول يقول: الإسكندرية معقل الوفد المصري.

وكذلك كانت الإسكندرية مدينة مدللة يتودد إليها جميع الأحزاب، فما حالها اليوم في أنفس الزعماء؟

الإسكندرية – مدينتنا البحرية الجميلة– تعاني عذاب التشريد ونحن صامتون صمت الأموات!

الإسكندرية –عروس الماء– التي دانت جميع شعرائنا وكتابنا تنظر اليوم إلى من يواسيها بكلمة رثاء، وإلى من ينظر إلى أبنائها نظرة إشفاق.

وإلى من يتوجه أبناؤها المشردون؟ إلى أين؟

أيتوجهون إلى الريف وأهل الريف في أغلب أحوالهم فقراء؟

دعوا هذا الحد، فهو لا ينفع بشيء، واسمعوا كلمة الحق.

يجب أن يكتتب القادرون من الأمة بمبالغ تتفاوت بتفاوت القدرة المالية، ثم يكون ما يجمع من الاكتتاب ذخيرة تدبر بها وسائل العيش المقبول لأولئك المنكوبين، على شرط أن يعيشوا من كسب أيديهم في الحدود التي تسمح لهم بالكسب والارتزاق، وليس ذلك بالأمر المستحيل.

وما سبعون ألفًا حين توزع همومهم على ستة عشر مليونًا؟

أتريدون أن أقول مرة ثانية إنه عدد بلا محصول؟

أغنياؤنا، أغنياؤنا، أين أنتم، أين أنتم؟

إنكم تهربون من منازل التكريم والتشريف، وإلا فكيف جاز ألا يزيد بركم بمنكوبي الغارات عن بضعة آلاف؟

أخرجوا من دنياكم في سبيل المنكوبين من مواطنيكم، لتظفروا بزاد نفيس من رضا الله الذي تفضل فأسبغ عليكم أثواب الغنى والعافية والأمان.

أخرجوا من دنياكم، لتعودوا إليها أعزاء، فالله لا ينسى ولن ينسى من يخرج من دنياه لمواساة المكروبين.

الله عز شأنه يقول: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (الأنعام/ ١٦٠).

فهل علمتم أن هناك وعدًا أرحب من هذا الوعد؟

هو قول الله عز شأنه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ (البقرة/ ٢٦١).

وما عسى أن يكون الإنفاق في سبيل الله إن لم يكن في مواساة من دعوناهم لحفظ الحياة في أجمل المدائن، ثم نكبهم الدهر اللئيم بما أراد؟

أليس من الكرب الماحق أن تدعونا الكوارث إلى استدرار العطف على المنكوبين من أهل الإسكندرية وكانوا أشجع الناس واسعد الناس؟

لو كنا نملك من أمورنا ما نريد لأقمنا قبورًا من الياقوت لمن عدا عليهم الموت من أهل الإسكندرية، فما كانوا إلا ذخيرة من أكرم ذخائر الوطن الغالي، فكيف نضن بالعطف على أحيائهم المنكوبين بالغارات، وكان آباؤهم وأجدادهم أمل الوطن في حماية ذلك الثغر الجميل؟

إسكندرية!! إسكندرية!!

إليك أقدم تحيتي وعزائي!

فلان وفلان:

من عادتي أن أنوه بما يقوله في أعدائي، وأن أسكت عما يقوله في أصدقائي، رغبة في السلامة من آثار التكبر والازدهاء.

ولو أني أطعت الأستاذ الزيات لكان لي مع أصدقائي حال غير هذه الحال، فهو يدعوني من وقت إلى وقت لتلخيص رسائل قرائي، ولكني أعتذر لتحقيق المعنى الذي أشرت إليه، وهو السلامة من التكبر والازدهاء.

فهل استطيع اليوم أن أقول إني شعرت بالرهبة حين قرأت خطاب الأديب "رضـوان العوادلي"؟ وهل أملك التصريح بأن خطاب الأديب "أحمد العجيب" أوقعني في زلزال، وكأنـه خطاب الأديب "شلتوت" أو خطاب الأديب "أنور الحلبي؟

إن لقرائي فضلاً لن أنساه، فهم يحببون إليَّ الدنيا والوجود، وهم يسوقونني سوقًا إلـى الاعتزاز بسنان القلم وسلطان البيان.

ولكن لي عليهم حقًا يفوق حقوقهم، عليّ، وهو دعوتهم إلى أن تكون لهم غاية وطنيـة وروحية فإني أرى لهم قدرة على التعبير الجميل، وتلك موهبة يعز علينا أن تضيع.

هل يذكرون أني حدثتهم مرة بأن لم أشرب فنجان قهوة في غير داري قبل أن أظفـر بأجازة الدكتوراه وقبل أن أبلغ الثلاثين؟

شبابكم، شبابكم، يا قرائي، من أبناء الجيل الجديد.

إحذروا، ثم إحذروا، أن تضيع من دمائكم قطرة في غير الواجب وتذكروا، ثم تذكروا، أنكم خلفاؤنا في الحياة الأدبية والفلسفية واعرفوا، ثم أعرفـوا، أن المجـد الأدبـي لا ينـال بالأماني، وإنما ينال بالجهاد الشاق، كونوا عندما نريد لكم من كرائم الآمال، ثم تيقنوا أن الدنيا لكم إذا واجهتموها بعزائم المجاهدين الصادقين.

كتب الله لكم عافية البدن، وطهارة القلب، وسلامة الروح.

محصول "الرسالة":

بين الموظفين برياسة مجلس الوزراء أديب يتخير الأطايب من محصول "الرسالة" ثم يدونه في دفتر خاص، وقد لاحظت أنه لا يتغير إلا الفقرات الموسومة بالرصـانة والـرنين، وفي هذه الحالة لم يظهر أن صاحبه قد احتفل بالأسلوب.

ومن أمثلة ذلك قول الأستاذ محمد الشرقاوي في وصف شمائل صاحب البلاغ.

"كان محرر السينما والمسرح بالبلاغ في إحدى السنين شابًا قليل الخبرة ولو أنه طاهر النفس، فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح، وتحدثت هي في ذلك بالتليفون إلى عبد القادر باشا، وبعد لحظة دعا ذلك المحرر عنده وعنفه أشـد التعنيـف، وأمر بفصله من "البلاغ" وكان كثيرًا ما يفعل ذلك معه ومع غيره ثم يعفو، ولكنه فـي هـذه المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع، ولم ير العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب مـن شـيء بمثل ما غضب في ذلك".

فهذه الفقرة البسيطة جدًا، ولكنها قوية جدًا، بفضل قوة المعنى الذي انطوت عليه وهو إظهار الغضب على من يستبيحون غمز الأعراض.

ولم يتسع وقت الأستاذ الزيات لرثاء عبد القادر حمزة في إحدى افتتاحياته التي يحتفل بتجويدها كل احتفال، فكتب في البريد الأدبي كلمة قصيرة، ولكن تلك الكلمة على قصرها أدت الواجب في توديع صاحب البلاغ أجمل آداء، وأكاد أحسبها لخصت تاريخ صاحب البلاغ أبرع تلخيص.

والمهم هو تذكير أصدقاء الرسالة بواجب فكرت فيه مرات كثيرة ثم صرفتني عنه الشواغل، وهو تعقب كل عدد بالنص على ما فيه من دقائق تفوت بعض القراء.

لو قام بهذا الواجب أحد أصدقاء الرسالة لنص على العذوبة في قول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

الليل ناداني	من عالم ثان
وقال: يا فاني	هيجت أحزاني

فهذا والله من نفيس الكلام، كما كان يعبر محمد بن داود طيب الله ثراه!

أقسمت بالخمر والنساء:

كان الأستاذ "محمد لطفي جمعة" قال في كلمة نشرها في جريدة الدستور: إن الشاعر علي محمود طه أول من أقسم بالخمر والنساء حين يقول:

أقسمت بالخمر والنساء	ومجلس الشعر والغناء

وهذا حق، ولكن فات الأستاذ لطفي جمعة أن ينص على أسماء بعض الشعراء الذين سرقوا هذا المعنى من شاعرنا المهندس ليبين فضله في إذاعة المبتكرات من المعاني الشعرية.

ولو أنه وفَّى هذا البحث بعض حقه لأشار إلى أن سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٤ في بغداد كان من بين الذين سرقوا معنى الشاعر على محمود طه، فقد رأيته يقول:

أما وحق المدام صرفا	يخجل من لونها الشقيق
وكل هيفاء ذات دل	يقتلني قدها الرشيق
يشكو إلى ردفها المعبأ	من جوره خصرها الدقيق
للصب من ورد وجنتيها	ورد من ثغرها رحيق

إلى آخر ذلك القسم الطريف.

وهذه خدمة أكرم بها صديق شاعر "الجندول" أعزه الحب ورعاه!

الإفراج عن ديوان السبط:

وبهذه المناسبة أقول: إن الظروف سمحت بالإفراج عن ديوان (سبط بن التعاويذي)، فقد كان معتقلاً في "مكتبة هندية" ثم اشترته "المكتبة التجارية" فهو اليوم في متناول من يشتاق إليه من عشاق الشعر البليغ.

ولكن كيف وقع ذلك الاعتقال؟

كان الديوان قد نشر بعناية المستشرق مرجليوث، ثم مرت عليه أعوام وهو محبوس، لأسباب لا نعرف سرها الصحيح!

فإلى مرجليوث في قبره نوجه صادق الثناء على ذلك الجهد المحمود.

الصلات الأدبية بين مصر والسودان:

أنست القاهرة بوجوه الأساتذة الأماجد حسن مأمون، عبد العزيز عبد المجيد ومحي الدين عبد الحميد، وهمي يلهجون بالثناء على ما رأوا عند عرب السودان من أريحية ومروءة وإخلاص. وقد عرفنا إن إقامتهم هناك من أطيب الفرص في حياتهم العلمية والأدبية، فأهل السودان أهل جد، ولا يلقى بينهم أهل العلم إلا أكرم الرعاية والترحيب، وقد شعرت بالسرور يغمر قلبي حين حدثوني أن الحياة الأدبية هناك تفوق ما نتصوره بمراحل طوال، ولا غرابة في ذلك: فالصلات الأدبية بين شطري الوادي تعين على تحقيق ما نرجوه لأهل السودان من التفوق في الأدب والبيان.

وقد انتفعت بمعارف الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد عن الحياة في السودان، وهي معارف صدرت عن قلب يحب أولئك الرجال حب الشقيق للشقيق.

محمد فريد أبو حديد:

وفي هذه الأيام ترد الأخبار بأن الأستاذ محمد فريد أبو حديد استقبل بحفاوة عظيمة في الأندية الأدبية بالخرطوم، وأنه دُعي لإلقاء طائفة من المحاضرات، ومن المؤكد أنه ظفر من إخواننا هنالك بالإعجاب، بفضل ما يملك من صفاء الفكر وجمال الأداء، وأنه لأهل لما لقي من جميل الترحيب.

ومن طريف ما وفق إليه أنه حمل خمس مجموعات من مطبوعـــات لجنـــة التـــأليف والترجمة والنشر وأهداها إلى الأندية الأدبية في الخرطوم.

والذي يعرف مطبوعات هذه اللجنة يدرك قيمة الفرح الذي قوبلت به تلك النفائس.

فهل أستطيع أن أرجو أستاذنا مدير دار الكتب المصرية أن يتذكر أندية السودان حين يهدي مطبوعات دار الكتب إلى الأندية الأدبية والعلمية؟

وهل يتفضل معالي وزير المعارف فيشير بإهداء أندية السودان طائفة من مطبوعـــات المجمع اللغوي ومطبوعات كلية الآداب؟

٢٢

أثواب الخطباء[*]:

صح عندي بعد الاستئناس بمصادر كثيرة أن مسوح الرهبان كان لها تأثير في الوضع الذي صارت إليه أثواب الوصفية، لأن الترهب والتصوف قريبان جدًا من الناحية الروحيــة، بغض النظر عن اختلاف الدين.

ثم بقي النظر في اللون المختار لأثواب الرهبان وهو السواد فهــل تــأثر بــه أحــد المسلمين؟

وهل كان السواد من علائم الرزانة في أوقات الاهتمام بعظائم الشئون؟

وجدت شاهدًا صريحًا في إيثار الخطباء للثياب السود، وهو ما أنشد المقدس على لسان غراب البين أبعده الله.

أنوح على ذهاب العمر منــي	وحــق أن أنــوح وأن أنــادي
وأندب كلمــا عانيــت ركبًــا	حدا بهم لوشــك البــين حــادي
يعنفنــي الجهــول إذا رآنــي	وقــد آليــت أثــواب الحــدادي
فقلت له اتعظ بلــسان حــالي	فــإني قــد نــصحتك باجتهــاد
وها أنا كالخطيب وليس بدعا	على الخطبــاء أثــواب الــسواد

ومعنى هذا أن الغراب لبس السواد لأنه وقف وقفة الخطيب فهل يكون هــذا التقليــد رجعة إلى الأثواب الرهبانية وكانت تحاك من الشعر الأسود؟

وعمن أخذ الرهبان لون السواد؟

أخذوه عن رهبة الليل فسواد الظلام يشيع في النفس معاني الانقبــاض والاســتيحاش ومن أجل ذلك كان السواد شعار المحزونين.

(*) العدد ٤١٨ من مجلة الرسالة يوليو ١٩٤١.

لفتة أندلسية:

وبهذه المناسبة أذكر بيتين يشهد بأن أهل الأندلس كانوا في الحداد يلبسون البياض لا السواد فقد قال أحد الشعراء:

يقولون البياض لباس حزن	بأندلسي وذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبي	لأني قد حزنت على شبابي؟

تأثير البيئة:

وأذكر بهذه المناسبة أيضًا أن الذين زاروا الأندلس من أهل المشرق كان فيهم من دهش حين رأى بعض القضاة يجلسون للحكم بين الناس ورءوسهم عارية ولم يفهم أن هذا من تأثير البيئة فأهل أوروبا ينتزعون أغطية الرءوس في المواقف الجدية وبهم تأثر العرب في الأندلس وكان من قضاتهم من ينزع عمامته عند الجلوس للحكم بين الناس.

ولكن عمن أخذ الشيخ فلان خلع العمامة والاكتفاء بالطاقية في أحدى المحاكم الشرعية؟

ابق عمامتك على رأسك يا شيخ فلان.. فقد حدثني من أثق بروايته أن المحتكمات إليك من الملاح لا يرين ما تراه من ذلك التطرف "المقبول" وفيهن من ترى أن الطاقية لا تصلح غطاء لرءوس رجال الشرع الشريف.

وغفل المقرئ صاحب نفح الطيب عن تأثير البيئة حين نص على أن أهل الأندلس تفردوا بشرب الخمر على قارعة الطريق وأقول أن هذا من تأثير البيئة الأوروبية وليس شاهدًا على استخفاف أهل الأندلس بواجب التستر عند اقتراف المحرمات.

الوزراء والأدباء:

يظهر أني رجل متعب، كما يقول الدكتور طه حسين فلي في كل يوم مشكلات مع أصحاب الرأي والبيان ولن يكون للمتاعب التي أسوقها إليهم وإلى نفسي حدود.

وكلمة اليوم أوحاها تعيين معالي الأستاذ دسوقي أباظة وزيرًا للشئون الاجتماعية وهو أديب كبير كانت له صولات في جرائد الحزب الوطني فما الذي ينتظر الأدب من معالية وقد صار قوة تنفيذية تقدم وتؤخر في شئون الدولة والمجتمع؟

تولى المناصب الوزارية في الأعوام الأخيرة رجال من كبار الأدباء من أمثال مصطفى عبد الرزاق ومحمد حسين هيكل ومحمد علي علوبة وأحمد نجيب الهلالي وإبراهيم عبد الهادي وعبد القوي أحمد ومحمود فهمي النقراشي، فماذا استفاد الأدب من هؤلاء الوزراء الأدباء؟

سيجيبون بأنهم لم يقدموا إساءة لأي أديب.

وأجيب بأن سكوتهم عن تشجيع الأدب ليس إلا صورًا من صور الإيذاء.

هل تصدقون أن بعض هؤلاء الوزراء لم يكن يلقى واحدًا من الأدباء إلا وعلى جبينه عبارة تقول: ابعدوا عني...

وهل تصدقون أن معالي الأديب العظيم هيكل باشا لم يتلق كتاب التصوف الإسلامي يوم أهديته إليه إلا بعبارة كل كتاب وأنت طيب.

كل كتاب وأنا طيب يا معالي الوزير؟

ومتى يتسع العمر ويسمح الزمان بأن أؤلف كتابًا مثل كتاب التصوف الإسلامي؟

وإذا لم يظفر المؤلفون بتشجيع الوزراء الذين يعرفون متاعب التأليف ففي أي عهد ننتظر كلمة اللطف وقد أقذينا عيوننا تحت أضواء المصابيح؟

لقد بح صوتي في الدعوة إلى اعتراف الدولة بالقيم الأدبية فلم يسمع سامع ولم يستجب مجيب وظل الأدباء مشردين لا يعرفهم غير الحظ الضائع في بلاد لم يرها شاعرنا حافظ "دار الأديب" مع أنها فيما نحب أن يقال أول معهد للقانون والعلوم والآداب والفنون.

إن هؤلاء الوزراء نفعهم الأدب أجزل النفع فمتى ينتفع بهم الأدب؟

ومتى يظهر أنهم لم ينسوا التفكير في أن يدينوه كما دانهم؟

ومتى نسمع أن الحياة الأدبية تنتعش وتزدهر بفضل الوزراء والأدباء كما كانت الحال في عهود أسلافنا الأماجد بالمشرق والمغرب؟

الدكتور طه حسين:

في أخبار الجرائد أن الدكتور طه حسين لم يذهب إلى مكتبه بوزارة المعارف منذ أيام.

ويظهر من الخطاب الذي نشره في جريدة البلاغ أن أناسًا كانوا يحبون أن يواجه الأمور بمداورة وتلبس.

وأقول إن كفاية الدكتور طه لا تحتاج إلى برهان ولكنه سيندم طويلاً وطويلاً جدًا على الفرصة التي أضاعها على نفسه قبل أن تستفحل أزمة الورق فقد بهته مرات كثيـرة إلـى أن مراقبة الثقافة العامة لن يكون لها وجود ملحوظ إلا إذا أسندت بطائفة من المطبوعات الجيـاد، وأشرت عليه بأن يسارع فيقتني لمراقبة الثقافة ذخيرة من ورق الطبع قبل أن يرتفع ثمنه وقبل أن ينفذ من الأسواق.

وهو اليوم يترك مراقبة الثقافة العامة بلا أثر ظاهر يذكره الناس فإن رجع إليها فليغير من مسلكه في تناول الأشياء، فقد كان يفهم أن الاقتراحات والفروض هي كل شيء في الدلالة على مواهب الرجال.

ولا أمل كبير في أن يرجع الدكتور طه لعمله بوزارة المعارف وأن يتدارك ما فاتـه من تحقيق المشروعات الجديدة في الترجمة والتأليف فظهور كتاب أو كتابين أنفع مـن ألـف اقتراح واقتراح؟

النزعة الكلبية:

يلقاك بعض المعارف في الطريق فيسألك عن وجهتك ولا يستريح إلا حين يعرف أين تريد وماذا تريد؟ كأنه من الأوصياء عليك.

ويدخل أحد الأصدقاء بيتك فيبالغ في التعرف إلى ما فيه من حجـرات وغرفـات ولا يهدأ إلا بعد أن يعرف من دخائل بيتك كل شيء كأنه مسئول أمام بعض الجهات عـن تقـديم تقرير مفصل عن حياتك المنزلية؟

ويرى بعض الناس أن من حقه أن يعرف مرتبك بالقرش والمليم وأن يعـرف كيـف تنفق ذلك المرتب وماذا يدخر من بواقيه الطفيفة ولأي غرض تدخر ما أدخرت؟

ومن الأصدقاء من يسأل عن أثاث بيتك ليعرف الأثمان ثم يناقشك في الجزئيات كأنـه نجار أو حداد أو سمسار والعياذ بالله وبالأدب والذوق.

ومنهم من يسألك عن أملاكك في الريف ليعرف ما تملك من قراريط أو فدادين وكأنه "خاطبة" ستجلب خطابًا لأختك أو ابنتك.

وفي هؤلاء من يسألك عن الربح الذي تجنيه من مقالاتك ومؤلفاتك ومنهم من يـسأل عن أثمان أثوابك ونعالك كأنه ابن براز أو حذاء.

فكيف تقع هذه المزعجات من بعض الناس وأكثرهم على شيء من الذكاء؟

الجواب سهل وهو أن في بعض الناس نزعة كلبية والكلب حين يدخل بيتًا لا يترك فيه بقعة بدون أن يشمها بشره فظيع ممقوت.

فيا بني آدم إياكم ثم إياكم من التخلق بأخلاق الكلاب.

صديقي فلان:

أما صديقي فلان فهو غاية في الأدب والذوق: يدخل بيتك فيجلس حيث تحب أن يجلس ولا يمتد بصره إلى اختبار ما في البيت من أثاث ورياش ولا يسأل عن ربة البيت إلا أن يتلطف زوجها فيدعوها للتسليم عليه مع أنها قد تكون من بنات الأعمام والأخوال وإذا قدم إليه طعام أقبل عليه بشهية كأن أطيب ما رأى من ألوان الطعام ولو كان لا يأكل إلا بمقدار وفي وقت محدود.

وإذا حضر الأطفال لتحيته تلقاهم بما يحبون ولا يسألهم عن دروسهم إلا بأسلوب يمكنهم دائمًا من الجواب ليأنسوا به وليدخل على قلوبهم قبسًا من نور التشجيع وإذا عرض عليه خلاف سواه بلطف ورفق لتكون زيارته مرحلة من مراحل التاريخ السعيد.

وإن دخلت عليه صبية دعا لها بالخير وتحدث عن صباحتها بأدب ولطف وإذا رأى أن الذرية أكثرها بنات كان من واجبه أن يصرح بأن لله حكمة في ذلك فمن الخير للإنسانية أن تكثر البنات في المغرس الشريف وإذا رأى عجوزًا واساه وأعلن أن الرجل لا يصلون إلى الشيخوخة إلا وهو بذرة قوية لا تتهددها عواطف المشيب وإذا رأى مريضًا بشره بقرب العافية وأعلن أن مرضه من العوارض الوقتية وأنه يعرف مئات كانوا في مثل حاله صاروا في مثل عافية الفرس الجموح..

وإذا أعتذر أهل البيت عن مظاهر البساطة في تكوين الأثاث كان عليه أن يقول إن هذا من أدب المعاش وأن الإفراط في الزخرف ليس من أدب العقلاء، وإذا رأى البيت عن جانب من الزينة والبهجة والنضارة كان عليه أن يعلن إعجابه بما ترى عيناه وأن يصرح بأن أهل البيت لم يريدوا إلا إعلان الحمد والثناء على المنعم الوهاب.

فما رأيكم في أخلاق هذه الصديق؟

لقد عرفت أنه ما دخل بيتًا ورأى فيه شيئًا غير جميل ولا صحب صديقًا وسأل عن أخباره المطلوبة ولا سمع في صديق كلمة سوء ولا استباح التعقيب لمسالك المعارف والأصحاب ولا كان من همه أن يتخذ الأصدقاء درئية يدفع بها عاديات الكوارث والخطوب.

صديقي هذا يرى الصداقة قدسية منزهة عن شوائب المنافع وإن كان لا يضيع فرصة يملك فيها القدرة على نفع الصديق.

ما رأيكم في أخلاق هذا الصديق؟

أنا أرى هذه الشمائل غاية في الكمال والجمال وأرى التحلي بها واجب على من يهمه الظفر بثقة المجتمع ولو شئت لقلت أن الإكثار من الصلاة والصيام لا يغني عن التحلي بهذه الصفات لأنها أصدق في الدلالة على صفاء القلوب وطهارة الروح، ولأن التحلي بها لا يكون إلا بعد رياضيات عنيفة تقهر فيها نزعات النفوس والأهواء.

كيف نحب الريف؟

تفضل الدكتور عبد الرحمن عمر ودعاني لتناول الغذاء في داره بالريف فعرفت كيف يطيب له أن يهجر مصر الجديدة أيامًا وأسابيع وعرفت كيف استطاع سعادة الأستاذ الجيل عبد العزيز فهمي باشا أن يجعل مقامه المختار في الريف.

الدار الجميلة هي التي تجعل القرية أحب إلينا من المدينة فجملوا بيوتكم في الريف لتشتاقوا إليه ولتذيعوا بين أهليكم ذوق الأناقة في بناء البيوت، فأكبر عيوب مصر هو حرمان ريفها الجميل من التأنق في بناء البيوت، فأكبر عيوب مصر هو حرمان ريفها الجميل من التأنق في بناء البيوت وبعض الناس يتوهمون أنه لا يجوز للرجل أن يقيم دارًا جميلة في الريف إلا إذا كان له أملاك واسعة في الريف وأقول أن الدار الجميلة هي في ذاتها ملك نفيس فلا تنسوا هذا المعنى ولا يفتكم إن تكونوا من أصحاب المنازل في الريف وإن لم تكن لكم فيه أملاك.

برج بابل:

كان في مقال "برج بابل" الذي نشرته الرسالة منذ أسابيع إشارات إلى ما قد يحل بالإسكندرية فهتف الأستاذ عبد اللطيف النشار يقول:

كذبت "بابل" فيما زعمت لن يصيب (الثغر) شر أبدًا.

ثم عاد فأبدى أسفه لتحقيق النبوءة البابلية.

وأقول: ليت تلك النبوءة كانت من كواذب الأوهام والظنون فما رأينا من تحققها غير الكرب والويل ثم يخاطبني النشار فيقول:

عهدتك لا يخيفك ما يخيف فهل يحظى برؤيتك المضيف.

وأقول: إني لا أملك الصدوف عن هوى الإسكندرية، وسألقاكم بها في هذا الصيف ولو بغى العدو واستطال، فأنا لم اشبع من الإسكندرية أيام الأنس، وهي أقل طيبًا من أيام الخوف.

ثم يقول النشار: علمت أنك نقلت كتبك إلى سنتريس، فأنت جدير إذًا برثاء مكتبة الإسكندرية الثالثة فهل تجيز.

لا تذكر اليوم "يليوسا" ولا "عمرا" علم القرون الخوالي مر واندثرا

وانظر لمكتبة الثغر التي صعقت فلا كتابًا ترى فيه ولا حجرا

وأقول: إن لم أكن أعرف أن مكتبة الإسكندرية أصابتها الغارات الأخيرة فإن كان ذلك فمن حقي أن أسجل أن أعداء الإسكندرية يعرفون في كل عصر أن ثروتها الصحيحة في ترك الأفكار والعقول، فهم يجعلون المكتبة أعظم الأهداف.

وما شأن عمر في هذه القضية وقد قامت البراهين على أن اتهامه بإحراق مكتبة الإسكندرية لم يكن إلا إشاعة روجها أعداء العرب والمسلمين؟

بريد العراق:

تلقيت اليوم رسالة من العراق ونظرت في التاريخ فرأيت أنها قطعت الطريق في شهرين وثلاثة أيام، فمتى يرجع العهد الذي كان يسمح بأن يصل بريد العراق في أقل من يومين؟

كان بريد العراق كله جويًا وبخمسة عشر مليمًا فمتى يعود ذلك العهد؟ متى يعود؟ وكان محصول المجلات المصرية حديث الناس في جميع الأندية العراقية، فأين حديثهم اليوم وقد وجدت خطوب تبلبل الأرواح والقلوب؟

ليتني أعرف ما صار إليه أصدقائي في تلك البلاد، فما أظلم ليل ولا أشرق صباح إلا وأنا بأخبارهم مشغول وهل كانت لوعة الشريف الرضي أقسى من لوعتي حين قال:

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم وإعلان وجدي باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلابد أن يلقى بشيرًا وناعيًا

فهل يتفضل أصدقائي فيعفوني من كرب السؤال؟

أجيبوا يا أيها الأصدقاء أجيبوا فلي عليكم لهفة لا يطفئها غير اليقين بأنكم في سلام وأمان.

القصر الفريد:

ظهرت الطبعة الجديدة من القصر الفريد بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريـان وفـي رونق لطيف تهنأ عليه "المكتبة التجارية" التي لم يعقها غلاء الورق عن الإنفاق علـى طبعـه بسخاء.

ومن القليل جدًا أن ننوه بمجهودات الأستاذ العريان في تحقيـق هـذا الكتـاب فلـه مجهودات كثيرة لم تأخذ حقها من الثناء، فنوجه إلى هذه الطبعة نظر الأستاذ "الجليل" والأستاذ "أ. ع" فعندهما من الوقت ما يسمح بالنظر في أسلوب هذا الكتاب بأسلوبهما الجيد في التحقيق.

كنت نسيت:

في الحوار الذي دار بين الأستاذ محمود البشبيشي وابنه النجيب حسين إشارة إليّ أني اكتب في الوجدانيات فمتى كان ذلك؟

ذكروني فقد نسيت...

أنا أ كتب في الوجدانيات؟ أنا؟

لعل ذلك كان قبل أن تصير الدنيا إلى ما صارت إليه من الرعب والخوف والانزعاج.

إن البشبيشي وابنه يقيمان في بلد أمين هو المنصورة العصماء، وأنا أقيم في بلد مهدد بالغارات الجوية إلا أن يلطف الله بما فيه من كنوز السحر والفتون والحق أني لم أنس واجبي في التشوف إلى مطالع الأقمار ومشارق الشموس ولكن أين من يسمع في هذه الأيام أغاريـد الوجد والحنين؟

٢٣

بعض ما علمتني الأيام(*):

تلقيت عن الأيام دروسًا تفوق العد والإحصاء.. وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس.. وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك صرت أحكم الحكماء، فلي من الدهر في كل يوم درس جديد، مع الوعي الصحيح لما أسمع من دروس الزمان..

ولكن مع ذلك انتفعت بدرس واحد... وأحب أن ينتفع به قرائي فما هذا الدرس؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبدًا في الشئون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية في بعض الأحايين، لأن أعرف أن التزيد والتحريف صارا من عيوب بني آدم في هذه الأيام، ولا يجوز ائتمان مخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء، لأن حظهم من صدق الرواية غاية في الغثاثة والهزال..

وذلك هو السر في إقلالي عن غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامي بالنفرة من بني آدم وإيثار العزلة والانفراد، مع أني في حقيقة الأمر رجل ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلبًا للسلامة من التزيد والافتراء.

فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذي أنصح به قرائي؟

أنا أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأيًا إلا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء.

إن النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريم المغرضين فكيف يسلم الكلام المرسل في أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟

إن التحريف الذي ابتليت به آرائي المدونة في مقالاتي ومؤلفاتي قد آذاني فكيف يكون حالي لو أرسلت نفسي على سجيتها وحدثت الناس بما أراه في الأدب والحياة؟

(*) العدد ٤٢٢ من مجلة الرسالة في ٤ أغسطس سنة ١٩٤١.

من الجريمة أن نحدث الناس في شئون يخاف عليها من التحريف ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يسل غير لفظ وصفه القدماء بأنه عرض سيال؟

يجب أن يكون القلم أداة التعبير في دقائق الشئون، لأنه يحدد أغراضنا تحديدًا يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف، أقلوا من أحاديث المجالس يا قرائي لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحد بالناس في غير حذر ولا احتراس إلا سقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع في الخطيئة الدميمة وهي اليأس من الثقة بإخوان الزمان.

ما الموجب للثرثرة في الأندلس والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات يتسع لنشر ما يريد من الأفكار والآراء؟

ارحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدر عنكم واعرفوا جيدًا أن المبادئ لا تخدم بالقيل والقال بين أجواف الجدران، وإنما يخدم المبادئ القول الصحيح الذي يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المراض..

ثم ماذا؟

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصى به نفسي، فأنا لا أقول كلمة في مجلس خاص إلا إذا عرفت أني أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئت لقلت بدون أن يكذبني أحد المكابرين – إن لسان في غاية من التلطف والترفق وإن اشتهر قلمي بالشطط والجموح، وما كان ذلك كذلك إلا لأني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد عليّ حاقد إلا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء... أما إيذاء الناس في السر والعلانية فلا أستطيعه أبدًا، لأن الله تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب فله الحمد وعليه الثناء.

فكاهة سياسية:

كان الحزب السعدي دعا إلى إعلان الحرب على الطليان والألمان وهي الدعوى التي استوجبت إلقاء أطول خطبة سياسية في العهد الجديد، وهي خطبة الدكتور أحمد ماهر باشا في مجلس النواب، فقد استغرقت ساعات على نحو ما كانت تستغرق خطب سحبان وهو يهدر بين السماطين.

ولكن أنصار الحزب السعدي ليسوا جميعًا أعضاء في مجلس النواب، فلابد من خطيب يشرح لسائر الأنصار وجاهة القول بإعلان الحرب، فكان الخطيب المختار هو الشيخ عباس الجمل.. وما كاد الشيخ يعتلي منصة الخطابة حتى عوت صفارة الإنذار من جديد.

وهنا قالت جريدة المصري: سترى كيف تلاحقك الغارات يا شيخ عباس.

فأجابت جريدة الدستور: إن صح هذا النذير ففي مصر طابور خامس.

كاريكاتير ظريف:

نبغت الصحف المصرية في إبداع الصور الكاريكاتورية برغم ما يقع فيها أحيانًا من سخافات ومن أبدع ما رأيت صورة نشرتها مجلة "الشعلة" لميزان يحمله رجل معصوب العينين باسم "الرأي العام" وقد رجحت كفة الوفديين على السعديين فابتهج النحاس باشا وقال: مما رأيك يا ماهر باشا؟

فأجاب الدكتور ماهر: وما قيمة هذا الميزان وحامله رجل من حزبك؟

وإذا كان الرأي العام من حزب الوفد فقد انحل الإشكال... في مصر اليوم أدب سياسي فأين من يقيد الأوابد من ذلك الأدب الطريف؟

جناية الكتابة على الشعر والخطابة:

هي سجعه ذكرتني بالحوار المعروف:

أجمل السجع، ما خف على السمع

- مثل ماذا؟

- مثل هذا!

ولكن كيف تجني الكتابة، على الشعر والخطابة...؟ تأمل هذا التمهيد.

إذا كان عند أحد جيرانك طفل أخرس فلا تسمح لأطفالك بأن يلعبوا مع ذلك الطفل لأن طريقته في التفاهم ستروضهم على التعبير بالإشارات، وعندئذ يقل فيهم الشوق إلى التعبير بالكلام، فيحرمون أفضل النطق وهو أظهر الخصائص الإنسانية...

وإذا رأيت الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني يطيل القول في انصرافه عن قرض الشعر فلا تصدق أنه حرم الشاعرية، وإنما يرجع زهده في الشعر إلى أنه أكثر من التعبير عن أغراضه بالإنشاء، ففترت رغبته في التعبير بالقصيد والمواهب يجني بعضها على بعض.

وأقوى البراهين عندي على أن الشريف الرضي ليس المنشئ لكتاب "نهج البلاغة" هو إمعان الشريف الرضي في التعبير عن أغراضه بالشعر، فديوانه من حيث الكم يزيد عن ديوان المتنبي بألوف من الأبيات الجياد، وما من أثر من الرسائل النثرية للشريف لا يشهد بأنه كان يشتهي التعبير عن ذات نسه بالإنشاء.

وكما تجني الكتابة على الشاعر تجني على الخطيب لأن أعظم أسباب الإجادة في أحد هذه الفنون وهو الشوق إلى التعبير بإحدى أدوات هذه الفنون، ومتى عبر المفكر عن نفسه بالكتابة فقد الرغبة في التعبير بطريقة ثانية وثالثة فصار أزهد الناس في مقامات الخطباء والشعراء. ماذا أريد أن أقول؟؟

أنا أريد الاعتذار عن نفسي، فقد عاب عليّ قوم أن انصرف عن الشعر والخطابة وعدوني في هذين الفنين من المتخلفين، ولم أكن كذلك فيما سلف من الأيام، فلي ديوان شعر وكنت في الثورة المصرية من أعلام الخطباء، ولم أزهد في هذين الفنين إلا بعد اشتغالي بالتدريس والكتابة والتأليف، فألفت التعبير بأسلوب يغاير أسلوب الشاعر وأسلوب الخطيب.

وإذًا فما هذا التحدي الذي يواجهني به جماعة من أدباء الإسكندرية؟؟ قال قائل منهم: أن الرجل الذي ودع بغداد بقصية بلغت ١١١ بيتًا هو الرجل الذي بخل على الإسكندرية الجريحة ببيت من الشعر أو بيتين؟

هو ذاك يا ندامى "الثغر الجميل" (*) جاء في خطابك أن واعظ مركزه.. أذاك بغير حق أمام أهل قريتك وفي بيت الله بعد صلاة الجمعة بألفاظ لا يليق صدورها عن الواعظ.

وفهمت من خطابك أن النزاع نشأ من الخلاف حول مسألة لم تتفق فيها أقوال الفقهاء ومن حقي أن أوجه إليك هذه الأسئلة.

هل ترى من الخير أن نطالب الوعاظ بالخوض في الدقائق الفقهية أمام جماهير لا يصح تعريضها لمشكلات تلك الدقائق؟

(*) نظم زكي مبارك بعد ذلك قصيدته المعروفة "دار الوجه والمجد" عن الإسكندرية في أكثر من مائه وخمسين بيتًا ونشرها في ديوانه "ألحان الخلود" ص٨٠ ومطلع القصيدة.

بأهل إسكندرية بعض ما بي   من الأحزان للثغر المصاب

وهل ترى من الذوق أن تحرج واعظًا هو ضيفك في بلدك فتجره إلى مـــآزق تنتهـــي بكما إلى اللجاجة والعناد؟

وهل ترى أن الوعاظ يعينون لإرشاد من يكون في مثل علمك واطلاعك؟

انظر في هذه الأسئلة جيدًا لتعفيني من نشر الكلمة التي تريد أن أوجهها با سمك إلـــى علماء الأزهر الشريف، فما أحب أن أشجعك على مجادلة الوعاظ وهم قوم لا تباح لهم مجادلة الناس، وإلا كثرت الشبهة وانعدم الصفاء بين أهالي البلاد...

وأنا بعد هذا أوصى نفسي وأوصيك بالنظر في باب الرياء من كتاب الأحيـــاء فـــإني أخشى أن نقع في مهلكات باسم الغيرة على الدين، وهو النفس له مسالك لا يفطن لها الرجـــال إلا في أندر الأحيان.

لطف الله بي وبك، وهداني وهداك

٢٤

وإن عدتم عدنا(*):

لعل القراء لاحظوا أني انصرفت عن مجادلة من يتعرضون لملاقاتي بالنقد والتجريح في بعض الجرائد والمجلات ولعل فيهم من توهم أني تعبت من النضال فاعتصمت بالصمت البليغ والواقع أني أسكت طائعًا عن بعض المجادلين، لأن أومن بأن من حقهم أن يثوروا على آراء دفعتهم إلى محرجاتها برفق أو بعنف وما يجوز لي أن أتعقب ناقدًا بما لا يرضيه مع إن قلمي هو السبب في إثارته إلى الجدال والصيال.

ولهذا المعنى سكت عن كلمة نشرتها مجلة الثقافة "عملاً بحرية النشر" كما قالت وهي كلمة منسوبة إلى إحدى أدبيات فلسطين وفيها شفاء لبعض الصدور المراض..

ولهذا المعنى أيضًا سكت عن كلمة تطاول بها أحد محرري الثقافة الغراء، لأمنحه فرصة يقول فيها عني ما يريد.

ولكن "الثقافة" فيها كاتب اسمه "قاف" وقد أراد هذا الكاتب متفضلاً أن يشغل بالقصائد التي تنشرها "مجلة الرسالة" باسم "الشاعر المجهول" وما يؤذيني أن تنقد القصائد التي تنشر في "الرسالة" لأن مجلة الرسالة لا تنشر من الشعر إلا ما يثير لنفاسته أقلام الناقدين.

إن قاف الثقافة توهم أن الشاعر المجهول هو "الكاتب المعروف" وساق عبارة دل بها قراؤه على أنه يعني الدكتور زكي مبارك..

أهلا وسهلا.

ولكن هل يعرف "قاف الثقافة" أني سأسوق إليه ما يزلزل "جبل قاف"؟

إن قاف الثقافة بعيد كل البعد عن الذوق الأدبي، وهو لم يتوار في أحد سفوح (قاف) إلا لينجو بنفسه من الرجفات التي تزلزل قمم الجبال.

ومن ذلك القاف؟ وما صبر مجلة الثقافة عليه وقد زعمت أن عندها علماء من كل صنف؟ أيكون آخر ما عندها من الأصناف؟

(*) العدد ٤٦٣ من مجلة الرسالة ١٨ مايو سنة ١٩٤٢.

إن درس اليوم هو الفيصل في معضلات النقد الأدبي وسيعرف به قاف الثقافة ما لم يكن يعرف وسيذكرنا بالخير الجزيل إن كان من الصادقين.

وإلى قراء الرسالة احتكم، وفيهم ألوف من رجال الأدب والبيان.

قال الشاعر المجهول:

أبحتك من قلبي نفائس عطفه	وحررت فيك المال من ربقة الضن
وقلت مثال من جمال أصونه	فيسلم من إفك الزمان ويستغني
فلم ترصدري من سهامك في حمى	ولم ترجيبي من نصالك في أمن
وعشت يريني الحب أنك حافظ	عهودي وأن الخلد بعض الذي أبني
فلما رأيت الوجد يغتال مهجتي	وأيقنت أني من غرامك في سجن
مضيت إلى غيري جهارًا وخنتني	فمن أي وحل صيغ طبعك خبرني؟

تلك هي القطعة التي اعترض عليها قاف الثقافة وقد اخترمها اخترامًا ليخفي عن قرائه مقام البلاغة في الكلمة التي صار عليها عقله الحصيف.

فما تلك الكلمة؟ هي كلمة "وحل" فقد رآها كلمة قبيحة لا يجوز ورودها في قصيدة من قصائد التشبيب..

وأقول أن كلمة "وحل" هي أبلغ كلمة في هذا المقام، ولا يستطيع "قاف" أن يأتي بكلمة أقوى منها.

وكلمة "وحل" وردت في قول مسلم بن الوليد:

مشينا بها مشي المقيد في الوحل.

فعدها القدماء أبلغ كلمة في هذا السياق.

وقبل ذلك وردت في قول الأعشي.

ندل كمشي القطاة القطو	ف في وحل النهى تخشى رقيبًا

وأقبح من كلمة "وحل" كملة "مستنقع" وقد عدت ابلغ كلمة في قول شوقي وهو يذكر ما أنعم به السلطان على الضفادع:

وزاد أن جاد لمستنقع.. وقبل ذلك وردت في قول أبي تمام..

فأثبت في مستنقع الموت رجله.

فماذا نصنع في تثقيف قاف الثقافة.. وهو لا يعرف الأبجدية من البلاغة العربية؟

لو كان هذا القاف يعرف أسرار البلاغة لأدرك أن الكلمات تأخذ قوتها من السياق، وإن الكلمة القبيحة قد تصبح وهي نهاية في الجمال إذا أوجبها مقتضى الحال ولكن هذا المتأدب حديث العهد بالدراسات الأدبية، فهو محجوب عن سرائر الألفاظ والمعاني.

هو رجل رقيق تؤذيه الأخيلة الجافية، لأنه من أبناء القرن العشرين، فإن لم يكن كذلك فهل يستطيع أن يناقش هذه الأحكام القاسية؟

يا قاف "الثقافة" الغراء:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وإلا فهل تملك من القدرة ما تجاريني به في ميدان النقد الأدبي؟ ارجع إلى كلمتك في مجلة الثقافة ثم اسأل نفسك، فإن فعلت فسترى إنك وقعت في غلطة ذوقية لا يقع فيها إلا من كان في مثل حالك.

ولي أن أوجه إليك هذا السؤال:

كانت مجلة الثقافة تتقي شري فتسكت عما أصوب إليها من مؤاخذات فكيف استباحت في الأشهر الأخيرة أن تناوشني أربع مرات بلا موجب يفرضه الحرص على خدمة الأدب أو الحق؟

كانت مجلة الثقافة أعلنت على لسان أحد مراسليها أنني كنت البادئ بالعدوان في جميع الأحيان.

فما ذعرها وقد هاجمتني أربع مرات بعد أن رفع بيني وبينها غصن الزيتون؟

في سبيل الوحدة العربية:

كنت أتأهب للرد على كلمة نشرت في إحدى المجلات تعريضًا بالدكتور عبد الوهاب عزام، وكان ألقى خطبة في كلية الآداب دعا فيها إلى الاعتزاز بالقومية العربية، وللدكتور عزام حقوق: لأنه من أفاضل الباحثين المصريين، ولأنه على جانب عظيم من الأمانة والصدق ولأن اتهامه بالغرض إثم دميم...

ثم فوجئت بخبر يشرح الصدر هو اعتزام "الرسالة" إصدار أعداد خاصة بالأقطار العربية للتنويه بتلك البلاد وللتعريف بما عند أهلها من فضائل وآداب..

وإذا استطاع أخونا الزيات أن يفي بما وعد، وعلى الوجه الذي يريد فلن يكون عمله الصالح إلا أداء لديون طوق بها جيد مصر في مناسبات مختلفات، فقد أشرت في مقالاتي غير مرة إلى الأعداد الخاصة بمصر في مجلات العراق وسوريا ولبنان، ودعوت إلى أن نجزي أولئك الإخوان وفاء بوفاء.

ولكن هناك صعوبات تعترض هذا المشروع الجليل وأخطر الصعوبات هو ضعف الإحاطة بخصائص تلك البلاد ولتوضيح هذا المعنى أقول:

سيبدأ الأستاذ الزيات بإصدار عدد خاص بالعراق، لأنه أقام فيه ثلاث سنين، ولن يجد صعوبة في تمثل ما فيه من مواهب ومطامح وآمال، لأنه سيجد من إخوانه في القاهرة وبغداد من يساعده على إصدار ذلك العدد الخاص.

فما الذي سيصنع حين يتأهب لإصدار أعداد خاصة بالأقطار المغربية واليمنية والحجازية والسورية واللبنانية؟

أنا بمشيئة الله حاضر لمساعدته على العدد الخاص بلبنان فسأزوره في فرصة سعيدة عند اجتماع المؤتمر الطبي العربي في بيروت. فمن أنصار الزيات في غير العراق ولبنان؟

الخطب أسهل مما نتوهم ولكن... ولكن على شرط أن يهاجر الزيات من المنصورة إلى القاهرة ليستوحي من فيها من العارفين بخصائص الحياة الأدبية والاجتماعية في تونس والجزائر ومراكز واليمن والحجاز وسوريا وفلسطين.

إن استطاعت "الرسالة" أن تصدر عددًا خاصًا بكل قطر من أقطار العروبة فستؤدي للأدب الحديث خدمة معدومة النظير والمثيل.

ولكن متى تصدر "الرسالة" عددًا خاصًا بالسودان؟

السودان جزء من مصر ولكن محاسنه محجوبة عن جماهير المصريين. فهل أستطيع أن أقول لإخواني في السودان أن الرسالة ستصدر عددًا خاصًا بالسودان بمناسبة المهرجان الأدبي المقبل؟

بين القومية والإنسانية:

وأرجع إلى تفنيد التهمة التي سيقت ظلمًا إلى الدكتور عبد الوهاب عزام فأقول:

إن الذين كبر عليهم أن ندعو إلى القومية العربية لم يجدوا حجة تستر غرضهم المعروف غير القول بأن القومية العربية تنافي الإنسانية، لأنهم فيما يزعمون لأنفسهم دعاة التحرر من الرجعية؛ والرجعية في أنظارهم هي الوقوف عند حدود الوطن واللغة والدين.

ونقول إن حجتنا هي الصحيحة وهي الأساس لكل إصلاح هي أن تبدأ بنفسك والذي يعجز عن إقامة بيت في القاهرة لا يستطيع إقامة عش في فيافي اليابان.

وقد حدثناكم ألف مرة أن لمصر قويمة عربية توجب عليها أن تنظر بعين الإخوة إلى من يفهم عنها وتفهم عنه ولو كان مسكنه فوق أسوار الصين.

وحدثناكم أيضًا أن مصر لن تصم آذانها عمن يدعوها باسم الإخوة الإسلامية ولو كان من سكان المريخ.

فيا فلان الذي قضى ربع قرن في تنفير مصر من العواطف العربية والإسلامية باسم الغيرة على الإنسانية يا فلان مكانك مكانك، فلن يقبل الله لك عملاً، ولن تحشر في زمرة المهتدين.

وعند الله الجزاء لدعاة البر والخير والإصلاح السليم.

٢٥

ينبوع حلوان(*):

منذ أكثر من عامين فوجئ سكان حلوان بينبوع يتفجر بقوة وعنف وتسامع بذلك أهـل العلم بخصائص الينابيع، فأسرعوا إلى تحليل ماء الينبوع الجديد، ثم عظمت دهشتهم وعظـم فرحهم حين وجدوه يغني المصريين عن استيراد المياه المعدنية من الأقطار الأوروبية، فأهلاً وسهلاً بالنعمة التي يصغر بجانبها صادق الحمد وعاطر الثناء.

ولكن هذا الينبوع السعيد هدد بقدومه جماعات المتجـرين بالميـاه المعدنيـة، فمـاذا يصنعون؟ وهل يجوز السكوت عن ثروة تعتز بها مصر على الزمان؟

هداهم الحس التجاري إلى طمر الينبوع قبل أن تلتفت الحكومة المصرية فتحرسه من مكايد أهل البغي والعدوان.

وكيف يطمر الينبوع؟ وفي أي وقت؟ يطمر بأكياس الأسمنت وفي غفوة الليل.

وهنا ترسم صورة قليلة الأمثال بين صور الخيال. كان الينبوع يغني نشيد الحرية فقد طال سجنه في غيابات الصخور ألوفًا من السنين وهل يعلم إلا الله مقدار الآماد التي قـضاها ذلك الينبوع وهو سجين؟

لقد تلقته رمال حلوان بترحيب رنان وكان في أشد الشوق إلى ذلك الترحيب ألم يكـف ما عنها من الحبس الطويل في ظلمات الصخور الصماء.

هو يغني، والرمال تغني، وما أجمل الغناء حين يلتقي الحبيب والمحبوب!

كان الليل ليل حلوان، وليل حلوان موحش حين يغيب بدر السماء.. وكـان الينبـوع حديث العهد بالميلاد ولا علم له بمتاعب الأحياء فكان يغني ويغني بلا حذر ولا احتراس.

وفي حومة تلك الفرحة الشعرية نظر فرأى جماعات لهم وجوه بشرية ولهـم قلـوب جريحة فانزعج وارتاع.

ماذا يريدون هؤلاء؟

(*) العدد ٤٦٤ من مجلة الرسالة في ٢٥ مايو سنة ١٩٤٢.

وماذا تريدون؟

كان الينبوع يعرف أنه فكرة نقية طاهرة، وإنه لن يسيل فوق الرمال إلا كما يسيل القلم فوق الأوراق، فما بلاؤه بهذه الوجود السود في ليلة سوداء؟

أيكون هؤلاء مصريين؟

أيكونون أجانب؟

وما خوف أولئك وهؤلاء من ينبوع سيمحو عللهم الدفينة بلا تفريق بين هذه الديانة أو تلك وبلا تمييز بين هذا الجنس أو ذاك؟

طب. طب. طب!

ما هذا؟ ما هذا؟

تلك أكياس الأسمنت تلقى بغلظة وبوحشية في ثغر الينبوع لتصده عن الابتسام لجمال الوجود.

وينظر الينبوع فيرى الرمال أضعف من أن تحميه ويرى الأمة في غفلة عــن قيمتــه الذاتية ويرى الحكومة تنتظر آراء الخبراء لتقرر حراسته من بني الأعداء وذلك لا يتم إلا بعد أسابيع طوال.

فماذا يصنع؟

أيخضع ويستكين إلى أن يظفر بتقرير المصير؟

وكيف وفيه عارمة تذيب الألوف من أكياس الأسمنت؟

الرأي أن يدفع الينبوع وأن يهدد بالغرق من ينزلون لتثبيت تلك الأكياس (فكان للينبوع ما أراد. فإذا سمعتم أن خلائق ماتت بلا علة فاعرفوا أنها تعرضت لطمر ذلك الينبوع النفيس في تلك الليلة الظلماء.

وإن سمعتم أن ذلك الينبوع لم ينقطع عن الغناء فاعلموا أنه موصول الأواصر بوحي السماء.

ولكن ما الموجب للحديث عن ينبوع حلوان في هذا الوقت؟ ليتني أعرف؟

عناد بعض المؤلفين:

قرأت كلمة الأستاذ محمود عزت فهمي عرفة في التعقيب على الكلمة التي نشرتها الرسالة لسعادة الأستاذ طه الراوي الكلمة التي بيَّن فيها أن موشحة أيها الصافي ليست لابن المعتز وإنما هي لابن زهر أحد شعراء الأندلس..

وأقول أن هذه الموشحة لها عندي تاريخ فقد نسبتها إلى ابن المعتز في الطبعة الأولى من كتاب "مدامع العشاق" ثم ارتبت بعد ذلك في نسبها فأضفتها في الطبعة الثانية إلى "أحد الشعراء" وقد صح عندي أن نسبها إلى ابن المعتز نسب مدخول. وفي سنة ١٩٣٧ كتبت عن ناظمها الأصيل كلمة في الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ تحت عنوان "عرفناه. عرفناه".

وكان الظن أن تستفيد اللجنة التي ألفت كتاب الأدب للسنة التوجيهية من ذلك التحقيق الأدبي ولكنها خشيت أن يقال إنها استفادت من جهود أحد أصدقائها في هذه البلاد والآن وقد وصل التحقيق من أحد فضلاء العراق لم يبق ما يمنع من تصحيح تلك الغلطة في مطبوعات وزارة المعارف المصرية.

النواب الجامعيون:

كثرت الحفلات في هذه الأيام لتكريم الشبان الذين نجحوا في انتخابات مجلس النواب من أبناء الجامعة المصرية وهم الأساتذة محمد فريد زغلول وأحمد قاسم جودة وجلال الدين الحمامصي وحسين شعير وعلي كريم ومحمد مصطفى خليفة ومحمد زكي علام.

فما معنى ذلك؟

أيكون معناه أن الفكرة الجامعية ستسيطر على الحياة النيابية؟ أيكون معناه أن التفكير الحر ستكون له أسنده من أولئك الفتيان؟

ليت ثم ليت...؟

أيكون معناه أن الحركة الفكرية ستظفر برعاية جديدة تصد عنها عوادي الجهل؟

ليت ثم ليت؟!

كنت أنظر إلى ما يصنعه النواب والشيوخ الوفديون في عهد الوزارة الماضية فأعجب وأطرب، فقد كانوا يقهرون تلك الوزارة على السماح بنشر ما يمنعه الرقيب، وكان سبيلهم إلى ذلك أن يثيروا المشكلة في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ فيصبح من حق الجرائد أن تنشر ما تعرض لمنعه الرقيب.

فهل ننتظر من النواب الجامعيين مواقف تشبه تلك المواقف في الانتصار لحرية الرأي والفكر والبيان؟

وهل نرجو أن يكون لجهادهم النيابي لون يتسم بالغيرة على الحرية الفكرية؟

كل ما أخشاه أن ينساقوا مع التيارات السياسية لتقام لهم حفلات جديدة باسم الوزراء الجامعيين!

عذركم مقبول أيها الفتيان فالأدب الصرف لا يسوق لأصحابه غير المتاعب، ولا يؤهلهم لغير التمرس بمعضلات الوجود.

مع الدكتور طه حسين:

المعروف أن بيني وبين الدكتور طه ما صنع الحداد "وإن كنت أجهل المراد من هذه العبارة المصرية. ولكن ما صنع الحداد لا يمنع من لقاء الدكتور طه حسين لأنه جاري بوزارة المعارف والجيران يتلاقون كارهين أو طائعين وفي ذلك التلاقي يجري الحديث حول محصول الحركة الأدبية في هذه الأيام وهو يقرأ جميع ما تنشر المجلات ليعرف إلى أي مدى ينتهي جموح بعض الكاتبين.

- أنت يا دكتور زكي تتجاهل أن الدنيا في حرب.
- وماذا يصنع الكاتب في أيام الحرب، يا سيدي الدكتور؟
- يكتب ثم يطوي ما يكتب إلى أن تجيء أيام السلام.
- وإذا نشر ما كتب؟
- يعاقب بالصمت.
- ولكن الكتابات الأدبية كالود الصحيح وهو يطلب في جميع الأوقات.
- هنالك أوقات تكون منها الصحة ضربًا من الاعتلال، ويكون الفوز لأهل الأمراض.
- وهل وصلنا إلى هذه الغاية يا سيدي الدكتور؟
- لم نصل إلى هذه الغاية، ولكن أخشى عواقب هذه الحال.
- وما هذه الحال؟

- هي ضعف الأعصاب عند جميع الناس، بحيث يجوز الضجر من أجمل الأشـياء واشرف المعاني.
- ولكن المفكر مسئول أمام قرائه في كل وقت، وفيهم من يجهل أن الدنيا في حرب.
- من واجب المفكر أن يعلم قراءه ما يجهلون.
- وهذا ما أصنع يا سيدي الدكتور.
- هل علمتهم أن الدنيا في حرب؟
- قصصت عليهم قصة الطائر الغريب.
- وما قصة الطائر الغريب؟
- هو طائر يساير الأنوار المبثوثة فوق الشاطئ.
- لأي غرض؟
- ليعرف مسابح الأسماك فيهديها سواء السبيل.
- الناس يقولون غير ذلك.
- وماذا يقولون؟
- يقولون: إن الطائر يضع المصابيح ليجتذب الأسماك إليه.
- وماذا أصنع إذا كانت الطبيعة ترى النور سر الجاذبية؟
- ومن أجل هذا تطالب بحرية الفكر والرأي؟
- هو ذلك.
- اكتم هذا الحديث يا دكتور زكي ولا تخبر أحدًا بأنـك حـاورتني فـي الأنـوار والظلمات.
- سمعًا وطاعة يا سيدي الدكتور، فلن أنشر هذا الحديث إلا بعد انتهاء الحرب.

امتحان جديد:

تقوم الشواهد في كل يوم على أن الحكم للسيف والمدفع وأن المعاني الروحيـة فـي سبيل الزوال، فكيف نلقي القراء في حدود ما عودناهم لعهد السلام؟ وكيـف نناضـل لحفـظ سلطان الرأي في زمن تضعضعت سلطنة الرغيف؟

هل نترك معالجة المشكلات اليومية وننصرف إلى معالجة المشكلات التاريخية؟

هل نتحدث عن جيل الواق الواق في أساطير الأولين؟ لا هذا ولا ذاك فسترون كيف نخرج من امتحان هذا الزمان بأمان.

يقال ويقل:

يقال: إن المؤلفات الأدبية ظفرت في هذه الأيام برواج لم تعرفه من قبل، ويقال إن السبب في هذا الرواج هو نفرة العقول من سخف الدعايات الأجنبية.

ويقال إن الحرب علمت المصريين أشياء وأشياء، ولكنها غفلت عن تعليمهم معنى التضامن الوطني، فجهلوا التعاون في توفير الأقوات.

ويقال إن وزارة الشئون الاجتماعية قضت أعوامًا في تعريف الصناع والزراع بأنهم تعساء ولم تعلمهم كيف يدفعون التعاسة بشرف النضال في المطالب الحيوية.

ويقال أيضًا: إن أزواجًا سيعاقبون على السماح لزوجاتهم بالاشتراك في "المراقص الخيرية".

وسمعت ثم سمعت أن الدولة ستحرم الرياء الاجتماعي تحريمًا قاطعًا وأنها لن تبيح شرف النيابة عن الأمة لمن يسمح لزوجته بإقامة حفلات الاستقبال.

وحدثني من أثق بصدق روايته أن الميسر سيكون من المحرمات وأن السهر في المنازل سيمنع بعد صلاة العشاء.

صلاة العشاء؟ صلاة العشاء؟

يظهر أنني انتقلت إلى الحديث عن أهواء التاريخ.

٢٦

أغرب ما قرأت(*):

في بعض الأحيان تقرا أشياء تلفت النظر لسبب أو لأسباب، ثم نراها أهون واصغر من أن يجري القلم فيما تنطوي عليه من غرض بعيد أو قريب.

وآفة الأدب العربي لهذا العهد أنه لا يلتفت إلى الجزئيات بحجة أنها في الغالب من توافه الشئون مع أن الحوادث الصغيرة قد تضمر في طياتها متاعب خطيرة ومع أن العقل يوجب أن ندرس جميعًا الأشياء دراسة نقد وتشريح.

وأنا اليوم أسوق خبرًا تافهًا جدًا، وإن كنت أعتقد أنه أغرب ما قرأت فما ذلك الخبر التافه الغريب؟

للشركات الأجنبية في مصر أسلوب طريف في اختيار اللغة التي تعامل بها الجماهير فهي تكتب باللغة العربية في حال. وبإحدى اللغات الأوروبية في أحوال، فإن كان ما تكتبه نوعًا من الإعلان جعلته باللغة العربية ليفهمه الجمهور بلا عناء، وإن كان ما تكتبه متصلاً بالعقود جعلته بلغة أعجمية، لتخفي دقائقه على أكثر الناس.

هذا هو الخبر فهل ترونه من التوافه؟ وهل ترون أنه على تفاهته يستحق الالتفات؟

نهاية فلان:

هو كاتب فصيح يعرفه قراء اللغة العربية من أعوام طوال، ثم تحول فجأة إلى كاتب عامي اللغة والمذهب فما سبب هذا التحول المزعج؟

كان في بداية حياته يرتاب في قدرته على الإنشاء الفصيح فكان يبحث عمن يقومون عباراته ويرفعون عنها آصار العجمة والتهافت، وبهذه الخطة كانت ثقته بنفسه تضعف من يوم إلى يوم، ثم رأى أن يتحرر من سيطرة المراجعين والمصححين فأعلن أن اللغة العامية أحسن اللغات وأنه يجعلها لغته المختارة إلى أن يقض الله في أمره ما هو قاض.

(*) العدد ٤٦٥ من مجلة الرسالة أول يونيه سنة ١٩٤٢.

كان فلان ولا يزال من أهل الرأي وأصحاب الخيال وكذب من أدعوا أنهم قولوه ما لم يقل وأنهم مصدر الوحي لأدبه الجميل.

فهل نرجو أن ينظر فلان في هذه الكلمة الخالصة لوجه الأدب والحق فيكتب اللغة الفصيحة على سجيته وفي حدود ما يطيق ليصبح بعد قليل وهو من أساطير البيان؟

فلان شخصية كريمة الجوهر، وضياعها على الأدب الفصيح ضرب من الخسران فهل يرفق بنفسه فيروضها رياضة جديدة على أساليب الفصحاء بلا تكلف ولا افتعال؟

القليل من وحي الطبع أجدى وأنفع من الكثير المصنوع، فارجع إلى طبعك يا فلان وانتفع بما فيه من ثورة أصيلة قبل أن يصعب انتشالك من هوة مذهبك الجديد صانك الله وحماك.

بين الكفر والإيمان:

قيل وقيل: إن الأدب سيجوز فيه ما يجوز في جميع الصناعات فيحترفه من يشاء حين يشاء، ولو كان صغير الرأس أو نحيل الوجدان.

وأقول أن الأدب شريعة ربانية لا يصلح لها غير المصطفى من أرباب القلوب، فمن العسير أن يضاف إلى أهل الأدب من لا يخط حرفًا إلا وهو مسوق بإرادة خارجية على نحو ما يصنع الفارس الذي رسمته يد البهلوان في أحد الأشرطة السينمائية.

الأدب إيمان وثيق لا يعرف الأشخاص ولا الزمان ولا الظروف فليس بأديب من يفرح لأن صدرًا يحتضنه بلؤم أو بشوق، ليجعل من أنامله أداة يلتقط بها الأشواك، وليس بأديب من تخدعه الخوادع الوقتية فيتوهم أن الخلود نعمة يجود بها أهل الفناء.

الأدب فوق ما يتوهم الأصاغر من طلاب المنح الذواهب، الأدب قوة ذاتية يتوحد بها صاحبها توحد الليث، فليس منا من يرى الحياة أو الجاه في التشرف بخدمة هذا المخلوق أو ذاك، وليس منا من يعق إخوانه ليظفر بالزاد المأدوم بالزور والبهتان.

الأدب الحق منحة ربانية يجود بها الله على أرباب القلوب.

٢٧

عبد القادر حمزة باشا(*):

فاتني في العام الماضي أن أشهد مأتم الأستاذ عبد القادر حمزة – طابت تربته، وكرمت ذكراه– ولم يفتني أن أشهد المأتم الذي أقيم في هذا المساء بجوار دار (البلاغ)، تحية لروح ذلك الشهيد، شهيد القلم الحر، والرأي الصريح.

وأقول: إني ما شعرت بحزن أو لوعة حين تجددت الصورة لموت ذلك الصديق، فهل خمد أسفي عليه وما قدم العهد؟

أشهد أني لم أجد في نفسي استعدادًا للتحسر والتفجع، كما ينبغي أن يقع في مثل هذا الظرف، وإنما توجهت نفسي إلى معنى آخر هو نقد الأسلوب المتبع في إقامة الذكريات لهذا الطراز من الرجال.

واشرح هذا المعنى فأقول: إن عبد القادر لم يمت إلا بعد أن أقام ألوف البراهين على أن للقلم دولة في هذه البلاد وبعد أن أقام ألوف الشواهد على أن الذاتية السليمة تصل بصاحبها إلى أشرف الغايات، وترقم اسمه في صحيفة الخلود.

فما الذي يمنع من أن تكون الحفلة التي تقام لذكراه حفلة فرح وابتهاج؟

كنت أحب أن يتنادى من اشتركوا في تحرير (البلاغ)– وهم يعدون بالعشرات– إلى إقامة سهرة طريفة على متن النيل في ليلة قمراء، تحية للكاتب العظيم الذي أرخ مجد النيل أعظم تأريخ.

كنت أحب أن نتنادى لإقامة حفلة بهيجة في "معبد الكرنج"، وهو المكان الذي أوحى إلى عبد القادر أن يكون إمامًا في تاريخ مصر القديم، ولعله أول مؤرخ جعل الإيمان بعظمة مصر عقيدة عقلية، وعقيدة العقل أعظم من عقيدة الروح.

لو سمحت شواغل الحياة بأن يتنادى أصدقاء البلاغ لتكريم صاحب (البلاغ) لكان لهم في تكريمه أسلوب لا يخطر لأهل هذا العصر في بال.

(*) العدد ٤٦٧ من مجلة الرسالة ١٥ يونيه سنة ١٩٤٢.

لن نبكي على شيخ الصحافة المصرية، وهل مات حتى نبكي عليه؟

وما البكاء على كاتب لم يفارق دنياه إلا بعد أن ملأ صرير قلمه مسامع الزمان؟

الواجب أن نفرح لأن مصر أنجبت كاتبًا سياسيًا ينـدر وجـود مثلـه فـي الأقطـار الأوروبية والأمريكية. وأعيذ القارئ أن يتهمني بالمبالغة والتهويل، فالمصاعب التـي قهرهـا عبد القادر لو صادفت أكبر كاتب في أعظم بلد لأضافته إلى المدحورين.

الواجب أن نفرح لأن جو مصر سمح بأن يكون أحد أقطاب الصحافة اليوميـة مـن أكابر المؤلفين، وتلك إحدى الأعاجيب.

الواجب أن نفرح، لأن جو مصر سمح بأن يكتم كاتب بلاءه بأعدائه نحو ثلاث سـنين ليلقاهم بعد ذلك في ميدان لا يخرجون منه سالمين.

كان عبد القادر كما وصفت، وفوق مـا وصـفت، فكيـف نحيـي ذكـراه بـالحزن والانقباض؟ ومتى نفرح إذا تناسينا اعتزاز الأقلام بتاريخ ذلك الشهيد؟

كان عبد القادر يحب جريدته أكثر مما يحب نفسه، ولهذا كان يستكتب رجـالاً بينـه وبينهم ضغائن وحقود، ليبرئ ذمته من حق جريدته عليه.

وكانت البراعة القلمية هي الخصيصة الأساسية فيمن يعرف من الكتاب ولو كانوا من خصومة الألداء.

وكان لا يسمح بنشر كلمة تؤدي أحد محرري (البلاغ) من قرب أو من بعد، وقد اتفق لي أن أرجوه نشر مقال أرسله المرحوم مصطفى صادق الرافعي في إيذائي لأقيم الدليل على تشجيع الحرية الفكرية، ولكنه رفض، وكانت حجته أن سماحي بنشر مقال الرافعي لا يعفيـه من حقي عليه.

عبد القادر!

هل تعرف أن قومًا زعموا أنك مت؟

كذبوا، فما يموت من تحيا ذكراه في على سنان قلمي!

موسم الامتحانات:

وزارة المعارف في نظر المنصف أعظم الوزارات حيوية، بدليل ما نشاهد من كثرة التغيرات والتقلبات، وهل يتغير أو يتقلب غير الأحياء؟!

ولكن هذه الوزارة التي تفكر في كل شيء، وتنشغل بأخبارها جميع الناس، تنسى شيئًا في غاية من الأهمية، وهو تعديل مواعيد الامتحانات.

ما الذي يوجب أن تكون تلك المواعيد في وهج الصيف؟ أيكون ذلك نقلاً عن الأمم الأوروبية؟ هو ذلك، ولكن أين جو مصر بالقياس إلى الأجواء الأوروبية؟

أعصاب التلاميذ في شهر يونيه بشهرين، فكيف تجود قواهم بالمحصول الذي يعين منازلهم من الفوز أو الإخفاق.

وله سمعتم حديث المصححين؟

التصحيح نوع من القضاء، ولا يجوز للقاضي أن يحكم إلا وهو سليم الأعصاب، فكيف تكون مصاير التلاميذ بأيدي مصححين لم تبق منها متاعب العام الدراسي غير أشباح؟

يجب أن تكون الامتحانات في شهر مارس، أو يجب أن تكون أهم مواد الامتحان في شهر مارس، لنجد تلاميذ ومصححين، ولنطمئن إلى العدل في سلامة الحكم على أبناء الجيل الجديد.

فإن عز على وزارة المعارف أن تترك خطة سارت عليها عشرات السنين فلتجعل التصحيح في أيدي رجال خفف عنهم عناء العام الدراسي بعض التخفيف، ليراجعوا الأوراق، بعناية والتفات ليكونوا في حال غير الحال التي نعرف، فأكثر من يدعون إلى التصحيح يعتذرون، لأنهم لا يلقون الصيف إلا بعد طول العناء بالتدريس والتصحيح.

أما بعد فقد أعلنت هذا الرأي مرات في الأعوام الماضية، ولم أجد من يسمع، فهل يكون من حظ هذا الرأي أن يضاف إلى الآراء التي يدرسها وزيرنا الحصيف؟

أحزان توفيق الحكيم::

لم أكن انتظر أن يكون عتبى على الأستاذ توفيق الحكيم فرصة لمجادلات ومساجلات يجري بها قلمه مع الكاتبين العظيمين عباس العقاد وطه حسين.

وعلى قلة ما يجشم أخونا الزيات نفسه في مراسلة أصدقاء الرسالة من مهجره، فقد كتب إلي يخبرني انه خفف كلمتي في عتب الأستاذ توفيق الحكيم، لأن لا يقبل أن يفسد ما بيني وبين توفيق لشبهة نفاها توفيق.

وأحسن أخوانا الزيات فيما صنع، فما أدري كيف كنت أثبت أمام ضميري لو نشرت كلمتي كاملة ثم ظهر أن أخانا الحكيم يطوي صدره على تلك الأحزان السود.

لطف الله بي فنجاني من هول هذا الموقف بفضل حكمة "المهاجر الرفيق"، فله الحمد، وعلى المهاجر الثناء.

ولكن يظهر أن أحزان توفيق الحكيم لن تنجيه من "الوقوع في قبضة الأديب الفلاح" فسأسمعه اليوم كلامًا يسره في حين ويحزنه في أحايين، وفقًا لحالته النفسية وهو يقرأ ما أقصه عليه بلا تخويف ولا ترهيب.

دار الأستاذ الحكيم في رده على الأستاذ العقاد حول "نفوذ" الدكتور طه حسين فماذا يريد أن يقول؟

هل يتوهم أن "نفوذ الدكتور طه تميمة تعيذه شر أقلامنا إذا رأيناه انحرف عن المقبول من شريعة الأدب الرفيع؟

وما احتياجنا إلى "نفوذ" الدكتور طه حسين، ونحن نعرف أن ذلك النفوذ بلاء عليه، لأنه يبعده عنها ويقربه إلى سوانا، وفردوس الأدب هو النعيم الباقي على الزمان.

يستطيع الدكتور طه بكفايته العلمية أن يكون أكبر موظف في الحكومة المصرية ولكنه لا يستطيع الزعم بأن سلطان القلم يفوقه أي سلطان. لقد أبيت أن أهنئ الدكتور طه بمنصبه الجديد في وزارة المعارف، لأني كرهت أن يقاس الفوز بمقياس الوظائف، ثم سارعت فهنأته بكتاب "الحب الضائع" لأغريه بالمضي في هذه الطريقة من طرائق التأليف، ولأفهمه أني لا أقيم وزنًا لغير محصول الأقلام الجياد.

الدكتور طه رجل ضرار نفاع، ولكن من العيب على حامل القلم أن يرجوه أو يخشاه، فما هذا الذي تقول يا عم توفيق؟!

أترك هذا وأنتقل إلى مشكلة أساسية، وهي مشكلة قد تخرج الأستاذ الحكيم من فردوس الأدب الرفيع.

صديقنا توفيق يتألم ويتوجع، لأن شهرته الأدبية أبعدته عن الانخراط في سلك الرجال القضاء فما معنى ذلك؟

معناه أن هذا الرجل يعيش بين رجال الأدب عيش الغرباء وإلا فهل يجوز لكاتب له عقيدة أدبية أن يتوهم أن في الدنيا حظًا من حظوظ أرباب الأقلام؟

وصديقنا توفيق يقول بعبارة صريحة إنه لا يجد أسرة تعطف عليه، فتزوجه بنية يسكن إليها وتسكن إليه، لأن الشهرة الأدبية أضافته إلى المشبوهين!

غضبة الأدب عليك يا توفيق فما أوذي الأدب بأقبح ولا أبشع ولا أفظع مما جرى به قلمك الأهوج.

وبمن تثق الأسر الكريمة إذا لم تثق برجال الأدب الرفيع!

ولأي فارس تخضع المرأة النبيلة إذا فاتها الخضوع لأحد فرسان البيان؟

أتقول هذا الكلام يا توفيق في مجلة مثل الرسالة وهي عنوان الفحولة الأدبية، ثم تنتظر أن نراعي أحزانك فلا نرد عليك؟

وأرجع إلى الموازنة بين حال القاضي وحال الكاتب فأسألك: أتعتقد مؤمنًا بأن القاضي يخدم العدالة بأكثر مما يخدمها الكاتب؟

قضاة مصر جديرون بالاحترام والتبجيل، فالشكوى من الفوضى مست أكثر الهيئات لم استحيت فلم تمس رجال القضاء.

ومع هذا فلا يسيغ ذهني أن يكون القاضي العادل الشريف أشرف من الكاتب الصادق، إلا أن يتبذل الكاتب فيقترح زواج هتلر من أم كلثوم لتنتهي الحرب!

أيهون الأدب على أهله إلى هذا الحد من الهوان البغيض؟

أيكون اليأس من الاقتران بامرأة لها سيارة وعمارة باعثًا على الضجر من صحبة الكتاب والخطباء والشعراء؟

أيكون "نفوذ" طه حسين شيئًا يخاف فتحبر فيه المقالات الطوال العراض؟

آه ثم آه!!

لو كان بيدي شيء من الأمر لقضيت بنفي الحكيم إلى جزيرة واق الواق، ليعرف أبناؤنا وتلاميذنا أن للأدب سيطرة سماوية تبغض التأدب مع غير صاحب السماء.

أنت في جماعتنا دخيل، يا توفيق، لأنك تقدم علينا رجال القضاء، ولأنك تتهيب أصحاب النفوذ، وبين النفوذ والنفوس جناس معلول، إن كنت تذكر المبادئ من علم البديع.

مقالك الحزين كان يبكيني يا حبيبي، يا توفيق، ولكني تجلدت وتماسكت فرارًا من الرثاء لك والبكاء عليك.

أبعد عشرين سنة خدمت فيها القلم، على حد ما زعمت لنفسك تعود فتمن على الأدب بأنك أضعت من أجله أشياء وأشياء؟

نفيناك، نفيناك، ولن نلتفت إليك بعد اليوم، إلا أن تستتاب فتتوب.

الخلوة إلى المقام نعمة لا يدركها من يرى السعادة في الخلوة إلى امرأة.

وسواد المداد في بياض القرطاس أجمل من الخيلان السود في الخدود البيض، وهذا كلام لا يفهمه الأدباء الدخلاء.

لا تؤاخذني، يا توفيق، في القسوة عليك، فأنا أحاول رجعك إلى فردوس الأدب الرفيع، فهل ترجع؟ وهل تعود؟

عندنا "نفوذ" لا يقاس إليه النفوذ الذي تعرف.

عندنا أرواح وقلوب، عندنا نار تصهر روحك حين تريد فهل ترجع إلى عشك، أيها العصفور من الشرق؟

٢٨

علاج النفس(*):

كتب إلينا حضرة (...) الموظف بوزارة المالية خطابًا يذكر فيه أنه يعاني أزمات نفسية تتمثل في تجسيم الخلاف الذي يثور بينه وبين أهله وأصدقائه من حين إلى حين، وهو يستحلفنا بالله أن ندله على طريق الخلاص من هذه الأزمات السود.

ونحن من جانبنا نستحلفه بالله أن ينظر في الصورة الآتية:

١- رجل صائم يشعر بأن الصيام قد يحمله على سرعة الانفعال، فهو يتجنب الاصطدام بالناس لئلا يؤذيهم بغير حق...

٢- رجل ترك التدخين بعد طول العهد بالتدخين فهو يعرف أنه في الأيام الأولى محتاج إلى التصبر ومضطر إلى البعد قليلاً عن المجتمع لئلا يحمله ضيق النفس على الوقوع في محرجات لا تليق.

٣- رجل مأزوم يخفي كربه عن زوجته وأبنائه... فهو يبتعد عامدًا عن الحديث في المطالب المعاشية، لئلا تلوح فرصة يثور فيها كربه فتنفرج شفتاه عن بعض الألفاظ الغلاظ في إيذاء الزوجة والأبناء..

٤- قاض ينسحب من الجلسة وقد أحس بنوبة مرضية خوفًا من الإضرار بالمتقاضين لأنه يعرف أن العلة ولو كانت خفيفة تعرض أحكامه للاعتلال.

٥- مدرس غاضب على أحد التلاميذ وهو لحرصه على النزاهة يرفض امتحان ذلك التلميذ لئلا يؤثر غضبه في تقرير الدرجات وهو نوع من القضاء..

٦- غريب يشعر بالضجر من أحد البلاد... فيمنعه العقل من اغتياب ذلك البلد إيمانًا بأن الغربة قد تلون أحاسيس المغتربين بالحزن والانقباض فهم يرون الدمامة ويعمون عن الجمال.

(*) العدد ٤٦٩ من مجلة الرسالة ٢٩ يونيه سنة ١٩٤٢.

٧- خصم شريف يعرف أن الخصومة قد تفسد أحكام الرجال على الرجال، فهو يحاسب نفسه قبل أن ينطق بكلمة تسيء على خصمه اللدود.

فما رأيك في هذه الصور السبع ولها أمثال تفوق الإحصاء؟

إن كان حكم في هذه الصور يوافق أحكام أولئك الرجال فادرس نفسك وزمانك لتعرف أنك معرض لآفات نفسية تفرضها عليك الظروف في هذه الأيام "البيض".

احترس كل الاحتراس من نفسك في هذه الأقوات وأعلم أن سلامة الأعصاب تعرضت لمصاعب لا تطاق ومن النادر أن تجد رجلاً يساير الحياة بقلب سليم، وقد قضت متاعب الحرب بأن يصير الناس جميعًا مجندين ولو كانوا من سكان المغاور والكهوف.

يومك الحاضر متعب، ولا تمر فيه لحظة بلا منغصات... ولذلك أرجو أن تسارع فتتهم نفسك قبل أن تتهم الأهل والأصدقاء عند اشتجار الخلاف.. ومن المؤكد أن "مرض العمر"، لا يمسك وحدك لأنه وباء... والوباء لا يقتصر شره على الأفراد فهو يمس الجميع بلا استثناء.

فهل تكون عند حسن الظن فتقف موقف الطبيب من مرضاه؟

ومع من تجسم الخلاف؟؟

إنك تعامل أقوامًا ضعفت أعصابهم أقبح الضعف بسبب المضجرات التي ساقتها أعوام الحرب فهم في حقيقة الأمر مرضى لا أصحاء والعاقل لا يطالب المريض بما يطالب به الصحيح.

وأنا مع هذا أنصحك بما لا أنصح به نفسي.. فأنا أكتب هذه الكلمات في أعقاب ثورة نفسية قضت بالقطيعة بيني وبين صديق لا ذنب له غير العيش في أيام تجسم فيها أشباح الهفوات، وما جاز عندي أن أنصحك بما لا أنصح به نفسي، إلا لأني أرجو أن تكون قدرتك على نفسك أكبر من قدرتي على نفسي.. وليتك تتأدب بأدبي فأنا لا أنفض يدي من صديق إلا بعد الصبر عليه عددًا من السنين الطوال.. ثم لا يكون عقابه غير الهجر الجميل..

لطف الله بي وبك.. وهداني وهداك..

الخادع المخدوع:

هو من يوهمه اللؤم أو توهمه الحماقة أن صدقات الرجال تنال بالريـــاء وأن لطــف المحضر يغني عن صدق المغيب...

الصديق الحق هو الذي يستطيع أن يغزو قلبك بأشعة روحانية توحي إليك أنه أنيــسك في النعماء وحليفك في الضراء وأن وداده الصحيح هو القبس الذي تستضيء به عند اعتكــار الظلمات..

الصديق الحق هو الذي يدرك بوضوح أن الصداقة تفرض عليه أن يكون سنادك فـــي جميع الأحايين وأن يؤاخي ويعادي من عاداك ولو كنت على ضلال، وهل يستطيع الــصديق أن يرى في صديقه غير كرائم المناقب وروائع الخصال.

ليس بصديق من يرى عيوبك أو يسمع فيك أقوال مبغضيك، وليس بصديق من يجوز عنده أنك واحد من الناس يقترب إليه باسم الصداقة ويبتعد عنه باسم العقل، وليس بصديق من لا يراك في جميع أحوالك أشرف الرجال.

إن استباح الصديق أن يتعقب صديقه بالملام في جد أو في مزاح فهو عدو يلبس ثوب الصديق.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا" وقد أول قوم هــذا الحديث قالوا إن نصر الأخ الظالم هو نهيه عن الظلم..

وأقول إن هذا الحديث الشريف يرمي إلى غاية لم يفطن إليها أولئك المؤولــون وهــو عندي دعوة إلى العصبية الأخوية وهي الغاية في شرف الإخاء، وتلك العــصبية توجــب أن تكون صفوف الإخوان ولو كانوا ظالمين لأن الوداد الصحيح هــو الاشــتراك الوثيــق فـــي المحاسن والعيوب.

أقول هذا وأنا أعلم أن في خلق الله من يثور على هفوات صــديقه ليتــسم بالنزاهــة والعدل ولو عقل لأدرك أن مؤاخذة الصديق – ولو بحق– هي أقبح ألــوان الظلــم والجــور والإجحاف.

مداخل الشيطان:

إن جاريت العقائد فالشيطان مخلوق يوسوس لك بلا انقطاع ليضلك عن سواء السبيل وإن جاريت المذاهب الفلسفية فالشيطان هو هواك وأنت بين الغرضين مسئو عن مقاومة هذا الهوى أو ذاك المخلوق لأنه في حاليه مشئوم مشئوم..

ينزغ الشيطان فيقول: لك أن تختار بين إيثار صديقك أو إيثار الحق...

وعند هذه الفكرة المضللة تلتفت فترى الحق بإيثارك فتثور على الصديق.

ثم تلتفت مرة ثانية فترى ناسًا يعجبون بشجاعتك ونزاهتك لأنك أثرت الحق على الصديق وتلتفت مرة ثالثة فتراك وصفت بأوصاف لطاف هي منحة الشيطان لمن يثور على الصديق على الصديق، ثم تلتفت مرة رابعة فتراك مسئولاً عن تبرير ثورتك على الصديق ولا يتم ذلك بغير مآثم يكون منها أنك أشرف من صديقك ولا يقول رجل أنه أشرف من صديقه إلا حين يشرف على هاوية الانحطاط.

الإفك في محاربة عدو أشرف من الصدق في محاربة صديقك.. ولك أن تقول إني أفضل الإفك على الصديق في بعض الأحيان.

عرض الصديق هو عرضك ولن تكون رجلاً حين تفرح بضلال صديقك قبل أن تفرح بهداه.

كن صديقًا صدوقًا، ثم تجرد من سائر الفضائل إن شئت فما يقيم الله وزنًا لغير أعمال الصديق الصدوق...

اسمع كلامي يا غافل إن كان لك سمع أو قلب، اسمع ثم أجب..

هل تعرف لأي سبب قلت الصداقات في هذه السنين العجاف... وأساعدك على الجواب فأقول: قلت الصداقات لأنها جواهر نفيسة وكريمة، ونحن في زمن لم يرتفع فيه غير ثمن الرغيف المخلوط بالتراب وما أحب أن أزيد...!

صورة إسلامية:

في أحد أيام سنة ١٩٣٨ –وكنت ضيف العراق– أطلعني السيد صادق الوكيل –رحمه الله– على قصة صدرت في بيروت تسمى "خطيئة الشيخ" أو "توبة الشيخ فما أذكر أسمها بالضبط.. ولعل إحدى المكاتب ترسلها إلي بالثمن محولاً على البريد فأعرف ما فيها من مقاصد وأغراض..

أخذ السيد صادق الوكيل يقرأ من تلك القصة صفحات معينة، وهي الصفحات التي يشرح فيها المؤلف كيفية الوضوء وكيفية الصلاة بصورة مزج فيها القصص بالتعليم، ثم عقب فقال:

ترضيني هذه الطريقة، فأنا أخشى أن يجيء يوم ننسى فيه كيفية الوضوء وكيفية الصلاة!

وفي صيف سنة ١٩٣٩ قضيت أيامًا في الإسكندرية لاستكمل الصورة المنشودة لكتاب "أدب الشواطئ(*)؟" وهو كتاب صرفتني عنه صروف الحرب، أو صرفني عنه إقفار الشواطئ من احتراب العيون والقلوب.. وسأرجع إلى إتمامه ونشره يوم يرجع الأمان إلى صدر الزمان وأواجه الغرض من هذه الكلمة فأقول:

في ساحة الفتوى بالشاطئ الإسكندري لقيني الشيخ محمد أبو العيون، وهو أزهري طيب القلب جدًا.. وقد تهم حين تراه بأن تسأله الدعاء على قلة هذا النوع هذا الجيل، وإني لأرجو أن يتفضل فيذكرني بالدعوات الصالحات حين أخطر في البال..

كنت أمتع عيني بأحد ملاعب "التنس" في الشاطئ حين لقيني الشيخ محمد أبو العيون ولملاعب التنس فوق الشاطئ الإسكندري جاذبية تفوق الوصف ولكن قدوم هذا الشيخ صدني عن ذلك النعيم وأشعرني أن للتقوى جاذبية رائعة وأن النظر في وجه الرجل العابد يوحي من الشعر ما لا يوحيه النظر في طلعة البدر الوهاج.

ولم يكن بد من صحبة هذا الشيخ في ذلك الوقت وكانت الشمس تتأهب للاستحمام وهي تستحم في البحر كل يوم قبيل الغروب ولعل هذا هو السبب في أن جسمها خالد الإشراق!

- هل يضايقك أن نتعشى معًا يا حضرة الدكتورة؟
- أنا لا أتناول طعامًا بالليل ويكفي أن أكون في ضيافتك الروحية.
- تعالي معي إلى الفندق فهنالك مشكلة ينفع في حلها تعاون الرفاق.
- وما تلك المشكلة؟

(*) كتاب "أدب الشواطئ للدكتور زكي مبارك هو الآن تحت الطبع.

- خادم بالفندق يرفض أن يتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة مع أن عرضت عليه خمسة قروش ولو أنه استزادني لزدته ولكنه يرفض.

مضينا معًا إلى الفندق لحل تلك المشكلة وأنا ابتسم ابتسامة تخفي على الشيخ.. فمن المضحك أن يفكر رواد الشواطئ في تعليم خدمة الفنادق كيفية الوضوء وكيفية الصلاة.

ونظرت إلى الخادم فرأيته فتى تشهد ملامحه بأنه مسلم لفظًا لا معنى وأن طول عهده بخدمة الفنادق والقهوات راضته على اليقين بأن المصطافين ليس فيهم من يذكر الله بصدق وإخلاص.. وهل تنار الإسكندرية في الصيف لآداء الصلوات؟

عرض الشيخ من جديد خمسة قروش، وعرضت عشرة قروش فقبل الخادم – وهو يضحك ضحكة السخرية– أن يطيعنا فيتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة.

أخذ الشيخ يعلم الفتى الوضوء بإيجاز وكان الموقف في جملته من غرائب المضحكات، لأن قروش الشيخ وقروشي جعلت الفتى من المأجورين المأمورين لعبادة يكون جزاؤها بأيدي الناس.

كان الفتى يضحك ويلعب ثم تغير وجهه فصار في خشوع النساك واحتجزنا ساعتين لنعلمه سائر الفروض الإسلامية ولم يفته أن يرد القروش التي أخذها من الشيخ والتي أخذها مني برغم الإلحاح في قبول الهدية وكانت حجته أنه قضى في صحبتنا لحظات أثمن وأنفس من أطايب الأموال.

وفي الأسبوع الماضي زرت الإسكندرية لبعض الشئون فراعني أن أجد فتى يهجم على يدي فيقبلها بحرارة وشوق ثم يسألني الدعاء وهو الفتى نفسه، الفتى الذي علمناه كيف يصلي وكيف ويصوم..

خد علمي وأعطني إيمانك أيها الجاهل السعيد.. فلا حياة للعلم بدون إيمان.

المنافق الجميل:

هو شجرة الخلاف أو الصفصاف، وهي شجرة غرستها بيدي عشرات المرات قبل أن أهاجر من سنتريس إلى باريس، لا يدوم جمال هذه الشجرة غير سنتين أو ثلاثة ثم تخوخ والتخويخ، في عرف أهل مصر هو أن تعتل الشجرة بعلة الجوف فيكون لها ظاهر صحيح وباطن عليل، على نحو ما تكون شجرة الصفصاف بعد أعوام قصار وعلى نحو ما تكون ضمائر الأصدقاء المزيفين بعد أيام طوال.

رجال القلم هم أطباء النفوس والقلوب والعقول والطبيب بلا مرضى كالمحـــامي بـــلا قضايا والمدرس بلا تلاميذ.. ومن أجل هذا أحبك أيها المنافق الجميل... لأن وجودك فرصـــة لدرس الغرائز والسرائر والأهواء.

أدام الله عليك نعمة الغدر وأدام عليّ نعمة الوفاء.

أزمة المجلات الأدبية[*]:

إنشاء مجلة في مصر أو غير مصر عمل لا يعرفه إلا من يعانيه وتزيد متاعب هذا العمل إذا أريد أن تكون المجلة مقصورة على الأدب الصرف، بحيث لا تكون لها موارد غير عواطف القراء والقارئ لا يدفع قرشًا في مجلة أدبية إلا إذا وثق بأنه من الغانمين، ولا تظفر بمجلة بثقة القارئ إلا بعد جهود تفر من حملها الجبال.

وقد كنت فيما سلف من الأيام أثني على حصافة الأستاذ الزيات، كنت أقول إن العقل هداه إلى أن الضمير المصري لابد له من أسلوب مجلة لا تهتم بغير الأدب الصرف ولا تقبل مواجهة الجمهور بغير الفكر المشرق في الأسلوب الجميل.

ثم وجدت شواهد أقنعتني بأن روح التضحية هو الأصل في إنشاء المجلة الأدبية وإن كان الله عز وجل شأنه تفضل فجعل "الرسالة" مصدر خير لصديقنا الزيات، فقد قيل –ولله الحمد– أنها صيرته في الأغنياء بدليل سيطرته على بعض الشواطئ منها "بحر شبين" وهو النهر الذي يسقي سنتريس.

فيا ساكني أكناف دجلة كلكم	إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
يكون أجاجًا دونكم فإذا انتهى	إليكم تلقى طيبكم فيطيب

ومع هذا فأنا أشعر بقيمة التضحية حين اكتفي بالكتابة في الشئون الأدبية، ولتفضيل هذه اللمحة أذكر النكتة الآتية:

فلان رجل كريم، وهو حين يراني يطيب له أن يحييني فيقول:

"لقد قرأت نضالك في مجلة الرسالة"

ولكن هذا الرجل الكريم لا يلقى هذه التحية إلا بلهجة المتصدق!

فهل يكون الحال كذلك لو كنت أكتب في الشئون السياسية وأستبيح إيذاء الناس بغير حساب كما يصنع بعض الكُتَّاب السياسيين؟

(*) العدد ٤٧٠ من مجلة الرسالة ٦ يوليه سنة ١٩٤٢.

الصحافة الأدبية مسيرة بالضمير الأدبي، وهو يأبى على أصحابه أن يتزايدوا على الناس طاعة للأهواء، أو طاعة للأحزاب، فما خوف الناس منا ونحن لا نملك غير الصدق ولا نصاول إلا في حدود الأدب والذوق؟

المجلة السياسية تصل إلى أيدي الوزراء قبل أن تصل إلى أيدي الجمهور لأن الوزراء يحبون أن يعرفوا ما يقال فيهم بحق أو بغير حق، فهل تلقى منهم المجلة الأدبية بعض هذا الاهتمام الطريف؟ وكيف وهم من ظلم المجلات الأدبية في أمام؟

ثم أثب إلى الغرض من هذه الكلمة فأقول:

أين معالي وزير التموين؟ لقد قرأت خطبته في الرد على الاستجواب المعروف فرأيته يتحدث عن جميع ضروب التموين إلا الورق، ورق المجلات الأدبية، أما ورق الجرائد اليومية والمجلات السياسية فالمفهوم بداهة أن الحكومة ستعرف ما تصنع إذا بخل به صنائع الجشع من الوراقين...

أنا لا أعرف وزير التموين معرفة شخصية حتى أحكم له أو عليه، ولكني أعرفه معرفة معنوية وهذه المعرفة توجب أن أذكره بالواجب في رعاية أقوات العقول والإفهام والقلوب، فمن العقوق لمصر أن يقال أنها لم تمتحن إلا بأزمة الرغيف مع أن مصر أقدم أمة كان أكبر زادها العلم والأدب والبيان.

اكتب هذا وأنا أخشى أن يقال بعد أسابيع إن مجلة (الرسالة) عجزت عن الوصول إلى قوتها من الورق.. وأي وقت..؟ ومن يعرف أن مجلة (الرسالة) لا تملك تزويد الأسواق الأدبية بما تحتاج إليه تلك الأسواق؟ من يعرف أن التضامن الصحفي أصبح في حكم العدم، وأن من العسير أن تقول أية مجلة أن من حقها أن تعتمد على أريحية "نقيب الصحفيين" وعنده فيما سمعت أكبر كمية من الورق المخزون؟

إن مجلة مثل (الرسالة) تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكومة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلة يريحها كثيرًا أو قليلاً – من شيوع الأكاذيب والأراجيف، فهل من الإسراف أن نطالب الحكومة بإعانة أمثال هذه المجلة على الظفر بحاجتها من الورق، لتنهض الحجة على أن متاعب هذه الأيام لا تنسى الحكومة واجبها في رعاية الأذواق والعقول؟

سأنظر كيف يجيب وزير التموين إن تفضل بالجواب؟

خطر العلانية على الأدب الصحيح:

من الآفات التي تعوق الأدب في هذا العصر أن الكُتّاب والشعراء لا يصبرون على طي ما يكتبون وما ينظمون، وإنما يبادرون إلى النشر في الجرائد والمجلات ثم تكون النتيجة أن يضطروا إلى مراعاة الجماهير المختلفة في أكثر الشئون فيخلوا أدبهم من الصراحة ويغلب عليهم ما يشبه الرياء من أمراض الكتمان؟

أهم المصاعب التي يعانيها الأدب أنه صار من الوسائل الشريفة لكسب الرزق الحلال، ومن الخير للأدب أن صار كذلك ليعرف من لم يكن يعرف أن القلم نعمة من النعم السوابغ، أو أن خلق بأن يفتح لحامليه كرائم الآفاق.

ولكن من الشر للأدب أن صار كذلك، فقد أصبح أهله أسارى للمجتمع من قرب أو من بعده، وأصبح من المحتوم أن يراعوا طوائف من الرقباء بغض النظر عن الرقيب الذي تفرضه أيام الحرب لأنه رقيب لطيف، لا يثور إلا في أندر الأحايين، وأنا بهذا الكلام أترضاه ليتغافل عني تغافل الكرماء قصر الله عمر الحرب لأشفى غليلي من ذلك الرقيب اللطيف!!

الرقباء الحقيقيون هم القراء ومدارة القارئ مرض قديم في الصحافة المصرية وتلك المدارة هي علة العلل في جسم الأدب الحديث، ونحن نحارب هذه العلة بلا هوادة ولكن في حدود يغلب فيها الترفق ومعنى ذلك أننا شجعان جبناء، والعياذ بالذوق!

تلك الدنانير التي يجود بها الأدب على أصحابه ستحرم الأدب أعظم صفاته من الصراحة والصدق وقد تورثه عقابيل يعز منها الشفاء.

وهنالك علة أخطر وأفظع هي علة الأديب الموظف، فالعرف في الشرق لا يعترف بتعدد الشخصيات للرجل الواحد، ولا يسوغ في ذهن هذا العرف لبليد أن يكون للرجل شخصية حين يباشر عمله الرسمي في الديوان، وشخصيات حين يخلو إلى القلم، إن كان من رجال البيان، وأعجب العجب أن يراني هذا العرف نفسه بلا تأثم ولا تحرج فهو يشتهي أن تكون في الدنيا أقلام تحدثه عن سرائره المطوية وهو مع ذلك يكره أن يكون هذا الفضل من نصيب هذا الكاتب أو ذاك، وذلك عرف الجمهور الذي نداريه كارهين، ولم يبق من البلايا إلا أن نتقي شر من نخدمهم بنزاهة وإخلاص، وعند الله وحده الجزاء!

أقول هذا وقد مزقت خمسة أحاديث قبل هذا الحديث فقد تحدثت فيها عن أشياء لا يجوز نشرها في هذا الوقت وإن كانت في الصميم من دخائل النفس الإنسانية فقد يقول عاقل أو جاهل إننا في أيام لا تتسع للحديث عن سرائر النفوس كأن الضمير الأدبي يخضع لظرف

الزمان وظرف المكان، وكأن العبقرية الروحية تعرف الرسوم والحدود، وكأن مخاطر الحرب ومتاعب البؤس ومصاعب التموين تصد الروح الظامئ عن هواه في ورود ينابيع الوجود.

أين الأمة العربية؟

عند الأمم الأوروبية تقاليد أدبية تستأهل التسجيل فهنالك يؤمن الكاتب بأمتــه فيؤلــف كتابًا في مئات أو ألوف الصفحات لينشر بعد موته بأعوام طوال..

فما معنى ذلك؟

معناه بأن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبي في بلاده سيعيش ويعيش إلى أن ينصفه من زمانه ولو بعد حين.

ومعناه أن الكاتب يؤمن بالخلود.

ومعناه أن الكاتب يشعر بنائرة الحقد بعد أن يموت.

ومعناه أيضًا أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو في غيابة الفناء أو حصانة البقاء.

فأين الأمة العربية لنودعها دفائن صدورنا من أنباء هذا الزمان؟

وأين من يفتش في دفاترنا بعد الموت، ليرى ما سطرناه في أخلاق هذا الجيل؟

جهادنا في خدمة القلم أضيع من الضياع ولولا الإيمان بأننا نؤدي خدمة قومية لقصفنا القلم بلا رحمة ولا إشفاق... وعند الله وحده الجزاء..

خطاب:

هو خطاب جميل، ولكنه ليس في جمال الخطابات التي أتلقاها مــن الــشاعر أحمــد العجمي وإنما يرجع جماله إلى أنه يؤكد نظرية أخلاقية يكثر كلامي عنها في هذه الأحاديــث (وأنا لا أمل ولن أمل من نقد مسالك الناس في معاملة الأصدقاء).

هو إذًا خطاب من صديق لا يعرف أدب الصديق مع الصديق، فقد شاء هواه أن يتوهم أن الصداقة تبيحه أن يخاطبني بما لا أحب، كأن الصداقة تعفيه من رعاية الذوق، وكأن المودة تمنحه التحرر من قيود الآداب...

إن في الناس من يتهمني بمحاباة أصدقائي وإن فيهم من يقول إنــي أختلــق الفــرص لأتحدث عن أصدقائي بما يحبون في مقالاتي ومؤلفاتي وأقول إن تلك التهمة صحيحة وأن هذا القول حق: فأنا أتحيز لأصدقائي في السر والعلانية وأحب من يحبهم، وأعادي مــن يعــاديهم

وأنا أنكر على أهل هذا العصر أن يعيبوا تغاضي الصديق من عيوب الصديق بحجة الحرص على سلامة المجتمع من العيوب...

ومن يتعصب لأصدقائنا إذا لم نتعصب لهم؟ وإلى من يطمئنون إذا عرفوا أننا نتعقب ما يجترحون من هفوات؟

أكتب هذا وقد تلقيت من أحد أصدقائي في بغداد خطابًا يعيب عليّ فيه أن أثبت في كتاب "ملامح المجتمع العراقي" كلمة في الثناء على السيد عبد القادر الكيلاني فهل يعرف ذلك الصديق لأي غرض أثبت تلك الكلمة الطيبة لوجه الله – ولوجه الحق؟

أثبتها لأني علمت أن السيد عبد القادر الكيلاني سيحاكم أمام المحكمة العسكرية في بغداد بعد زمن قصير أو طويل، والعراق الذي عرفته وعرفه التاريخ لا يصدر حكمًا إلا بعد سماع أقوال الشهود العدول، وأنا شاهد عدل في قضية هذا الرجل ومن واجبي أن أسارع إلى كلمة الحق فيه، قبل أن يقف في ساحة القضاء، وكتمان الشهادة حياد يأباه قضاة بغداد.

وأقول بصراحة إني كنت أخشى أن يمنع كتاب "ملامح المجتمع العراقي" من دخول العراق لأني تحدثت فيه عن رجال تغير فيهم رأي العراقيين ثم ظهر أن العراق لا يرضيه أن يصادر كتابًا أملاه الصدق والإخلاص وتنزه مؤلفه عن المداجاة والرياء فهل أتهم الصديق اللائم الظالم بأن نسبه إلى العراق يحتاج إلى برهان؟

أعز الله العراق وحماه من جميع الأسواء...

الجيش المرابط في الميادين الفكرية:

هو جيش الأدباء الصابرين على مكارة الحياة الأدبية وهي حياة لا يصبر على مصاعبها الثقال إلا من تقهره الفطرة على الأنس بالأدب في جميع الأحوال.

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأمم لا يقاوم لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظًا من الروحانية الفكرية والأدبية لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب. فما بال قوم يزعمون أن اشتغال بعض المصريين بالشئون الفكرية والأدبية في هذه الأيام دليل على أن مصر لا تشعر شعورًا صحيحًا بالمتاعب الدولية؟

هذا كلام قيل في بعض المجلات وأضيف إليه أن فلانًا لا يعيش في زمانه لأنه نسى أن الدنيا في حرب.. فشغل نفسه بالحديث عن الفروق بين رجال الأدب ورجال القضاء..

وأقول للمرة الأولى بعد الألف أن الأديب المفكر ليس أجيرًا لزمانه وليس أجيرًا للوطن ولا للمجتمع فمن توهم أن الأديب المفكر مسئول أمام قوة غير قوة الضمير فهو من أكابر الجاهلين.

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية، نخدمه صادقين لا كاذبين ولا ننتظر منه أي جزاء لأن خدماتنا تجل عن الجزاء.

وماذا يملك الوطن حتى يكافئ المجاهدين من أرباب الأقلام؟ أيمنحهم الألقاب؟ أيمنحهم الأموال؟ وأي لقب أفخم من لقب الأديب؟ وأية ثروة أعظم من روح الأديب؟

استغفر الله وأعتذر إلى الوطن الغالي..

فجزاء الأديب من وطنه مضمون لأن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب.

ولا يجود بسرائره الروحية لغير الأديب ولأن الوطن يأبي أن يكون أساته من طبقة غير طبقة الأوفياء من الأدباء.

خُدام الوطن في غير ميدان الأدب يجزون بالألقاب والأموال لأن خدماتهم تحتاج إلى تشجيع من ألوان الجزاء أما خُدام الوطن في ميدان الأدب فهم أعز وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادي النكران والجحود.

وهل نخدم الوطن أو نحبه طائعين حتى نمن عليه بالخدمة والحب؟

هيهات...هيهات...

إنما نحب مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأخاذ.. ومفتونين بجمالها الفتان وهل في الدنيا أكرم أو أجمل من مصر؟

إن مصر لم تبخل بالعيش على من يحارب الأدب والبيان ولو شئت لقلت إن مصر تكرم أعداء الفكر والعقل تأسيًا بكرم الله، والكريم يفضل على الطفيليين بأغزر مما يفضل على المدعين.

الدنيا في حرب وقتال تدور رحاها حول الحدود المصرية ومجلة الرسالة لا تجد قوتها من الورق إلا بشق النفس.

وبالرغم من هذا وذاك فجذوة الفكر في اشتعال، وصوت مصر الأدبي في ارتفاع، والعاقبة للصابرين.

الآن عرفتك يا وطني... عرفتك عرفتك...

لا تستطيع الخطوب أن تخرس بلبلاً يغرد في رياضك الغنَّـاء ولا يملـك الـدهر أن يسكت صرير القلم في صحائفك البيضاء...

وطني

لو ظهرت أشراط الساعة نذيرًا بقيام القيامة، وخرست الألسنة وجفت الأقلام وشـغل المرء عن أخيه وزوجته وبنيه لرأيت من واجبي أن أرفع القلم لصوتك وفـضلت وأن أجعـل آيتك في البيان خاتمة آيات الوجود...

وطني

أنت أقدم وطن خط بالقلم.. وسطر مآسي الأرواح ومصابر القلوب فإليك في الـلأواء أهب سنان قلمي.

وطني

إن جهلت من أنا، فإني أعرف من أنت، والحياة صراع بين الجهل والعلـم واليـأس والرجاء، وسأعرف كيف أجزيك على فنائي فيك...

٣٠

انتخاب بطرك الأقباط(*):

البطريرك كلمة يونانية الأصل أو لاتينية الأصل. ومن الطريف أن نذكر أن كازيميرسكي يجعل البطريق (بالقاف) من اللاتينية ويجعل (البطرك) بالكاف (من اليونانية برغم تقارب مدلول الكلمتين، وأنا أترك تحقيق هذه المسألة لحضرة الباحث المفضال الأب انستاس فهو بها من الخبراء.

والذي يهمني هو أن أشرح لقراء الرسالة مشكلة تثور اليوم في البيئات القبطية وشرحها لا يخلو من نفع لأنها تنطوي على دقائق اجتماعية وأخلاقية، ولأن من الخير أن يعرف قراء المجلات الأسبوعية حقيقة ما ينشر بلا شرح في الجرائد اليومية، فإن وقع كلامي شيء من الخطأ فليتفضل بتصحيحه أحد المطلعين من أفاضل الأقباط..

وأواجه الغرض فأقول –الأصل أن ينتخب البطرك من الرهبان وقد سارت الأمور على هذا الأصل في جميع العصور الخوالي ثم انحرفت عند انتخاب البطر السابق فقد انتخب وهو مطران بانتخابه على ذلك الوصف ضاع أعظم حق من حقوق الرهبان.

والذين قرءوا ما نشره سعادة الأستاذ توفيق باشا دوس في جريدة لابورس يدركون أن المشكلة ستثار من جديد مشكلة المفاضلة بين الراهب والمطران في انتخاب الرئيس الديني للأقباط. فما حجج الفريقين؟

حجة القائلين بأن ينتخب البطرك من الرهبان تقوم على أساس متين وهو سلامة الانتخاب من المؤثرات المالية لأن الرهبان لا يملكون شيئًا على الإطلاق فمن المستحيل أن يشتروا أصوات الناخبين وإذًا يكون مرجع المفاضلة بين راهب وراهب هو الشهرة بالتقوى والورع والقنوت.

وحجة القائلين بأن ينتخب البطرك من المطارنة تقوم أيضًا على أساس، فهم يرون أن المطارنة قد يعرفون من شئون المجتمع ما لا يعرف الرهبان، بغض النظر عن تعرض

(*) العدد ٤٧٢ من مجلة الرسالة ٢٠ يوليه سنة ١٩٤٢.

الانتخاب لمؤثرات مالية أو اجتماعية وهنا يسأل القارئ عن المصادر التي تجعل المطارنة أغنياء بحيث يتفاضلون بالقوى المالية عند الانتخاب.

ونجيب بأن البلاد المصرية من الوجهة القبطية مقسمة إلى إبرشيات والإبرشية كلمة يونانية معناها الإقليم. ولكل إبرشية مطران، فيقال، مطران المنوفية ومطران البحيرة ومطران جرجا ومطران أسيوط إلى آخر التقاسيم.

ولكن كيف يغتني المطران؟

يغتني من العوائد وهي جمع عادة كما تجمع حاجة على حوائج ولك أن تجعل مفردها عائدة أن تناسيت العرف وهو من أهم الأسندة اللغوية فما تلك العوائد؟؟

حين يتلطف المطران بزيارة أحد البيوت يكون على أهل ذلك البيت أن يتلطفوا بتقديم العادة وهي مبلغ من المال يقل أو يكثر تبعًا لقدرة أهل البيت فيكون جنيهًا أو جنيهين وقد يصل إلى عشرين ومن هذه العوائد تتكون ثروة المطران وهي ثروة مستورة ولا تتعرض لرقيب ولا حسيب وإن كان المفهوم أنها تجمع لإسعاف المرضى ومواساة المحتاجين وهي بالفعل مصدر خير لأولئك وهؤلاء.

بعد الشرح نفهم كيف يخاف الراهب صولة المطران عند الانتخاب فالراهب يتقدم بالدين والمطران يتقدم بالدين والمال.. وقد سمعت أن للمال سلطانًا على أصوات الناخبين وسمعت أيضًا أنه يزيد الأتقياء جلالاً إلى جلال، وهذا وذاك يؤكد أن خوف الراهب من مناضلة المطران.

أسئلة وأجوبة:

س – هل من الحتم أن ينتخب الأقباط من هيئة دينية؟

جـ– يجوز انتخابه من هيئة مدنية إذا قلت الصلاحية لهذا المنصب في الهيئات الدينية لأن الغرض هو إقامة راع موصوف بالصدق ولو كان من المدنيين.

س– هل فكر أقباط مصر قبل اليوم في انتخاب بطرك من الهيئة المدنية؟

جـ– بعد موت البطرك الأسبق كان من بين المرشحين لهذا المنصب رجل مدني هو الأستاذ سابا حبشي ويقال أنه نال كثيرًا من الأصوات وهذا يدل على استعداد الأقباط لتشجيع العقلية المدنية في الحياة الدينية.

س– إذا توافرت الشروط في الرجل المدني فما الموجب لإيثار الرجل الديني؟

جـ- يرى الأقباط أن منصب البطرك هو مصدر الحياة للدير فمن الخبر أن تبقى لسكان الديارات آمال في السيطرة الروحية على الجمهور القبطي. وهي تعرض لزعزعة إن ضاع منهم ذلك المنصب المرموق.

س- ومال الخطر في زعزعة مركز الدير؟

جـ- الخطر عظيم لأن الدير هو أكبر الخصائص المسيحية وضعضعة الدير تضعضع هيبة الرهبان.

س- وما الموجب للإبقاء على الرهبانية؟

جـ- الرهبانية مفروضة على البطرك ولو انتخب من بين المدنيين.

س- ألا تظن أن رهبة المدين أرق وألطف؟

جـ- أقباط مصر يقولون بغير ذلك وهم يرون أن الرهبة لا توصف بالرقة ولا باللطف وإنما توصف بالتقشف والزهد والقنوت.

س- هل ترى أن البطرك القادم من سجن الدير يصلح لمقابلة الوزراء والسفراء؟

جـ- أقباط مصر لا يطالبون البطرك لمقابلة الوزراء والسفراء وإنما يطلبونه لمواساة اليتامى وهداية الأشقياء ولا يكون كذلك إلا حين تغلب عليه الهيئة الدينية.

س- وإذا أصلح الرجل المدني لتأدية هاتين الوظيفتين؟

جـ- يكون أصلح الرجال على شرط أن ينتخب من طريق لا تعترضه الشبهات.

س- وما الشبهات التي تعترض ذلك الطريق؟

جـ- هي الشبهات التي ألمحت إليها في مطلع هذا الحديث..

أما بعد فهذه صورة لما يعتلج في صدور الأقباط في مصر بعد موت البطرك وإنـي لأرجو أن يكتب لهم التوفيق في اختيار البطرك الجديد فهم مواطنون أعزاء واطمئنانهم إلى رياستهم الدينية يقع في أنفسنا موقع الجذل والارتياح..

وسبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يريد

بين الصنعة والطبع:

إذا كتبت خطابًا في المساء فاتركه بلا تظريف لتسهل مراجعته في الصباح، ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه فمن المؤكد أن للرأي موجات تختلف باختلاف الأوقات.

وقد تنكر في بياض بعض ما كتبت في سواد الليل، وأنت عن تموجات رأيك مسئول.

كذلك أصنع في خطاباتي ومقالاتي لهذا العهد ولم أكن أصنع ذلك من قبل وأن زمنًا يكف عن جموحي لهو ألام الأزمان.

ما كنت أعرف الفرق بين التسويد والتبييض، ولا كنت أستبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع، وكنت أعجب حين أسمع أن في الكتاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحياته لمواجهة القراء..

كان رأيي أن جري القلم في القرطاس هو جري الجواد في الميدان، وللقلم أن يتلفت قبل إصابة الهدف، إن كان للجواد أن يتلفت قبل بلوغ الغرض.. ومن المحال أن يتلفت الجواد حين ينطلق في ميدان السباق، أو ميدان القتال...

وهذا المذهب في رياضة القلم هو الذي عرضني لكثير من الجراح لأني لا أملك صده حين ينطلق، وهل يملك الجواد مجانبة العثرات حين ينطلق.

فما بال الأقدار تروضني بعد الجموح وتفرض علي أن أتلفت ذات اليمين وذات الشمال.

وأنا أجري في ميدان البيان.

وما هذا الذي أعاني من زماني؟

اليس من المزعج أن أصبح من مخاطر القلم في أمان لأن الظروف توجب أن يراعي قلمي أشياء لا يراعيها الجواد حين ينطلق في الميدان.

وما قيمة الحياة الأدبية إذا خلت من الماطر والمهالك والحتوف؟

أنا لا أعد الكاتب فارسًا إلا إذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءة إلى الاشتباك في حروب مع المعاني والآراء والأهواء.

فأين أنا مما أريد؟

وأين الفرص التي تسمح بأن أجرد من قلمي مشرطًا يرفع الغشاوة عن أعين أبناء الزمان؟

أنا اليوم أضمن السلامة من جرائر قلمي كارهًا غير طائع لأن النظام في هذه الأيام يصد الأقلام عن عنت الجموح والطغيان.

قلمي:

كيف مرت شهور بلا جراح يدميها سنانك؟

وكيف آمنت شرك ونجوت من طغيانك؟

كيف وكيف؟

بيني وبينك ميعاد وميثاق، والأحرار لا يخلفون المواعيد ولا ينقضون المواثيق.

موقعة العلمين:

العلمين اسم بقعة في الطريق بين الإسكندرية ومرسى مطروح وهي مثنى علم وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على علم أو علمين..

والذي يراجع أخبار الصيال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفة أطول من وقفتها في العلمين، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذه المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العلم المهاجم والعلم المدافع؟

اللهم حوالينا ولا علينا.

ألوان الموت(١٥):

لك أن تقول ألوان الموت، كما تقول ألوان الطعام، وأصناف الشراب، ومن حقك أن تختار لون الموت لأنه فن من الفنون، أو صنف من الصنوف، أو ضرب من الضروب، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء، وهل يفاضل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية تضيفه إلى أكابر الفنانين؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون.

قبيل الغروب هبت عاصفة عنيفة؛ عاصفة كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء جزاء بما صنعت من التغني بإشراف داري على الصحراء... وفي ثورة تلك

---

(15) اكتب هذه الكلمة إجابة لاقتراح الأستاذ إبراهيم والي.

العاصفة يترنم الهتاف فأسمع صوت المسيو دي كومنين(*) يدعوني إلى سهرة تدور فيها أكواب الحديث.. وهو لا يقدم لأضيافه غير أكواب الحديث لأن العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب.

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكت الطريق إلى ذلك الصديق وهو طريق لا يسلكه عابر في ليلة ظلماء إلا إذا كان على ميعاد مع حبيب..

كان المسيو دي كومنين في توحد الليث فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يفر الناس في بيوتهم فلا يسمر صديق مع صديق... ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفت أنني السمير الوحيد في ذلك المساء مع رجل صيغ روحه من لباب الضياء..

كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشوق إلى من يتنقل بين أشجارها من وقت إلى وقت ليشعرها بأن الوجود فيه أرواحًا لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الإسماع للأغاريد المطوية في ضمير الحفيف.. وله تصمت أشجار مصر عن التناجي بالحفيف في أي زمان؟

تحدثنا بجانب كل شجرة وسلمنا على كل مكان حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه بعد العمر الطويل العريض.

وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات فاستأذنت الانصراف بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث.

ويهتف هذا الصديق بالسائق ليوصلني بالسيارة إلى داري فلا يجده وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات فيعرف أنه يرابط في ناحية ثانية فيعلن أسفه على أن أسير وحد في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف.

ولكني أطمئنه فأقول: إني لا أعرف ولا أصدق أن في الدنيا رجلاً أقوى مني فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي إن كان في مصر الجديدة لصوص غير سراق القلوب، وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية في مصر الجديدة فما خوفي على جيبي وقد نجا قلبي؟

كان الطريق موحشًا أعنف الإيحاش، وكان الليل كأنه الليل.

طاخ، طاخ، طاخ!!!

(*) المسيو دو كومنين كان مديرًا لمدرسة الليسية الفرنسية المصرية بمصر الجديدة وكان رجلا فاضلا رحمة الله عليه.

والتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب ولم يسبقها نذير من صفارة أو بوق وأنظـــر فأرى لهيبها ودخانها يثوران فوق رأسي فأسرع بالدخول في بيت بلا أبواب.. بيت لا يــزال في مهد البناء. والمصريون لا يكفون عن البناء ولو ارتفعت تكاليفه إلى عشرات الأضعاف.

طق، طق، طق!!!

والتفت مرة ثانية فأرى الأخشاب التي تحمل السقف مهددة بالسقوط فأقفز إلى الفضاء وقد اخترت لون الموت، وللموت ألوان، رأيت الموت بشظية مدفع أفضل من الموت بـــسقوط تخشيبة، كما أن الموت بالبطنة أفضل من الموت بالجوع!

ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد فهو ضرب طيارة إنجليزية تطارد طيارة ألمانية، وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطاردة عند الكيلو رقم ٣ بطريق السويس، وكفى الله رأســـي شر الهلاك، وضاعت الفرصة على أعدائي فلم يحبروا المقالات الطوال في "مصرع الملاكـــم الأدبي" و"المستميت لا يموت" كما قال الحكماء!!

أفي هذه الأيام نقرأ ونكتب... ونحاسب هذا الشاعر ونصاول ذلك الكاتب؟!

نعم، ثم نعم... فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الصائب والقلم البليغ.

٣١

الوفاء للوطن الغالي(*):

عند هذه الكلمة ترنم الهتاف بعد انتصاف الليل... فمن الهاتف؟

هو أديب من قراء (الرسالة) أراد أن يستفهم عن معنى القول بأن المسيحية تؤرخ في كل أرض بميلاد المسيح، وتؤرخ في مصر بعذاب الشهداء.

وما كدت أنتهي من شرح هذا المعنى حتى هتف ذلك الأديب داعيًا أن يجعل الله الوطنية من عقائد الشباب في هذا الجيل.

فمن أنت أيها الفتى؟

وما قيمتك في نفسك وفي نفس إخوانك؟

هل تعرف وهل يعرفون أن اهتمامك بكلمة في تمجيد وطنك هي الشاهد على أنك مصري أصيل؟

أنا أدعو لك بطول العمر مع العافية، أيها الفتى الوطني، حرسك الله وحماك.

أسمع يا صديقي ثم أسمع.

في كل أرضي يكون فيها للشجر والزهر والنبات موسم يقظة وموسم خمود، إلا مصر، فاليقظة فيها دائمة في جميع الأحايين.

وفي كل أرض يوجد الماء في مكان ويعدم في مكانات إلا مصر، فالماء موجود في كل مكان، وأين من يصدق أن سكان الجبل... جبل المقطم يستقون الماء من بئر هناك؟

وفي كل بلد تجاهد الأرض في الزراعة موسمًا، ثم تستريح موسمين أو مواسم، إلا مصر فأرضها تصلح للإنبات مرتين في العام الواحد أو مرات.

وطنك يا صديقي، جميل وثمين ونفيس.

(*) مقال الدكتور زكي مبارك على صفحات مجلة الرسالة العدد ٤٧٣ بتاريخ ٢٧ يوليه ١٩٤٢.

كان وطنك محور التوازن الدولي قبل أن يعرف بنو آدم ماهية التوازن الدولي، وكان وطنك أول وطن تنبه إلى أن الله واحد بلا شريك، وفي سبيل هذا المعنى الدقيق جاهد أخناتون الشهيد.

وكان وطنك يا بني، أول وطن حارب السماء عن علم أو عن جهل.

وهل من القليل أن يكون الطغيان المصري أخطر طغيان حاربه القرآن؟

وطنك، يا صديقي، مذكور بمحاسنه ومساوئه في جميع البلاد، وستنسى أمم وشعوب ولا ينسى وطنك، لأنه معترك الرشد والغي، والهدى والضلال، في جميع الأجيال.

وطنك هو الوطن، وبلادك هي البلاد.

وطنك هو الميزان في القضاء، قضاء الأمس وقضاء اليوم، والنصر لمن يظفر بقبلك، فلمن قلبك؟

قلبك لوطنك، وعقلك لوطنك، وهواك لوطنك، فلا تشرك به أحدًا، ولا يخطر في بالك أن في الدنيا جمالاً أنضر من جماله، أو حتى أعز من حماه، وإن تناوشه الطامعون من كل جانب، فسيظل وطنك وحدك، ولن يكون لأعدائه غير العذاب في ميادين القتال، وبئس النصيب.

أدر المذياع إلى أية جهة من جهات الأرض، فستسمع اسم مصر... وسائل شركات البرق في أي بلد من البلاد، فستخبرك عن مبلغ اهتمامها بأخبار مصر... واستطلع المكنون من ضمائر الزعماء والملوك، فسترى أن مصر منية الجميع، وبين المنية والمنية صلات.

هل تعرف الحكمة التي تقول: رب أكلة منعت أكلات تلك الاكلة هي مصر، فما طمع فيها طامع إلا قصمت ظهره، ولا دخلها غاصب إلا كانت وبالاً عليه، ولو استفتيت التاريخ لأفتاك ثم أفتاك.

كنت أشارك المنفلوطي في السخرية من قول مصطفى كامل:

"لو لم أكن مصريًا لتمنيت أن أكون مصريًا".

واليوم أعرف أن المنفلوطي كان من المخطئين الخاطئين، وأن كلمة مصطفى كامل أصدق من الصدق وأصوب من الصواب ذلك بأن مصر غنية من جميع النواحي، وعظيمة في جميع الجوانب، وليس فيها شبرًا إلا وهو مبعث حياة أو مصدر تاريخ.

وما اقتتلت الأهواء، ولا اشتجرت الآراء، ولا اعتركت القلوب، ولا انتضلت العقــول بأقوى وأعنف وأخطر مما يثور فوق الأديم الصحيح لهذه البلاد.

يوم كان السلطان لأهل الشرق كانت مصر أول أمة تقاوم طغيان الشرق.

وحين كان السلطان لأهل الغرب كانت مصر أول أمة تحارب طغيان الغرب.

وهل ينسى التاريخ أن عزة مصر هي التي جعلت واليها أول وال يخالف أمر الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهل ينسى التاريخ أن السلطنة العثمانية في أيام عزها المأثور عجزت عــن مقاومـــة العزة المصرية؟

نحن برعاية الله وكرامة مصر أعزاء، أعزاء، وأعزاء

النور أسرع من الضجيج:

على حين غفلة أضاءت آفاق مصر الجديدة، وأضاءت ثم أضاءت فقلت لصاحبي:

في هذه اللحظة أطلقت ثلاثة مدافع فقال ومن أين عرفت؟

فقلت: من هذه الومضات: فقال: ولكني لم أسمع ضجيج المدافع، فقلت: ستسمع بعــد لحظات ستؤمن بأن النور يسبق الضجيج.

فيا ناشدي الشهرة باسم الأدب تذكروا ثم تذكروا.

تذكروا أن من يواجه الحياة بلا قلب وبلا روح وبلا نور، فلن يكون له من مجد الأدب وشرف الحياة نصيب ولا خلاق.

النور أسرع من الضجيج لأنه أرق وألطف، وأقوى وأغلب فاستعينوا بحرارة أرواحكم قبل أن تستعينوا بجهارة أصواتكم، واعلموا أن النور وليد النار، وأن جوهر القبس المتألق فيه أصالة حيوية لا يدرك مداها غير أرباب القلوب.

ومن أجل هذا كان الاضطهاد أعجز عن أن يخمد حيوية الأديب لأن الأدب نور ولأن الاضطهاد ضجيج والنور أقوى وأسرع من الضجيج.

ثم ماذا؟

إن وضعت أصابعك في أذنيك، فقد حجبت عن سمعك ما تحب وما لا تحب، من الأصوات، وإن أغمضت عينيك ثم عصبتها بمنديل سميك فستحس النور عيناك برغم ذلك الحجاب، أو برغم ذينك الحجابين، لأن النور أقوى وأسرع من الضجيج.

فيا أعداء الأدب متى تعلقون؟

سنضيء قبوركم إن اعتصمتم منا بظلمات القبور، لأن من واجب النور أن يمزق الظلمات وسوف تعلمون.

أسرار وسرائر:

في الحوار الذي دار بين الأستاذ محمود البشبيشي وابنه النجيب حسين مرت إشارة لطيفة على كاتب يجمجم ولا يفصح وهو كاتب "من الكتاب" كان حسين -حرسه الله- كتب إليه يدعوه إلى ترك الإيماء والتلميح فيما يتناول من المعاني والأغراض.

وأتولى الإجابة عن ذلك الكاتب فأقول:

لقد نشأنا -يابني- في عصر من عصور الانقلاب، وفي مثل هذا العصر تكثر الأكاذيب والأراجيف ويقل الفهم لدقائق المعاني، فهل يلام الكاتب إذا فر من التصريح إلى التلميح؟

قد تقول: إن التلميح أخطر من التصريح، لأنه يفتح أمام المغرضين أبواب التفسير الخاطئ والتأويل المريب.

وأقول: إني أحب أن يظلمني قومي عن شبهة لا عن يقين، فأنا أساور أهدافي بأسلوب يعفي ظالمي من ربقة الظلم المبين، وإلا فمن يتوهم أن أغراضي تخفي على قرائي وهم من أولى الألباب؟

بين مصر والعراق:

في هذا الأسبوع آنست بلقاء جمهور من الأساتذة المنتدبين للتدريس في العراق وهم جميعًا ألسنة تلهج بالثناء على الأريحية العراقية والذكاء العراقي، ومن كلام الدكتور راجح والدكتور غالي والأستاذ قنديل عرفت أن دار المعلمين العالية بلغت من التفوق مبلغًا يشرح صدور المؤمنين بعظمة العقلية العربية في العراق وطن الأهل والأحباب.

ولكني تأذيت حين عرفت أن بعض المدرسين لا يريدون أن يعودوا لخدمة العلم في الوطن الشقيق بحجة الخوف من تقلب الظروف، أو بحجة الشوق إلى الاستقرار في وطنهم الأول، وما دروا أن الاستقرار ضرب من ضروب الموت.

لو قلت الصدق كل الصدق لصرحت بأن من يريدون قطع صلتهم العلمية بالعراق ليسوا إلا شبانًا تعوزهم القدرة على فهم السرائر من الروحانية العراقية، فهم يعيشون هناك عيش الغرباء بالفكر والروح، وفي بلاد قام كيانها على الفكر والروح.

في هؤلاء من يعتذر بأن العراق مهدد بالغلاء في هذه الأيام، فهل يكون فيهم من يدرك أن في ثمرة أو ثمرتين كفاية لمن يدعوه الواجب للقيام بخدمة علمية؟

وفي هؤلاء من يقول: إن مصر تنساه حين تطول إقامته بالعراق فلا ينال حظه من الترقيات.

وأقول إن هذا لن يقع بعد تنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق.

كيف يصبر من عرف العراق على فراق العراق؟

أنا أخشى أن يكون مفارقوه لم يعرفوه، وهل يغيب عني أن في العراقيين أنفسهم من يجهل المحاسن الأصلية لوطنه الجميل؟

لقد عجب قوم من وفائي للعراق، وظنوني أستهديه منحة من المنح الذواهب، ثم انقضى عجبهم حين عرفوا أن وفائي للعراق وفاء القلب لا وفاء الجيب، ولكن عجبهم سيبعث من جديد حين يعرفون أن في عنقي ديونًا للعراق، وهي أكرم الأطواق، فما تلك الديون؟

رأيت العراق يكرم مصر في جميع مذاهبها العلمية والأدبية والتشريعية ورأيته يفرح حين نفرح، ويلتاع حين نلتاع، ورأيت أنه بحق وصدق أخ شقيق.

مصر مسطورة الملامح فوق كل مكان في العراق فما جزاء من يحبوننا هذا الحب؟ وما جزاء من يعرفون من أقدارنا الأدبية أكثر مما نعرف؟

تلك معاني يجهلها من يبحث عن وظيفة توزن قيمتها بالدراهم والدنانير وهي معان يعرفها من يؤمن بأن الفناء في سبيل العروبة باب من أبواب الخلود.

٣٢

عواطف عربية(*):

في خطاب من حضرة الأستاذ سعيد العيسى إشارة صريحة إلى أننا لا نهتم بالحديث عن الحياة الأدبية في "فلسطين" وفي خطاب من حضرة الأستاذ رشاد المغربي عبارة تقول: إن مجلة "الرسالة" لم تنوه بروايته الجميلة "خطيئة الشيخ" وفي مقال حضرة الأستاذ عباس العقاد أن جماعة من الليبيين يأخذون على مصر سكوتها عن الأدب في وطنهم المحبوب.

وهذا العتاب ليس بجديد، وهو يعاد من يوم إلى يوم، وما دخل أديب مصري بلدًا عربيًا إلا سمع ألوانًا من هذا العتاب، فهل أستطيع الجهر بكلمة الحق مرة واحدة، ليعرف الإخوان هناك أن عليهم تبعات فيما ينسب إلينا من تقصير وإهمال؟

ولشرح هذه الكلمة أقول:

أعلنت مجلة "الرسالة" أنها ستصدر أعدادًا خاصة بالبلاد العربية وأعلنت في الوقت نفسه أنها تحب أن يكون المحصول الأدبي لتلك الأعداد من أقلام كبار الباحثين بتلك البلاد... وأنها ستبدأ بالعراق.

فما الذي ينتظر لتحقيق هذا المشروع النافع؟

أتستطيع "الرسالة" أيفاد مندوبين إلى كل بلد لتحقيق هذا الغرض على أكمل الوجوه؟

الجواب عند "خزينة الرسالة" إن كانت تستطيع، ولعلها تستطيع لأنوب عنها في زيارة بغداد أو دمشق أو بيروت بضعة أسابيع.

فلم يبق إلا أن تقترح خطة سديدة لتنفيذ الاقتراح بلا غناء والخطة سهلة جدًا، فماذا نصنع إذا أردنا إصدار عدد خاص بالسودان؟

يقوم "نادي الخريجين" بواجبه: فيجمع المواد بعناية رجاله، ثم يرسلها إلى مجلة "ألرسالة" قبل انعقاد مؤتمرهم السنوي بأكثر من أسبوعين، وعندئذ يسر مجلة "الرسالة" أن تشترك اشتراكًا فعليًا في ذلك المهرجان.

(*) العدد ٤٧٨ من مجلة الرسالة ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٢.

وماذا نصنع إذا أردنا عدد خاص بالعراق؟

يقوم "نادي القلم العراقي بواجبه: فيجمع المواد بعناية رجاله ثم يرسلها إلى مجلة "الرسالة" في الوقت الذي يريد، فيكون هو المسئول أمام قراء "الرسالة" في "العراق" وهو بحمل هذه المسئولية خليق.

وفي العدد الخاص بسوريا، يقوم رجال المجمع العلمي بواجبهم: فيصورون ما في وطنهم من أفكار وأراء وآمال...

وفي العدد الخاص بلبنان يلقى العبء على كاهل إحدى الجمعيات الأدبية هناك. وكذلك يقال في سائر البلاد.

تلك هي الخطة السديدة، ومن توهم أن مجلة "الرسالة" تصدر أعدادًا خاصة بلا اطمئنان إلى هويات تحمل المسئولية، فهو يهيم في بيداء الخيال.

وللأستاذ سعد العيسى أن يتأمل في هذه الكلمة إن كان يحب أن نؤدي خدمة صحيحة لوطنه العزيز فلسطين.

العدد الخاص بالسودان:

أنا أرجو من أخي الأستاذ الزيات أن يتفضل فيترك لي حرية التصرف في إعداد العدد الخاص بالسودان، لأستطيع القول بأني صدقت فيما وعدت به إخواني هناك... فإن سمح فأنا أرجو نادي الخريجين أن يشير على أعضائه بدرس الموضوعات الآتية:

١- تحديد التاريخ الذي أشرق فيه الإسلام بآفاق السودان.

٢- المذاهب الفقهية الصوفية بالسودان.

٣- التيارات الفكرية الحديثة في الحواضر السودانية.

٤- اللهجات العربية في السودان.

٥- قيمة السودان من الوجهة الاقتصادية.

٦- الأساطير السودانية.

٧- منزلة السودان في تاريخ الأدب العربي.

٨- المعاهد المصرية في السودان.

٩- شعراء السودان وكتابه وخطباؤه في القديم والجديد.

١٠- مبلغ انتفاع الطلبة السودانيين بالحياة في المدارس المصرية.

١١- المكتبات العربية والخصوصية بالسودان.

١٢- الأغاني الشعبية ولدلالتها على العواطف السودانية.

١٣- تأثير الأدب المصري الحديث في الجيل الجديد بالسودان.

١٤- آراء السودانيين في الروابط العربية والإسلامية.

١٥- الفكاهة السودانية في الأشعار والأقاصيص.

تلك خمسة عشر موضوعًا تستحق اهتمام نادي الخريجين، وأنا لا أفرض وإنما أقترح فقد تكون لديهم موضوعات أعظم من هذه الموضوعات والمهم هو المبادرة إلى تحقيق الاقتراح بإرسال المواد قبل انتهاء الأسبوع الثاني من شهر رمضان.

إن وصلنا إلى إصدار عدد عن السودان بهذا الروح فلن يقول السودان أن مصر تنساه أو تتناساه، ولن يقول أبناؤه عادلين أو ظالمين أن أشقاءهم في مصر لا يحفظون عهد الإخاء.

وإلى الفتيان من أعضاء نادي الخريجين أعهد تحقيق هذا الأمل الجميل أراني الله وجوههم بخير وعافية، إنه قريب مجيب.

مطلع القصيدة:

كان نقاد الأدب من العرب ينصون على مطالع القصائد، كأن بنوها بهذا المطلع:

متى كانت لنا "سينا" حدودًا

وأنا أسال السؤال نفسه فأقول:

متى كانت لنا "سينا" حدودًا

ومتى ترفع الحواجز الجمركية بين الأمم العربية والإسلامية؟

إلى بعض الناس:

إن شقاءكم بأنفسكم طال وطال ثم طال، ولن نملك إبراءكم من ذلك الشقاء لأنه أخطر من أن يطب له أطباء النفوس والقلوب.

لن تنفعكم الدسائس في كثير ولا قليل، فقد كانت الدسائس ولا تزال أسلحة الضعفاء.

استعينوا بالقوة مرة واحدة، وحاربوا الحق بسلاح الظلم، لا بسلاح الإسفاف، فقد يعفو الله عن الظالمين الأقوياء، ولا يعفو عن الآثمين الضعفاء.

لن أفرط في تعليمكم أصول الأخلاق، فكونوا ظالمين، ولا تكونوا دساسين، لأن الظلم قوة والدسيسة ضعف، وباطل الأقوياء أشرف من حق الضعفاء.

وطني وبلادي:

إلى الفتيين "م.ن.ج" و"ع.ع" وما اكتفيت بالتلميح إلا لأنني لم استأذنهم في النص على أسمهما بالتصريح –على هذين الفتيين العظيمين أوجه القول.

إن بلادنا لن تضام أبدًا، ولن تكون لغير أهلها، ولو تألبت عليها جيوش البر والبحر والهواء.

بلادنا باقية باقية، في عزة وعافية، ولن تنال منها المطامع الدولية إلا بقدر من ينال النسيم المعلول من قمم الجبال.

بلادنا طوقت جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية ولن يتنفس بلد في شرق أو غرب إلا وهو مدين لمصر بديون ثقال.

لا تنسوا أن بلادكم دانت الفكر والعقل والروح ألوفا من السنين ولا تنسوا أن أكبر مجد يظفر به الأوروبي هو أن يحل رمزًا من رموز آبائكم الأولين.

كان الخط المصري القديم إشارات من ملامح الطير والحيوان، فما تفسير ذلك؟

يقول الجاهلون أنه دليل على الطفولة التاريخية.

وأقول إنه دليل على العبقرية المصرية، لأنه يجعل كل حرف كائنًا حيًا من طير أو حيوان، والحروف خلائق حية عند من يعقلون، ثم ماذا؟

ثم أذكر أن بلادنا هي التي صدت المغول الوافدين من الشرق، وهي التي صدت الصليبيين الوافدين من الغرب، فكنا الميزان لأبناء ذلك الزمان.

ومن نحن اليوم؟

برغم قسوة الظروف قد استطعنا أن نقول نحن، وأن نفي بالعهد، لأن مصر لا تكذب ولا تخون.

لن تضام مصر أبدًا، لأنها وطن الرجال وأول وطن غلب الدهر الخوان.

أحبك يا وطني، أحبك يا بلادي: حبًا لا ينتظر أي جزاء، لأنه أعظم من أي جزاء.

٣٣

تخطيط القاهرة(*):

أيام هذا الصيف آذتني أعنف الإيذاء، بسبب صعوبة المواصلات، الصعوبة التي خلقها الازدحام في الترام والأتوبيس في أكثر الأوقات ولا سيما وقت انصراف الموظفين، فكنت أقطع الطريق على قدمي في حر الظهيرة من وزارة المعارف إلى باب الحديد وكانت الظروف قضت بأن تكون محطة المترو في باب الحديد بضعة أسابيع.

وقد غنمت من هذه الظروف غنيمتين:

الغنيمة الأولى: هي لفح الوجه بوهج الشمس فما رآني صديق إلا توهم أني قضيت على شاطئ الإسكندرية شهرًا أو شهرين، وليت الأمر كان كذلك، فقد سمعت بعد فوات الوقت أن شواطئ الإسكندرية كانت فتنة العيون والقلوب في هذا الصيف.

أما الغنيمة الثانية: فهي أغرب وأنفع لأنها هدتني إلى أفكار تستحق التسجيل، أفكار متصلة بتخطيط القاهرة، عاصمة الشرق بلا نزاع وأعظم مدينة دينها الإسلام ولغتها العربية.

هداني السير على قدمي في حر الظهيرة إلى القول بأن القاهرة لم تجد مهندسين يراعون أصول الانسجام والتنسيق.

وقبل أن أفضل هذا القول، أرجو من زار القاهرة أن يتمثل شارع محمد علي فهو الشارع الوحيد الذي روعيت فيه أصول الانسجام والتنسيق، بحيث يجوز لك بعد مراعاة الأدب مع الله أن تقول إنه بين شوارع القاهرة واحد بلا شريك.

تقف على رأس هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء، "ميدان الملكة فريدة" ثم تنظر فتروعك منارة جامع السلطان حسين ومنارة جامع الرفاعي، مع أن بينك وبين هاتين المنارتين مسافات طويلة.

فما اسم المهندس الذي خط هذا الشارع منذ أعوام طوال:

وأين قبره لننثر عليه زهرات الأقحوان المفطورة على التنسيق؟

(*) العدد ٤٨٠ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٤٢.

وفي ميدان العتبة الخضراء يبدأ شارع حديث العهد، شارع أنشأناه بعد أن كثر عنـــدنا المهندسون وهو شارع الأزهر الشريف.

وهنا أرجو أيضًا من زار القاهرة أن يتمثل واجهة الأزهر وما يصاحبها من منـــارات رشيقات.. ليعرف كيف كان من الجناية عند تخطيط القاهرة أن نحجب واجهة الأزهر عمـــن يقف متطلعًا إلى محاسن القاهرة في ميدان العتبة الخضراء.

وما يقال في شارع الأزهر يقال في شارع الأمير فاروق، فقد كان يجب أن يستقيم هذا الشارع بحيث تمكن رؤية ميدان فاروق، وعلى ناصيته سبيل أم عباس، لمن ينظر فيـــه مـــن ميدان العتبة الخضراء.

فما اسم المهندس الذي خط هذين الشارعين قبل بضع سنين لنغري به أحد المستجوبين في مجلس النواب:

أنا لا أدعو إلى أن تكون جميع الشوارع بريئة من الانحراف إلـــى اليمـــين أو إلـــى الشمال، فذلك تكليف بما لا يطاق، وإنما أدعو إلى مراعاة الذوق في إبراز محاسن القاهرة عند التخطيط، ولتوضيح هذه الفكرة أقول:

أجمل واجهة في قصور القاهرة هي واجهة قصر عابدين، فهل يرى تلك الواجهة من يمر بميدان الإسماعيلية، مع أنه منها قريب؟

ومن الواجهات الجميلة واجهة محطة باب الحديد، فهل يراها من يقـــف فـــي ميـــدان إبراهيم باشا؟

وعلى من يرتاب في صحة القول بأن مدينة القاهرة لا تجد من يفكر فـــي الانـــسجام والتنسيق، على من يرتاب في صحة هذا القول أن يزور حي الأزهر في أحد الأيـــام ليـــرى العجب العجاب في تعمد الخروج عن الذوق. فهنالك قامت بناية عالية في العهد الحديث، بعـــد اكتمال الزمان، وبعد الشعور بقيمة التنسيق في التخطيط، فكانت حجابًا كثيفًـــا يفـــصل بـــين واجهتين جميلتين:

واجهة الجامع الأزهر وواجهة جامع الحسين:

إن الذوق من أطيب الأرزاق، فهل يتفضل الله فيزيد مهندسي القاهرة ذوقًا إلى ذوق؟

فكاهات هندسية:

حين زرت البصرة في سنة ١٩٣٨ تلطف معالي السيد تحسين علي، فمضى بي في سيارته لنزهة جميلة تخترق غابة النخيل في طريق اسمه "طريق أبي الخصيب" وهو طريق كثير الاعوجاج بلا موجب معقول، فلما سألت معاليه عن سبب ذلك الاعوجاج ابتسم وقال: "كان المهندس الذي شق هذا الطريق يحب المال بعض الحب، فأعوج الطريق بعض الاعوجاج "فأدركت أن أصحاب الأملاك كانوا أصحاب الرأي في تخطيط ذلك الطريق.

وفي السنة الماضية زرت الدير المحرق فرأي في الذهاب إليه طريقًا كثير الاعوجاج بلا موجب معقول، فلما سألت عن سبب ذلك الاعوجاج كان الجواب أن المهندس الذي شق هذا الطريق عُرف بشراهة الجيب فكان يراعي خواطر أصحاب الأملاك.

فليحذر من يشق طريقًا معوجًا في أية بقعة بعد اليوم، فقد يتهم بأنه من سلالة المهندس الذي شق طريق الدير المحرق أو المهندس الذي شق طريق أبي الخصيب.

النور القدير على تمزيق الظلمات:

هو نور الله، النور الغلاب القهار الذي لا يصده حجاب ولو كان في كثافة أنفس المحجوبين عن كروم واجب الوجود وما تمر بنا لحظة من لحظات الكدر أو الغيظ إلا كانت شاهدًا على إن إيماننا بالله إيمان مدخول.

ولا تمر بنا لمحة نعمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك إلا كانت دليلاً على أن ثقتنا بالله مزعزعة الأركان.

فما بال قوم تطير نفوسهم شعاعًا حين يهددون بغضب بعض الخلائق؟ وما بال قوم لا يستطيعون النوم إلا حين يطمئنون إلى أنهم تحت حماية بعض الخلائق؟

لا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله، فإنه عز شأنه لا يسبغ نعمته الصحيحة إلا على المؤمنين، والمؤمن لا يخاف الفانيين.

وماذا يملك بنو آدم حتى يرجو من يرجو، أو يخاف من يخاف؟

الأمر كله لله ولا أمر لمخلوق، وإن زين الوهم للمخاليق أنهم أقوياء.

جرب الثقة بالله، إن كنت لم تجربها من قبل، فسرى أن الأنس بالله يرفع عنك آصار الثقة بالناس، وما اعتمد أحد على خلق الله إلا باء بالخذلان.

كن رجلاً مؤمناً في جميع أحوالك، والرجل المؤمن ينظر إلى الناس كما ينظر الأسد إلى النمال.

تواضع لله وحده، لا تتواضع للناس، فهم بحكم فنائهم أذلاء.

تواضع لله أدبًا لا خوفًا، فهو يجب أن يراك في أخلاق السادة لا أخلاق العبيد.

لا تعامل بالرفق واللطف إلا أهل اللطف والرفق، ثم امنح ظلمك وعدوانك لمن تحدثهم النفوس الأواثم بالتطاول عليك.

نزه نفسك عن الكفر بالله، ومن صور الكفر الموبق أن تقيم وزنًا لمخلوق لا يؤمن بفكرة العدل ولا يجعل هواه من هواك في الاحتكام إلى صاحب العزة والجبروت.

إن زمانك قد أصيب باختلال الموازين، ولم يبق من أهله من تحدثك ملامح وجهه بالخوف من الظلم والكذب والافتراء، فكن أوحد زمانك في الفرار من تلك الأخلاق السود، ولا عليك أن نعيش عيش الفقراء فما يغتني في أزمان الانحطاط غير التجار السفهاء.

وما أوصيك إلا بما أوصيت به نفيس، فما يستطيع ابن أنثى أن يقول إني استعنت به في جليل من الأمر أو دقيق. ولا خطر في بال مخلوق أن ينال ودادي بغير الصدق في الوداد.

دنياكم سخيفة يا بني آدم، وأنتم من أسخف، وسجان من تجاوز عنها وعنكم فأمدها وأمدكم بالشمس والقمر والماء والهواء.

لست منكم، ولستم مني، فبيني وبين الله عهد وثيق، وما شكواي إلا من متاعب الغنى والثراء؟

آمنت بالله، آمنت، وإني لأكاد أصافحه بيمناي ومن أنت يا ربي، أجبني، فإنني رأيتك بين الحسن والزهر والماء.

كتب إلى طالب لا أسميه "إشفاقا عليه من بعض المصاعب" كلمة يقول فيها إن المحصول الأدبي في مجلة الرسالة قد استهواه فنقله من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم اللغة العربية، فماذا أقول في تتوجيه ذلك الطالب الأديب؟

أقول إن قسم اللغة الإنجليزية مطالبه أسهل من مطالب قسم اللغة العربية وإليه البيان:

المتخرجون من قسم اللغة الإنجليزية لا يطالبون بالتفوق الذي يسمح بأن يكونوا من شراح الأدب الإنجليزي في مناحيه العقلية والاجتماعية ولا يراد منهم إلا أن يكونوا أساتذة صالحين للتدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية.

أما المتخرجون في قسم اللغة العربية فهم مطالبون بالتفوق المطلق، التفوق الذي يسمح بأن يكونوا من أئمة الأدب العربي في هذا الجيل.

يضاف إلى ذلك أن كلية الآداب شحيحة بالرجال فمنذ إنشائها في سنة ١٩٠٨ إلى اليوم لم يبرز من أبنائها غير آحاد، لأن المثل الأعلى في تتصور كلية الآداب لا يسمح بنبوغ العشرات والمئات. ومن حسن الحظ أنها كانت –كذلك ليظل النبوغ الأدبي بعيدًا من أوضار النسبة العددية ولتظل كلية الآداب كلية آداب.

والحياة الجامعية في مصر تؤرخ بنشأة هذه الكلية فهي النواة الصحيحة للجامعة المصرية وهي الفيصل بين عهدين:

عهد المحاكاة وعهد الإبداع:

وكان قسم اللغة العربية أساس كلية الآداب، كما كانت كلية الآداب أساس الجامعة المصرية وهي عصارة الأماني الوطنية فقد أنشئت لأسباب ما أظنها تخفي عليك إلا أن يجب العلم بالتاريخ القديم مع جواز الجهل بالتاريخ الحديث.

وكليتنا الغالية موسومة بقوة الروح فما ذكرت الحياة الجامعية إلا كانت أول ما يخطر في البال ولا جاز الاضطهاد إلا على أبنائها الأوفياء، لأنهم سبقوا زمنهم بأزمان.

فإن وجدت من قوة العزيزة ما يساعد على أن تكون من أساطين قسم اللغة العربية فاقبل غير هياب، حرسك الله ورعاك.

٣٤

هلال شعبان وهلال رمضان(*):

في الأشعار الشعبية التي تقص أخبار الزناتي خليفة وأبي زيد الهلالي يوصف الوجه الجميل بأنه كهلال شعبان، وقد التفتت إلى هذا المعنى مرات كثيرة فرأيت هلال شعبان يبدو غاية في الإشراق، بصورة تميزه عن سائر الشهور، وتجعله شعبان بلا جدال، فهل يتفضل الفلكيون بتعليل هذه الظاهرة الطبيعية، وقد أدركت الجماهير آثارها منذ أزمان، ودونوها في أشعارهم الشعبية بدون تفكير في علتها الأساسية.

أما هلال رمضان فهو في أغلب أحواله نحيل وينبني على نحوله أن تراه عيون، ويغم على عيون بحيث يجوز أن يصوم المصريون في يوم الأحد، ويصوم العراقيون في يوم الاثنين، والتونسيون في يوم الثلاثاء كالذي وقع منذ بضع سنين.

فما الحكمة في تحول هلال رمضان؟

إن راعينا الحساب الذي يجريه الفلكيون فالهلال يولد في وقت واحد، بلا تفريق بين هذا القطر أو ذاك، وإن راعينا "الرؤية" فهي تختلف في القطر الواحد وقد صمنا مرة ثم أفطرنا ثم صمنا وكان لذلك حديث بين الشيخ سليم البشري والسلطان حسين، وهذا شاهد على تحول هلال رمضان.

وفي حل هذه المشكلة رأى قوم أن نعتمد على الحساب لا على الرؤية لنتقي شر الخلاف حول بداية الصوم، وهو في بعض مظاهره من المضحكات.

ولكن الحساب في هذه السنة كان محرجًا، فهو يقول بأن هلال رمضان يمكث دقيقة واحدة بعد الغروب ثم يغيب؟

أمن أجل دقيقة واحدة نقطع ما بين الفجر والمغرب صائمين بدون تكليف من الشرع الشريف؟

لا، الرؤية هي الأساس، وهي أيضًا الشاهد على أن الإسلام يبني قواعده على أصول لا تحتمل الشك والافتراء، أصول يستوي في إدراكها العوام والخواص.

(*) الرسالة العدد ٤٨١ من مجلة الرسالة تاريخ شهر سبتمبر سنة ١٩٤٢.

وهنا تظهر الحكمة الحقيقية لاشتراط الرؤية في ثبوت هلال رمضان.

تقليد جميل:

قالت إحدى الجرائد إن الحكمة الشرعية جرت على العادة التقليدية في ثبوت الرؤيا فصنعت كيت وكيت.

وأقول إن هذا تقليد جميل ويعز على أن تضعف مظاهره من عام إلى عام، فلا ترى "موكب الرؤية" في الفخامة التي شهدها الآباء والأجداد.

هذا الموكب هو "التهيؤ" لاستقبال شهر الصيام، وهذا التهيؤ هو ذاته قربان من أعظم القرابين، هو يعد النفوس لروحانية هذا الشهر الجليل.

أتذكرون اختلاف الفقهاء في صحة الصيام لمن فات أن ينوي الصيام؟

هذا دليل على أن النية هي الأساس في جميع الأعمال الأخلاقية، والنية رياضة تقوى بها عضلات النفوس، والنفوس كالأجسام لها جوارح وعضلات وأعضاء ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

آداب إسلامية:

إن من يقرأ الفقه الإسلامي يعجب من ترفق الإسلام بالصائمين، فهو لا يفرض الصوم على من يتأذى بالصوم لسبب من الأسباب، ثم يفتح له باب التحرر من تلك الفريضة بتعويض خفيف تقدر عليه أكثر الجيوب وهو الجود بصدقات ينتفع بها بعض الفقراء والمساكين.

فإن عجزت عن الصوم فتصدق وأنا أؤمن بأن الله يجزي المتصدقين أضعاف ما يجزي الصائمين لأن الجود بالمال يحتاج إلى عزيمة دونها عزيمة الإمساك عن الطعام والشراب.

ومع هذا فلا يجوز لك الخروج عن آداب الصيام بحجة الاعتصام بالصدقات فما يخرج على آداب الصيام غير السفهاء.

وإن استطعت أن تصوم وتصدق، فتلك غاية لا يتسامى إليها غير عظماء المؤمنين.

اللهم هو أن تكون لك نية في جميع أفعالك، فتصوم عن نية، وتفطر عن نية المهم هو أن تحفظ أدبك مع الله الذي ترفق بك، فلم يكلفك ما لا تطيق، كن رجلاً في إيمانك ليجعلك الله أحد عظماء الرجال.

مع الأستاذ علوبة باشا:

الحديث ذو شجون، كما يقال، فليس من الإسراف أن استطرد فأقول:

منذ عامين لقيت الأستاذ الجليل محمد علي علوبة باشا بقصر عابدين وفي صحبته الأستاذ أنطون "بك" الجميل، فدعاني برفق ليسر إلى إحدى نصائحه الغالية، فاشترطت أن يسمع الأستاذ الجميل خشية أن يستوحش من أبعاده عن حديث هو منه قريب:

- علوبة "باشا"– أنا أقرأ مقالاتك بإعجاب.
- زكي مبارك – يشرفني أن يكون معالي الـ"الباشا" من قرائي.
- ولكن...
- من حق القراء أن يعلقوا على مقالاتي بألف "لكن" لأني أكتب في كل يوم، ولا يسلم المكثار من العثار، فما "لكن" عندك يا معالي "الباشا"؟
- لكني أراك كثير الشكاية من زمانك.
- هذا صحيح، "ولكن" هل يذكر "الباشا" أنه كان وزير المعارف؟
- أذكر ذلك، فماذا تريد أن تقول؟

أريد أن أقول: إني لم أكن أملك الدخول عليك بدون استئذان، ولهذا صح نيتي على أن لا أرى وجه وزير إلا أن دعاني.

- أنت مصرف في سوء الظن بالوزراء، فلهم شواغل لا تخفى عليك.
- هذا الاعتذار مقبول، إذا كان الزائر رجلاً من أصحاب المطالب، وأنا رجل نفضت يدي من الدنيا ومن الناس، فما حجة الوزير الذي لا يرى أن أراه بدون استئذان؟
- الوزراء مشاغيل.

والأديب غير مشغول، يا معالي "الباشا"؟ إن للأديب شواغل وجدانية وروحية وعقلية وفلسفية لا تخطر لبني آدم في بال، وهو مسئول عن رعاية وطنه في حاضره وماضيه، فيعادي من يعادي ويصادق من يصادق في سبيل الوطن الغالي، ثم يكون جزاؤه أن يعتذر أحد الوزراء عن مقابلته بحجة أنه مشغول.

- أنت مزعج، يا دكتور مبارك.
- المزعج هو الذي يطالب بالإنصاف، وأنا لم أطلب من أحد إنصافي، وإنما أسأل كيف يسرني أن أستصبح بوجه أحد الوزراء فلا يتم ذلك بدون استئذان؟
- إن رجعت إلى الوزارة فسأبلغ من إنصافك ما تريد.
- وإن رجعت إلى الوزارة فلن تراني ولن أراك.
- ما هذا الذي تقول؟
- انظر إلى ذلك الجنب تر (معالي...."الباشا")، فهل تراني هرعت للتسليم عليه؟
- أنت مخطئ فهو رجل جليل.
- ولكنه وزير أديب.
- وما عيب الوزراء الأدباء؟
- عيبهم أنهم كانوا معنا فطاروا عنا، وإنهم لا يحفظون حق الأديب على الأديب.
- وهل تحفظ حق إخوانك إذا صرت من الوزراء.
- حقق الله نبوءتك ليكون لي أخوان.

ثم نظرت فرأيت وزير المعارف السابق قد انصرف (بدون استئذان) ورأيتني أهتف بقول ابن دراج؟

سلام على الأخوان تسليم بائس — وسقيا للدهر كان لي فيه أخوان

مضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم — كأني قد خنت الوداد وقد خانوا

عصا إلياس:

هي عصا شعرية، وإليها يرجع الفضل في تذكيري بالواجب نحو الأستاذ أحمد علام، عصا سوداء ورثها الأستاذ إلياس أبو شبكة عن أبيه ثم أوحت إليه هذه الأبيات اللطاف:

عـــروس تزيـــت بـــزي الدجنـــة	ولقنهـــا ســـاحر الليـــل فنـــه
تناهـــت علـــى والـــد مـــن أبيـــه	أخافـــت طيـــوف الظـــلام وجنـــه
إذا هـــبط الليـــل أرخـــى لهـــا	علـــى حـــصبات الطريـــق إلا عنـــه
فيـــسمع مـــن صـــلبها العاشـــقون	وقـــد أرقـــوا رنـــه أثـــر رنـــة
أنين ســـرى مـــن عروقـــي إليهـــا	فـــرن بهـــا كـــصليل الأســـنة

ثم وقع أن أخذ أبو شبكة إلى دار الشرطة بتهمة التجمهر في أحد الأيام السود ولم ينج من السجن إلا بعد أن سمع بخبره وزير الداخلية، وردت الشرطة غليه كل ما أخذت منـــه إلا عصاه فصرخ: هاتو عصاي فقال أحد الرؤساء: عصاك التي قلت فيها شعرًا؟ فأجاب: نعـــم، عصاي التي قلت فيها شعرًا ولم تعد العصا برغم هذا الصراخ، فكتب في جريـــدة المعـــرض يقول:

"أيها الجندي الذي خطف عصاي من يدي، من أنت؟ ومن تكـــون؟ وأي شـــأن لـــك بعصاي عصاي التي قلت فيها شعرًا؟"

وبعد أسبوع تبادل اللبنانيون بالهدايا، هدايا العصى إلى الشاعر الـــذي فقـــد عـــصاه الشعرية وسرى الخبر إلى اللبنانيين في المهاجر فتلقى عصا مـــن الأرجنتـــين وعـــصا مـــن البلجيك، وبهذا كان أعظم شاعر "مضروب" في هذا الزمان.

أكرم الله أهل لبنان، فما يزالون من أمثلة الأريحية العربية.

٣٥

مكانة الأديب في الجهاد(*):

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى "شوقي" بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في نفس بعض النواب.

ولكن أديبًا فاضلاً تعقب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور) فقال: يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد وتمثال لمحمد عبده وتمثال لقاسم أمين، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقي أو حافظ إبراهيم ولا بأس بهذا الكلام، ولكن لأديب الفاضل علله فقال: نحن في عصر السيادة فيه للشجاعة والبأس، والعبادة فيه للبطولة والأبطال، لا للفن والجمال، وكل مقتحم ميدانًا وجاك سورًا ومنتزع نصرًا مقدم على من يجلس فوق رابية أمنه ليرسل من قيثارته ألحانًا مشجية.

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين وأن أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم كانوا جماعة من المغنيين.

ومن يعش في مصر يرى العجب وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هي صورة "من يجلس فوق رابية أمنه ليرسل من قيثارته ألحانًا مشجية"؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبحون للفن والجمال ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون.

فمتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطني والمجاهد الأول وأن معاني البطولة تعتلج في صدره قبل أن تعتلج في صدور القادة والزعماء.

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال محمد فريد ومحمد عبده وقاسم أمين؟

أساسها الفكر والبيان، ويجب حتمًا أن نضيف هؤلاء إلى الأدباء قبل أن نعدهم زعماء فما ارتفعوا إلا بالفكر المشرق والبيان الجميل.

(*) العدد ٤٨٢ من مجلة الرسالة ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢.

وحكاية دك الأسوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر تحتاج إلى شرح: فهل من الحق أن الأديب لا يدك أسوارًا ولا يقتحم ميادين؟

إن الأديب يقضي عمره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا والناس ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل وما شرق مشرق أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب ولا استبسل جبان أو استقتل شجاع إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب.

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كاتب فرنسي اسمه: "لا بربري ال" وهو كتاب أقيم على أساس القول بأن الوحشية الألمانية ترجع إلى إيحاء من شعراء الألمان ومفكريهم في القرن السابع عشر وإن السيوف تتلقى الوحي عن الأقلام في تلك البلاد.

وقبل هذه القولة الفرنسية الألمانية، قال أسلافنا منذ أزمان طوال، إن أبياتًا من شعر عمر بين أبي ربيعة نقلت قلب هارون الرشيد من مكان إلى مكان فصنع البرامكة ما دونه التاريخ بإسهاب. وإلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في جميع الشعوب... حين تزاور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

فهل سمعتم أن شكسبير دك أسوارًا واقتحم ميادين؟

ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن المسيو هريو رد "وسام" اللجيون دونير" إلى المشير بيتان – وكان تلقاه من كليمنصو العظيم- لأن حكومة فيشي منحت هذا الوسام لضابطين يحاربان في صفوف الألمان فعمن تلقى هريو هذا الوحي الرائع، الوحي الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن يستبقي وسامًا يهدى على من يحارب في صفوف الأعداء، ولو أصبحوا بحكم الضرورة حلفاء؟

هذه الثقافة أدبية لا سياسية والأدب يوحي معاني تنفر منها السياسة بحيث يجوز الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين وما مدح سعد زغلول بأفضل من النص على أنه كان خطيبًا وطنيًا لا سياسيًا كما قال الأستاذ كامل بك سليم.

التفاتة المسيو هريو التفاتة أديب، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليون وكان يعاب عليه الإسراف في شرح أصول الغزل والتشبيب فلم يكن يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون.. ثم تحولت العواطف الوجدانية عند المسيو هريو

إلى عواطف وطنية وهل كانت خطبه في مجلس النـواب الفرنـسي إلا روائـع مـن الأدب المضمخ بعبير الروح؟

ولم يقف الأديب المسيو هريو عند الوطنية المحلية بل سما بـه إلـى رعايـة اللغـة الفرنسية في البلاد الأجنبية.

فرأس جمعية المسيو لابيك رياسة حقيقية لا صورية.. وأمدها بما استطاع من الوقت والمال.

عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عقد في يوليه سـنة ١٩٣٣ خلـف الوعـد بحضور افتتاح الليسيه فرانسيه في حلب فاعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي، اعتذر بأنه يبيت في القطار ثلاث ليال من كل أسبوع ثم أعلن استعداده لدفع النفقات التي توجبها الـدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب؟

وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة: سنلتقي هنالك يا صديقي...

وقد بر بوعده فحضر لافتتاح الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٨ ولكن ما رأيته ولا رآني فقد كنت في بغداد علها أطيب التحيات.

وخلاصة القول إن الأدب عماد الوطنية، ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء..

وإذا تحذلق متحذلق فادعى أن الأدباء لا يحسنون غير التغريد فـوق أفنـان الجمـال أجبناء قائلين بعزة وخيلاء:

إن الجمال هو أعظم نعم الله في هذا الوجود.. ولا يعيب التغني بالجمال غير مرضى الأذواق والقلوب.. الأمم العظيمة هي التي تتغنى بالجمال، كما يصنع الإنجليـز والألمـان... وكما صنع العرب في شباب الزمان.. فمن بدا له أن يغض من شعرائنا لأنهم يتحدثون عـن الجمال فليبادر باستشارة أحد الأطباء.

أدب المعاش:

لا جدال في أن الأدب العربي الحديث قد سما سموًا عظيمًا في كثيـر مـن الفنـون، ولكني مع ذلك أراه تخلف أقبح التخلف في دعوة الناس إلى تدبير المعاش وأنا أقترح أن يكون عندنا أدب يسمى "أدب المعاش(*)" وهو الأدب الذي يعلم النـاس كيـف يقتـصدون وكيـف

(*) للدكتور زكي مبارك كتاب تحت الطبع بعنوان "أدب المعاش" يضم كتابات زكي مبارك عن أدب المعاش والتي بدأ هو نفسه بجمعها في حياته.

يدخرون، وكيف يواجهون مطالب الحياة في الشباب والمشيب بجيوب سليمة من مرض الإفلاس، فما يذل الرجال غير الفقر، أعاذنا الله وأعاذ جميع الأحرار من رؤية وجهه البغيض..

ولتوضيح هذا النقص في اتجاهاتنا الأدبية أسوق الفكاهتين الآتيتين:

لقيني الشاعر حافظ إبراهيم يومًا فقال:

- هل رأيت ما صنع شوقي؟
- وماذا صنع شوقي؟
- نظم قصيدة في "بنك مصر" مع أنه لو اختلف مع هذا البنك على مليلم واحد لساقه إلى ساحة القضاء.
- ومعنى هذا أنك لا ترى أن تقال في "البنوك" قصائد؟
- القصائد لا تقال إلا في الأزهار والرياحين.

ولقيني الشاعر عباس العقاد يومًا فقال:

- نفيناك من فردوس الأدب.
- وما سبب هذا النفي يا حضرة الأستاذ؟
- لأنك بنيت بيتًا في مصر الجديدة والأدب لا يعرف مثل هذا الثراء.

وقد اعتذرت للأستاذ العقاد بعبارة لطيفة، عبارة تقول بأن شهرتي بالأدب هددت سمعتي المالية فكان من واجبي أن ابني بيتًا ولو بالتقسيط لتحسين سمعتي في سنتريس(*)..

والحق أن أدباءنا قد انصرفوا عن تعليم أنفسهم وتعليم قرائهم فكرة المعاش ولو شئت لقلت أنهم يتباهون بالتبديد لما يملكون وهذا خطر يجب التحذير من عواقبه السود، وأنا أنبه نفسي وأنبه تلاميذي وقرائي فلا أسمع وليسمعوا، ولعل فيهم من يعي كلامي بأكثر مما أعي كلامي..

لا يعاب على الأديب أن يقص بعض وقائعه الغرامية، فمنذ عهد امرئ القيس إلى اليوم والشعراء يتباهون بحواديت الضم والعناق والوصال والأمر كذلك عند شعراء الأمم

(*) البيت بيع بعد وفاة زكي مبارك لأنه كان مديونًا للشركة البلجيكية بثمن الأرض.

الأجنبية، ولكن يعاب على الأديب أن نقص بعض مسالكه في تدبير المعاش وما وقع من ذلك لم يقابل بغير السخرية والاستهزاء...

وأخرج على هذا التقليد فأقول: إني جريت من أعوام على الادخار في حدود الاعتدال فلا أحرم نفسي ولا أحرم أبنائي نعمة العيش المقبول ولكني لا اسمح لنفسي ولا لأبنائي بتبديد ما يسوق الله من الرزق الحلال.

وعند اشتغالي بالتدريس كنت أسأل تلاميذي عما يدخرون ولم يفتني أن ألقي درسًا في الادخار على تلاميذي في بغداد، راجيًا أن يلقوه على تلاميذهم في جميع أنحاء العراق.

ومهنتي اليوم لا تتسع لأمثال هذه الدروس، ومع ذلك يغلبني حب الخير فأسال المدرسين الذين أتشرف بتوجيههم إلى المناهج الصحيحة في التدريس أسألهم عما يدخرون لأطمئن إلى صلاحيتهم لمهنة التعليم، فالملم الحق في نظري هو الذي يروض تلاميذه على تدبير المعاش... ولا يمكن لمدرس يبدد مرتبه في الأسبوع الأول من الشهر أن يد عقله في الباقي من الأسابيع.

وتدبير المال في الحدود المقبولة يشهد بالقدرة على ضبط النفس وضبط النفس هو أوثق صور الأخلاق... وما تجوز لمبذر أن يتوهم أنه يصلح لشيء من جلائل الأعمال.

اكتب هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يطيب له أن يتهمني بالشح والبخل لأنهم ألفوا وصف المدخرين بالشح والبخل، ولأن الشعر القديم صور لهم التبذير بصور السخاء مع أن أكثر المدائح كانت تمائم أريد بها إنهاب ما يملك الخلفاء والملوك.

ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء والمساكين، ولي هنا غاية تجارية فقد عرفت بالتجربة أن الله يعوض ما تنفقه على المعوزين أضعافًا مضاعفة، ومن الواجب أن نستغل كرم الله استغلال جميل في حدود ما نطيق...

وأنا بعد هذا أرجو من يؤلفون كتب المطالعة لتلاميذ المدارس أن يكثروا من الحث على الادخار ليساعدوا على إنشاء جيل جديد، جيل متماسك لا يتباهى أبناؤه بالإسراف والتبديد وإنما يتباهون بالبر والإفضال.

نفحة سودانية:

كان من توفيق الله أن نلتفت إلى الأدب في السودان بعض الالتفات، فقد أتيحت فرصة للتعرف على ما هنالك من روائع لو نشرت لبهرت شعراء مصر والشام والعراق...

أقول هذا وأمامي قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسي قصيدة خفيفة الروح حن فيها إلى أيامه بمصر فقال:

لو كان لي علم ما في غد ... لما بعثت مصر بسودانيه

عدتني عن طيب ذاك الثراء ... نرى قذف خيلها عاديه

فودعتها أمس لا عن قلي ... ولم تكن النفس بالساليه

إلى بلد عشت فيه غريبا ... بعيدا عن الناس في ضاحيه

أقيم بها من صدور المطى ... للمرخ تحدي وللعافية

لعلي أصيب بتلك البطاح ... صباي وذاهب أياميه

فلله كم جنت الحادثات ... على وأودت بآماليه

رعى الله مصر فكم للأديب ... بها ثم من عيشة راضيه

وأحبب بأيامها الذاهبات ... على ما بها وعلى ما بيه

قضينا بها غفلات الشباب ... بأحلى مذاقا من العافية

تولت سراعا فياليتها ... تعود لنا مرة ثانية

ويا قبلة الخير لا تبعدي ... وحييت زاهرة زاهيه

ويا برق زرها بوطف الغمام ... وحلى عزاليك باساريه

وإن تبخلي إن لي مقلة ... هي المزن هامعة هاميه

بني مصر حياكم ذو الجلال ... بعزف تحياته الزاكيه

وأسدي بإحسانه منعما ... لكم كل صالحه باقيه

بكم غدت اليوم أم اللغات ... كحسناء في برد ضافيه

حملتم بمصر بالمشرقين ... رسالة آدابها العاليه

أجل وشـــأوتم بـــسحر البيـــان عبـــاقرة الأعـــصر الخاليـــه

بيـــان هـــو البـــدر فـــي تمـــه يـــشق حـــشا الليلـــة الداجيـــه

وكـــالورد يعبـــق مطلولـــه أو المـــسك أو جونـــة الغاليـــة

بلونـــا الكـــرام فكـــانوا البنـــاء وكنـــتم بـــه حجـــر الزاويـــه

فما رأى قراء "الرسالة" في هذا الكلام النفيس؟ ما رأيهم في شاعر سوداني يحن إلـــى مصر هذا الحنين؟ وما جزاؤه على هذا التلطف النبيل؟

نحن لا نملك الجزاء على مثل هذا الوداد، فهو فوق الجزاء ويكفي أن نقول إنه شاعر في السودان، السودان المصري أعزه الله وحماه ورعاه من جميع الأسواء.

وداد مصر للسودان وداد صحيح فليعرف السودانيون أننا لا نقبل أن يكونوا أوفى منا بأي حال.. سنعارض هذه القصيدة وسنريهم(*) أن مصر تجزيهم صـــدقًا بـــصدق وإخلاصًـــا بإخلاص.

أيها الأرواح الشوارد بأعالي النيل.. أيها الحافظون لأمجاد الإسلام بالوادي السحيق.. هل تعرفون ما كنتم في أنفس المصريين؟

لذلك حديث وأحاديث فانتظروا قليلاً فسأقص من أخباركم ما تجهلون...

أيها الشاعر الذي حيا مصر.. حياك الله وحياك ثم حياك.

فقد طوقت جيد مصر بقلائد صيغت من حبات القلوب.... أهذا شعر أم سحر؟

هو فوق الشعر وفوق السحر... هو إلهام جادت قطرة كريمة الأصل في بلاد أبنائهـــا أصلاء.

وإلى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحيتي وثنائي فهو الذي حمل إليَّ هذا القصيد كما يحمل النسيم رسائل المحبوب إلى الحبيب...

(*) عارض الشاعر زكي مبارك قصيدة الشاعر محمد سعيد العباسي بعد ذلك على صفحات جريـــدة الـــبلاغ بتاريخ ١١/ ١٠/ ١٩٤٩ في قصيدة مطلعها:

أخا الـــشعر لا روعتـــك الخطـــوب ولا اشـــتعلت نارهـــا الحاميـــة

٣٦

منظر لن أنساه(*):

في صباح يوم الجمعة الماضي توجهت مبكرًا إلى سنتريس فلما وصلت السيارة إلـــى القناطر الخيرية هالني أن أرى جماهير كثيرة معوقة عن المسير.. ونظرت فرأيـــت "هـــويس الرياح التوفيقي" مفتوحًا. وهي فرصة يومية لمرور السفائن إلى الشمال وإلى الجنوب.

ونزلت إلى الشط للتفرج فرأيت ثلاث سفن يصدها التيار عن دخول الهويس صدًا بلغ الغاية من العنف.. فقدرت أننا سنعوق عن المسير زمنًا غير قليل.. عند ذلك بدا لي أن أرجو أحد الملاحظين إنزال الجسر لحظات إلى أن يستطيع البحارة تسديد هذه السفن الثلاث وفي هذا إنقاذ للمسافرين من الانتظار ولأكثرهم شواغل تستوجب الاستعجال.. فأجاب الملاحـــظ بـــأن الجسر يفتح نصف ساعة لمرور السفن بأمر وزارة الأشغال وقد بقي من الوقت عشر دقـــائق فإن عجز هؤلاء البحارة عن تسيير هذه السفن قبل انقضاء الوقت المحدد فسيرد الجسر ويمر الطريق ولا يظفرون بغير الانتظار المملول.

فرجعت إلى الشط مرة ثانية لأشهد أعظم معركة معاشية رأتها عيناي.

ما كان أولئك البحارة ناسًا وإنما كانوا من مردة الجن لم يكن بد من مـــصارعة تيـــار عنيف عنيف تيار يسمع هديره من مسافات وينذر من يصاوله بأفدح الخطوب.

كانت المقاذيف بأيدي الملاحين كالسيوف بأيدي المحاربين وكانـــت القلـــوع تطـــوى وتنشر في اللحظة القصيرة مرات في اتجاهات مختلفة وكانت الحبال ترمى هنا وهناك فيتلقفها المتلقفون بأمضى وأسرع من نظرة البرق اللماح.. وعلى الشط وقـــف أشـــخاص يـــصيحون صيحات الإرشاد والتوجيه بنبرات تقرب من الصراخ....

دار رأسي من هو المنظر وفكرت في مساعدة هؤلاء المجاهدين ولكن ماذا أملك ولـــم أتلق في علم الملاحة أي درس؟!

وطاف بالخاطر أطياف الماضي ماضي الجهاد في هذه البلاد، الجهاد في سبيل الرزق الحلال فهؤلاء الملاحون هم الذرية الباقية من رجال كانوا أسبق الآدميين إلى اتخاذ الأنهـــار

(*) مقال الدكتور زكي مبارك هذا على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٤٨٣ بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ١٩٤٢.

وسائط النقل للمنافع من أرض إلى أرض... وكان لهم في الملاحة مهارة راعت القدماء ألــم يحدثنا ياقوت في معجم البلدان عن بحيرة مصرية كان الملاحون فيها ينتفعون بالريح أغــرب انتفاع فيسيرون السفائن إلى الشرق بمعونة ريح تتجه إلى الغرب؟

ثم نظرت فرأيت على إحدى السفن حصيرة منشورة فوقها أرغفــة صــغيرة تــشبه أقراص "البتاو" والبتاو كلمة مصرية قديمة معناها رغيف.

ومن أجل هذا البتاو يجاهد أولئك الملاحون... المعركة لا تزال ولم يبق من الوقــت غير ثلاث دقائق فكيف تمر السفائن الثلاث في دقائق ثلاث.

والعمال فوق الجسر ينتظرون إنهاء الوقت ليعيدوا قوائم الطريق إلى ما كانت عليــه فأسير ويسير المسافرون إلى النحو الذي نريد...

ولكني أنسى نفسي وأنسى طريقي فما يهمني إلا أن ينتصر الملاحــون علــى التيــار ليدخلوا "الهويس" بسلام آمنين.

هيلا هوب.. هيلا هوب.. هيلا هوب.

وانتصر الملاحون قبل ثوان ثلاث يحل بعدها الميعاد وفي تلك اللحظة شعرت بفــرح لا نظير له ولا مثيل تباركت أسماء الله؟ فهو النصير لمن يتوكل عليه في مقاومة التيارات.

شعراء مبدعون:

يقال ويقال إن الشعر قل في مصر فلم يبق من الشعراء غير أحاد ومع هذا رأيت في موقفي ذاك بقنطرة الرياح التوفيقي عشرين شاعرا على جانب عظم من الإجادة والإبداع فــي الترنم والغناء..

هناك عشرون شاعرًا... أو يزيدون من الطراز النفيس... فمن هؤلاء الشعراء؟

جماعة من العصافير اللطاف بنت أعشاشها في فجوات نقرتها نقرًا بدخائل ذلك الجسر الصحاب الضجاج، كان المنظر في غاية من الروعة والجلال على يمــين بحــارة يقــاتلون الأمواج ليدخلوا الهويس قبل الوقت الذي حددته وزارة الأشغال، وعلى يساري صــحابة مــن العصافير تقاتل لتنتصر في ميدان العواطف فترف من هنا إلى هناك رفيف الروح من القاهرة إلى بغداد.. لن أنسى أبدًا تلك العصافير بتلك الزقزقة الشعرية، ولن أنسى أنها فطنــت إلــى مأوى يصد عنها شر الآدميين. العصافير تأوي إلى أعشاشها قبيل الغروب ولا تخــرج مــن أعشاشها إلا بعد الشروق وهي تهدأ بقدوم الليل.

فما صبر عصفور على النوم ساعات طوالا وحول أذنيه هدير يصفر بجانبه هدير "سدة الهندية" في سمع الفرات؟

هو عصفور شاعر يطيب له أن يهدأ على ضجيج الأمواج، لو بحث هذا العصفور عن مكان هادئ لوجد ملايين من القلوب الهوادئ وبعض القلوب تهدأ فتسكن سكون الموت.

فلا يأوي إليها غير البوم النعاب...

في ضمائر القناطر الخيرية، شعراء من العصافير اللطاف وقد يكون لهذه العصافير نظائر بقناطر أسيوط وقناطر أسوان..

مصر وطن الشعر والفن والجمال وهي الغرة اللائحة في جبين الوجود...

فكاهة عراقية:

وبمناسبة الملاحة النهرية.. أسوق فكاهة ما خطرت في بالي إلا ابتسمت، وخلاصة تلك الفكاهة أن أحد المسافرين سأل ملاحًا في دجلة عن أجر الركوب من بغداد إلى البصرة، فأجاب الملاح: عشرة دراهم مع جر الحبال، وعشرون درهمًا بدون جر الحبال.. ففكر المسافر قليلاً ثم رضي بالحال الأول.. مراعاة للاقتصاد...

فكاهة في غاية من العذوبة ولكنها تحتاج إلى شرح فأكثر القراء لا يعرفون حكاية جر الحبال...

أظنهم يعرفون فلنعف هذه الفكاهة من الشرح لئلا تبوخ.

الحرية.. الحرية:

وقف المترو ظهر اليوم عند مدخل مصر الجديدة، ثم طال به الوقوف، فنزلت لأعرف السبب، فرأيت قطارات كثيرة يعاني ركابها مثل ما تعاني من التعطيل وكان السبب أن قطارًا أصيب بعطب فعطل جميع القطارات.

والتفتت فرأيت الأستاذ سعد اللبان ينتظر مع المنتظرين فوجهت نظره إلى الفرق بين "المترو" والأتوبيس.

- أتريد يا دكتور أن تستغل هذا المنظر لكلمة في مجلة الرسالة؟
- أنت تعرف يا صديقي أني أنتفع من جميع مشاهداتي...
- وما ترى في هذا المنظر مما ينفع؟

- سأقول لقرائي. وأوقول، سأقول أن "المترو" حين يعطب منه قطار تعطل جميع القطارات ولا كذلك الأتوبيس..
- أوضح ما تعنيه بعض الإيضاح.
- المترو يسير في طريق مرسوم تحدده هذه القضبان، فهو في حقيقة الأمر مسجون، أما الأتوبيس فيسير في الطريق كيف شاء وهو لا يعطل أخاه إن أصيب بعطب في الطريق.
- وإذًا؟
- وإذًا تكون الحرية أساسًا لكل فلاح.
- ثم ماذا على حد تعبيرك؟

ثم تكون الأخلاق الفردية والقومية مما يتأثر بالتفاوت في مثل هذا النظام. فالرجل الذي يسير على منهاج واحد طول حياته يعطل عن المسير من وقت إلى وقت، والأمة التي تلتزم خطة واحدة في حياتها السياسية والاقتصادية تعطل عن الانتفاع بما يجد في الدنيا من تطورات وتغيرات.

- أنت إذًا لا تقول بالثبات على المبدأ.
- المبدأ هو الغاية وهي لا تختلف، والوسائل هي الطرائق، والطرائق تختلف من يوم إلى يوم باختلاف الظروف.
- ولكن الناس لا يفرقون بين الوفاء للغايات والوفاء للوسائل.
- وهل فهم الناس جميع الدقائق في الأخلاق الفردية والقومية.

ثم سار المترو فانقطع الحديث.

شيطنة مصرية:

تغربت عن وطني عددًا من السنين وعرفت الناس من جميع الأجناس، فما رأيت أذكى من المصريين، ولو دون ما يتندر به السامرون بالأندية المصرية في أسبوع واحد لكان ثروة أدبية تقتات بها أجيال وأجيال.

وأذكر شاهدين اثنين يتصلان بشخصي وفيهما الكفاية لمن يريد إدراك بعض الجوانب من الشيطنة المصرية:

١- تفضلت حكومة العراق فمنحتني وسام الرافدين، فكتبت الجرائد كلمات لطيفة بينت فيها أن الحكومة العراقية أرادت أن تثيبني على ما بذلت من الجهود في توكيد الصلات بين مصر والعراق، ولكن إحدى المجلات اهتدت إلى السبب الصحيح فقالت: إني منحت ذلك الوسام جزاء الرحيل من بغداد. وتلك نكتة أدق من السحر الحلال..

٢- الأستاذ الزيات يحرص على أن أكتب في "الرسالة" بدون انقطاع، وكان المفهوم عندي أن الأستاذ الزيات يراني من أمراء البيان. ولكن إحدى المجلات قد أهدت إليَّ السبب الصحيح فزعمت أن الأستاذ الزيات قال إنه يستغني بمقالي عن صحيفة اللطائف والطرائف.

والحمق المصري أجمل من العقل، ومجانين مصر هم الغاية في لطف الذوق وخفة الروح.

والمأمول أن يكون هذان الشاهدان من فنون المزاح.. فلا يحق ما يترتب عليهما من أحكام في ساحة الظلم مكان.

اتجاه جديد في الحياة المصرية(*):

التاريخ الأدبي والعلمي لمصر يشهد بأن المصريين كانوا يعتزون بالريف كل الاعتزاز فينتسب الأديب واللغوي والفقيه إلى بلده الذي ولد فيه بأسلوب يفصح عن ارتياحه لذلك الانتساب. وفي رجالنا العظماء من عرفوا بالنسب إلى بلادهم بحيث صارت تلك النسبة هي العلم الأصيل، بحي صار الاهتداء إلى أسمائهم الأولى يحوج الباحث إلى مراجعة كتب التراجم والتاريخ.

الأشموني والنحوي، والشنشوري الفرضي، والباجوري الفقيه، والدميري المحيط[١٦]: أمثال هؤلاء لا يعرفون بغير هذه الأنساب وهي غاية في التعريف، وعلى مثلها يقاس في الأعلام المنسوبة إلى قرى الريف بمصر الشمالية ومصر الجنوبية.

ومن غريب الصفات مالاحظت أن النسبة في العواصم كانت قليلة، فلا يقال القاهري أو الفسطاطي إلا في أندر الأحايين!

ولعل السيوطي حين انتسب إلى أسيوط لاحظ أن بدله ليست إلا دسكره من دساكر الريف، وإن الانتساب إليها يميزه عن القاهريين[١٧].

وأكثر من تولوا رياسة الأزهر منسوبين إلى بلادهم من أمثال: البشري والمراغي والظواهري: وهذه الظاهرة أوضح من أن تحتاج إلى استقراء[١٨].

(*) العدد ٤٨٤ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢.

(16) الدميري محيط بفضل كتابه "حياة الجيران" فهو دائرة معارف، والدميري منسوب إلى "دميره" إحدى قرى الغربية، وفيها ولد أخونا الأستاذ أحمد حسن الزيات.

(17) أسيوط: أسمها اليوم أسيوط، وأسمها الفرعوني سووط ومعنها الحارس لأنها كانت تصد غارات الشمال على الجنوب.

(18) الظواهري: نسبة إلى الظواهر وهي ضواحي مكة، وبها كان يقيم أجاد الشيخ الظواهري في سالف الزمان، وإليهم ينسب "كفر الظواهرية" بمركز ههيا بمديرية الشرقية.

ولكن مال الذي أفدناه من الانتساب إلى قرى الريف؟ الفائدة تفوق الوصف فقد أضفت على القرى المصرية لمحات روحية، وزادت في قيمتها المعنوية وربطت أهلها برباط وثيـق وأطعمتهم في معاني المجد والخلود...

ومن الذي يمر على أشمون أو شنشور أو الباجرو أو إسنا أو ملـوي أو أسـيوط أو منفلوط ولا يتذكر أن هذه البلاد كانت منابع العبقريات حفظ فضلها التاريخ؟

ولكن الحال تبدلت فيما بعد.. وصار الانتساب إلى الريف لا يقع من الأنفـس موقـع القبول، وزاد الخطر بتوهم أهل الريف أن لا قيمة للحياة في غير الحواضر... وأن الريف لا يصلح مقامًا لغير العاجزين عن الانتفاع بثمرات التمدن الحديث...

وصار من حق الفلاح أن يودع المسافر إلى القاهرة بهذا النشيد:

"ليلتك سعيده وسعيده يا رايح مصر".

ثم لطف الله بالمصريين فوصلوا قراهم بعد القطيعة، وآنسوها بعد الإيحاش، وأصـبح من المألوف أن نجد فتى من حملة الإجازات العالية يحدثك عن متاعبه في البحث عـن أدوات الحرث والحصاد.. وصار من السهل أن نجد في الوزراء السابقين من يـستغل نـشاطه فـي استئجار الأراضي الواسعة بالريف(١٩).

واظهر أمراء مصر عناية بمزارعه هو صاحب السمو الأمير عمر طوسـون، فقـد سمعت أنه يعرف أملاكه قطعة قطعة، وأنه يراقب الأسعار مراقبة الخبراء، وهذا هو السر في أن الله حفظ عليه نعمة اليسار العريض(٢٠).

أخيلة ريفية:

والذي يهمني في هذا كله هو انتفاع الأدب الحديث بعودة المصريين إلى الريف فقـد لاحظت إن في كتابنا من تساورهم الأخيلة الريفية وهي أخيلة على جانب من الجمال وستغذي الأدب الحديث بألوان وألوان.

---

(19) الوزير الذي أعنيه هو معالي الأستاذ حلمي عيسى باشا، وهو رجل لا يكتفي بالإشراف على أملاكـه الكثيرة وإنما يبحث عن الباشوات الكسالى أو الكسلانين، ليستأجر أملاكهم لحسابه الخاص، فهو وزير دائم لإدارة تلك الأملاك وهو يبذل فيها من النشاط مثل الذي كـان يبـذل بـوزارات المعـارف والأوقـاف والمواصلات فليقرأ هذا الكلام خريجو كلية الزراعة من طلاب الوظائف الكتابية.

(20) زرت جانبًا من أملاك الأمير عمر طوسون، فاهتديت إلى معان عمرانية سأتحدث عنها بعد حين.

ولتوضيح هذه الفكرة أذكر أني كنت ألوم الأستاذ الزيات على طول مقامه بالريف ثم تمنيت أن يقيم بالريف إلى آخر الزمان حين رأيته يقول:

"وفي الريف خطباء وشعراء كعصافير الحصاد تزقزق للحبة ولا تزقزق للزهرة..

وهذا كلام عجيب غريب أعني أنه من النفاسة بمكان..

لا تقل روعة عن أشعار المجنون عليهم جميعًا رحمات الذي خلق تمرات النخيل والأعناب.

وفي صباح اليوم قرأت كلمة للدكتور سعيد عبده في "مجلة الساعة ١٢" كلمة من جنس كلام الزيات في الاستفادة من الأخيلة الريفية فالتفت ذهني إلى هذا المعنى من جديد فما كلمة ذلك الدكتور الفلاح؟

تكلم عن المعارضين في مجلس النواب فقال: "إن عددهم أقل من عدد الدحريج في القمح النظيف".

أية عبارة هذه؟ وما الذي فاتها من خصائص التشبيه الدقيق؟

ولو نظرنا في تذييل هذه العبارة لوجدناها أعجب وأغرب لأن التذييل كان لمحة من النقد اللاذع لما صرنا إليه من الوجهة المعاشية ويكفي أن أقول إنه قيد القمح النظيف بالقمح الذي كان قبل سنة ١٩٣٩.

تاجوج المريضة في السودان:

في قصيدة الشاعر محمد سعيد العباسي جاءت هذه الأبيات:

فيا ابن المبارك عشا سالما وبورك في زندك الواريه
تغنيت حينا بليلى العراق فأحللتها الرتبة الساميه
فمد لنا فضل ذاك العنان عنان يراعتك الطاغيه
وألم بتاجوج وأحفل بها فتاجوج جوهرة الباديه
وعلق على جيد تاريخها دراري أبحرك الطاميه

فمن تاجوج؟ من تاجوج؟ وما تحدث عنها أحد من الذين أقصوا أخبار العشاق؟ هي فتاة جميلة عفيفة.. أحبها فتى جميل عفيف وكانت لهما أخبار تشبه ما كان بين ليلى وقيس، ولعشقهما أشعار.

سمعت أول مرة بأخبار تاجوج وأنا في بغداد من خطاب فتى سوداني عــز عليــه أن تشغلني ليلى عن تاجوج فرمى سهم العتاب من الخرطوم إلى الوزراء.

سهم أصاب وراميه بذي ســلم   من بالعراق لقد أبعدت مرمــاك

ثم اتفق بعد رجوعي إلى مصر أن أبحث عن أخبار تاجوج فرأيتها أسطورة في رحلة سمو الأمير يوسف كمال إلى السودان في أقل من صفحتين فعاهــدت الله والحــب أن أكتــب أخبارها في مئات الصفحات[٢١].

ولكن متى؟؟

قلبي يحدثني بأن الله لن يبخل عليّ بتحقيق هذا الحلم الجميل.. كانت تاجوج تعيش في عروس الرمال فما عروس الرمال؟

سترون وصفها بعد حين أو أحايين.

فرصة لن تضيع:

في العام الماضي أرسلت إلى المهرجان الأدبي في السودان بحثًا عن "الطريــق إلــى الوحدة العربية" وهو أول وحي جاد به السودان على قلبي وفي هــذا العــام تفــضل رئــيس المهرجان فوجه إليَّ دعوة كريمة لإرسال كلمة أو قصيدة تلقى في المهرجان فرأيت أن أرسل إليه قصيدة عن مصر الجديدة، ولكن عرفت أن آخر موعد لتقديم الكلمات والخطوب والقصائد هو اليوم العشرون من رمضان فماذا أصنع سأنشر قصيدتي في العدد المقبل مــن "الرســالة" مهداة إلى نادي الخريجين وبذلك لا تضيع فرصة الاشتراك في ذلك المهرجان فــالمهم هــو تعاون العقول وتآخي النفوس وتناجي القلوب وقد يتفضل الله فيسمح بالفرصــة المقبلــة فــي المؤتمر الذي يعقد في عيد الأضحى، وللمؤتمر هنالك معنى يختلف عن المهرجان بــاختلاف الموضوعات الأدبية والقومية والاجتماعية ولعل الأقدار تسمح بأن يكون لنادي الخريجين في السودان قوة الجمعية الطبية المصرية فيومذاك ينتفع بما سنت من التقاليد فلا يكتفى بالتنقل بين

---

(21) الرسالة: نشرت هذه القصة مطولة في العدد الثاني عشر.

مدائن السودان عند إقامة المهرجانات والمؤتمرات وإنما ينتقل بين المدائن العربية فيكون مرة في الخرطوم ومرة في القاهرة ومرة في دمشق ومرة في بيروت ومرة في بغداد(*)..

وبهذه المناسبة أقول: هل أقامت الجمعية الطبية المصرية أحد مؤتمراتها في الخرطوم أو أم درمان مع أنها زارت أكثر الحواضر العربية وفكرت في زيارة طهران؟

أجب عن هذا السؤال، يا معالي الدكتور علي باشا إبراهيم..

نقد الشعر على أساس وحدة البيت:

من رأى بعض القدماء أن الشعر لا ينقده إلا الشعراء، وحجة ذلك البعض أن الشاعر هو الذي يدرك الدقائق الشعرية ويعرف ما يباح من التأنق والابتذال، والظاهر هو أن ابن الرومي أو شاعر نص على أن الجودة المطلقة لا تشترط في كل بيت ولكن هذه النظرية لم تتضح في ذهن ابن الرومي كل الاتضاح بدليل أنه ساقها مساق الاعتذار حين قرر أنه ليس أعظم من الله، والله يخلق الشجرة وفي أغصانها القوي الضعيف ولو أن هذه النظرية كان اتضح في ذهن ابن الرومي لترك جانب الاعتذار واعتصم بجانب الاحتجاج، وتفسير ذلك أن جمال الشجرة مجمل لا مفصل فهي جميلة في مرأى العين بغض النظر عما فيها من أغصان ضعاف ولعل جمالها لم يكمل إلا بفضل تلك الأغصان الضعاف.

وأوضح هذه النظرية بعض التوضيح: في كل وجه جميل ملامح تكميلية تؤكد ما فيه من جمال ولكنها منفردة لا توصف بالجمال.

وفي هذه الزهرة الجميلة أوراق يعوزها الحسن ولكن جمال الزهرة يحتاج إليها كل الاحتياج والأرض الجيدة لا تستوي أبدًا... وعدم استواء الأرض الجيدة هو الذي يتيح لها فرصة الانتفاع بالشمس والهواء.

وما يقال في المحسوسات يقال في المعقولات فالنبوغ هو في ذاته لون من الانحراف لأنه صورة من طغيان بعض المواهب على بعض ولو استقامت المواهب الإنسانية استقامة مطلقة في جميع الناس لكان من المستحيل أن يتفوق الإنسان على الحيوان.

(*) القصيدة نشرت في العدد ٤٨٥ من مجلة الرسالة بتاريخ التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٢ بعنوان "مصر الجديدة" ومطلعها:

تناسيتكم عمدا كأني مسلوتكم   وبعض التناس العمد من صور الود

تفوق جارحة على جارحة أو مكلة على ملكة هو أساس النبوغ والعبقرية ولكن وجود الجارحة الضعيفة أو الملكة الضعيفة شرط أساسي في تكوين ما يقوى من الجوارح والملكات كما أن الغصن الضعيف سناد للغصن القوي في تكوين الفرعاء.

والقصيدة كالشجرة يستبد فيها البيت القوي بالبيت الضعيف وعلى أساس القوة والضعف ينهض بناء الوجود.

وإذًا؟!

وإذًا يخطئ من يجاري القدماء في نقد كل بيت من القصيدة على حدة..

وإنما الرأي أن تكون أبيات القصيدة كمسامير السفينة.. ومسامير السفينة تختلف باختلاف مواطن الرباط والوثاق.

ولو نظر القدماء هذه النظرة لأعفونا من أبحاث كان فيها نقد الشعر قائمًا على وحدة القصيدة، فكان مثلهم مثل من يعيب الغابة الشجراء لأنه عثر فيها على شجيرة عجفاء.

قصة أدبية:

وهذا الكلام ساقته قصة أدبية تلخصها الأسطر الآتية:

بدا لي أن أقرأ "قصيدة مصر الجديدة" على الدكتور طه حسين فاعتذر بالسفر إلى فلسطين وأردت عرضها على الأستاذ خليل مطران فحدد موعدًا ولكني تخلفت عن الموعد ساعة وبضع دقائق فانصرف قبل أن يلقاني مع الأسف فقد كنت أرجو أن أنتفع بنقده الدقيق.. وعند خروجي من مكتب الأستاذ خليل مطران لقيت الأستاذ محمد هاشم عطية فدعوته لسماع القصيدة عساه يعطي رأيًا في تنقيح بعض الأبيات.. ثم كان رأيه أن هذه القصيدة يفسدها التنقيح فعرفت من جديد أنه ذلك الأديب الفنان..

ما هذا الكلام؟ أترونني أعتذر عما سيقع في قصيدتي من ضعف كما اعتذر ابن الرومي؟

هيهات ثم هيهات.. فقصيدتي هي القصيدة.. ولن يستطيع شاعر أن يجاريني في أي ميدان؟

راية الشعر يحملها المصريون ولن تنزع هذه الراية من أيدينا ولو سهر الليل الإخوان الأعزاء في سائر الأقطار العربية.. قد تقولون ما هذا الغرور؟ وما هذا الإدعاء؟

وأقول إني سألقي عليكم قصيدة تلقف ما تأفكون وسأقهركم على الإيمان بعبقرية مصر الشعرية في هذا الزمان.

٣٨

مقاومة التدخين(*):

في العام الماضي قام الدكتور شخاخيري بتأليف رابطة لمقاومة التدخين ومضى يستهدي المفكرين والمؤلفين والوزراء كلمات في استنكار التدخين، ولم يكتف بذلك، وإنما اندفع فنظم سلسلة محاضرات في دار الحكمة دعا إليها أشهر المحاضرين ليقاوم التدخين.

والدكتور شخاخيري رجل مخلص، ودعوته هذه تستحق التأييد، ولكنها معرضة لأخطار سأنص عليها في هذا الحديث لأهدم الأساس الذي قامت عليه، ولعل الله يتفضل فيكتب لي النفع مما تعلمت، لأنني مع الأسف من المسرفين على أنفسهم بالتدخين.

شاع وذاع أن الدخان يشحذ الفكر، ويوقظ الذهن، ومن أجل هذا كثر المدخنون من الشعراء والكتاب السياسيين حتى صار من المألوف أن نرى صور الساسة والوزراء وفي أفواههم السجائر النحاف أو السمان وحتى صار من العسير أن نتصور شاعرًا أو زعيمًا خلت حياته من عبق الدخان.

لن أقف موقف الواعظ من دفع هذه الآفة ولكني سأقف موقف المؤرخ ثم أترك الحكم للقراء فيما سأسوقه من البينات، أول أمة عريقة في التدخين هي أمريكا القديمة، أمريكا الأمريكية لا أمريكا الأوروبية أعني أمريكا التي سبقت عهد كلمبوس، وسبقت عهد الاتصال بالأوروبيين والآسيويين، فما الذي استفادت أمريكا القديمة من التدخين هل تفق أذهان أهليها إلى ألوان من الفكر والعقل والبيان؟ هل جعل لأهليها ماضيًا في رفع دعائم الحضارة الإنسانية؟

كلا وإنما تركها التدخين أمة بلا تاريخ.

وأقدم الأمم في رفع راية العقل هم المصريون والبابليون واليونانيون.. فهل عرف هؤلاء التدخين حتى ننسب رقيهم إلى هذا المرض الفظيع؟

وهل عرف العرب التدخين حتى نرد السبب في تفوقهم إلى الدخان؟

هل دخن الجاحظ والغزالي وابن رشد والبحتري والمتنبي وأبو فراس؟

(*) العدد ٥٠٠ مجلة الرسالة في أول فبراير سنة ١٩٤٣.

أترك التاريخ القديم وأذكر شواهد قريبة جدًا من تاريخ مصر الحديث:

أعظم كاتب سياسي بإجماع الآراء هو المرحوم عبد القادر باشا حمزة، ولم يكن يدخن أبدًا، وما اذكر أني رأيته طلب فنجان قهوة في أي وقت وهو يكتب أصعب المقالات.

ومن عظماء كتابنا الأستاذ الزيات والأستاذ العقاد، وهما لا يعرفان التدخين وهذا كلام لا يكاد يصدقه القارئ ولكنه الواقع، ولو أن الله أراد أن أنتفع بما تعلمت لتذكرت أني ألفت كتاب "الأخلاق عند الغزالي" وكتاب "النثر الفني" قبل أن أعرف التدخين فمتى أنتفع بما تعلمت؟

أما بعد فقد دعاني إلى كتابة هذه الكلمات حوادث أغضبتني لأن فيها دعاية إلى التدخين وهو مرض يفتك بشبان هذا الجيل.

الحادث الأول: في الأسبوع الماضي وقف الأستاذ زهير صبري يستجوب الحكومة في مجلس النواب عن تسعير الحاجيات الضرورية فلما وصل إلى السجائر قال: إن السجائر قد غلت مع أن "كيف" القهوة والشاي لا يحلو إلا بالسيجارة، فهل فاته أن في هذا الكلام إيحاء بأهمية السجائر في الحياة اليومية؟!

الحادث الثاني: في الأسبوع الماضي أيضًا "تفضلت الإذاعة اللاسلكية فأذاعت أغنية تنطق بفضل السجائر أغنية منقولة عن أحد الأفلام السينمائية.

وأنا سأثبت هذه الأغنية في هذا الحديث لغرض واحد: هو تأريخ الحياة الأدبية فما يجوز لمؤرخ الأدب أن يترك شيئًا بلا تقييد ولو كان في الدعوة إلى الدخان فما يجوز لمؤرخ الأدب أن يترك شيئًا بلا تقييد ولو كان في الدعوة إلى الدخان وسأدعو الإذاعة اللاسلكية بعد ذلك إلى التفرقة بين جو الرواية وجو الغناء.

عنوان الأغنية "خد سيجارة وهات سيجارة" وهي من الشعر الملحون:

السيجارة في الحياة زي أنا	تتحرق وتضحي روحها لأجل غيرها
عمرها في الدنيا ما شافت هنا	تحيا بين النار عشان يرتاح ضميرها
السيجارة إن كنت يوم حتدوق حنانها	تلقى نفسك في حياة غير الحياة
تلقى طيف اللي تحبه بين دخانها	لما فكرك يبقى سارح في هواه

خد سيجارة وهات سيجارة

أنت زعلان؟ خد سيجارة خدها مني	يالله ولعها واطفي الشوق بنارها
أنت تبقى في جوها عايش مهني	والسيجارة تبقى زي في مرارها
خد سيجارة وهات سيجارة	السيجارة لما تيجي تواسيك
تنكوي بنارك وشوقك تبوسها	هي بتصون الجميل حرام عليك
بعد ما تحرقها بالأقدام تدوسها	خد سيجارة وهات سيجارة

وهذه القطعة قوية جدًا في الإبانة عن الغرض الذي نظمت فيه ولكن محطة الإذاعة تنسى أن ما يبيحه جو الرواية لتصوير إحدى الحالات النفسية لا يباح عرضه على جماهير بريئة يؤذيها الإيحاء بجمال الدخان.

جو الرواية المسرحية والسينمائية قد يدعو إلى تجميل بعض الرذائل ولكنه قد يسوق بعد ذلك عبرة تقتل السم الذي بثه المنظر الأول وبهذا يتعادل النضال بين السم والترياق.

فما عذر محطة الإذاعة في أن تبث داء بلا دواء؟

الحادث الثالث: رأيت في أحد الأفلام ممثلاً يدخن بإسراف مع أنه صديق أعرفه منذ سنين وهو يبغض الدخان، فلما سألته عن السبب أجابني بأن الأفلام المصرية تجعل الناس جميعًا يدخنون، فما هذا الذي نرى؟

أنزور الحياة المصرية لتشابه الحياة الأمريكية؟

أنكذب على الواقع في سبيل الفن؟ من أن غاية الفن هي أن يجسم المحاسن والعيوب حين يراد به تهذيب الأخلاق؟

اللهم حوالينا ولا علينا... اللهم حوالينا ولا علينا.

أين الرسالة:

حدثت قرائي مرة رفضت أن تهدي إلى الرسالة لأني أجد أنسًا في أشترائها من السوق كأني أوجه تحية إلى صاحبها الصديق، وبالأمس انقبض صدري حين حدثني باعة الجرائد أنها احتجبت لعدم وجود الورق، ثم لطف الله فعرفت بعد ذلك أنها اكتفت بطبع كمية بقدر عدد المشتركين إلى أن يأذن الله بالورق الذي يساعد على أن تغمر السوق من جديد، ليتني اشتركت في الرسالة.

هل خطر في بال من تهمهم سمعة مصر الأدبية في الشرق خاطر احتجاب الرسالة عن الأسواق؟

هل آذاهم أن يقال إن مجلة مثل الرسالة لا تجد قوتها من الورق مع أنه قوت مبذول لمنافع قد تضر بسمعة مصر في أنظار من لا يعرفون غير الجد الصريح؟

ليست الأزمة أزمة الورق، فهو موجود، وإنما الأزمة تنحصر في انعدام التعاون والتساند، هي أزمة الأدب اليتيم الذي لا يسأل عنه أحد حين يغيب.

هل صلصل الهتاف في بيت الأستاذ الزيات من إحدى الجهات للسؤال عن الأسباب التي حجبت الرسالة عن الأسواق؟

أكان يجب ألا تقتصر الرسالة على الأدب الصرف لتجد من يسأل عنها حين تحتجب؟

سنعرف طاقة الأدب في اجتياز هذه المحنة العاتية، وإن اقتضى الأمر أن نرجو الحكومة أن تسمح بإذاعة محصول الرسالة عن طريق المذياع فسنفعل.

أيها الأدب: أنا غير خائف على مصيرك.. وهل كانت هذه أول محنة صارعتها وصارعتك حتى أخاف عليك؟

لا تصدق أيها الأدب أننا سنفرط في استقلالك بأي ثمن ولا تتوهم أننا سنتخلى عنك بما يسمونه الظروف أو الصروف.

سنعرفك في أيام الشدة، كما عرفتنا في أيام الرخاء، والله ولي الصابرين.

٣٩

بلاء الناس بالناس(*):

تمر بنا لحظات كدر وغيظ لا يخلقها غير بلاء الناس بالناس. نعم، تمر بنا لحظات نحسد فيها سكان المغور والكهوف، نتمنى عيش العزلة إلى آخر الزمان.

هذه الحرب صنعت ما صنعت بالأرزاق والأقوات ولم تترك بيتًا بلا متاعب معاشية! فهل تأدب الناس وتذكروا أنهم يعيشون في أعوام حرب؟ وهل تقع العيون على ناس تشهد ملابسهم بأنهم يعانون أزمات الحرب.

قيل إن المال كثر وفاض؛ فعند من كثر المال وفاض؟ لم يكثر إلا عند التجار، وكثرة المال عند التجار مفسدة معاشية لا يدرك خطرها إلا الأقلون وهي ناشئة عن بلاء الناس بالناس، ولكن كيف؟

الموظف المحدود الراتب والمالك المحدود الإيراد لا يريد هذا أو ذاك أن يقال إن حياته تعرضت لمتاعب الغلاء، فهو كما يعيش في أيام الرخاء وإن كلفه ذلك غم القلب وهموم الدين:

ما هذه الملابس الجديدة في زمن ليس فيه جديد غير دماء القتال؟ وما هذه العطور أو المساحيق والأزياء في أيام لا يتعطر فيها الجو بغير جثث المحاربين؟

لو راعى الناس أنهم يعيشون في زمن حرب فخففوا من بعض المطالب لاعتدلت أسعار الحاجيات وانقع كرب الغلاء، ولكنهم لجهلهم يأبون الاعتراف بمكاره الحرب ويصرون على الظهور بمظهر الوجاهة في كل مجتمع وفي كل ناد.

هل عندك أبناء وبنات يتعلمون في المداس؟

لك الله إن كان هذا حالك فلن تستطيع أن تقنع ابنك أو ابنتك بأن الدنيا في حرب وكرب، لأن هذا الإقناع لن يتيسر إلا إذا عقد مؤتمر من آباء التلاميذ يقررون فيه الاستغناء عن الفضول في الملابس والأزياء، ولن يعقد المؤتمر المنشود إلا إذا وجد في آباء التلاميذ من يجرؤ على القول بأن أعوام الحرب صيرته خفيف الجيب.

(*) العدد ٥١٢ من مجلة الرسالة ٢٦ إبريل سنة ١٩٤٣.

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس..

قدم مندوب المتجر الفلاني إلى المدرسة الفلانية وأخذ مقاس جميع التلميذات بدون استئذان ليعد لهن ملابس الصيف وهو موقن بأن لا يكون في مقدورة تلميذة أن نرفض ثوبها "يوم الحساب" لئلا يقال إن أباها من الفقراء.

فما شأن المتجر الفلاني بالمدرسة الفلانية؟

وما الذي يوجب أن تكون ملابس جميع التلميذات كأسنان المشط في اللون والاستواء وقد نوع الله الوجوه والملامح أغرب التنويع؟

أفي مثل هذه الأيام نعرف الفروق بين ملابس الصيف وملابس الشتاء؟

كان الظن أن يعرف نظار أو ناظرات بعض المدارس أن في الآباء من لم يستفد من فرص الحرب كما استفاد من سيكونون طعام سقر من التجار المنهومين.

وكان الظن بالأغنياء الذين يدللون أبناءهم أن يتذكروا أن لأبنائهم رفاقًا لا يملكون من الترف ما يملكون وأن الأدب مع الله يفرض علينا أن نستر نعم الله فلا نجأر في كل لحظة بأننا أغنياء لنكدر عيش الفقراء...

وآه ثم آه من بلاء الناس..

الظواهر لا تشغل الخلائق إلا حين يحرمون جمال المعاني والمفاضلة بين تلميذ وتلميذ في هذا العصر مفاضلة بين ثوب وثوب ولي مفاضلة بين عقل وعقل ولهذا كثرت خيبة التلاميذ النجباء!

مالي ولهذا الكلام المزعج؟

هو كلام ساقه جزعي من العجز عن ادخار درهم واحد في مدة شهرين بسبب الجو الذي يحيط بي وبأبنائي جو الزخرف الذي يحيط فيه الأصحاب والجيران.

كنت أوصي تلاميذي في مصر وفي العراق بالادخار وكنت أقول هم إن الادخار هو الذي منحني الفرصة لإتمام دراستي العالية في باريس بعد توفيق الله، واليوم يصعب على أن أوصي أبنائي بما كنت أوصي به تلاميذي، وكيف يسمع أبنائي ما أقول ومن حولهم خلائق عجز عن تأديبها الزمان؟ إن عدوي الترف سريعة الإيذاء فلنحترس من شرها كل الاحتراس.

وكيف نحترس وليس في الدنيا طفل يعرف أن أباه لا يبخل عليه بالترف ليدخر له ما ينفع في الأيام المقبلات؟

إن أبناءنا لا يريدون أن نطمئن على سلامتهم من الوجهة الروحية وإلا فكيف جاز أن نكثر رغبتهم في الزخارف وتقل رغبتهم في الحقائق؟

عفا الله عنهم، فهم ضحايا بلاء الناس بالناس؟

إن حال الرجال من هذه الناحية مقبول فما أذكر أني رأيت مدرسًا أو مفتشًا يهتم بملابسه اهتمامًا يوجب الاعتراض وإنما الحال المزعج هو حال بعض المدرسات والمفتشات، حال الفساتين التي لا تجاوز الركبتين حال الزينة التي تنافي وقار التعليم وكان مهنة الأنبياء...

وفي إحدى المدارس رأيت مدرسة ضنت على نفسها بالزينة الزخرفية فزاد إيمان بعظمة بلادي وأيقنت أن "ربة البيت" بخير وعافية وأن مصر في أمان من طغيان الخسران...

عندنا مدرسات حقًا وصدقًا، مدرسات يتحلين بالعلم لا بالزينة وبفضل أمثال هؤلاء المدرسات سنبلغ من تعليم البنات ما نريد.

المدرسات المصريات في هذا العهد يجاهدن بصدق للتغلب على السخف الذي جلبه الجانب الضعيف من المدينة الغربية ويحاولن بصدق أن يكون مدرسات لا وصيفات.

وقد صار من المألوف أن تجد مدرسات يقهرنك قهرًا على بذل تحية التعظيم والتبجيل وهي تحية أكرم وأشرف من تحية الحسن المجلوب.

وأرجو أن يفهم القارئ أن كلامي هذا لايراد به بالإيحاء فما هو إلا صدق في صدق، بعد ملاحظات ومشاهدات جعلتني من المطمئنين إلى صحة ما أقول.

وأنا مع هذا منزعج مما صرنا إليه في مدارس البنات ومدارس البنين..

هل عندنا مدرسة توصي تلاميذها بالأ يكفلوا آباءهم مالا يطاق؟

هل عندنا مدرسة تفكر في أن تكون من الأسندة للبيوت؟ التلميذ لا ينجح إلا إذًا أمدته المقادير بالدروس الخصوصية فمتى نثق بكفاية الدروس المدرسية؟

وما قيمة المدرس الذي لا يتفتح عقل تلميذه إلا إن خاطه لسان إلى لسان بين أربعة جدران؟

أعوذ بالله من بلاء الناس بالناس!

ملك الشط والفراتين في ضيافة النيل:

من مزايا مجلة "الرسالة" أنها تسكت عن الأشخاص ليكون التفاتها كله إلـــى المعـــاني وذلك هو السر في عدم اهتمامها بالأخباريات المتصلة بالأشخاص.

قلت لنفسي: ولكن في الأشخاص من يكونون رموزًا للمعاني فما الذي منـــع مـــن أن أقول على صفحات الرسالة أهلاً وسهلاً ومرحبًا بملك الشط والفراتين.

كانوا يسمونه الملك الطفل، فسميته الملك الشبل، جعله الله أكرم الأشبال...

"وملك الشط والفراتين" لقب جميل صاغه شاعرنا شوقي في القصيدة الذي يغنيه محمد عبد الوهاب في تحية فيصل الأول، والشط هو شط العرب والفراتان دجلة والفرات.

ولو كانت الأقدار سمحت بأن يزور شوقي ديار "شط الفراتين" لجاد شعره بأطايب لا يجود بمثلها الخيال.

وهل كان شوقي يشعر بقيمة المبدأ الذي رسمه حين جعل ملك العـــراق ملـــك الـــشط والفراتين؟

ما أغرب ما سمعت في بغداد سنة ١٩٣٨.

سمعت أن العراقيين دعوا الملك فيصل الأول إلى الاحتفاظ بالموصل فـــي المـــؤتمر الذي عقدوه في "الصليخ" فما الصيلخ؟

هو مكان في ضواحي بغداد مرت به لحظة تاريخية، وقد زرته زيارة الطيف في ليلة شاتية لا تنسم الجو الذي قيل فيـــه بحـــضره فيـــصل الأول إن العـــراق لا فهـــالني أن أرى روحانيات مختلفات، وعز علي أن يكون الموصل مما يدخل في الحساب عند تقسيم المغانم مع أنه كان وما زال ولن يزال من صميم الأمة العربية...

وقد رزت الشط –شط العرب– بعد أن شاهدت العراك الذي دار في مجلـــس النـــواب العراقي حول معاهدة الحدود.

وأصغيت بأذني وبقلبي إلى الصوت الذي قال: من غفلة العرب أن ينسوا الأهواز، مع أنها أحق بالعطف من فلسطين.

لقد نفضت يدي من السياسة بعد أن آذتني في وطني فكيف جز أن ألتفت إلى السياسة يوم تساور قلبي حين أزور المسجد الثاني في مصر بعد مسجد عمرو بن العاص.

دعوت سادن جامع الفتح مرة ومرات فما أجاب؟ وأين السادن لمسجد لا تهتم به لجنة الآثار العربية ولا وزارة الأوقاف؟

ليتني صليت ركعتين على باب ذلك المسجد وليتني تيممت بما على جدرانه من تراب!

لقد زرت في دمياط مشاهد يجهلها الدكتور علي مصطفى مشرفة ويجهلها الأستاذ عبده حسن الزيات، زرت البلد الذي تحدثت عنه في كتاب "التصوف الإسلامي" قبل أن أراه لأرفع عن عقلي بعض ما ثقله من أوزار الجهل.

وأين يعرف حقيقة ما أرويه في هذا الحديث؟

دمياط صورة من البصرة، البصرة صورة من دمياط.

الطريق إلى هاتين المدينتين محفوف بالنخيل وكلتاهما ملتق للماء العذب والماء الأجاج، مع فروق أوجبها بعد البصرة من دمياط، وكلا البلدين ثغر مخوف فما يعيش العراق بدون آمان البصرة، ولا تعيش مصر بدون أمان دمياط.

هذه السياسية الروحية تزلزل روحي، فلي في كل بلد آلام وآمال، وأنا أجول جولات روحية بكل ما أحب من البلاد في كل مساء وكأنني أجول في شارع فؤاد، وهل يوجد في أية مدينة شارع له جاذبية شارع فؤاد؟

بالرغم مني؛ أن يكون حظي من المرور بذلك الشارع شبيهًا بمرور الطيف على ديار الأحباب.

شارع فؤاد هو طريقي إلى المفوضية العراقية فهل سمح الوقت بأن أزور فخامة السيد جميل المدفعي وكان رئيس الوزراء حين كنت من الذين يتشرفون بخدمة العلم والأدب في العراق؟

المصري الصادق في خدمة وطنه لا يجد وقتًا لأداء حقوق المجاملات لأن الشواغل عندنا تفوق الوصف ولأن في حياتنا متاعب لا يعاني مثلها أحد في سائر البلاد العربية.

إذًا وفد إلى مصر زئر كريم تلفت عساه يرى من يخفون لتحيته من المصريين ثم تكون النتيجة أن لا يرى غير أحاد من الذين تسمح أوقاتهم بتحية الضيوف فينصرف وهو متعجب من تهاون المصريين في المجاملات الإخوانية.

أقول هذا لاعتذار لفخامة السيد جميل المدفعي راجيًا أن أراه في فرصة قريبة في القاهرة أو بغداد.

زيارة سياسية:

ضاق الوقت عن التشرف بمقابلة صاحب الجلالة فيصل الثاني وكنت أحب أن أعرف البواعث لزيارته الكريمة فقد سمعت ناسًا يقولون إنها زيارة سياسية.

نعيش إن شاء الله ويعيش فيصل الثاني إلى أن يتولى السلطة الدستورية وتصبغ كل أسفاره بالصبغة السياسية... أما زيارة اليوم فهي زيارة ملك ناشئ لا يرى غير الورود والرياحين، وأنا مع هذا موقن بأن زيارته لمصر زيارة سياسية فقد أبدع بروحه اللطيف جاذبية أخوية تزيد ما بين مصر والعراق من صلات.

السياسية ليست مقصورة على المنظر في المنافع العاجلة أو الآجلة في حيوات الشعوب.

هناك سياسة أعظم وارفع وهي سياسة الحب والوداد، والملك فيصل الثاني يسمع من أخبرا مصر ما يسمع ويقرأ من مؤلفات رجالها ما يقرأ فكان من الواجب أن يراها بعينيه ليسح روحها بأوفى واصدق ما يكون الإحساس.

انتظروا قليلاً فسترون يومًا أن هذا الملك الناشئ دون في مذكراته البسيطة أشياء، فمن المؤكد أن صدره فاض بالجذل والابتهاج والاغتباط حين رأى أن لغة العرب لها مدينة مثل القاهرة، ومن المؤكد أنه اطمأن على مصير العروبة حين رأى أن اشتباك المصالح الدولية لم يزحزح القاهرة عن خطتها العربية.

وهنا أقول إنه يجب على كل عربي أن يزور القاهرة وأن يرى ما فيها من المدارس والمعاهد والكليات.

عاصمة مصر هي العاصمة الأولى في الشرق، وهي في الحضارة والمدنية أعظم من إستانبول، وهي أبقى على الزمن من أخطر حواضر اليابان، فقد نجانا الله من أهوال الزلازل والبراكين وأنعم على بلادنا بوفاء النيل وأعاننا على كبح ما فطر عليه من الطغيان..

ومصر هي التي هدت الإنسانية إلى حقائق لم يعرفها الغرب إلا بعد أجيال وأجيال وستظل على الدهر وطن الابتكار والابتداع في أكثر الميادين. وهل نطق ناطق بحقيقة علمية أو أدبية أو فلسفية إلا وهو مدين لإبنائنا الأولين؟

عنا أخذ الكفر وعنا أخذ الإيمان، فما كفر كافر ولا آمن مؤمن بدون أن يكون لنا في عقله وقلبه ديون ثقال..

وهل يعرف أحد كيف كفر المصريون في طفولة التاريخ؟

لقد كفروا في محاوبة السماء ليبددوا الوهم القائل بوجود السماء، وأين السماء التي يقيم بها الله، كما كان يقال؟

مصر من صنع الله، والله لا يصنع غير الحقائق الأزلية، وسيشقى من يشقى في محاربة مصر، ثم تبقى إلى الأبد وهي غرة في جبين الوجود...

ما أسعد من يرى مصر أو مرة وهو سليم القلب والوجدان.

إن رؤية مصر في كل صباح وفي كل مساء وعلى طول سنين لم تزهدنا في مرآها الجميل، فكيف تكون الانفعالات النفسية في صدر من يراها لأول عهده بقلبها الخفاق؟

وأنا مع هذا أعاني في رحابك يا وطني ما أعاني فمتى يخف شقائي بك وعتابي عليك؟

أنا أطلب المستحيل إن طلبت في رحابك الأمان لأنه حظ الأموات، ونحن أحياء.

لك يا وطني أن تبدع من تهاويل الحقائق والأباطيل وعلينا أن نجاري روحك المبدع فتكون من أقطاب الشعر والبيان.

٤٠

درس في الأخلاق(*):

صديقي....

أوجه إليك هذه الكلمة وأنا أرجو أن تقرأها فيما بينك وبين نفسك بلا تفكير في التعقيب لأني لن أستمع لك إن قابلتها بأي اعتراض فما يتسع وقتي للمجادلة في أمور صارت عندي من البديهيات.

وأسارع فأقرر أني لا أقيم وزنًا للتشكي من الزمان على نحو ما يصنع بعض الشعراء وعلى نحو ما ظننا نصنع يوم كنا نتوهم أن الحظوظ تقسم بلا ميزان.

أنا اليوم أؤمن بأن لله قانونًا اسمه النظام، وهو يطرد في جميع الشئون فالشمس بنظام، والقمر بنظام، وجميع الخلائق بنظام يفسده أقل اختلال...

لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا وفقًا لقوانين أزلية لا يجوز عليها الانحراف.

السيد سيد بحق والعبد عبد بحق.. ولو حمل الهر روح الأسد لصاوله في حومة الصراع بلا تهيب أو إشفاق، نحن المسئولون عن تخلفنا حين نتخلف لأن في مقدورنا أن نصل إلى أعظم مكانة إن تحلينا بالصدق في الجهاد، ولأن في استطاعتنا أن نكون عظماء يشغلون التاريخ إن ناضلنا في سبيل المجد نضالاً يقرع سمع التاريخ.

وهذا لا يتيسر إلا إن راعينا نظام الوجود.

ذلك السائل لا يستحق غير ذل السؤال لأنه يخمد قواه عن عمد ليظفر بالصدقات العجاف.

وذلك البليد الذي رضي أن يكون طول عمره من الذيول سيظل ذيلاً لأنه بليد، وذلك التابع السخيف لمتبوعين سخفاء لن يصلح لشيء.

(*) العدد ٥١٣ من مجلة الرسالة بتاريخ الثالث من مايو سنة ١٩٤٣.

لأنه يستظل بأمور يعيشون في ظلال الأموات... وذلك الذي يتبهنس بفضل حماية غيره لن يرتفع بأي حال وإن استعان بطنين الذباب.

لك ما تريد لنفسك على شرط أن تفهم تلك القوانين الأزلية فتجاهد في حدود الصدق جهاد الرجال.

لك ما تريد لنفسك على شرط أن تترك الأوهام التي تزعم أن الرجل لا ينجح إلا إذا صادفته فرصة تنقله من حال إلى أحوال.

الفرصة في يدك إن أردت ولكن متى تريد؟

وأنت لغفلتك تتوهم أن الذين سبقوك إلى المال والجاه لم يسبقوك إلا بفضل الفرص التي سنحت على غير ميعاد..

الفرصة في يدك وميعادها بيدك على شرط أن تكون رجلاً لا يجوز عنه الاستغناء.

زود نفسك بالمزايا التي ترفعك، وأقض ليلك ونهارك في كسب الخصائص التي تجعلك من أهل التقوى، وإن استطعت أن تكون الرجل الأول في المذهب الذي اخترته لنفسك فلن تشكو الغبن ولو قامت في طريقك ألوف وألوف من الأشواك...

الرجل الذي يستطيع أعداؤه وحاسدوه أن يهدموه ليس بالرجل العظيم وإنما هو وليد ظروف ومصادفات جعلته شبحًا يوهم من يراه أنه شخص من الأشخاص وما أريد لك هذا الحظ الضئيل.

أتريد أن تكون كذلك المسكين الذي يعرف في قراره نفسه أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه بلا سناد؟

ما لهذه الغاية الضئيلة خلقنا، وما لهذا النصيب الهزيل من الله علينا بنعمة السمع والبصر والفؤاد.

الكسل آفة سخيفة وهو يميت مواهبنا الذاتية ويمضي بنا على مهاوي الخمود...

الكسل مذموم العواقب وهو من صور الموت، لأنه أو خصائص الأموات..

وأنت يا صديقي كسلان بغض النظر عن نشاطك في لحظات التشكي من زمانك وهو نشاط المريض في لحظات الصراخ...

غيّر ما بنفسك يا صديقي ليغير الله ما بك واحذر أن تأكل رغيفًا بغير حق كأن تأخذ أجرًا على أجمل عمل لا تؤديه أحسن الأداء..

الكتاب الأسود:

تسامع الناس قبل أسابيع بأن سعادة الأستاذ مكرم باشا عبيد نشر كتابا سماه الكتاب الأسود وقال من قرأوه إنه غاية في قوة الحجج والبراهين فدفعني الشوق إلى الاطلاع عليه وأنا بلا مباهاة أقرأ جميع ما تنشر المطابع فيما يتصل بالحياة الأدبية والوطنية لأساير اتجاه الأفكار في زماني.

فماذا رأيت في الكتاب الأسود؟

رأيت مؤلفه اهتم بالشئون الداخلية وترك الشئون الخارجية فما معنى ذلك؟

أتكون وزارة النحاس باشا سلمت كل السلامة من التقصير في الشئون الخارجية ونحن في زمن تكثر فيه المشكلات الدولية؟ إن كان هذا هو الواقع بفضل سكوت مكرم باشا فوزارة النحاس باشا أعظم وزارة تغلبت على المصاعب الدولية في أحرج لحظات التاريخ.

وإن كانت هناك مآخذ على الوزارة الوفدية من الوجهة الدولية فسكوت مكرم باشا على تلك المآخذ سكوت المريب. التعرض للشئون الداخلية يغضب النحاس وحده أما التعرض للشئون الخارجية فيغضب ناسًا يراعيهم مكرم في السر قبل العلانية.

ما هذه المغالاة في تعقب الشئون الداخلية مع ترك الشئون الخارجية؟ الجواب حاضر فسعادة الأستاذ مكرم باشا يتوهم أن مسألة الأمور الدولية قد تنفع بعد حين وقد ترده إلى وزارة المالية بعد أحايين.

نحن نبالغ في إيذاء المواطنين باسم الوطنية ونسكت عن الشئون الخارجية باسم الدبلوماسية وذلك هو ما صنع الأستاذ مكرم عبيد.

هل أستطيع أن أسأل عن المسار الأخلاقي لمن يجرح قومًا عاشرهم في أعوام تزيد على العشرين وهل أستطيع سؤال مكرم عن سر سكوته فيما يختص بمتاعب مصر من الوجهة الدولية.

من واجب مكرم باشا أن يقرأ هذه الكلمة ليراعيها في كتابه المقبل وهذا درس في الوطنية أقدمه إليه بالمجان.

زكي مبارك كما يراه عباس العقاد:

تفضل الكاتب الكبير الأستاذ العقاد فخصني بكلمة نقدية في مجلة الاثنين وهي كلمة تؤيد رأي في مذهبه الأدبي... ألم أحدثكم أن منطق العقاد يستقيم في جميع الشئون إلا فيما يتصل بزملائه من الأدباء المصريين؟

إن لي في أدب الأستاذ العقاد آراء صحيحه لم تتأثر بتحامل المعاصرين بعضهم على بعض.

وقد أثنيت على أدبه في ظروف لا تسمح بأن ينتظر مني أي ثناء فقد تخاصمنا وتعادينا في آماد وآماد ثم كانت العاقبة أن اعترف بجهاده في الحياة الأدبية وأن أذكره بالجميل حين يستأهل الجميل.

قال الأستاذ عباس العقاد "إن الدكتور زكي مبارك أقل الكُتَّاب شخصية في حياته الأدبية وأن أسلوبه الكتابي معروض لتوقيع من يشاء".

فبأي منطق وبأي حق يقول العقاد هذا الكلام الغريب؟

هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع أسمه على كتاب "النثر الفني" أو كتاب "التصوف الإسلامي" أو كتاب "عبقرية الشريف الرضي" أو كتاب "ذكريات باريس" أو كتاب "اللغة والدين والتقاليد" إلى آخر مما أخرجت من المؤلفات؟

ثم يقول الأستاذ العقاد ما نصه بالحرف:

"الدكتور زكي مبارك حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة باريس.. ولكنه لا يمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة باريس...

وهذا كلام يسرني وإن أراد به العقاد إيذائي فأنا أبغض الاستعباد للمعاهد والمذاهب، وأعتقد أن أدبي سيعيش بعد أن تصبح تلك الجامعات خبرًا لا تعيه ذاكرة التاريخ.

زكي مبارك هو زكي مبارك كما قال العقاد... وهي أصدق كلمة قالها العقاد... على كثرة ما صدق في أحكامه الجوائز على أدباء هذا الجيل.

قد يقول الأستاذ عباس العقاد كما قال الدكتور طه حسين:

إن شخصية زكي مبارك المؤلف قوية كل القوة، وإنما الخلاف في شخصية زكي مبارك الكاتب.

وأقول إن هذا ظلم من الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد، وأنا أتحدى هذين الرجلين بكتاب "ليلى المريضة في العراق" فهو آية من آيات البيان.

وما رأي الأستاذ العقاد في المقالات التي أنشرها بمجلة الرسالة من أسبوع إلى أسبوع أيظنها معروضة لتوقيع من يشاء، كما يقول؟ مجموعات الرسالة تشهد بما أملك من قوة الذاتية وهي أيضًا تشهد بأن أسلوبي أقوى من أسلوبه وابلغ وبأني أحلق في آفاق لا يصل إليها ولو استمسك بأوهام الخيال، والعقاد يعرف في قراره نفسه أنه لا يقدر على مجاراتي في أي ميدان.

وما رأي الأستاذ العقاد في القصائد التي نشرتها الرسالة؟ وهل يستطيع أن ينظم مثلها في أي غرض..

أنا أتحداه أن ينظم قصيدة مثل قصيدة "مصر الجديدة" أو قصيدة "الإسكنرية" أو قصيدة "بغداد".

العقاد شاعر كبير ولكنه لا يستطيع أن يكون أشعر مني وله أن يحاول مصاولتي في ميدان الشعر إن أراد..

قال الأستاذ العقاد "زكي مبارك الكاتب لا يستغني عن زكي مبارك بحال من الأحوال، إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان".

وهذا حق وصدق وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية وإذا استغنى العقاد عن نفسه فأنا لا استغنى عن نفسي لأنها أثمن ما أملك.

أما بعد فما الذي دعا الأستاذ العقاد لمناوشتي بمثل ذلك التحامل الذي لا يليق بمن يكون في مثل منزلته الأدبية؟

وما عدوانه على كاتب ذكره في أكثر ما أنشأ من المقالات والمؤلفات؟

رأيي في العقاد لن يتغير بأي حال فهو كاتب وشاعر وناقد ومؤلف وسأزكيه عند قرائي بلا بخل ولا إسراف... ولكني أرجوه أن يتذكر أن له صديقًا يكره أن يكون من المطففين.

إن كان الأستاذ العقاد رأى بفكره الثاقب أن سأتلطف في الرد عليه فقد صدق فيما رأى، فما أستبيح الهجوم على رجل يحمل القلم منذ أعوام تجاوز الثلاثين.. وقد تشارف الأربعين، أطال الله في حياته وأسبغ عليه نعمة الصفاء.

الطبيعة المصرية:

وأراد الأستاذ العقاد أن يحكم بأن الدكتور هيكل كاتب لا يثب إلى الآفاق العالية ولا ينقض إلى الأغوار العميقة فجعل ذلك وفاء للطبيعة المصرية طبيعة الأرض التي يرويها النيل بغير عناء كما يقول.

وأقول إن الطبيعة المصرية لا تعرف السهولة التي عناها الأستاذ العقاد وليس بصحيح أن أرض مصر يرويها النيل بغير عناء فهو لا يؤدي واجبه في ري الأرض إلا بالجمة من القناطر والجسور ولا ينكف شره إلا بمتاعب ثقال.

والحق أننا أسرفنا في وصف الأرض المصرية بالاستواء.. وكدنا نوهم أنفسنا بأن بلادنا قليلة التنوع في المناظر وقليلة القدرة على إبداع النقائض في المذاهب والآياء...

والعقاد مصري من أسوان، فما الاستواء الذي يراه في الطريق بين القاهرة وأسوان؟؟ ومتى سهل ري الأرض في مصر وهو المشقة الأولى في حياة الفلاحين؟

والعقاد لا يبخل على نفسه بما بخل به على هيكل فهو في نظر نفسه من الذين يثبون إلى الآفاق العالية وينقضون إلى الأغوار العميقة فعن أي أرض ورث الوثوب والانقضاض؟

إن الوطن المصري وطن مبدع... وله في الإبداع ألوان ومن آيات إبداعه أن يجود في العصر الواحد بأفانين من الأذواق والعقول في كثير من الميادين.

ثم ماذا؟

ثم يبقى القول في تحامل العقاد على المازني وقد أراد أن يستر تحامله فشهد بأن المازني أقدر كاتب على الترجمة من لغة أجنبية إلى اللغة العربية.

فمتى كانت الترجمة عملاً ذاتيًا يقام له ميزات بين أعمال الرجال؟ الترجمة شيء مطلوب ومفيد ولكنها ليست بالعمل الذي يجعل فردًا من فرد وأمة أقوى من أمة، ومزية مصر أنها تبدع قبل أن تترجم وذلك دليل الأصالة الذاتية، وهو سر تفوق مصر على كثير من الشعوب.

ومن المؤكد أن الأستاذ العقاد كان يمزح وهو يسطر مقاله لمجلة الاثنين.

فإن بدا له أن يجد فليساجلني على صفحات الرسالة الصديق، وله مني خالص التحية وعاطر الثناء.

على ميعاد(*):

مع من؟ مع الربيع بعد أن كاد يخلف الميعاد.

في صباح كل يوم من هذه الأيام أطالع وجوه الأشجار الضواحك عساني أنسى عبوسها في الشتاء الذي طال ثم طال، إلى حد الإملال.. ومن العجب أن أرى أشجارًا لم تورق بعد كأنها تخشى أن يكون انصرام الشتاء خبرًا لم يقم على صحته دليل فلتقرأ هذه الأشجار هذا الكلام ولتصدق أننا في "مايو" شهر الأزهار والرياحين.

لا شتاء بعد اليوم من هذا العام فليفرح بقدوم الربيع الأول وهو مطلع الصيف إلى أن يجيء الربيع الثاني، الربيع الحقيقي في الديار المصرية وهو الذي يقع في الأشهر الثلاثة أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، وهي أشهر الصفاء والرخاء في هذه البلاد.

مرحبًا بالصيف، والصيف المصري جدير بالترتيب، فبفضله نتذوق نسمات في المساء لا تجود بمثلها الطبيعة في أي أرض، والقيظ في مصر يتقي بالظل وفي غير مصر لا يتقي القيظ إلا بوسائل يغلب عليها الافتعال.

وطعم الظل في مصر لعهد الصيف جميل المذاق إلى أبعد الحدود، ولا أدري كيف تركناه بلا تنويه فيما كتبنا عن خصائص الطبيعة المصرية.

ولابد من النص على حقيقتين من حقائق الحياة في مصر قبل أن أنسى وينسى الناس.

الحقيقة الأولى هي جمال الشتاء المصري قبل التمدن الحديث، ولا يعرف قيمة هذا الجمال إلا من نشأ في الريف فقد كان هنالك طعم لذيذ للدفء في "القاعة المحمية" وكان لتلك القاعات فضل في خلق شعور السعادة بالتغلب على قسوة الشتاء.

الحقيقة الثانية هي جمال الزير المعلق في أيام الصيف وهو يمنح الماء طعمًا لا يمنحه الثلج بأي حال.

(*) هذا المقال للدكتور زكي مبارك في العدد ٥١٤ من مجلة الرسالة بتاريخ العاشر من مايو سنة ١٩٤٣.

وبالقرب من دار الرسالة حارة تسمى حارة الزير المعلق فمن كان يجهل أصل هذه فليعرف أن "الزير المعلق" هو قصر شيرين باشا، ولعل صاحب القصر سماه بهذا الاسم للمعنى المضمر في لطافة الزير المعلق أيام الصيف، وقد سجل اسم هذا القصر في قصيدة من قصائد الشاعر إبراهيم الدباغ، أنعم الله عليه بالشفاء فقد سمعت أنه مريض.

أما بعد فإذا أريد أن أقول؟

هذا ربيع، وهذا صيف، وهذه ليالي النسائم الرقيقة بمصر الجديدة والجيزة والمعادي وحلوان والزيتون فأين صبواتك يا قلبي؟ وأين آلامك؟ وأين لياليك؟ وأين أحبابك كنت معهم على ميعاد؟

لقد بخلت الأقدار بالتلاقي وتركتنا نصطرع في لجيج اليأس العجاج.

مضى الشتاء وأورقت أشجار ثم أزهرت ومالك يا قلبي أمل في أزهار ولا أبراق..

الوجود كله ربيع فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي؟

ربيعك هنالك فامض إليه إن استطعت وإن استطاعت تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقباء.

سيمر زمن وأزمان وستفعل المقادير ما تفعل بمصائر ممالك، وشعوب، ثم يبقى لك هواك، يا قلبي، هواك الذي لا يجوز عليه الخمود لأنه من أقباس الخلود.

وهل يعرف أحبابك هنالك أنك معهم على ميعاد.

لقد يئسوا من وفائك يا قلبي لأنك آثرت الكتمان فمتى تفتضح في هواهم ليعودوا مع الربيع؟

أنت على بالي في كل وقت يا مهاة لا تخطر إلى على البال.

لو أنني استغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب علي ذنوب

في بناء الجيل الجديد:

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب إذا زود نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع.

ولكي نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة و اقتحام أسوار المسجد، وهذه آفة لم يسلم منها الناس في أي زمان.

نحن في الغالب نطالب بأكثر مما نستحق وندعي لأنفسنا حقوقًا لم نبذل في سبيلها ما يجب بذله من الجهود ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل، وهل عدلنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل..

لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة في القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا في الحياة السامية مكان...

ومن آفات الناس في هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون فمن النادر أن نجد من يفرح لأن جيرانه في رغد وإن كان في حرمان...

والاعتماد على الحكومة في جميع الشئون أخرط آفات هذا الجيل فالحكومة هي التي تصد بغي الناس بعضهم على بعض والحكومة هي التي تضمن وجود الرغيف في السوق والحكومة هي المسئولة عن كف يد القريب عن ظلم القريب..

نحن نشغل بعد المنافع عن عدم المآثم وننسى محاسبة أنفسنا عن الكسل البغيض، الكسل الذي يشل مواهبنا المكنونة ويضيفنا إلى جماعة المتواكلين.

ما هذا الذي نعاني من كوارث وخطوب؟

أقول هذا لأني أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التي تساق من بعد ونغفل عن المصاعب التي نخلقها بأيدينا..

وهي المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية والعقلية وصدق الرسول حين قال: "أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك".

الجهل الدميم بقوانين الوجود هو الذي يجعلنا نلقي المسئولية على من لا يحملون عنا أية مسئولية، والفرار من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان.

لو أنفقنا في محاسبة أنفسنا معشار ما ننفق في محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا إلى جهاد النفس إلى أشياء. ولو تجنينا على أنفسنا كما نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكشفت أنفسنا عن حقائق تهدينا في ظلمات الوجود...

محاسبة النفس لا تقع إلا عند يقظة النفس فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا كان في جميع الأحوال من دلائل السبات..

وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ في تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات ثم ننتظر أن لا ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجميل..

وما هي الحكومة؟

هي مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرضون له سائر الناس في المعاملات الفردية والاجتماعية ومن حقهم أن يعاملوك بالعدل في الإساءة كما تحب أن يعاملوك بالعدل في الإحسان.

وما هو المجتمع؟

هو تلك الخلائق المبثوثة في القرى والمدن والأسواق وهي على تنوعها العجيب قد تلتقي في المشاعر والعواطف من حين إلى حين وقد نخطئ فنتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيوب فيمن لا يرى فيها غير العيوب....

والمصلح في الجيل الجديد سيسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصلية في المجتمع وهي سر التماسك الاجتماعي وبفضلها استطاع المجتمع المصري أن يقهر مصاعب كثيرة، عانتها مصر من جيل إلى جيل.

وخلاصة القول إني أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه جر الأساس في بناء الحكومة وبناء المجتمع، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق.

ظرف المكان:

في يوم واحد ظهر لي مقال في مجلة الرسالة ومقال في مجلة الاثنين ردًا على الأستاذ عباس محمود العقاد، ومع أن المعاني واحدة أو كالواحدة في المقالين فقد اختلف الأداء كل الاختلاف فما السر في ذلك؟

يرجع السر إلى ظرف المكان، فقد بدا لي العقاد في "الاثنين" وهو خصم وبدا لي في "الرسالة" وهو زميل وما أبعد الفرق بين الخصم والزميل.

قال قائل: إن اللطف الذي بدا في مقالة الرسالة بدد العنف الذي ظهر في مقالة الاثنين، وأقول إني لا أندم على كلمة الخير بأي حال، وليس في نيتي أن أصنع العنف في معاملة زملائي إلا أن يحرجوني والرجل الغضبان يستبيح ما لا يباح.

وأنا مع ذلك أشعر بفداحة الخسارة في العراك الذي ثار بيني وبين الأستاذ العقاد فلا هو وصل إلى شيء ولا أنا وصلت إلى شيء، لأن ذلك العراك لم يزد عن ملاحاة لا أرضاها منه ولا يرضاها مني.

خصومتي مع الدكتور طه حسين هدتني إلى حقائق أدبية وفلسفية..

وخصومتي مع الأستاذ أحمد أمين كانت السبب في أبحاث جياد أفصحت فيها عن سرائر الأدب العربي.

وخصومتي مع الأستاذ توفيق الحكيم كانت السبب في أن أنشئ مقالي عن "رجال الأدب ورجال القضاء".

وخصومتي مع الأستاذ إبراهيم المازني كانت الباعث لبعث مواهبي الشعرية.

فما مصير خصومتي مع الأستاذ العقاد؟

إن بوادرها لا تبشر بالخير فهل تقع معجزة تحولها إلى الاختصام حول حقائق تكون دساتيرها في فهم أصول الأدب والبيان؟

أنا أنتظر أن نخوض في أحاديث تصل بنا إلى نفائس وأكره أن تكون المعارك الأدبية في مصر مقصورة على مجادلات ينفر منها الذوق في أكثر الأحايين.

وإلى اللقاء على صفحات "الرسالة" الصديق.

ضيوف القاهرة:

كان من المألوف أن يصطاف المصريون في فلسطين أو سوريا أو لبنان لينعموا بالرخاء الذي لا تعرفه مصايف الإسكندرية أو رأس البر أو بورسعيد، فما تمتع بلد قبل هذه الحرب بمثل الرخاء الذي كان يتمتع به أهل فلسطين ولبنان..

واليوم نسمع أن تلك البلاد تعاني متاعب عنيفة من الغلاء ونرى بين أعيانها أفواجًا تزور القاهرة لتعيش في رفاهية بضعة أسابيع فما الذي نصنع في إكرام أولئك الضيوف.

يعز عليَّ أن أعترف بأننا لم نتخذ خطة واضحة في استقبال من يزور مصر من أبناء الشرق العربي والإسلامي وإلى وزير الشئون الاجتماعية أوجه هذا الحديث.

شارع الشريف وغيط الشريف:

في يناير ١٩٣١ شكا إليَّ المسيو فوشيه مراسل "الأهرام" في باريس من أن جريدة الأهرام تدعوه إلى الإقامة في القاهرة شهرًا أو شهرين من كل عام ليعرف الجو السياسي فيراعيه فيما يرسل من البرقيات.

وفي أغسطس سنة ١٩٤١ زرت مدينة المنصورة لأتحدث مع الأستاذ الزيات فيما يجب أن نراعيه من التوجيهات الأدبية والاجتماعية.

وفي إحدى السهرات قال فلان: هل سمعتم باسم الشارع الجديد.

وما اسم الشارع الجديد؟

- شارع الشريف الرضي.

فابتسم الأستاذ الزيات وقال: هذا من وحي الدكتور المبارك.

وفي يناير سنة ١٩٤٢ رفعت قضية شفعة على غيط يجاور أملاكي في سنتريس ولم أكن أملك من ثمنه غير دنانير كسبتها من كتاب "عبقرية الشريف الرضي" وقد كسبت القضية وسميت الغيط "غيط الشريف".

أمر الأرواح عجب في عجب، وما أعجب الأرواح... كان الشريف الرضي يتحدى خلفاء بغداد بأن له في مصر أنصارًا يستنصر بهم حين يشاء.. وقد وفت مصر للشريف بعد عشرون قرون فسمت باسمه شارعًا في المنصورة وغيطًا في سنتريس.. ولن يموت رجل يحفظ اسمه في المنصورة وسنتريس.

الشريف هو الذي يعبر عن أشواقي إلى أحبابي في العراق حين يقول:

ومن عجب لا أسال الركب عنكم	وأعلاق وجدي باقيات كم هي
ومن يسأل الركبان عن كل غائب	فلابد أن يلقى بشيرا وناعيا

وقد فجعتني الأقدار بموت الصديقين الكريمين إبراهيم العمر وصادق الوكيل وكانا عدوين لا يقرب بينهما غير الاتفاق على ودادي وما أكثر ما صنعت في تبديد الخلاف بين المتخاصمين من أبناء العراق.

كنت أقول إنني أحب العراق لأخلق فيه صداقات لوطني...

واليوم أقول إني أحب العراق لأنه العراق..

ومن الذي يكره بلدًا لا يفارقه بغير الدمع؟

العراق وطني لأنه أصدق الأصدقاء لوطني ولأنه العراق، من الذي يكره أبدًا من رجاله طه الراوي ورضا الشبيبي؟ ولأنه دار الذين يئسوا من وفائي مع أني أوفى الأوفياء..

أنا الجاني على نفسي... فقد تهاون في نقل تلك البنية إلى وطني ومعها تتلك الأم السمراء. ويا لها من سمراء.

جنى الهوى ما جنى وجنيت ما جنيت.. فعلى أيام الهوى وعلى أيامي ألف تحية وألف سلام.. إلى أن نلتقي في ظل الموصلية التي تسكن في بغداد، وهي ملثوغة الراء. لأنها حواء، وأنا أول الحافظين لعهد الوفاء

تجميل القاهرة(*):

المعروف أن رجال الهندسة لا يرون من حق رجال الأدب أن يتحدثوا في شئون هي في الأصل من أعمال المهندسين، ولكني مع ذلك سأسوق ملاحظة تبين أن تخطيط المدن يقوم على قواعد ذوقية قبل أن يقوم على قواعد هندسية، إن جاز الفصل بين الهندسة والذوق.

هل سمعتم "نفق شبرا" وقد انتظرناه عددًا من السنين.

لا أدري كيف سمحنا بأن ننفق في إنشائه ألوفًا مؤلفة من الدنانير، ثم تكون النتيجة أن يبقى جسر شبرا في حالة لا تريح من يسيرون على الأقدام لأنهم مضطرون إلى استعمال تلك السلالم المتعبة في الذهاب والإياب، بغض النظر عن المتاعب التي يتعرض لها من يريد ركوب ترام شبرا وهو في ميدان باب الحديد.

منشأ هذه المضجرات أننا أردنا أن تكون محطة القاهرة محطة واحدة، وكان يجب أن تكون فيها محطة لقطارات الشمال ومحطة لقطارات الجنوب، ولو فعلنا ذلك لظفرت القاهرة بميدان جديد، ولكان من السهل أن ترفع متاعب من يتجهون إلى شبرا، وهي اليوم منطقة تموج موجًا بالسكان وستكون مصدر نشاط صناعي واقتصادي في المستقبل القريب.

يجب أن نبادر إلى رفع جسر شبرا وأن نفصل محطة الشمال عن محطة الجنوب، وهذا لا يمنع من بقاء الطريق الذي تمر به قطارات البضائع، وهي قليلة العدد وأغلبها يمر بالليل، فلا يعرقل حركة المرور إلا في لحظات لا يحسب لها حساب...

لقاء القاهرة:

خطر في البال هذا الخاطر وأنا أمتطي قطار الديزل إلى الصعيد في عصرية الخميس الماضي، ثم خطر في البال أيضًا ما تعاني المنطقة التي يمر فيها قطار الصعيد بين باب الحديد وجسر إمبابة، وهي منطقة لا تقع في العين على منظر جميل، لأنها من ذيول بولاق، وكان الظن أن نفهم أنها أول ما يرى القادم على القاهرة من ناحية الصعيد.

(*) العدد ٥١٥ من مجلة الرسالة في ١٧ مايو سنة ١٩٤٣.

منذ ثلاث سنين كتبت كلمة في مجلة الرسالة أدعو فيها إلى تجميل مدخل القاهرة في نظر القادم من الإسكندرية أو بورسعيد فما استمع مستمع ولا استجاب مستجيب، وأنا اليوم أعجب من أن تبقى منطقة بولاق على ما كانت عليه قبل التمدن الحديث، مع أن لبولاق تاريخا من أعظم التواريخ، فهي التي أنشأت المدافع لمقاومة الاحتلال الفرنسي وفيها أقيمت أو مطبعة لإحياء المؤلفات العربية والإسلامية، وهل في العرب من لا يدين لمطبعة بولاق، ولو كان في أقاصي الصين؟

قطار بورسعيد:

الواقع أننا لا نفكر في خلق الجاذبية في صدور من يفد على الديار المصرية.. هل تعرفون شيئًا عن قطار بورسعيد؟

وهل تصدقون أن أجرة الباخرة من مارسيليا إلى الإسكندرية أرخص من أجرة المثل في السفر من مارسيليا إلى بورسيعد.

لذلك أسباب، ولكني أحب أن أجعل قطار بورسعيد من أهم الأسباب.

هو قطار سخيف، وهو لسخفه يجعل من يركبه يقاسي زوابع الصحراء نحو ساعتين، أما الدرجة الثالثة فطعام ركابها عجاج في عجاج ويل ويل من يركب قطار بورسعيد وهو خفيف الجيب.

وبهذه المناسبة أذكر أن الدرجة الثانية بقطار الصعيد ليس فيها مراوح فماذا يصنع الركاب في وهج الصيف، إذا كتب عليهم أن يصطلوا القيظ بين الأقصر وأسوان؟

شيئًا من الرحمة، يا مدير سكك الحديد، فقد سمعت أنك من الرحماء وما حال المقصف الذي يوجد في بعض القطارات لا كل القطارات؟

هو محرم على ركاب الدرجة الثالثة تحريمًا قاطعًا، وقد يكون فيهم من يحاج إلى تناول الطعام في مكان مريح ليدفع مشقة السفر وهو قطعة من العذاب.

يا ناس، يا ناس، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

قطار الديزل:

سمي باسم المخترع (ديزل) وهو ألماني الأصل، وليس بقطار الديزل مقصف، مع أنه خاص بركاب الدرجة الأولى والثانية، ومع أنه لا يقف إلا في محطات قليلة، وهو حين يقف لا يمكث غير دقيقة أو دقيقتين.

بهذا القطار حنفية تجود بالماء لمن يقبل الجود من الأشحاء، وما قيمة الجود بماء لم يسمع بأخبار الثلج، ولا يعرف الطريق إلى تنسم الهواء؟

جربوا السفر بهذا القطار بعد الظهر وفي مثل هذه الأيام وفي طريق الصعيد، لتعرفوا كيف يبخل القطار على ضيوفه الأعزاء بكمية من الماء المثلوج، لا تتكلف خمسة قروش.

وقف الديزل في محطة بني سويف، فتصايح الركاب يطلبون من الباعة إمدادهم بأكواب الليمون، ليبتلعوها في مثل ومضة البرق، ويقوم القطار قبل أن يتناول المسافرون ما يخفف وقدة الظمأ وبعد لحظا يقف القطار، وننظر فنعرف أنه وقف إكرامًا لصاحب "بوفيه المحطة" وكان بقي في القطار إلى أن يتسلم ما له عند المسافرين من نقود.

فما الذي يمنع من أن يقف القطار بالمحطة نحو ثلاث أو خمس دقائق، ليستغني عن هذا التلطف في معاملة صاحب البوفيه، وليضمن راحة المسافرين من بعض هذا العناء؟

أيكون من الصعب إمداد ثلاثة القطار بزادها من الثلج، ولو بإضافة زيادة على أثمان التذاكر.

أما بعد فهذه شئون تبدو من التوافه في نظر بعض الناس، ولكنها شئون على جانب من الأهمية والاهتمام بها قد يغير ما درجنا عليه من الغفلة عن تذوق الحياة.

وهل كان البدوي الذي يعاني متاعب السفر في البيداء أشقى من الحضري الذي يمتطي قطار الديزل وهو على ما وصفت؟

لقد ظمئت بهذا القطار ظمأ لم أشعر بمثله وأنا أخترق البادية من دمشق إلى بغداد، لأن مطية نيرن تفكر فيما لا تفكر في مطية ديزل، ولأن الشركات تتصنع في ملاطفة الزبائن ما لا تصنع الحكومات وما أحب أن أزيد.

القيظ في أسيوط:

دخلت أسيوط وقد انتصف الليل أو كاد، فرأيتها في حال من القيظ لا تطاق، فماذا صنعت الأيام بجو هذه المدينة الفيحاء؟

إنها بعيدة من النيل البعد، فكيف أنشئت على هذا الوضع، وما كان لمدينة مصرية أن تنشأ إلا على ضفاف النيل؟

كانت أسيوط في الأصل على شاطئ نهر يجاورها من الغرب نهر يساير الجبل من الجنوب إلى الشمال، وقد أنطمر هذا النهر ولم يبق ما يدل عليه غير بقايا من قناطر محطة كان لها شأن فيما سلف من الزمان.

وكان بأسيوط برك واسعة، كالبرك التي كانت بالقاهرة، من أمثال بركة الأزبكية وبركة الرطلي وبركة الفيل.

والبركة كانت كلمة مقبولة في الأيام الخوالي، ولها في أشعار البحتري مكان، وقد أخذتها اللغة الأسبانية عن اللغة العربية، وابتذال هذه الكلمة جديد في حياتها اللغوية فهي اليوم ترادف كلمة المستنقع، ومن هنا قيل: "بطينه ولا غسيل البرك".

البركة قديمًا هي البحيرة والبحيرة تصغير بحرة مؤنث بحر، والبحر في أصل اللغة هو مجمع الماء الغزير، بغض النظر عن العذوبة والملوحة، فما يخطئ المصريون في تسمية النيل بحرا، مع أن عذب لا أجاج.

وأقول: إن البرك التي كانت بالقاهرة وأسيوط هي بحيرات، فقد كانت تأخذ مددها من النيل في أيام الفيضان، ثم يبرك فيها الماء بعد انحسار الفيضان، فهي بركة من أجل هذا، إن صح هذا التخريج وهو صحيح.

كان برك القاهرة كثيرة المنافع، فقد كانت مجالاً لنزهات الأصيل والعشيات في السفائن اللطيفة، وكانت منادح لتوالد الأسماك، وكتلك كانت برك أسيوط، وإن لم يسجل الأسيوطيون بركهم في الأشعار كما صنع القاهريون.

والذي يهمني في هذا المقال هو النص على أن برك أسيوط طمرت كما طمر النهر الذي كان يساير الجبل وهذا من أسباب عنف القيظ في أسيوط.

لقد حاول عبد السلام الشاذلي باشا تحويل تلك البرك إلى حدائق فتم له ما أراد في بركة واحدة وبقيت البرك الأخرى في حال من الجفاف تزيد وقدة القيظ.

أنا أعرف أن من العسير نقل أسيوط إلى شاطئ النيل في سنة أو سنوات، فلم يبق إلا أن نقترح المبادرة إلى تزويدها بالحدائق الكثيرة ليخف عذابها بلوافح الصيف.

المدينة المهجورة:

هي مدينة أسيوط فقد زهد فيها كبار أهليها من المسلمين والأقباط، وكادت تفقد اللقب الذي يجعلها عاصمة الصعيد.

ومن يصدق أن أسيوط كانت قبل عشرين سنة أنضر مما هي اليوم؟

ومن الغريب ما لاحظت أن أسيوط أقل الحواضر المصرية مسايرة الحياة الأدبية، ولولا الراعية لحق هذه المدينة لقلت إنها لا تعرف من مطبوعات القاهرة بعض ما تعرف دمشق أو بيروت أو بغداد.

هل تتغير هذه الحال بإنشاء الجامعة الثالثة جامعة أسيوط؟

إن الجلال السيوطي وهو أشهر من مجد اسم أسيوط في العهد الإسلامي لم يتخذ هذه المدينة دار مقام في الحياة ولا بعد الممات، فهل كان يعرف زهدها في المجد العلمي والأدبي؟

كلمة صريحة إلى أهل أسيوط(*):

في أسيوط وحدها يمر يوم وأيام بلا مدد من الجرائد والمجلات فكيف يقع ذلك ومدينة أسيوط هي الثالثة أو الرابعة بين كبريات المدائن المصرية؟

اتقوا الأدب في مدينة كان لها في الأدب تاريخ، عزيز على أن أقول في أسيوط كلامًا كالذي قلت، ولكن ماذا أصنع وأنا موقن بأنها أقل اهتمامًا بالأدب من حواضر السودان وبيننا وبينه أبعاد طوال؟

حياة أسيوط:

كان من المنتظر أن يتأذى قوم من الكلمة التي كتبها عن أسيوط وفي دفع تلك الكلمة تلقيت خطابين كريمين أحدهما من الأستاذ أحمد فتحي القاضي المحامي والثاني من الآنسة "ليلى" فماذا أقول في مناقشة هذين الخطابين؟

أذكر أولاً أن لي غاية من التجني على أسيوط فأنا أريد التنبيه إلى أن هذه المدينة لا تأخذ حظها من الاهتمام الواجب لمدينة في مثل مكانتها التاريخية وأنا أريد أيضًا تأييد الرأي الذي يقول بإنشاء جامعة أسيوط لتسترد حيويتها العلمية والأدبية وهل ينكر أحد أن من واجب

(*) العدد ٥١٧ من مجلة الرسالة في ٣١ مايو سنة ١٩٤٣.

الكاتب الوطني أن يدعو قومه إلى المبادرة بتزويد الحواضر الكبيرة بـأزواد العلـوم والآداب والفنون؟

إن أكابر أسيوط يهجرونها طائعين رغبة في الحياة القاهرية حيـاة الـسيطرة علـى المجتمع السياسي وأنا أحب أن عيش العصبيات الإقليمية على نحو ما كانت عليه مـن سـنين وأتمنى أن يرى الرجل في بلده من قوة ذاتية ما يغريه بالزهد في صوت القاهرة الصخاب.

وتقول الآنسة "ليلى" إني لو درج حياة أسيوط بعناية لأدركت أنها أعظم من سـنتريس وأقول إن البلاد تحيا بحب أهلها وأنا أحب بلدي بأكثر مما يحب الأسيوطيون بلدهم الجميل.

حدثني أحد أساتذة الكلية الأمريكية بأسيوط قال: إن الكلية دعت معالي الأستاذ نجيـب "باشا" الهلالي ليكون خطيب الحفلة الختامية في هذه السنة فتفضل بالقبول ثم اعتذر بعد ذلك.

فقلت: الكلية لم تراع ظروف الخطيب فإن الهلالي "باشا" نفسه حدثني أنـه لـم يـزر أسيوط منذ عشر سنين ومن المؤكد أن هذه المدة الطويلة مرت فيها مناسبات تفـرض عليـه زيارة وطنه الأول ومناسبات عائلية في الأفراح أو الأتراح فكان يكتفي بالبرقيات في التهنئـة أو العزاء فمن العسير عليه أن يعود في مناسبة وقتية لإلقاء خطاب يستطيع إرساله البريـد إن أراد.

وأعجب ما في هذه القضية أن للهلالي "باشا" مصالح في أسـيوط، تعطلـت بـسبب انصرافه عن زيارة تلك المدينة فله دار فخمة تعرضت للتصدع بسبب هذا الانصراف.

قلت لصاحبي وأنا أحاوره: هل تعرف أن للديار أرواحًا يؤذيها الجفاء؟

فقال: المعروف أن الديار مجموعة أحجار وأخشاب فهي جمادات لا تتأثر بالهجران.

قلت: هذا وهم في وهم فالديار تتأذى بالهجر كما يتأذى الأحباب وليس فـي الوجـود كائن بلا ورح ولو كان في الاصطلاح من الجماد.

وفي مقابل هذا أذكر أن كبيرا من كبرائنا باع أملاكه في بدله لتكون ثروته في القاهرة عساه يشرف عليها بلا عناء ومع هذا يعاب على أن أقول إن أكابر أسيوط يهجرون أسيوط؟

يجب أن نقول ثم نقول بأن الإقبال على الحياة القاهرية سيؤذي الأقاليم المصرية أشـد الإيذاء.

هذا مع أن النيل يرشدنا إلى الواجب في كل لحظة باختياره الموفق لأطايب البقاع ولو سايرنا النيل في هواه لكانت عندنا مئات من غرر البلاد.

وهل ننسى أننا لم ننشئ مدينة جميلة في "القناطر الخيرية" وهي بقعة لا نظير لها في أي أرض؟

وقطار الإسكندرية يمر بناء على مدينة أسمها "كفر الزيات" على موقع من أجمل مواقع النيل فما تلك المدينة؟ ومتى تخطر على البال؟

والنيل بين زفتى وميت غمر على جانب من العظمة الطبيعية والجمال الأصلي فأين من فكر في الاستظلال بتلك العظمة وذلك الجمال؟

إن الحمائم والعصافير تعرف من سرائر بلادنا ما لا نعرف، ألم أحدثكم مرة أن لها مغاني في أكثر البقاع المصرية؟

لكل مكان في مصر روح وأرواح وبلادنا نشأت أول ما نشأ على فطرة الاستقلال فقد كان لكل قطر من أقطار مصر سيادة محلية وكان بكل قطر من أقطار مصر سيادة يتعاملون باسم الشرف والجود فكيف تحول هذه القوى إلى بقعة واحدة هي البقعة القاهرية؟

هل نتعزى بأن يقال إن القاهرة أعظم مدينة في الشرق ونحن نعرف أنها تجني على الحواضر المرية بغير حق كما تجني أسيوط على منفلوط؟

وهنا يجيء حديث المناطق في وزارة المعارف وقد سمعت أن نظام المناطق في طريق الإلغاء.

وأقول بصراحة إن أول وزارة عرف طريق المناطق هي وزارة الداخلية وهي لا تستطيع التخلي عنه بأي حال لأنه أفضل الأنظمة في صيانة الحياة الداخلية ولأن المشرفين عليه كانوا السبب في تنظيم حواضر البلاد.

وإذا استطاعت وزارة المعارف أن تمنح ممثليها بالأقاليم قوة تشبه القوة الممنوحة لممثلي وزارة الداخلية فستظفر الأقاليم بإصلاحات قائمة على أساس الفهم والذوق وقد تفك الحصار المضروب على رجال التعليم وهم رجال تعوقهم الظروف عن تحقيق ما يريدون في إصلاح الأقاليم.

هل يعرف أحد كيف يجوز أن يكون ممثل وزارة الداخلية هو الرجل الأول في المديرية ولا يكون مثل هذا الحظ لممثل وزارة المعارف؟

نحن أخوة فكيف نفترق في الواجبات ولم نفترق في الحقوق؟

ما الذي يمنع من إعطاء مديرية التعليم فرصة الإصلاح الممنوحة لمدير المديرية؟

أنا أوجه القول إلى وزير المعارف وأسأله برفق عن تعطيل مواهب رجال التعليم في الأقاليم وفي مقدورهم أن يخدموا الإصلاح خدمات عظيمات؟

لقد اقترحت أن يكون وزير المعارف هو الوزير الأول ليكون المعلم هو الرجل فهل كنت في هذا الاقتراح من المسرفين؟

إن كان ذلك فأنا أطالب معالي وزير الأشغال بأتعابي وقد وجهت إليه كلامًا عن "نفق شبرا" يستحق ألوفًا من الجنيات فليدفع الأتعاب قبل أن أقاضيه بمحكمة مصر الجديدة. وهل في مصر الجديدة محكمة أهلية؟

هذا إشكال جديد وسأخاصم فيه وزير العدل بعد حين، ثم ماذا ثم يبقى القول في رد ما جاء بالخطابين الكريمين خطاب ابن منفلوط وخطاب بنت أسيوط فإلى اللقاء.

الدفع مقدمًا:

من العبارات المألوفة في البيع والشراء عبارات: الدفع مقدمًا، والدفع فورا والدفع بالتقسيط..

والمفهوم أن الدفع مقدما أدل على النفاسة من الدفع فورا، أما العبارة الثالثة فهي شاهدة بهوان المعروض – وكل معروض مهان ولكن ما الرأي إذا كان التقسيط من تلطف البائع، لا من هوان المبيع؟

ما الرأي إذا كان السلعة المبذولة غنيمة وجدانية لا تقوم بالمال، وإنما تقوم بقصيدة أو مقالة تؤخذ أقباسها من لهيب الروح؟

ألا يكفي أن تصبح ذمة الكاتب والشاعر في غنى عن الضمان؟

سأرى كيف أصنع في سداد الديون بالتقسيط... ولعلني أسارع ليكون من حقي أن أطمع في غنائم جديدة من غنائم الوجدان في المدينة التي قال فيها أحد الشعراء:

ولا عيب فيها غير أن نسميها   يزيد سعير القلب وقد إلى وقد

بلادة أدبية:

هي بلادة الأدباء الذين يسألون من وقت إلى وقت عن السبب في خمود نار الخصومة بيني وبين الدكتور طه حسين، وأني لأنظر فأرى لهم غية من تأريث تلك الخصومة لأنها تشفي صدورا يعجز أصحابها عن الوقوف موقف الخصماء.

إن خصومتي للدكتور طه حسين خصومة أدبية لا شخصية، وسأخاصمه كلما لاحت فرصة لنقد ما يصدر عن قلمه من آراء وهو لا يزال في الميدان فليس من البعيد أن ارجع غليه بعد أسبوع أو أسابيع.

المهم هو تسجيل هذه الظاهرة الغريبة، ظاهرة البلادة الأدبية عند بعض الأدباء البهاليل، فما الذي يصدهم عن نقد الدكتور طه بأقلامهم إن كانوا يرون في مذهبه الأدبي شيئًا من الأعوجاج؟

إن الذين يتوهمون أن في مقدورهم أن يثيروني على الدكتور طه حسين بمثل ما توسل به أحد من النمائم لفي ضلال، فما يستطيع قلمي أن يصول بغير الحق ولو في مناوشة أعدى أعدائي على فرض أن الدكتور طه من الأعداء وله في قلبي مكان.

المعارك القديمة في مصر:

لخصت مجلة الصباح الدمشقية ما دار بيني وبين الأستاذ عباس العاقد من صيال ثم قالت:

"هذا نمط من المعارك القلمية التي تثور في مصر اليوم، وبمثل هذا النقد اللاذع يتراشقون".

والجواب حاضر فمصاولة الأدباء المصريين بعضهم لبعض لا تغض من النهضة الأدبية في الديار المصرية وإنما هي شاهد صادق على حيوية الأدباء المصريين.

قلت مرة ومرات: إننا نختلف أقل مما يجب ويا ويلنا إذا لم نختلف.

فإن شاء رفاقنا في دمشق أن يعدوا الاختلاف من عيوبنا فهم مخطئون، ألم أقل لكم إن السلام ضرب من الموت.

الطبيعة والناس:

في اللحظات التي يتزحزح فيها برد الشتاء من وضع إلى وضع تبدأ الطبيعة بإعداد الخلائق الجديدة في عوالم الشجر والنبات والطير والحيوان.

والأمر كذلك في حياة الناس... ألم تسمعوا بهجوم الربيع في دنيا الحرب؟

كان ذلك لأن الربيع يوقظ القوى الغافية، قوى الحب والبغض، والصلح والقتال.

أكتب هذا وقد سمعت ما سمعت وقرأت ما قرأت من أخبار العراك في مجلس النواب فما دلالة هذا العراق؟ وهل يحط من أقدارنا في أنظار أهل الشرق والغرب، كما قيل؟

الرأي عندي أن مصر غنمت بهذا العراك غنائم لم تكن تخطر في البال فقد ظهر جليًا أن عندنا خطباء من الطراز الأول في اللغة العربية، وظهر جليًا أن عندنا رجالاً من أصحاب الأعصاب الحديدية وهل من القليل أن يكون عندنا وزراء يقضون نهارهم في مكاتبهم على خير حال من النشاط، ثم يقضون صدر الليل في مصاولات برلمانية تفل الحديد؟

ماذا يقول الجيل المقبل حين يرى مضابط البرلمان؟ ماذا يقول؟

كل ما أتمناه أن تدوم هذه اليقظة العقلية والروحية على نحو ما رأينا من القوة والحيوية.. ليعرف الجيل المقبل أن آباءه كانوا أصحاء في الأرواح والعقول وأنه جدير بأن يخلفهم في ميادين المنطق والفكر والبيان.

أظهر ما عيب به تلك المصاولات هو صدور ألفاظ نابية على ألسنة بعض النواب، فهل تفردنا بخلق تلك الألفاظ، ولها نظائر في جميع اللغات؟ وهل كان مجلس النواب مجلس سمر لا يدور فيه غير مصقول الأحاديث؟

إن خصوم الحكومة قالوا فيها ما قالوا: وقالت فيهم ما قالت، وعرف الجمهور عن طريق العلانية كل شيء، برغم قيام الأحكام العرفية.

إن موقف المؤرخ لعهد من عهودنا الأدبية في البلاغة البرلمانية، وهي بلاغة وصل إلى غاية من أرفع غايات، البيان، شهد بأن للفكر في مصر أقطابا وأساطين.

٤٣

في دار المفوضية الأفغانية(*):

كانت عصرية الخميس موعد الاحتفال بعيد استقلال أفغانستان، فأقبل على دار المفوضية الأفغانية بالزمالك جمهور من رجال السياسية والأدب والدين، وشعر الزائرون جميعًا أنهم في دارهم، بفضل المودة التي يضمرها سعادة السيد محمد صادق المجددي لأهل هذه البلاد، وبفضل ما يكنه المصريون لهذا الرجل من الإجلال.

ولكن ما القيمة الصحيحة للسيد المجددي، القيمة التي توجب أن يبقى في مصر مدة لم تتفق لغيره من السفراء؟

التوفيق بيد الله، ومع هذا فمن الواجب أن نحاول وزن الرجل من الوجهة الأخلاقية، فقد يكون في ذلك ما ينفع بعض الدبلوماسيين من رجال الشرق.

المجددي ذكي جدًا، ولكن ذكاءه يشبه النبع الذي يترقرق تحت الرمال، فهو يرى الأمور على ما هي عليه من قرب أو من بعد، ثم يؤدي واجبه بلا جلبة ولا صياح والمجددي سفير مسلم في أمة إسلامية، مسلم صادق إلى ابعد حدود الصدق، وقد يعد من النوادر في بعض السمات، وإلا فمن يصدق أن وزيرًا مفوضًا ينزل من سيارته ليساعد على حمل نشع، عساه يظفر بموعود الثواب؟

والمجددي يقيم حفلات رسمية موسمية متصلة بالأعياد القومية في أفغانستان ولكنه لا يقى خطبه إلا في الحفلة التي يقيمها بمناسبة المولد النبوي.

وهو يعتكف أيامًا من كل سنة في أحد المساجد اعتكافًا لا يسمع به غير الخواص. وأين من يصبر على الاعتكاف بالمساجد في هذا الزمان؟

وإسلام المجددي إسلام لطيف فهو يحيا حياة ذوقية قليلة الأمثال.

دخلت الموفضية الأفغانية مع السيد خالد الشوربجي فلما جاء السيد المجددي لاسقبالنا قدم إليه الشوربجي سبحة، فقال المجددي: وأين القرنفلة؟

(*) العدد ٥١٩ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٤ يونيه سنة ١٩٤٣.

وكان ذلك لأن المجددي نسى في المفوضية العراقية سبحة وقرنفلة ولم يفته حين ترد إليه السبحة أن يذكر القرنفلة، كأنها أهديت إليه في ساعة صفاء.

ويظهر ذوق المجددي في أحاديثه الإخوانية، الذوق المطلول بندى الوجـدان، فهـو يحادثك بروحه وقلبه حديث الرجل المفطور على صدق الطوية ولا تلمح في بشاشته أي تكلف أو أي افتعال وقد ربى أبناءه في مصر تربية عربية إسلامية ليكون اتجاههم إلى المـشرق لا إلى المغرب وليضمن انتفاعهم بالإقامة في وطن الأزهر الشريف.

لم تكن لمصر مفوضية في أفغانستان فسعى السيد المجددي لحمل الحكومة على إنشاء مفوضية هناك ثم لاحظ أنها تتردد فأعلن أن هذا التردد قد يقهره على مفارقة مصر بعـد أن أحبها اصدق الحب، وبهذه اللمحة الوجدانية وصل إلى ما يريد.

أما بعد فهذه كلمة نكتبها لوجه الله في تحية رجل من المؤمنين بالله.

مع النحاس باشا:

كانت مصادفة جميلة في ذلك اليوم الجميل فقد جلست مع رفعت النحاس باشـا علـى مائدة واحدة وتجاذبنا أطراف الأحاديث والنحاس باشا يترسل حين يتحدث ويحرص علـى أن يقدم لمحدثه أطايب المعاني اللطاف.

مراسم عباد الشمس بالحديث فقال إن اسمه بالفرنسية "تور نصول" لأنه يـدور مـع الشمس وهو رمز الرياء.

فقلت: إن عباد الشمس يدور مع الشمس بإرادة لا تعرف التقلب فمن الظلم أن نـضيفه إلى زمرة المرائين وإن سمح رفعة الرئيس فأنا أذكر أن رمز الرياء هو "أبو رياح" لأنه يدور مع الرياح بلا إحساس وبهذا الوصف عرفه العرب وكان فـوق أبـواب القـصور وأسـوار البساتين.

وعند ذلك قال عبد الفتاح باشا الطويل ولا يزال "أبو ريـاح" معروفًـا عنـد باعـة الحلويات ويكثر وجوده في الموالد والأسواق، وسأل أحد الحاضـرين مـن الأجانـب رفعـة الرئيس عن موعد اصطياف الحكومة بالإسكندرية فأجاب سيحدد الموعد بعد استئذان جلالـة الملك في أن يكون انتقال الحكومة إلى هناك بصفة رسمية، فقال السائل: وما الفرق بين الصفة الرسمية وغير الرسمية في الاصطياف؟ فأجاب رفعة الرئيس: الاصطياف الرسـمي يوجـب انتقال الهيئة الدبلوماسية إلى هناك.

فقلت في نفسي هذا بعض ما كنت أجهل من تأثير الرسميات ثم اعتذر الرئيس بأن عليه أن يحضر حفلة يونانية وانصرف قبل نهاية الاحتفال.

مع الدكتور طه حسين:

والتفت فرأيت الدكتور طه بك قريبًا مني فمضيت للتسليم عليه ودار الحديث:

- هل يعرف سيدي الدكتور أن ورق الطباعة قد انعدم أو كاد؟
- إنها فرصة ثمينة جدًا.
- انعدام الورق فرصة ثمينة جدًا؟
- بالتأكيد لأنه يريح الناس من مؤلفات زكي مبارك سنة أو سنتين؟
- ولكن ما رأيك في الكتب المدرسية؟
- هذا ما نفكر فيه وقد نصل إلى شيء فليس من الصعب أن نقنع الحكومة بأن استيراد السماد لا يغني عن استيراد الورق.
- وهل يعرف سيدي الدكتور أن إرسال المطبوعات المصرية إلى الشرق قيد بقيود ثقال.
- أعرف ذلك وقد انتهينا إلى حل.
- وما ذلك الحل؟
- قيدنا إصدار المؤلفات القديمة وأبحنا إصدار المؤلفات الحديثة بلا قيد ولا شرط، تشجيعًا للتأليف الحديث فليس من الرفق ولا من العدل أن تصد المواهب المصرية عن الاتصال بأمم الشرق ويكفيها ما تعاني من أزمة الورق وغلاء المطبوعات.
- ولكن ما الموجب لتقييد التصدير بالنسبة للمؤلفات القديمة ولبعضها أهمية لا تحتاج إلى بيان؟
- المؤلفات القديمة موجودة في أكثر بقاع الشرق، فمن واجب كل أمة عربية أو إسلامية أن تنشر ما تحتاج إليه من تلك المؤلفات وهل تظن أن الجاحظ مثلاً يحتاج إلى تشجيع الحكومة المصرية إنما يحتاج إلى تشجيع جماعة المؤلفين من الأحياء وقد نشأوا في زمن لا ينقل فيه الفكر بغير الطباعة والتوزيع.

وما كدنا نفرغ من هذا الحوار الهادئ حتى رأينا رجلاً يقول: يا دكتور طه بك عندي مؤلفات عميقة جدًا لا يفهمها أحد غيرك، متى أعرضها عليك لأعرف رأيك؟

فقلت: اسمع يا حضرة المؤلف العميق إن الدكتور طه مشغول في هذه الأسابيع فانتظر أجازته الصيفية ليفرغ لك ولأمثالك من أهل العمق العميق!

وتفضل حضرة المؤلف فمنح الدكتور بطاقته الغالية ليذكره حين يستريح في أجازة الصيف!

قال الجراح الدكتور محمد كامل حسين وهو يتأمل تلك البطاقة المزخرفة يجب على وزارة المعارف أن تؤلف لجنة لدرس مؤلفات هذا المؤلف العميق!

فقلت: ومن أجل هذا المؤلف توصد الأبواب في وجه الجاحظ: وأسرع الدكتور طه فانصرف قبل أن يتم الحديث.

مع الشيخ مصطفى باشا:

ولقيت فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا عند الباب فرجعت معه لآنس بحديثه لحظات ولم أكن رأيته منذ شهور طوال فاقترحت عليه أن يقيم في كل سنة موسما دراسيًا بالرواق العباسي إحياء لذكرى الشيخ محمد عبده فقال: إن ذكرى الشيخ تقع في يونيه. فقلت ليس المهم ذكرى الوفاة وإنما المهم ذكرى الدرس وهي مقيدة بالعام الدراسي.

- في النية أن تقام مباني الأزهر الجديدة قائمة محاضرات باسم الشيخ محمد عبده.
- أهم من هذا أن يقترن الرواق العباسي باسم الشيخ محمد عبده ففي ذلك الرواق تألق نجم الشيخ وفيه دارت المساجلات بين طلاب الحق واليقين.
- ما الذي يمنع من أن نقدم هذا الاقتراح لفضيلة الشيخ المراغي؟
- الشيخ المراغي يرحب كل الترحيب، فاستعد أنت، وليستعد من انتفعوا بآراء الشيخ محمد عبده، عساكم تحيون ذكراه بأبحاث متصلة بالمعضلات العقلية في هذا الجيل.

ثم تحدثنا في تأثير الشيخ عبده في زمانه فقال الشيخ مصطفى كان السلطان حين كامل يحمل المصحف دائمًا وكان يقول أنا مسلم على مذهب الشيخ عبده.

وتحدثنا عن صنيع الشيخ رشيد رضا في نشر مؤلفا الأستاذ الإمام فقال الشيخ مصطفى: خدمات الشيخ رشيد لا تنكر ولكنه ظل بعيدا عن روح الشيخ عبده فقد كان يسرع

إلى تكفير المسلمين لأقل الشبهات مع أن الشيخ كان يحكم بأن الرأي الذي يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ويحتمل الإيمان من وجه واحد يجعل صاحبه من المؤمنين.

وعرفت من حديث الشيخ مصطفى أن أوراق الشيخ عبده قدمت إلى الشيخ رشيد لينتفع بها في تدوين تاريخه بعد أن اعتذر الشيخ عبد الكريم سليمان وأن تاريخ الشيخ عبده روعيت في تدوينه أشياء فلم يدون على الوجه الصحيح فيما يمس تلك الأشياء.

ثم ماذا؟ ثم أذكر أن المستر بلنت قال في مذكراته لو وجب على أن أسجل شعوري نحو الشيخ محمد عبده فهو في نظري اصدق رجل عرفته في الشرق.

وأنا أشعر بمثل هذه العاطفة نحو الشيخ مصطفى عبد الرزاق فهو في نظري أصدق الأوفياء وهو معي في كل وقت وإن كنا لا نلتقي إلا في القليل من الأحايين.

الصديق الحق هو الذي يجعل الصداقة في مكانة من القدسية لا تأثر بالقرب أو البعد ولا تختلف باختلاف الظروف ولا يزيدها تقادم العهد إلا صفاء إلى صفاء.

نفحات عراقية:

أصدرت مجلة "العرى" عددًا خاص بالوفد العلمي، وفد الأساتذة المصريين إلى النجف وهو مجموعة من الخطب النفسية والقصائد الجياد وفيه ذكرت مصر بالخير على ألسنة فصاح وأفئدة صحاح.

قرأت تلك المجموعة حرفًا حرفًا ومتعت خاطري بذكريات النجف والموصل والبصرة والحلة وبغداد وهي بلاد الأهل والأحباب ثم سرني أن أرى خطباء النجف وشعراء النجف بعافية وإن لم أر اسم السيد عبود شلاش بين الخطباء.

وتذكرت الصديق الذي زرت معه النجف فمن ذلك الصديق؟

لن أنسى أبدًا أني زرت النجف مع السيد صادق الوكيل ولن ينقضي حزني عليه وكان أكرم صاحب وأكرم أليف.

لو عاش هذا الفتى لوصل إلى خفايا الدقائق من التاريخ الإسلامي.

ولو كنت أعرف أنه سيحتضر لأديت إليه بعض حقوق الوفاء.

كان طيع القلب في الرسائل الإخوانية فكنت أتلقى منه خطابا في كل أسبوع برغم تقصيري في الجواب لأنه كان يعرف أن الوقت لا يوافيني بما أريد والصديق الذي يعتذر عن أخيه نادر الوجود.

إن زرت العراق بعد حين أو أحايين فسأمر على كربلاء لأقرأ الفاتحة على قبرك يـــا صديقي ولأعزي أهلك إن جاز لمن يفقدك أن يجد العزاء.

أترك هذه اللواعج وأشكر لمجلة "العرى" لطفها مع الأساتذة المصريين راجيًا أن تلوح فرصة قريبة تجزي فيها العراق لطفًا بلطف وجميلاً بجميل.

هنا تقرأ الرسالة(*):

بهذه الجملة هتفت حين سمعت النداء بالرسالة صباح الأحد في شاطئ "استانلي" وحين رأيت مع بائع الجرائد كمية من إعداد الرسالة لم أكن انتظر أن أراها في ذلك المكان، وقبل ذلك بيوم رأيت في مكتب "سيدي جابر" جماعة من أفاضل الموظفين يحدثونني عن مقال أسيوط، ومن هذا وذاك فهمت أن المجلات التي تعني بالأدب الصرف أخذت تسيطر سيطرة روحية على أكثر الميادين، وكانت فيما سلف مقصورة على طرائف قليلة من الخواص، إن وصول المجلات الأدبية إلى الشواطئ له دلالة معنوية فهو شاهد على رقي الذوق ودليل على الشاطئ رواد ليسوا جميعًا من اللاهين فقد ظهر أن فيهم من يتخير المكان الذي يقرأ فيه، كما يتخير الكاتب المكان الذي يقرأ فيه والقراءة كالكتابة تحتاج إلى جو يسود فيه الجمال.

أقمت بالشاطئ ساعتين مع جماعة من رجال الأدب ومحبيه فدار الحديث حول كثير من المعضلات ودار أيضًا حول اللآلئ المنثورة فوق الرمال، وأخذت صور وأُنشدت قصائد وتجاوبت عيون وقلوب.

ثم أنظر فأرى رجل ملء العين والقلب بشرف على الشاطئ وهو سعادة الأستاذ الجليل محمد العشماوي بك فيقع في السجال:

-ماذا تصنع هنا يا دكتور مبارك؟

- جئت أحاول إتمام الصنيع الذي بدأته قبل أربع سنين.

- وما ذلك الصنع؟

- هو تأليف كتاب عن "أدب الشواطئ".

- وما أساس الفكرة في ذلك الكتاب؟

- أساس الفكرة أن المصريين أنشأوا فنًا جديدًا في الأدب العربي هو أدب الشواطئ وقد يكون ابتكارهم لهذا الفن جديدا بالنسبة لسائر الآداب.

(*) العدد ٥٢٠ من مجلة الرسالة في ٢١ يونيه ١٩٤٣.

تريد أن تقول إنه فن لم يوجد في الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً؟

- هو ذلك، مع الاعتراف بأن لشعراء فرنسا وإنجلترا أفانين متصلة بالحياة البحرية ولكنها تخالف إحساس المصريين بالشواطئ في مواسم الاصطياف.
- وهل تفردت الشواطئ المصرية بخصائص؟
- هذا مؤكد، فأنت لا تستطيع أن تحدد موعد لقاء على شاطئ فرنسي أو إنجليزي بعد أسابيع ولا بعد أيام، لأن الطبيعة هنالك مفطورة على التقلب، أما في مصر فتستطيع أن تحدد موعدا على أحد الشواطئ بعد سنة أو سنتين لأن جو مصر مفطور على القرار، والاطمئنان.

إن كان الأمر كذلك فكيف تأخر أدب الشواطئ في مصر، ولم تر له بوارق فيما مضى من العهود؟

- بدعة ا لاصطياف على الشواطئ بدعة حديثة العهد في الشرق والغرب.
- تعني أنها لم توجد قبل أن ويجد الشيخ أبو العيون؟
- الشيخ أبو العيون وجد قبل قرون.
- متى؟
- وجد باسم السخاوي.
- وكيف؟
- كان السخاوي مولعا بعد هفوات ابن خلدون فطاب له أن يدون في كتاب "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" أن ابن خلدون كانت له جولات في الشاطئ السكندري أيام الصيف.
- وما معنى هذا؟
- معناه أن شواطئ الإسكندرية كانت مراتع صبوات في ذلك الزمان.
- وهل قال ابن خلدون شعرًا نثر في الشواطئ؟
- حكاية ابن خلدون غريبة جدًا.
- وما وجه الغرابة في حكاية ابن خلدون؟

- حدثنا الأستاذ محمد المهدي في إحدى محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٧ أن السفينة التي أقلت ابن خلدون من تونس إلى الإسكندرية غرقت وهي مشرفة على الشاطئ فهلك أهله وأصحابه ونجا بعد أن كاد يمسي من المغرقين.

إذًا تكون جولات ابن خلدون على شواطئ الإسكندرية مناجاة لتلك الأرواح وهذا معنى جهله السخاوي ولم يجهله أبو العيون.

في هذا الكلام لواعج ذاتية فهل كان لك مع شواطئ الإسكندرية تاريخ؟

- كان ذلك أيام الاعتقال.

- هل اعتقلت يا دكتور؟

- قال ناس إني كنت من خطباء الثورة المصرية وإنني استصبحت بغياهب الاعتقال.

- أنا لم أسمع به من قبل.

وأنا أيضًا لم أسمع به قبل اليوم.

تلك إذًا دعابة من دعاباتك؟

- هي دعابة من دعاباتي بلا جدال ولكن لها عقابيل.
- لا تؤاخذني يا دكتور في جهل هذا الجانب من حياتك.
- أي جانب؟ أنا أمزح.
- وأنا أحب أن أسمع هذا المزاح.
- دخلت الإسكندرية أول مرة في سيارة مغلقة من سيارات الجيش البريطاني دخلتها بعد منتصف الليل وفي أعنف وقت من قسوة الشتاء فاجتهدت في زحزحة الأحجبة عساني أرى وجهًا من وجوه الحياة فوقع نظري على غابة من النخيل.
- وأين كان المعتقل في الإسكندرية؟
- لا أدرك أين كنا في "سيدي بشر" ولكن أين؟
- هل فكرت في التعرف إلى مكان الاعتقال؟
- فكرت وفكرت ولكني لم أستطع الاهتداء إليه برغم الشوق إلى المكان الذي أودعت فيه ذخائر شبابي.
- كنت بطل البحر في ذلك العهد ولعلني أول سابح عرفته البحار على نحو ما كنت.

- وكيف؟
- كنت أثبت قدمي في الماء بصورة لا تختلف عمن يثبت قدميه فوق الجبال وكان من المستحيل أن أتزحزح ولو صارعني أمهر السابحين فأين الماضي الجميل لعهد فتوتي وشبابي؟ أنا اليوم أزور الشاطئ زيارة الطيف وكل ماضي فيه أنني أنقذت من الغرق جماعة فيهم فلان وهو مخلوق يؤذيه أن يذكر فضلي... وبعض الناس يكربهم الوفاء.
- ويمثل هذه الخواطر تزور هذا الشاطئ؟
- ينبغي أن أقول كلامًا من هذا الطراز لينسى الناس أنني قلت فيه:

رعاه الحب من شط جميل	خفيف الروح مصقول أنيق
بهيّ الرمل تحسبه سجوقا	مطرزة بحبات العقيق
أطوف به فيغلبني خشوعي	كأني طفت بالبيت العتيق

هذه شيطنة شعراء!

- وماذا يصنع الملائكة لو طافوا بهذه الشواطئ؟ هل ينسوا أن الله هو الذي جمل هذه الخلائق؟ هل ينسون أن أعظم نعمة من نعم الله هي نعمة الجمال الوهاج؟

هذه الشواطئ كنوز أتحف الله بها هذه البلاد، فلنشكر لله هذه التحفة الغالية، ولنسأله أن يجعل أيامنا مواسم لشيطنة الشعراء.

ثم انتقل الحوار إلى مسائل سأعود إليها بالتفصيل بعد حين.

تمثال سعد باشا:

أعجب ما يقع في مصر أن يفاجأ الجمهور بأشياء لم يؤخذ فيها الرأي، كالذي وقع في تمثال سعد باشا زغلول وإلا فمن يذكر أن تمثال سعد باشا زغلول أخذت فيه الآراء قبل أن يقام في القاهرة والإسكندرية على ذلك الوضع الغريب؟

قاعدة التمثال يعاب عليها ما يعاب على قاعدة التمثال القائم بميدان باب الحديد فهي مرتفعة بطريقة لا تخلو عن عنجهية.

والتمثال نفسه سيء التعبير في أكثر نواحيه فعزيمة سعد باشا تتمثل في يده الشمال وقد أرخيت يمناه بصورة لا تليق.

وهنالك لوحة جانبية تفرض على سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي أن يقدموا مطالب الأمة إلى رجل قاعد وهم وقوف، فهل كان السير ونجت قاعدا وهو يستقبل أولئك الرجال؟

وفي هذه اللوحة يقف عبد العزيز فهمي وقفة غير مقبولة فما الموجب لذلك؟

وهناك لوحة ثانية جانبية حمل فيها سعد على أعناق مريديه وقد برز نعلاه بروزًا يأباه الذوق.

أعيدوا النظر فيما رسم على جوانب ذلك التمثال.

منارة أبي العباس:

قلت مرة إن منارة أبي العباس المرسي ستشهد إسلام الإسكندرية حين تنار بعد الحرب وستكون على الشاطئ المصري نظيره لبرج "نوتردام دي لاجارد" على الشاطئ الفرنسي والتنافس بين الإسلام والنصرانية سيمتد إلى آخر الزمان.

واليوم أذكر أن سعاد الأستاذ عبد الهادي الجندي باشا أسدى خدمة جليلة إلى الإسكندرية الإسلامية قبل أن يترك وزارة الأوقاف، فقد كاف الأستاذ حسنى السندوبي – تأليف كتاب تفصل فيه أخبار أبي العباس وأخبار مريديه من الصوفية ليوزع على المصلين يوم يتفضل جلالة الملك بافتتاح ذلك المسجد البهيج.

فما مصير ذلك الكتاب وقد راعني ما فيه من تفاصيل.

أيهمل باستقالة الوزير الذي أشار بأن يؤلف؟ أيوضع عليه اسم جديد إن كتب له البعث من مرقد وزارة الأوقاف؟

إن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق في غنى عمن يذكره بأن الإسكنرية الإسلامية منسية في عالم التأليف فليس من الكثير أن يذاع كتاب يؤرخ عهدا يفوق في الروحانية عهود اليونان والرومان، وهو أيضًا في غنى عمن يذكره بأن إسلام الإسكندرية ينتظر الإحياء.

عهود ومواثيق:

لم أسمح لنفسي بالراحة يوما باسم المرض، ولم أشك لغير الله ما يعتريني من التعب في بعض الأحايين، فكيف جاز أن أفكر في الرجوع إلى القاهرة قبل أن أقضي في الإسكندرية لحظات بين هدير البحر وظلام الليل؟

وماذا يقول أبنائي حين أرجع إليهم بعد يوم وأنا مكــروب؟ بينـــي وبـــين الله عهــود ومواثيق، والعهد بيني وبينه أن أقضي العمر ساجعًا فوق ما أبدع من أفنان الجمال، فأنا واثق بأن العافية لن تضيع من يدي، وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح؟

سأفارق الإسكندرية حزينًا هذه المرة، وسأجد في أصدقائي بها من يعتذر عني، فمـــا عندي بسمات ولا ضحكات ألقاهم بها لقاء الحبيب للمحبوب.

سنلتقي حتماً يا أحبائي، وسنلهو معًا بمصارعة الأمواج، وسنسر أحاديث تصغي إليها ضمائر السماء، فمن المستحيل أن ينقسم ما بيني وبين الله من عهود ومواثيق.

بين الحب والإعجاب[*]:

الصلة بين الكاتب والقارئ منوعة الألوان، فهناك كاتب يحبه القارئ، وكاتب يعجب به القارئ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب.

ومرد الأمر إلى ذاتية الكاتب، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول.

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عرضة للضعف، وإن خلا منهما معًا فهو إلى فناء.

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب الثوابت، وإن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون.. وهذا توهم، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت، وإنما هي بوارق تصدر عن العقل والقلب من حين إلى أحايين.

ومع هذا فمن المؤكد عندي أن العقول تراض وأن القلوب تراض، ولكن كيف؟

هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية، وهي التأملات في دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية، وهي فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف.

والظاهر أيضًا أنه لابد من التزود بما سميته "الحاسة الفنية" وهي حاسة لا توهب لجميع الناس، وإنما يختص الله بها من يشاء، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ في كل أمة أحاد وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين؟

إن الوجود كتاب مفتوح، ولكنه لا يقرأ بسهولة، ولا يجتلي أسراره غير أفراد، فكيف نصل إلى لبابة المكنون؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة، فنحن نضيع فرص التأمل، ونحن نهيب ما يغضب المجتمع، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المبين.

(*) العدد ٥٢٠ من مجلة الرسالة في ٢١ يونيه سنة ١٩٤٣م.

الأصل في الأدب أن يكون ثروة عقلية وذوقية، والأصل في طبيعة الأديب أن تكون قوة موحية، قوة تعطي وتمنح، وعنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال.

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحادة للمجتمع، فالمحادة المقصودة عناد بغيض ولكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية، موحيات الظروف، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود.

ويظن ناس أن "الكاتب المحبوب هو الذي يحدث قراءه عما يألفون وهذا خطأ في خطأ، وإنما الكاتب المحبوب هو الذي يمضي بقرائه إلى شعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل، فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية الفكرية، عامية الرأي المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ. وما قيمة الكاتب إن لم يشعر القارئ بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح، ولو بلمحة سانحة في أثناء الحديث؟

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية، عساه يخلق في القارئ وجدانًا يحس به حقائق الوجود. فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نفاضة من أضابير زهد فيها العنكبوت.

والأدب عند كل أمة وفي كل عهد سمو وعلاء، وهو التعبير الصحيح عن المطامع الكريمة في السمو والعلاء، ولهذا كان من أساسه الأصلية أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب.

وليس المراد من طرافة الفكر أن تكون رأيًا لم يسمع بمثابة الناس، لا، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيرًا ذاتيًا يجعله من الطريف، بحيث لو تحدث عنها غيره لعدت من الحديث المعتاد.

أما جمال الأسلوب فله عندي مقياس يخالف المعروف من المقاييس، والكاتب صاحب الأسلوب في نظري هو الكاتب الذي يشغلك بنفسك حين يوجه إليك الحديث، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارئ أنه في صحبة كاتب، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان.. وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه إلا بعد أن يكون إمامًا في لغته إمامة صحيحة كونتها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق.

شبهة لغوية:

هي شبهة من يتوهمون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المخدرة ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يتحامى المأنوس من الألفاظ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حرمت الحياة منذ أزمان.

وأنا لا أقيم وزنًا لهذا الرأي، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك في إحدى المجلات.

الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس، فينتصر فريق وينهزم فريق، ثم يجيء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر ويتقدم الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول.

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي، -وهو السيد حسين القاياتي- أنكر على في مقال نشره في جريدة البلاغ منذ سنين أن استعمل لفظة "يستاهل" بمعنى "يستحق" فكتبت في الرد عليه مقالاً بعنوان (والله تستاهل يا قلمي).

واستعملت مرة كلمة شاف بمعنى رأى فثار خلق من خلق الله وعدوني من المتسامحين في اللغة فسألتهم عن "تشوف" وهي كلمة كثيرة الورود في قصائد التشبيب ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون "شافه" بمعنى رآه وقد شفتهم بعيني.

أتريدون الحق؟؟

الحق أن النقد اللغوي غلبت عليه الصبغة الببغاوية وإليكم هذا المثال:

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن المتنبي أخطأ في جمع بوقه على بوقات حين قال:

فإن يك بعض الناس سيفًا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبي نحو عشرة قرون ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب.

وأثنى على نفسك "للمرة الأولى بعد الديشيليون" فأقرر أني تفردت برفع الظلم الذي عاناه المتنبي في تلك القرون ولكن كيف؟؟

ليست البوقات جمع بوق كما توهموا وإنما هي جمع بوقة.. وبوقة هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقى الجيش العربي كما تشهد نصوص رأيتها في بعض كتب التاريخ.

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أني رأيت من نبه إليها في كتب الصرف وهي جعل التأنيث من صور التصغير فالبوقة أصغر من البوقة والطبلة أصغر من الطبل والبحرة أصغر من البحر وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة.

و"طونس" الساقية في عرف أهل الريف له صلة ويسمونها الفرخ إن كنت طويلة ويسمونها الفرخة إن كانت قصيرة، وفي شوارع القاهرة نجد بائعًا يتغنى.

(حب العزيز الربعة بقرش)

فما الربعة؟ هي مصغر الربع بلا جدال.

إن الصفة الببغاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء فقد كتب كاتب في الرسالة بنقد استعمال كلمة "مرير" بمعنى مر وحجيته أن المرير هو الحبل الحكم الفتل، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة المرير ويريد بها المر، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الزمخشري نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف.

وأنكر قوم جمع صناعة على صنائع وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العد وعلى أقلام كبار البلغاء.

وأنكروا أن تنسب إلى الطبيعة فتقول طبيعي مع أن العرب لم يقولوا طبعي، ومع أن "فعلى" في "فعيله" هو في ذاته شذوذ، والجرائد تقول "القتيل" وهي تريد القتيلة لأن قائلاً قال بأن "فعيل" يستوي في التذكير والتأنيث وهذا خطأ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول، وهل أخطأ صاحب لسان العرب حين قال: رجل دفين وامرأة دفينة؟

ولم يفهم النحويون علة التذكير في آية ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فعدوه تذكيرًا أوجبته المجاورة ونسوا أن "قريب" في معنى الفاعل لا معنى المفعول.

والمراد من الصفة الببغاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرءون حكاية الببغاوات فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين.

لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا فليعرف من لم يكن يعرف أن خطأنا فيها أفصح من الصواب. وأننا لن نستمع لأي اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود.

غناء وغناء:

في مكان يستبقى إليه ضياء الشمس، ونور القمر، وهدير الأمواج، وقفت أنتظر وفاء بميعاد هو الميعاد، وأقبلت الروح الملائكية في سمة إنسانية يطيب للملائكة أن تتشكل بصورة الناس في بعض الأحيان.

ودار حديث أعذب من رنين الكئوس وأرق من وسوسة الحلي في لحظات الصفاء..

ثم دار كعتاب القلوب للعيون، فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح، وقد أصغى البحر واستمع الوجود؟

لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال، ولو اعتصرت الحياة ما يجري في أعوادها من رحيق الحب لكان هذا وذاك دونما أضفينا على الكون من بهجة النعيم، ولو دعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن نقضي العمر في شكران من قضت حكمته أن يجعل الحب سيطرة روح على روح، وانجذاب روح إلى روح.

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب، وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينم عن خلوة حبيب بمحبوب.

في شهر يونيه تقوم غمامة تحجب القمر في لحظة لا تنتظر ظلال السحاب، فنفهم أن للحب والشعر آلهة كما تقول أساطير القدماء.

كانت الدنيا كلها في يدي وكان هواي هو الهوى وزماني هو الزمان وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف، وهل يعرف أحد ما لغة الأنفاس الحرار؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البوح به من سرائر الأرواح؟

وأين اللغة التي تعبر عن فرحنا بالحب في تلك اللحظة الوجدانية؟

أين أين.. وهي لحظة ما ظفر بمثلها عاشق في قديم ولا حديث؟ هي زاد العمر كله، فليتمرد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال.

لو مرت تلك اللحظة بالناس في ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف، ولكان من السهل أن أشحر ما يوحي به زرع "الرمل" على نغمات الموج في صمت الليل، ثم نفترق، فمتى نلتقي يا روحا لا يحيا بدونه روحي؟

للوجود كله غناء، ولنا وحدنا غناء، وروحك هو غريد البلبل، وخفيف النسيم وهدير الموج، وعربدة الكهرباء.

ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق، وهذه إشارة لا يفهمها غير أسارى هذين النورين في "دار الوجد والمجد؟[*] عليها أطيب التسليمات!

فمن فاته أن يعرف سر هيامي بوطني فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص.

الإسكندرية هي المثال المصور لسرائر النعماء ومن لم يزر الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظة من زمان –ولى في الإسكندرية دار تشكو جفائي ولم أكن من الجافين– دار أساورها بال استئذان حين أريد كأنها دار الهوى في سنتريس أو بغداد أو باريس.

في الصبح قرأت مقالاً في جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد ثلاث سنين، وفي الظاهر قرأت مقالاً في جريدة الريفورم عن إيطاليا بعد ثلاث سنين. فتذكرت أني عرفت تلك الروح في اليوم الذي أعلنت فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين. وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبيني!

مرت بها موجات هزمتها ومرت بي موجات نصرتني، أفي الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين؟

أنت يا جنية الشاطئ رفيقة روحي منذ أزمان وأجيال، أنت مناي من الهوى قبل أن يتنفس الوجود.

لابد للإسكندرية من حبيبين، فلنكن هذين الحبيبين ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الأليف بالأليف.

يا مثال الحسن ومثال اللطف ويا ريحانة مطلولة في صباح من أصبحة آذار!

يا تلك الروح في تلك المدينة تذكري ثم تذكري "سبعة أبحر" في لغة العراق "وسبعة أرادب" في لغة السودان، وتذكري الأبيات التي أمليتها عليك من لغة الفرنيسيس.

وإلى اللقاء في شعاب الوجدان.

(*) إشارة إلى الإسكندرية حيث نظم زكي مبارك قصيدة أيام ضرب الإسكندرية في الحرب العالمية الثانية والقصيدة، بعنوان (دار الوجد والمجد).

نفحة اليمن[*]:

منذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كان في الديار المصرية كتاب منشور اسمه "نفحة اليمن، فيما يزول به الشجن" وهو كتاب في المواعظ كان له في نفسي تأثير، ولو شئت لقلت إن إحدى المواعظ التي وردت فيه كانت دستورًا لحياتي في البيت، ولأسلوبي في معاملة الأهل، فأين من ينشر هذا الكتاب من جديد، عساه يؤدي خدمة يحتاج إليها الناس في هذا الجيل؟

ومنذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كان اسم "سسان اليماني" وهو اسم الحكيم الذي ألهمته الغيوب مصاير الناس في أواخر الزمان، وكانت أحكامه المنظومة تنشد على الربابة في سهرات الريف.

ومنذ أعوام لا أدري كيف مضت وانقضت كانت رحلة معاذ بن جبل إلى اليمن مما يتداوله أكثر الناس، وكانت فيها عظات قليلة الأمثال.

واليوم تلقيت نفحة جديدة من نفحات اليمن جاد بها أحد أعضاء "نادي الإصلاح العربي" في عدن وهو السيد محمد بركات، فهل تصل مجلة الرسالة إلى عدن كما تصل إلى السيد عثمان شبيكة في ملكال بالسودان؟؟

كانت أخطار الحرب أوهمتنا أن الصلة انقطعت بيننا وبين اليمن والهند وأن التخاطب مع سكان تلك البلاد لن يتيسر إلا بعد حين أو أحايين.

فيا فرحة القلب لخطاب يصل من عدن بعد أن قيل أن وسائط النقل البري والبحري والجوي قصرت على معدات الحرب:

لليمن تاريخ في العمران يجهله أكثر الناس، فلنفصله في كلمات:

أهل اليمن هم أول أمة في التاريخ نظمت الري، بفضل ما عملوا في سد مأرب.

(*) العدد ٥٢١ من مجلة الرسالة في ٢٨ يونيه سنة ١٩٤٣م.

ومن أبناء اليمن كان من نظموا الري في الأندلس والأوربيون يعترفون بأن تنظيم الري في بلادهم منقول عن عرب الأندلس.

وأول من فكر في إقامة خزان أسوان هو الحسن بن الهيثم وهو عربي وفد على مصر من العراق منذ نحو عشرة قرون، ولعله يمني الأصل.

واليمنيون هم أقطاب الفاتحين لجزر البحر الهندي، ولهم أياد في مد لغة العرب إلى الهند والصين.

والظاهر أن التنافس بين أبناء الجزيرة كان له صدى في العالم القديم، فكان أبناء الشمال وهم (الفينيقيون) يهتمون بتحضير أوروبا الشرقية، وكان أبناء الجنوب وهم الحضرميون يهتمون بتحضير آسيا الغربية، ومن هذا الجهاد وذاك رسخ السلطان الحضري لعرب ذلك الزمان.

والمفهوم أن قصة السندباد البحري هي أغرب قصة روتها السياحات البحرية، ولعلها أظرف وألطف من بعض قصص الإغريق، فهل تكون إلا من إنشاء حضرمي مفطور على مقارعة الأمواج فوق ألواح هي بالنسبة إلى بواخر اليوم خيوط من العنكبوت؟

وهنا لطيفة من اللطائف لم يتحدث بها متحدث، وهي ديباجة الشعر في مصر لآخر أيام العهد الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي، وهي ديباجة أذاعها الشاعر عمارة اليمني وعن هذا الشاعر أخذ شاعرنا أحمد شوقي أيام العهد الفاطمي عبارة أو صورة سأذكرها يوم يجيء مكانها في هذه الأحاديث.

ثم ماذا؟ ثم كان اليمن يد مصر في التعرف إلى الشرق البعيد، فبفضله وصلت السفائن المصرية إلى أفاق لا نعرف مداها اليوم ألا بأجنحة الخيال.

ثم ماذا؟ ثم أعتذر لأستاذنا أحمد زكي باشان فقد عبت عليه أن يقول في محاضراته بالجامعة المصرية أن صنعاء كانت في قوة باريس أو برلين.

وله حفظنا حق اليمن في التاريخ؟

قيل وقيل أن سقوط بغداد بأيدي المغول أوجب رحلات علماء العراق إلى النهضات العلمية والأدبية بالديار المصرية.

فأين من يذكر أن سقوط سد مأرب أوجب رحلات العلماء من الجنوب إلى الشمال فكانت النهضات الأدبية والعلمية بالديار العدنانية؟

أجمع مؤرخو الأدب على أن امرأ القيس هو فاتحة الشعر العربي في العهد الجاهلي ونصوا على أنه يمني العرق، فأين من يذكر أنه من كندة؟ وأين من يذكر أن كندة كان لها محلة بالكوفة نسب إليه المتنبي فكان الكندي.

لنا في اليمن كلام يضيق عنه هذا المجال، وسنرجع إليه بتفصيل وتفاصيل.

مكانة مصر بين الأمم العربية:

في جرائد سورية وفلسطين ولبنان والعراق كلام كثير عن مكانة مصر بين الأمم العربية وجرائد تلك البلاد تذكر بالخير مؤازرة مصر لفكرة الحلف العربي.

ويجب أن نذكر جميعًا أن ما يدور حول الوحدة العربية ليس إلا تمهيدات ولا يعرف أحد متى تتحقق الوحدة على الوجه المنشود.

محاسبة النفس:

بدأت أشعر بضجر في هذه الأيام، وأخذت أشعر بانقباض الصدر من حين إلى حين فما سبب هذه الحال، وما هو الدواء؟

يخيل إلي –ولعل هذا هو الواقع– أني لا أؤدي حقوق القلم كما يجب فأنا أتحامى شئونًا كثيرة، وأسكت عن آراء لو دونتها لكان لها في عالم الفكر مكان.

ويزيد في الضجر أن لحياتي ألوانًا جديرة بأن تقدم أثمن الغذاء لقلمي، فكيف يفوتني أن أنتفع بتلك الألوان؟

قد يقال إن ظروف الحرب لها دخل في الحد من الحرية القلمية، لأنها تقهرنا على مراعاة أمور لم يكن من الحتم أن نراعيها في أيام السلام.

وهذا عذر غير مقبول، لأن الشئون التي تمس الحرب ليست كل ما يعتلج في صدور الرجال، فهناك معضلات إنسانية تساور العقول والقلوب في كل زمان، وهي معضلات لا تهادن الناس ولو كانوا في ميادين القتال.

وربما قيل إن الشئون التي تعفيها ظروف الحرب لا تعفيها ظروف المجتمع فقد تكون الرقابة التي يفرضها الجمهور على الأقلام أقسى من الرقابة التي تفرضها الحكومات في أيام الحروب، وهذا أيضًا عذر غير مقبول، ففي مقدور المفكر أن يعالج شئون المجتمع بأسلوب يخلق الحب ويبعد العداء.

يظهر أن الآفة في طريقة الطب للمجتمع، الطريقة التي تلبس ثوب السيطرة بأقلام الناصحين، ونحن في الأغلب ننسى أن في فطرة الناس ميلاً إلى الدفاع عما يتورطون فيه من ضروب الانحراف، ونجهل أن العنف في النصح قد يخلق للعيوب أنصارًا يجعلون سيئاتها حسنات.

أن موقن بأن سياسة القلم تعوزنا في أكثر ما نكتب وسياسة القلم معنى لم نلتفت إليه، ألا ترى كيف نقضي العمر في شقاق مع القراء؟

وأين الذي حاول أن يقدم النصيحة المرة في كلمة مغلفة بمجاج النحل؟

وأين الذي واجه الجمهور بأسلوب منزه عن الاستعلاء؟

هذه الحال تشبه أن تكون من الأمراض القلمية وللأقلام أمراض.

وأعترف بأن تحرير القلم من الآفات النفسية يحتاج إلى رياضيات لا نقدر عليها في جمع الأحايين، لأن الرجل قد يقدر على محاسبة الجمهور ثم يعجز عن محاسبة النفس.

وهنالك آفة أخطر وأفظع، وهي آفة المبالغة في تصوير الكمال الذي ننشده للإنسانية كأن ننتظر أن يعيش الناس بلا أحلام ولا أوهام، وكأن نرجو أن يسلموا جميعًا من طغيان الأهواء، كأن الناصحين سلموا جميعًا من طغيان الأهواء.

أيكون من الخير أن ندعو إلى تجفيف البحار والأنهار ليأمن النسا الغرق؟ أم يكون من الخير أن نعلم السباحة ونسكت عن تجفيف البحار والأنهار؟ هنا مناط المعضلة الأخلاقية، المعضلة التي حيرت كرائم الألباب.

الشخصية الخلقية هي الشخصية المزودة بموجبات الجذب والدفع، وهي الشخصية السلمية من الضعف، ولن تكون كذلك إلا حين تحارب في ميدان من ميادين الأهواء.

ولهذه الفكرة شروح سنعود إليها يوم نستطيع محاسبة النفس على التهيب والترقب ويوم يكون الصدق هو اشرف ما نسمو إله في عالم البيان.

معادن الأرواح والعيون:

لكن روح معدن أو جوهر أو عنصر، إلى آخر الألفاظ التي تعبر عن الأصول والأرواح توحي بأساليب لا تعرفها العيون، وهل كانت العيون إلا وسائل الأرواح في الإيحاء؟ استغفر الحب، فقد قلت من قبل إن للعين وجودًا ذاتيًا يستقل عن الروح بعض الاستقلال في بعض الأحيان.

وما سر العيون على التحقيق؟

هل يعرف أحد كيف كونت الخلائق اللطيفة بهذا الوضع اللطيف؟ الوجود كله مدين للعيون، فهي التي شهدت بما فيه من جمال وجلال، وهي التي قالت إنه وجود.

وما هذا الصنع العجيب، صنع الله في إبداع العيون؟

ينقضي الدهر ولا ينقضي العجب من القدرة المطوية في سريرة مخلوق رقيق اسمه العين وستمر أزمان قبل أن يعرف سر هذه الجارحة الظلوم.

وما قدرة الطب في تعليل هذه القوة الصمدانية؟

هل يعرف كيف تنظر حتى يعرف كيف توحي، وهي أعجوبة الأعاجيب في النظر والإيحاء؟

ومع هذا فقدرة الأرواح أعجب وأغرب، فهي ترسل السهام من إقليم إلى إقليم، وقد تصادق وتعادي وأصحابها أموات في عرف الناس.

ذلك المفكر الذي يعبر الآفاق لغزو العقول بعد أن تمر على موته آلاف السنين ما سر قوته الروحية؟ ما سره وقد اجتاز أسوار روما بعد ألفي سنة ليقتل أحد تلاميذي بالقاهرة؟

وذلك الشاعر الذي قال:

إذا نشرت ذوائبه عليه حسبت الماء رف عليه ظل

هل كان يتوهم أن المطربة فتحية أحمد ستنقل خياله بالمذياع إلى جميع الأقطار العربية بعد أن نسيه القاهريون؟

سمعت هذا البيت مع الأستاذ سعد كامل فعجبنا من قدرة الأرواح على اختراق الأزمان.

وقال الشريف الرضي:

سهم أصاب وراميه بذي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

فهل كان يخطر ببال الشريف أن هذا المعنى سيكون حقيقة لا مجازًا فيما سيخلف عصره بأجيال طوال؟

وقال شاعر قديم:

غنـــت ســـليمى بالحجـــا ز فأطربت مـــن فـــي العـــراق

فهل كان ينتظر ذلك الشاعر أن تصح نبوءته فأسمع من القاهرة صوتًا يغزو روحـي وأنا في سهرة بمدينة النجف؟

لقد قضى ذلك الصوت بأن تكون ليلتي ليلاء... وأن أعود إلى بغـداد وأنـا مفطـور الفؤاد.

وما معنى قول البهاء زهير شاعر الفطرة المصرية:

إن حـــــالي لعجيـــــب مـــا يـــرى أعجـــب منـــه

كـــل أرض لــــي فيهـــا غائـــب أســـأل عنـــه

أليس شاهدًا على استبعاد الأرواح بالقلوب، وإن تباعدت البلاد؟

أما بعد فهذه الكلمة تحية للروح التي يئست من وفائي الروح التـي ضـننت عليهـا بإعلان حبي، لتعيش في أمان من سفاهة الرقباء.

يا مصدر الوحي، على البعد واليأس، ويا روحا هي الروح، ويا تحفة فنيـة صـاغها الفنان المعبود، ويا من لا أسمى ولو سئلت يوم الحساب في حضرة صاحب الجبروت سـلام عليك وألف سلام.

أنت أمامي حيثما توجهت، وغضبك على أعذب من الرضوان يا مهاة لا تخطر إلا في البال.

ثم أما بعد فأنا مؤمن باختلاف المعادن في الأرواح والقلوب، وروحك يا شـقية هـي الروح، وسبحان من لو شاء لجعلني من عينيك في أمان، متى نلتقي على الشط بالرمل، لأقول مع الشريف:

ولو قال لي الغادون ما أنت مشته غداة جزعنا "الرمل" قلـت أعـود

قال بديع الزمان في المقامات على لسان الفتح الإسكندري:

إســـــــــــــــــــكندرية داري لـــــو قـــــر فيهـــــا قـــــراري

ويرى الأستاذ إسعاف النشاشيبي إنها إسكندرية مصر في مقال نشره بالرســـالة وهـــو يحيى الشواربي باشا، ويرى الشيخ محمد عبده في شرح مقامات البديع أنها بلـــد بالأنـــدلس، ورأيت بعيني وقلبي أن إسكندرية أبي الفتح بلد بالعراق.

فمتى نلتقي في إحدى الإسكندريات الثلاث، بغض النظر عن اخـــتلاف الأقـــوال؟ أن رمل الإسكندرية هو "الرمل" الذي عناه الشريف، وسنلتقي هناك بعد أسابيع.

يخرج الحي من الميت(*):

قرأت السؤال الموجه إلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي من أحد أفاضل القراء، وقرأت إجابة حضرة الدكتور عباس محمود حسين، وإجابة حضرة الدكتور حامد البدري الغوابي، ثم رأيت أن اشترك في الإجابة، لأن عندي آراء ترفع اللبس عن الآية القرآنية، وتلقي على الموضوع بوارق من الضياء.

القرآن يقول: "يخرج الحي من الميت" والعلم يقول أن الحي لا يخرج من الميت، فكيف نوفق بين قول القرآن وقول العلم؟

إن هذا الخاطر حير البرية منذ أزمان، فقد قال أبو العلاء:

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

وأسارع فأقرر أن مصدر الحيرة يرجع إلى عدم فهم المراد من الميت؛ وعدم فهم المراد من الجماد وبيان ذلك أن الموت في الآية القرآنية ليس هو الموت الذي ينافي الحياة كل المنافاة وإنما هو الحالة التي تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء وكذلك يقال في الجماد وهو الطين في بيت العلاء، فالطين ليس له في الظاهر إحساس ولا نماء ولكن فيه حيوية تظهر في قدرته على تحويل البذور إلى نبات، فهو يحتضنها بحرارة تشبه احتضان الطير للبيض، وتلك الحيوية متفرعة من أسباب جوية، ولكنها أصيلة في الطين بدليل قدرته على اجتذاب وسائل الإنضاج، فإنه لا يمكن تصور الفاعلية بدون تصور القابلية، والقابلية استعداد يشهد بالحيوية.

يروى أن أستاذنا الروحي في التصوف وهو أبو الحسن الشاذلي قال: "نحن كالسلحفاة تربي أبناءها بالنظر "وهي عبارة في غاية الجمال".

ومع أني لم أفكر في تحقيق هذه الظاهرة الطبيعية فقد سمعت أن النعامة تحتضن بيضها بالنظر فقط، لأنها لا ترقد عليه وطريقتها في الاحتضان أن تنظر إلى البيض باستقامة

(*) العدد ٥٢٢ من مجلة الرسالة في الخامس من يوليه سنة ١٩٤٣م.

لا يعروها التفات إلى اليمين أو الشمال، فإذا تعبت جاء الظليم فوقف مكانها وصوب نظره إلى البيض بنفس الأسلوب، لأنه إذا انحرف يمنة أو يسرة خفت الحرارة فيبرد البيض.

وعن هذه الصورة نقلت بعض الكنائس وضع بيض النعامة في المحراب لتوحي إلى المصلين أن الصلاة لا تقبل إذا اعترى المصلي أي انحراف.

فنظرة السلحفاة للتغذية ونظرة النعامة للاحتضان، هاتان النظرتان فيهما حيوية لا يرتاب فيها مرتاب وهما تشبهان احتضان الطين لبذور الشجر والنبات.

قلت مرة إني أنكر أن يكون في الوجود شيء ميت، وهذا رأي كونته بعد تجارب، وهو في يقيني صحيح وعندي على صحته براهين.

ما رأيكم في الغبار الذي يثور فيسد مسام الأجسام ويقذي العيون؟

في ذلك الغبار حيوية تسبب ذلك الإيذاء، وإن سكت عنها الباحثون، وبرهاني على هذا القول إن القابلية لا تتأثر بدون فاعلية، ومعنى ذلك أن الغابر من الأحياء لأنه فعال، يقول الدكتور حامد البدري:

"إن الإنسان الحي يقتات من المواد النباتية وهي غير حية، كما يقتات من لحوم الحيوانات بعد ذبحها وموتها وموت خلاياها موتًا كليًا".

وأنا لا أقول بهذا القول، فالنباتات التي نأكلها حية وليست بميتة، ولحوم الحيوانات لا تموت خلاياها موتًا كليًا بذبحها وموتها، كما يقول هذا الطبيب، وإنما هي لحوم حية وإن أنضجناها بالنار وإلا فكيف يمكن أن تعود على أجسامنا وعقولنا بالنشاط والأريحية؟

إن حياة الدجاجة، حياتها الطبيعية، لا تقاس إلى حياتها المعنوية بعد أن تذبح وتؤكل فقد يكون آكلها قائدًا فينتصر في موقعة وقد يكون شاعرًا فينظم قصيدة بليغة، وقد يكون باحثًا فينشط ذهنه لحل أصعب المعضلات.

هل تعرفون شيئًا عن طمي النيل، إلى ذلك الطمي يرجع خصب الأرض المصرية؟

ذلك الطمي ليس غبارًا تسفيه الرياح كما يقول جماعة من المهندسين، وإنما هو محصول حيواني ونباتي تنظمه خلائق صغيرة لم يتحدث عنها العلم ولا التاريخ، ولهذا السبب نجد في الفلاحين من يأكل طمي النيل بشهية، لأنه في الواقع طعام لا تراب، وهو لدسامته المفرطة يؤذي الأمعاء ويصيب الفلاحين بمرض الرهقان.

والفلاح بطبعه يترك الماء المقطر، ويقبل على الماء العكر لأن عكارة ماء النيل غذاء، وهي السبب فيما نتمتع به من الخيرات، لا تنسوا أن تلك العكارة هي في الأصل عناصر نباتية وحيوانية، وإن سكت عنها الأطباء في القديم والحديث.

ثم ماذا؟ ثم أمضي إلى نهاية الشوط فأقول:

وما الذي يوجب أن تكون الرسوم الهوامد من أسباب الإيحاء إلى الشعراء؟

تذكروا الفاعلية والقابلية لتعرفوا أن الرسم الهامد لا يخلو من حياة، وهل يوحي الأموات إلا وهم بعض أحوالهم أحياء؟

الناس في جميع العهود يؤمنون بالعين، أو يخافون العين، وتلك أسطورة معروفة عند بني إسرائيل، وعنهم نقلها أكثر شعوب الشرق، وما سميتها أسطورة إلا تلطفًا مع العلم الحديث، وإلا فهي حقيقة من الحقائق، فعين الحاسد يصدر عنها شعاع محرق شعاع يحسه الحاسد نفسه، كما نص بعض القدماء، وهذا الشعاع يسلم الرجل إلى القبر، والجمل إلى القدر، كما جاء في بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول.

قال يعقوب لبنيه عند دخولهم عاصمة مصر لذلك العهد: "يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة" فما معنى هذه الوصية؟ قال جماعة من المفسرين: إنه خاف عليهم عيون الحاسدين.

ولنفرض أن الحسد خرافة في خرافة، وأن الجاهلين افتروا على النبي محمد والنبي يعقوب، فكيف تفشت تلك الخرافة في أكثر الشعوب؟

هل تصدر الخرافات بدون أصل؟

إن كان ذلك فحدثوني عن سر التوافق بين المصريين والفرنسيين في هاتين العبارتين:

إن خاف المصري الحسد قال: عين الحسود فيها عود. وإن خاف الفرنسي الحسد قال: المس الخشب فما معنى هذا التوافق العجيب في الفكرة والصورة؟

هل كان المصريون والفرنسيون يدركون قيمة الخشب في دفع بأس الكهرباء؟

هذه والله إحدى العجائب.

المهم هو أن أقرر بصراحة أنه ليس في الوجود شيء ميت، وأن القرآن حين قال: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ**﴾ لم يكن يريد الموت المطلق، وإنما يريد

الموت الاصطلاحي، وهو الحالة التي لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء وما هو الموت إذا أريدت حقيقة الموت؟

إن كان الموت هو الفناء فلا فناء؟

قال القرآن المجيد: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾.

ومع هذا فالله لن يتركنا أبدًا، فالكتب السماوية صرحية في أنه سيردنا إليه للثواب أو العقاب، وعلى هذا لن يكون الموت غير غفوات قصار أو طوال.

ثم ماذا؟ ثم أسأل عن التفسير الصوفي لعبارة: "يخرج الحي من الميت" وهو تفسير سكت عنه أساتذتي في التصوف، ومن حقي أن أتأدب بأدبهم فأدير الحديث بالرمز والإيماء.

الميت في التصوف هو الإنسان الفاني، والحي في التصوف هو الإنسان الباقي، ومن فضل الله على عباده الفانين، أن يجعل منهم عبادًا خالدين.

فإن قيل: وكيف يخرج الله الميت من الحي على الطريقة الصوفية؟ فأنا أجيب:

الحي في هذه المرة هو الدنيوي المفتون، وسينتقم الله منه فيجعله ميتًا بالعقاب يوم الحساب، أما بعد فهذه كلمات لم أرد بها تفنيد ما قال ذلك الطبيبان الفاضلان، وإنما أردت أن أقدم إلى قرائي حقائق تعتلج في صدري، هي حقائق متصلة بالشروح التي أيدت بها نظرية وحدة الوجود.

لا موت لا فناء.

فاسمعوا كلامي واعتقدوا أن في مقدور كل مخلوق أن يظفر بالخلود إن أراد.

جاهدوا لتحيوا، ولا حياة بدون جهاد.

لا تكونوا صحراوات لا يترقرق فيها غير السراب. وإن كان للصحراء حياة تتمثل في قدرتها على تفويف ألوان السراب.

كل شيء حي، حتى الصحراء التي تبدع السراب، فأين من سمع قبل اليوم أن الصحراء تؤيد غناها الموهوم بتلك الأحابيل؟

وكيف يكون غنى الصحراء غنى موهومًا وهي لا تقل في الثروة والمناعة عن البحر المحيط.

أنا لا أخاف عليكم الموت ولا الفناء، لأني أنكر الموت والفناء، وإنما أدعوكم إلى التسلح بسلاح الفاعلية لا القابلية.

لا تكونوا مقابر توحي فكرة الخوف والخذلان، وكونوا آسادًا توحي فكرة السيطرة والافتراس.

القبر يوحي والأسد يوحي، فاختاروا الأفضل والأشرف من الوحيين.

لا موت في الوجود لا فناء.

ولكن الميت قد يحيا، والحي قد يموت.

أموركم بأيديكم، فاصنعوا بأنفسكم ومصايركم ما تريدون، فقد بلغت في نصحكم غاية ما أملك من عافية الروح وصراحة البيان.

احترسوا من الأموات:

وراء كل إنسان ميت يسوقه بعنف إلى مصاير فيها المقبول والمردود تبعًا لما يملك الميت من آراء وأهواء ومن غرائب ما يقع في القدوة الفكرية أن الناس في الأغلب لا يحترمون رأي المفكر إلا بعد أن يموت، هل التفت الناس إلى آراء الشيخ محمد عبده إلا بعد أن مات.؟

إن الشيخ عبده كان يتندر بمعاصريه فيقول إنهم لا يحترمون غير الرأي المنصوص عليه في كتاب قديم بعد عهد صاحبه بالحياة والأحياء.

وغفلة بني آدم من هذه الناحية أوضح من أن تحتاج إلى بيان فقد أشاع أبو نواس وأصحابه أن الخمر لا تجود إلا إن قدم عهدها بالوجود، ولهذا نجد تجار الخمر يعفرون الزجاجة بالتراب ليوهموا الغافلين أن جوهرها عتيق، كما كنا نرى في بعض مخازن الخمور بمدينة باريس.

والقديم في الأدب هو الأصل، فقد مرت أزمان والناس يعتقدون أن أشعار الجاهلين أقوى وأبرع من أشعار الأمويين والعباسيين.

القدم في عرف بني آدم يمنع صاحبه قدسية تفوق الوصف، وهو شارة من شارات النضج العبقري في الأشخاص وفي المعاني بسبب ما درج عليه الناس من احترام الأموات.

أي العبارتين أقوى: عبارة قال القدماء، أو عبارة قال المعاصرون؟

وازنوا بين هاتين العبارتين من الوجهة النفسية لتصدقوني.

وأي الحفظين أنفع في نظر المتأدبين حفظ المتنبي، أم حفظ ديوان شوقي إن الأمـوات يسيطرون على الجماهير سيطرة روحية وعقلية لا يرتاب فيها إنسان، ولو كان مـن أكـابر الحكماء.

فكيف تنكر أن يخرج الحي من الميت، وهذا هو الحال في تصورات الأفهام والعقول.

للموت قدسية رائعة، فهو يرفع الأموات إلى آفاق لم تخطر لهم في بال، ألم تسمعوا أن كلمة الموت أصبحت مرادفة لكلمة الخلود؟

تبارك من يخرج الحي من الميت، وعفا عن صاحب ذلك الاعتراض.

الغصن الوريق:

هذا الغصن هو مصدر الوحي، وهو أنضر من أفنان الجمال.

جماله عندي جمال الشراب المعتق، وإنما هو جمال الماء الصابح في بحر سنتريس.

أهفوا إليه وهو سرحة ناشئة لم يغرد فوقها غير شعري وخيـالي، واشـتاق رؤيتـه لأحميه من رقة النسائم في لطائف الآصال.

فوق أوراقك أيها الغصن الوريق تراق دموي الهوى، وهي أرق من قطـرة النـدى، ومن أجل الوفاء لهواك يفتضح من يكره الافتضاح.

وهل عرف أحد هويتك، أيها الغصن الوريق.

أنت نفسك لا تعرف أنك المعنى بما يهتف به روحي في رسائلي وأشعاري يا أجمـل جاهل في هذا الوجود.

هل تعرف أيها الغصن رفقي بك في القريب من أيامك ولياليك؟

كان بيدي أن أصيرك سرحة لا يترنم فوقها بلبل، ولا يفرح بمداعبتها نسيم ولا يتطلع إليها نور الصباح.

كان بيدي أن أهصرك، أيها الغض الوريق، فكيف جاز أن أسلك سلك الزهادة فيك؟

رأيت أن أجعلك فوق مشتهيات العيون والقلوب، يا أجمل وأظرف ما تشتهيه العيـون والقلوب.

كان رأيك أنني ترفقت فلم أقل إنك هواي، وكان رأيي أني أرحمك فـلا أقـول إنـك هواي، لأني أقدر منك على مقاومة الرقباء.

فيا أنضر غصن في أجمل شجرة تتخايل في أعظم بستان، ما رأيك فيمن يكتم هواك؟ ألا يكفي أن الغناء بحبك صيرني أشقى الأشقياء بالحب في زماني؟

سكت فقال العاذلون أنت، ونطقت فقال الكاشحون أنت، فمن أنت؟

آفتي في زمان أني أحب الغصن الوريق، فليعرف من لم يكن يعرف أن هواي مقصور على الأغصان الوريقة بحديثة داري في سنتريس، مع الأدب في حق من زار تلك الدار وكأنه طيف من أطياف الخلود.

٤٨

عصارة المتاعب(*):

من عصارة المتاعب تصاغ أكاليل المجد، ومن عصارة المتاعب يرفـع نـاس مـن التراب إلى السحاب.

كذلك قلت وأنا أدفع وهمًا رسخ رسوخ الحقائق بحيث صار الأمل في زعزعته مـن أخيب الآمال، وهو الوهم الذي يزعم أن الحياة السعيدة هي الحياة الخالية من التكاليف، وهـذا الوهم يحيط بنا من كل جانب ويملأ حياتنا بالمنغصات لأنه يفرض علينا أن نفهم أن الراحـة هي الغرض المنشود، وأن كلمة التعب تماثل كلمة الشقاء في المدلول.

ما الفرق بين الرئيس والمرءوس في وهم بعض الناس؟

الفرق أن الرئيس يملك من الراحة ما لا يملك المرءوس، فهو لا يسأل عـن رعايـة المواعيد ولا يطالب بالسرعة في إنجاز ما لديه من الأعمال؟

وفي الأمثال المصرية كلمات تؤيد هذا المعنى، فالرجل السعيد هو الـذي لا يـستطيع أحد أن يقول له "قم من الشمس واقعد في الظل، وهو الذي يسأل عـن "تلـث الثلاثـة" كـان المسئولية تكليف يكدر صفو الهناء.

ولنفرض أن الراحة هي الغاية وإن كل رئيس يتمتع بها إلى أقصى حدود التمتع. فمـا السبب في أن تكون هذا المزية من حق بعض الناس لا كل الناس؟ وما السبب في أن يقـضي فلان عمره وهو مرءوس وقد أصبح نظراؤه من الرؤساء؟

الجواب حاضر: فكل تقدم بسبق بتزكية من عصارة المتاعب، ومن لم يقدمه جهـاده فلن يتقدم ولو كان أبوه أقدر الرجال على إحياء الأرض الموات.

هل كانت الراحة من أنصبة الملوك، مع أنهم ملوك؟؟ وهل ظفر عظيم بالراحة في أي يوم؟

إن الراحة متعة حقيرة لا يرغب فيها غير الحقراء.

(*) العدد ٥٢٣ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ يوليه سنة ١٩٤٣م.

لقد امتلأت كتب الأدب بأخبار الملاهي التي كانت تقام في قصور الملوك، فهل فكر أحد في أسباب تلك الملاهي؟ وهل قال قائل إنها ضجيج يراد به ستر المتاعب؟

التعب هو المقياس للقيمة الذاتية، والعمل المتعب هو الذي يرشح صاحبه لجلائل الأعمال، والذي لا يرحب بالتعب ولا يفرح به لن يصل إلى شيء والطمع في الراحة هو طمع الأموات لا الأحياء، وهل يث بك أحد وهو يعرف أن الراحة من التعب هي غايتك، وأن التحرر من التكاليف هو مبتغاك؟ عصارة المتاعب.

أحفظ هذه اللفظة جيدًا، واكتب منها لوحات يزدان بها مكتبك وانظر إليها في صباحك وفي مسائك وأعلم علم اليقين أنها مسطورة فوق كل قلب من قلوب المجاهدين الفائزين.

عصارة المتاعب نقلت خلائق من التراب إلى السحاب، فلا يخطر في وهمك أن إنسانًا ارتفع بلا متاعب ولا تصدق أن المناصب العالية تمنح كما تمنح الصدقات للمعوزين، ولا تتصور أن نظام الوجود يسمح بأن يرتفع طائر بلا جناح أو يرتقي رجل بلا جهاد.

يقول الكسالى من حولك بأن لا نهوض بلا وسيط وهم يردون كل فوز إلى قوة الوساطات والشفاعات ولنسلم بأن هذا القول صحيح في المطالب الهينة كأن يكون غرضك أن تكون موظفًا يأكل العيش بأحد الدواوين فمن الذي يرشحك لأن تقوم بعمل عظيم ولست له بأهل؟ من الذي يوصي بأن تكون قوة مسيطرة على زمانك وهو يدرك أنك تعجز عن السيطرة الفكرية أو الروحية في أي ميدان؟؟

وكيف تصل إلى توصية من رجل عظيم وأنت مجرد من الكفاية الذاتية؟

أقم الدليل أولاً على صلاحيتك للأعمال التي لا يقوم بها غير فحول الرجال ثم أنتظر نصيبك الحق، فقد تصل إليه بلا وسطاء ولا شفعاء.

هل جال بخاطرك أن توازن بين رجلين أحدهما في مركز فوق ما يستحق وثانيهما في مركز دونما ما يستحق؟ فأي الرجلين أعظم في نفسك؟؟ وأي حظ من هذين الحظين تريد لنفسك؟ هل فكرت يومًا في غضب الله على من يأخذ أجرًا بال حق؟ أنا أخشى أن يكون رزقك أكبر من جهادك، فيكون في طعامك شيء من الحرام، والطعام لا يسمن إلا أن كان حلالاً، في حلال ثم؟ ثم ماذا؟

هل فكرت في منافع الأعضاء[٢٢].

---

(22) الغزالي يقول "منافع الأعضاء" فيما نسميه اليوم: "وظائف الأعضاء".

كل عضو يعرض للعطب إن لم يؤد أعماله الأساسية فالعين تضعف إن صرفت عن النظر والرجل تثقل إن كفت عن المشي... فما رأيك في عزيمتك وهي جارحة معنوية؟؟

أنا أعرف أنك تشتهي أن يحمل عنك الناس جميع أعبائك، وأن تركب فرسًا ركبة الإعزاز لا ركبة الفروسية، وما أبعد الفرق بين الركبتين:

الراكب الأول مخلوق مدلل تراض له الفرس والراكب الثاني فارس يروض الفرس فانظر أين أنت بين هذا أو ذاك؟

كن رجلاً فعالاً يصنع العجائب في تصريف دنياه، كن رجلاً يفرح بالتعب فالتعب أعظم رزق من أرزاق الرجال.

لم يتقدم فرد على فرد ولا شعب على عشب إلا بفضل عصارة المتاعب، ولا جاز أن يتقدم متخلف أو يتخلف متقدم إلا بسبب تفاوت الجهاد.

والأقدار التي سمحت بأن يكون فلان وزيرًا في المملكة الفلانية وكان في صباه بائع جرائد هذه الأقدار لم تحابه بأي لون من ألوان المحاباة، وإنما احترمت عصارة المتاعب في الأعوام الشداد فصيرته من الوزراء.

ولتعرف جيدًا أن لا نهاية لفضل الله على المجاهدين فعنده طيبات تفوق الوصف والإحصاء وهو لا يتخلى عنك إلا يوم تتخلى عن نفسك بإيثار الراحة من عناء الجهاد.

افرح بالتعب وأسأل الله أن يكثر متاعبك في أعمالك، لا في أوهامك فما شقى الناس إلا بالتعب في الأوهام لا الأعمال.

افرح بالتعب فما يعاني من التعب غير الأقوياء.

وتذوق عرق الجبين من التعب قبل أن تعانيه من المرض.

واحذر ثم احذر أن تمر عليك ساعة وأنت مستريح من هموم الرجال.

هل سمعت باسم "الغرازة" في عرف أصحاب البساتين؟

هي عود من الخشب تسند به الشجرة الهيفاء ومن الهيف في الأشجار جاء الهيف في النساء ومزية الغرازة تغني الشجرة عن الجهد في مقاومة الرياح إلى أن تستطيع المقاومة عبد حين وقد لا تستطيع بفضل هذا التدليل.

والغرازة للشجرة كالمشاية للطفل وفي الناس من يعيش طفلاً طول عمره لأنه لا يعيش بغير سناد.

كن أنت أنت وقف على قدميك، واستفت ضميرك في مصيرك ولا تجعل لغيرك فضلاً في نقلك من حال إلى أحوال، لا تخف من التوحد فما يتوحد غير الآساد، واذكر دائمًا أن الله جعل أمرك بيدك، وأنه فتح لك خزائن الأرض والسماء.

من هؤلاء تشرشل وروزفلت وستالين؟

هم ناس أمثالك، ولكنهم اعتمدوا على عزائمهم فجعلهم الله من العظماء.

وهل كانت البداية الأولى لهتلر وموسوليني تبشر بأن ستكون لهم فاعلية دولية في السلم أو في الحرب؟

وهل كانت البداية الأولى للمسيو بونابرت توحي بأن سيكون الإمبراطور نابليون؟

عصارة المتاعب هي التي صنعت الأعاجيب فحولت الأطفال إلى رجال وعصارة المتاعب هي التي نقلت هؤلاء من التراب إلى السحاب.

اتعب قبل أن لا تتعب فالتعب أمضى من السيف في اختراق المصاعب والأهوال.

الراحة سم زعاف، وهي شؤم على الأعضاء والشرايين والأعصاب، لا تبتسم للراحة فلا راحة إلا بالتحرر من المسئولية، وهذا حظ المجانين.

إن ذاك نصحي فأنا أوجهه إلى نفسي لا إليك، لأني أحوج منك إلى هذه الكلمات، بعد أن كدت أرتاب في المنهاج الذي اخترته لحياتي.

الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية:

المنتج في عالم الاقتصاد هو الذي يصنع ويورد إلى عملائه هنا وهناك، والمستهلك هو الذي يشتري ما تنتج المصانع من صنوف البضائع والصلة بين المنتج والمستهلك صلة طبيعية عرفها الناس من قديم الزمان، وإن لم تخل من الشعور أهمية الفرق بين الإنتاج والاستهلاك في وزن أقدار المتعاملين.

والمنتج هو أيضًا مستهلك فمصانع المحلة بالديار المصرية ومصانع لنكشير بالديار الإنجليزية هذه المصانع تنتج الأقمشة وهي مع ذلك تستهلك الخيوط فتحتاج إلى الأقطان التي تخرجها المزارع المصرية والأمريكية.

ومن الواضح أن المنتج أقوى من المستهلك لأنه المتحكم الأول في الأسواق ولأن المستهلك يعجز عن مقاومته في أغلب الأحيان..

فما الرأي في الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية؟

وما مركزنا الصحيح بين المنتجين والمستهلكين؟

قضينا زمنًا ونحن عملاء أمناء للثقافات المجلوبة من بلاد غير هذه البلاد فمتى ننتج بأكثر مما نستهلك؟ ومتى نحاول غزو الأسواق الأجنبية بالفكر والبيان؟

قد يقال إن الفكر المصري منتج بالنسبة لكثير من أمم الشرق العربي والإسلامي..

وأقول إن هذا ميدان غير جديد.. فالعرب والمسلمون أخوة لنا بالشرق وما بيننا وبينهم من الجاذبية الروحية قد يوجب أن يرضوا منا بالقليل، وإن لم ندخر جهدًا في أن نلقاهم بأقوى مما يلقاهم به أقطار الفكر من أهل الغرب.

والحق أن الأديب المصري غاية في الحرص على التسلح بالجدية في الحياة الأدبية وقد يكون جهاده في الأدب أقوى من جهاد نظرائه في الأمم الأوروبية والأمريكية، بدليل ما نشاهد من سيطرته الروحية في الشرق، مع أنه لا يعتمد على أي سناد، ومع أن الأدب في مصر لم يصبح أداة من أدوات المجد، في حدود ما يستحق من التبجيل..

فماذا نصنع لنكون منتجين لا مستهلكين بالنسبة لأهل الغرب؟

ماذا نصنع؟

هل نترجم لهم ما يصدر عن أدباء مصر من الروائع؟

هل نستجديهم الثناء على ما عندنا من الأدب والفنون؟؟

لا هذا ولا ذاك.. وإنما الرأي أن نعتز بالذاتية بالعربية، وأن نحاول خلق جبهة أدبية من قراء العرب وهم يزيدون على الثمانين من الملايين.

إن صنعنا –وسنصنع– فسيلتفت الغرب إلى الشرق، وسيكون لنا في حياة الفكر والرأي تاريخ جديد.

ما هذه الغطرسة التي يتمتع بها بعض أدباء الغرب؟

وما هذه الحالة التي يحيطهم بها بعض المترجمين؟؟

أنا أنتظر مساجلة دولية يشترك فيها أدباء مصر مع أدباء فرنسا والإنجليز والأمريكان والألمان أنا أنتظر هذه المساجلة في أقرب وقت ليعرف العالم القديم والجديد مكانة مصر في فردوس الأحلام والعقول..

مصر تجد.. وأدباؤها يجدون وهي تؤمن بأن مكانها في الفكر أعظم مكان فإن كنتم في ريب من عظمتها الفكرية فتعالوا إلى السباق في ميدان الرأي والبيان.

عند أوروبا وأمريكا مدافع وطيارات وأساطيل وتلك قوى أنعم الله بها على الأوروبيين والأمريكان والله يخص بالقوة من يشاء..

ولكن مصر السلمية لا الحربية تقول إن مكانها في الأدب لا يدانيه مكان وإنها مستعدة لأعظم سباق في ميادين الروح والوجدان.

في مصر اليوم عشرون أديبًا من العظماء على أقل تقدير فأين الأمة وإنها مستعدة لأعظم سباق في ميادين الروح والوجدان.

مصر اليوم هي دولة الفكر والرأي وهي صلة الوصل بين الشرق والغرب وإليها المرجع في الفصل بين الحقائق والأباطيل..

أنا انتظر مساجلة دولية تقول فيها مصر إنها مصر، ويقول فيها النيل إنه النيل..

فتعالوا يا هؤلاء إلى كلمة سواء.

عتاب:

هو عتاب الطبيب الذي يذكر عند المرض وينسى عند العافية.

هو عتاب الصديق الذي يذكر في البأساء وينسى في النعماء.

هو عتاب النهر الذي تشتاقه الأرض في الصيف وتنساه في الخريف.

هو عتاب من لم يبق له منكم غير العتاب.

وكيف أعتب على من يستغني عن نور القمر بشعاع السراج؟؟

جربوا حياة العقوق، جربوها بعد أن جربتم حياة الوفاء لتعرفوا ما طعم الشهد وما طعم الصاب.

إن كان غركم الصفح فلا صفح وإن كان غركم الدمع فلا دمع فقد صيغ قلبي من ضمائر الجبال.

تلك أيام خلت وأنا أضن عليها أن تضاف إلى التواريخ، ولن أعترف بأنكم أسرتم روحي لحظة من زمان.

فإن راعكم وفائي لدار الهوى بالمرور عليها في الغدو والرواح، فلا تعجبوا ولا تظنوا أني استهديكم تحية يجاد بها على عابر الطريق وإنما هي لفتة أريد بها أن تفهم الحجارة إني لم أكن في هواي من العابثين.

إن دار الهوى لن تعرفكم بعد اليوم، ولن تراكم إلا أبدانا بلا أرواح ولن نجود علــيكم بالسعادة والصفاء يا جيرة آذاهم حفظ الجميل.

سيصنع الدهر ما يصنع وسيفعل الغدر ما يشاء، وستفترون علي بقدر ما عندكم مــن كيد وجحود، ثم يبقى وفائي لكم ولدار الهوى.. يا جيرة أطغاهم الجمال فتاهوا في صحراوات الدلال.

لن تضيعوا من يدي ولو فررتم إلى أفاق المريخ فارجعوا طائعين قبــل أن ترجعــوا كارهين فسرعة الظبي في الجري تنبهر حين يلمح وجه الأسد الصوال.

جبرائيل تقلا باشا(*):

قرأت أكثر ما كتب في رثاء الصحفي الكبير جبرائيل تقلا باشا ورأيت كيف ختمت حياته بتبجيل وتعظيم وإجلال فماذا بقي من القول بعد تلك الصحائف من جميل الرثاء لم يبق إلا أن أشير إلى بعض السر في نجاح ذلك الرجل لأن حياته تصلح قدوة لرجل الأعمال. أذكر أولاً أن الرجل جعل الغاية من حياته أن يكون صاحب أكبر جريدة في الشرق وهي غاية تمثلت له بوضوح، وبدت له في عظمة تستحق بذل العمر كله في صيانتها من عوارض الضعف والاضمحلال.

وأذكر ثانيًا أن الرجل رأى أن الأعمال العظيمة لا تنهض بغير معاونين أمناء فجعل في خطته أن يكون الاشتراك في تحرير "الأهرام" ضمانة من المتاعب المعاشية بحيث لا يحتاج من يعمل معه إلى التفكير في صحبة غيره ولو كان ذلك الغير شخصية تحمل أضخم الألقاب.

وأذكر ثالثًا أن الرجل نزه جريدته عن الأذى بجميع صوره فعاش بلا أعداء وهذا الجانب من الحياة الصحفية يوجب ألوانًا من جهاد النفس لا يصبر عليها غير كبار القلوب.

والذي يتصور ما صنع هذا الرجل يعجب من براعته وقدرته على التصرف، فللأهرام مكاتب كثيرة في الغرب والشرق وما كان يمكن أن تقوم تلك المكاتب بدون أن تكون الثقة بهمته وكفايته وأمانته مضرب الأمثال.

- وهنالك جانب سكت عنه من رثوا هذا الرجل فما ذلك الجانب؟

هو فهمه الدقيق للأحوال الجوية فكان يعرف ما يلبس لكل وقت، فلم يتعرض للحر ولا للبرد وكانت الحكومات المتعاقبة تعجب من فهمه ذلك ولا يؤذيها أن يكون في مصر صحفي يعرف اتجاهات الريح قبل الهبوب.

(*) العدد ٥٣٤ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٩ يوليه سنة ١٩٤٣م.

ومع هذا قتلته مروحة غزت صدره بهواء عجز عن دفعه الأطباء ولكل أجل كتــاب، وسبحان من تفرد بالبقاء.

مصادر الثروة اللغوية:

من الكلمة التي نشرتها الرسالة لحضرة الأستاذ عبد الحميد عنتر فهمت أنـــه يقـــصر المحصول اللغوي على المأثور عن العرب العرباء، وهي الأمة التي شهدت العصر الجــاهلي وصدر العصر الإسلامي، في هذا القول رجعة إلى أقوال كانت ترى أن اللغة ختمت بالأقفــال بعد هذين العصرين وهو قول كان يجد من يطمئن إليه قبل أن تنفـــتح العقـــول إلـــى النظـــر الصادق في العصر الحديث.

وأقول إن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميـــع العـــصور، وفي جميع البلاد، ولو كان فيه دخيل، وأقول أيضًا إن وجود الألفاظ الدخيلة في أية لغة يشهد لها بالحيوية لأنه يدل على أنها أخذت وأعطت واللغة التي تسلم سلامة تامة من الألفاظ الدخيلة لا توجد إلا في القبائل المحصورة بين جدران من الجهل والركود.

وعندي أنه يمكن الحكم بأن شعراء الجاهلية لم يكونوا يملكون من الثروة اللغوية مثل الذي نملك لأنهم عاشوا في آفاق محدودة ولأن التفوق اللغوي لم يكن من المقاصد التي يشغل بها الناس في القديم على نحو ما يشغلون في هذا الزمان.

فكلمة "العرب العرباء" كلمة طنانة ولكنها لا تنفع بشيء، فمجد العرب الحـــق المجـــد الذي يجله التاريخ هو مجدهم بعد الفتوحات الإسلامية وبعد أخذهم ما استطابوا من مواريـــث الشعوب وهنا حقيقة لم تأخذ قسطها من الالتفات وهي فضل الدخيل في إمداد اللغـــة العربيـــة بالثروة لعهد الجاهلية وبيان ذلك أن جاهلية العرب الملحوظة هي جاهلية قريش وقـــريش لـــم تعرف حياة العزلة بسبب البيت، فقد جمع حولها الناس، وعرفها ما لم تكن تعرف من طرائق المعاش وطرائف الخيال.

كان للعرب في الجاهلية ما يزيد عن سبع لغات، وكان من الصعب أن يتفـــاهم أهـــل الشمال مع أهل الجنوب، فكيف ضعضعت تلك اللغات وبقيت لغة قريش؟ يرجع الفضل إلـــى "البيت" أولاً وإلى الإسلام ثانيًا، ولكن كيف اتفق ذلك ولم تكن مهمة البيت مهمـــة لغويـــة ولا كانت رسالة الإسلام رسالة لغوية؟

يرجع السبب إلى أن الضجيج الاجتماعي والجدال الديني والسياسي معًا يزيد في ثروة اللغات ومن هنا نجد في القرآن وفي الأحاديث ألفاظًا أجنبية منقولة مـــن اللغـــات الفارســـية

والعبرانية واليونانية والحبشية والمصرية، لأن ذلك الضجيج وذلك الجدال قضيا باقتباس تلك الألفاظ من تلك اللغات، وكذلك الحال في كل لغة تعرف أهلها إلى طوائف من الشعوب.

قولوا الحق أيها الناس.

هل كان العرب الذين تلقوا القرآن يلتفتون إلى أن كلمة سندس كلمة فارسية وأن كلمة أليم كلمة مصرية؟

إن تنقية اللغات من الدخيل فكرة حديثة العهد بالوجود في أكثر بقاع الأرض ولعلها لم تعرف إلا بسبب العصبية العنصرية كالذي وقع حين رأى الفردوسي أن تخلو "الشهامة" من الألفاظ العربية فيما قبل، وكالذي وقع من الأتراك فيما بعد، وهذه وتلك النزعات الشعوبية وهي نزعات تزيد في نفر الأمم بعضها من بعض بلا نفع ولا غناء.

وإذا جاز هجر الألفاظ المنقولة من لغات أجنبية فكيف يجوز هجر الألفاظ الأصيلة في اللغة العربية؟

أنا أشوف أن الأستاذ عنتر يجانب الصواب حين ينكر كلمة "شاف" بمعنى "أبصر" مع أن العرب قالوا تشوف بمعنى تطلع.

وأنا أشوف أنه أخطأ حين قال إن كتب التاريخ ليست متون لغة يعتمد عليها في إثبات الكلمات العربية، فأكثر المؤرخين أدباء فضلاء ومؤلفاتهم تعد من المراجع اللغوية.

قال ابن مسكويه "وخرج الجند بالبوقات والطبول" وهو كاتب فحل يكاد يعاصر المتنبي أفلا يكون كلامه شاهدًا على أن البوقات كانت كلمة اصطلاحية في ذلك الحين؟ وهل كان يصعب على المتنبي أن يقول أبواق لو كانت هي الكلمة المنحرف بلا بصيرة ولا يقين؟

وما الرأي في كلمة "مستشزرات" التي عابوها على امرئ القيس منذ اشتغلوا بعلم البلاغة إلى اليوم؟

ما الرأي وهي أفصح كلمة في هذا البيت:

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المداري في مثنى ومرسل

ثقلت عليهم الكلمة فعابوها مع أن ثقلها تعوزها النعومة واللين وهذا مطمح لن يصلوا إليه لأن اللفظ الوعر في موطنه مقبول ومنشود.

وأنكر الأستاذ لفظة بحرة وقال إنها لفظة لا تعرفها لغة العرب فليرجـع إليهـا غيـر مأمور في القاموس المحيط.. وأنكر كلمة طبلة فهل يرى الاستغناء عنها بكلمة طبل؟ وأنكـر كلمة بوقة فهل يرجع إليها في تاج العروس؟

وأنكر كلمة ربعة فهل يضع مكانها الربع وهي أصغر من الربع؟

وقال إن جمع صناعة على صنائع لم يرد في منظوم الكلام ولا منشور فهـل يـدفع دينارًا على كل شاهد لا ظفر منه بمئة دينار أطبع بها كتاب أدب الشواطئ؟

أما بعد فإن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميـع العـصور وفي جميع البلاد ونحن نكره أن يكون محصولنا اللغوي محصول جيل أو جيلين ونحن مع هذا لا نرحب إلا بالكلمات المأنوسة التي صارت نصًا في الدلالة على أشياء لا يدل عليهـا بغيـر تلك الكلمات.

الكاتب البليغ والشاعر المجيد هما أعرف الناس بسرائر اللغة وإليهما يرجع الفضل في إقرار الحقائق اللغوية والأدبية ولا يجوز لمن حرم ذوق الشعر والكتابـة أن يتعـرض للنقـد اللغوي والأدبي، فهذا مجال الذوق لا مجال النقل، وبين الذوق والنقل مراحل طوال.

ومن علماء البلاغة الذين استباحوا التطاول على المتنبئ وامرئ القيس؟

هل قرأتم مقدمات الكتب البلاغية لتعرفوا ما يملك بعض معلمي البلاغة مـن القـدرة على الإنشاء البليغ؟

قال قائل: إن كتب التاريخ ليست متون لغة فما رأيه في كتب الفقه الإسلامي.

أنا أشوف إن كتب الفقه تحوي ذخائر لغوية نفيسة جدًا. ولعلها أدت للغة خدمات لـم تؤدها كتب الأدب الرف لأنها أذاعت مرونة التعابير في كثير من البيئات ولأنها حوت الدقائق من محاورات الناس في الأسواق.

وخلاصة القول إني لا أعترف بما يسمونه عهد العرب العرباء "ولا أدير بـالا لمـن يدعو إلى الاكتفاء بما عرفت العرب العرباء، فلو بعث عرب الجاهلية لعجبـوا مـن الثـروة اللغوية في هذه الأيام واعترفوا بأن أحفادهم نجباء نجباء.

ثم ماذا يا حضرات الأفضال بالأزهر الشريف؟؟

أنتم توجبون أن يطبع المصحف بالرسم العثماني فما حجتكم وهو رسـم هجـر منـذ أزمان؟؟

أكان الخليفة عثمان بن عفان يختار ذلك الرسم لو عاش في هذا الوقت؟

وهل ترضون أن نرجع فيما نكتب إلى الخط العربي في عهد عثمان؟

كان يكفي أن تكون للمصحف نسخة تسمى النسخة التاريخية ثم ترسم جميع المصاحف وفقًا للرسم الحديث، الرسم الذي اصطلحت عليه جميع البلاد العربية لتسهل تلاوة القرآن على جميع الناس.

ثم؟ ثم أقول إن الأدب لن يتلفت إلى حذلقة اللغويين المتكلفين لأن الأدب هو مبدع اللغة وهو المهيمن على تراثها الثمين.

اللغة ملك لكتابها وشعرائها وخطبائها، وليس لقراء المعاجم منها خلاق.

ملكة اللغة تسمى بالفرنسية الوجدان فما شأن من يناقش في اللغة وليس له فيها عاطفة ولا وجدان؟

كونوا كتابًا وشعراء وخطباء قبل أن تكونوا ناقدين وإلا... وإلا عندكم جواب هذا السؤال.

محاكمة العقاد:

دعتني المجلة الفلانية إلى محاكمة الأستاذ العقاد بالأسلوب الذي أريد فقضيت بتأجيل الحكم إلى حين.

والحق أني لا استسيغ مذهب المجلات التي ترى من البراعة الصحفية أن تورث الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء، كأن الصحافة صارت ملاعب لا تكلف المتفرجين غير ملاليم.

إن الخصومات الأدبية لا تقترح وإنما تخلقها الظروف فليصبر المتفرجون قليلاً، ألم يسمعوا أن الله مع الصابرين؟

نحن لا نختصم لنقدم الغذاء لأهل الفضول وإنما نختصم لنؤدي خدمة الفكر والرأي والوجدان وسأخاصم العقاد ويخاصمني حين تسنح فرصة يكون فيه الخصام من أوطار العقول.

ما هذه الشهوة التي يغذيها غير عدوان بعض الأقلام على بعض؟ وما هذا الشوق السخيف إلى رؤية مناظر الحرب في غير ميدان؟

لا قيمة للخصام الأدبي إن لم ينته إلى نتائج صحاح فإن لم يكن بد من خصومة بيني وبين الأستاذ العقاد فسأبحث عن مجال يحترب فيه المنطق ويتصاول البيان.

ولكن متى؟

ذلك إلينا لا إليكم يا جماعة المتفرجين بملاليم لا قروش.

النقد الأدبي لن يرخص إلى الحد الذي تصورتموه ولن يكون إلا نضالاً في ميادين ترفرف عليها أعلام الآراء والأذواق...

٥٠

إلى الأستاذ إبراهيم المازني(*):

صديقي:

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سئلت عني فأجبت "لو أخلى زكي مبـــارك كتابتـــه مـــن الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن".

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته عن مجلة الاثنين، فكيف تم التوافـــق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عني؟

أهو من باب توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر، كما كـــان يقـــال؟ أم هـــو موصول بقصة المسيو ديبون.. ومن ديبون؟

هو رجل فرنسي صنع شرابًا سماه باسمه وأعلن عنه في جميع البقاع الفرنسية، فمـــا تسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطارًا إلا وجدت اسمه مسطورًا بـــأحرف كبيـــرة تبهر العيون ولم يكتف بذلك بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف: عند ريبون كلـــه بون.

وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان فسألت صديقًا فرنسيًا عن السر فيه فأجاب:

ذلك رجل نفساني هو يعرف العادة المتبعة في القهوات الفرنسية، العادة التي توجـــب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس فتنطق بأكثر الأسماء ورودًا على بالـــك هـــو ديبون.

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية، فقد قال الدكتور طه حسين مـــرة: إن أكثـــر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك.. فلما سئل الأستاذ العقاد عني وجد هذه العبارة في باله فأجاب، ولما سئل الأستاذ المازني عني وجدها في باله فأجاب وكـــذلك تعـــاد قـــصة المسيو ديبون في القاهرة بعد أن سئمها الناس في باريس.

وهنا مشكلة لا اكتمها عنك، وهو الخوف منك، ولكن كيف؟

(*) العدد ٥٢٥ من مجلة الرسالة بتاريخ ٢٦ يوليه سنة ١٩٤٣.

أنا لا أبالي نقد الدكتور طه حسين إياي، لأني نقدته بمائة مقالة ومقالة فمن السهل أن يقول الناس إن ينتقدني وفي نفسه أشياء وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد إياي، لأن بيننا أحقـادًا تنشر في حين وتطوى في أحايين.

الخوف كله من نقدك لأنك صديق حميم ولن أجد من يتهمك بالتحامل حتى أطمع في أن يكذب الناس ما تقوله عني، يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة، وأن الجمهور لا يفطن إلى قدرتك على قلب الحقائق، وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد؟

كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويل جدًا وأن العقاد قصير جدًا فشاء بـرك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل، وما زلت تبدي وتعيد حتى آمن النـاس بقولـك وظننا أنك قزم وإن العقاد عملاق.

وبنو آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرءون قبل أن يصدقوا ما تحـدثهم بـه العيـون والقلوب.

من أجل هذا انقض حكمك على، وأرجو أن تكف عني شرك، وإن لم تكففه عن نفسك فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريقة المسيو ديبون.

وماذا تنكر من حديثين عن نفسي؟ وماذا ينكر صديقك العقاد؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين"؟

هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دورانًا حول نفسك؟ وهل كتب الأسـتاذ العقـاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يـوم احـتلال العلمين؟ وهل كتب الدكتور طه حسين أقوى مما كتب في الحديث عن طفولتـه وصـباه.. إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف الحديث عن طفولته وصباه.. إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية مـن شـمائل الأنبياء.

فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي؟ وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي؟ وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمـم إلا أحاديـث نفسية؟ ما هو سفر أيوب الذي ترجم إلى أكثر اللغات؟ ألم تكن أصـالته فـي التعبيـر عـن المخاوف الروحية؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحًا عن عواطف ذاتية؟

قال ديكاريت: أنا أفكر... فأنا إذًا موجود.

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود لا موجب للمداورة في محاورتك، فأنت لم تتكر على الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب، ولا كان ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد، وإنما تتكرون الثناء على النفس، وهذا يقع من حين إلى حين، والثناء على النفس يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق وإلا فما الذي استطاع أن يكذبني حين أثنيت على نفسي.

ولكن هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية؟ هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهًا غير طائع؟

لو أنك فعلت لعرفت أني لا أتكبر إلا متحديًا والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والعقوق. وإليك شاهد من مقالك بجريدة البلاغ في مساء هذا اليوم: "١٨- ٧- ٤٣".

في كلامك عن "قصة الأدب في العالم" أثنيت على رأي المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبي ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة وإنما تبع الحسن أنى كان بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثير وجميل ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت:

وهذا تفريق سبق إليه العقاد في كتابه (الشاعر الغزل) وقد بسطه بسطًا وافيًا وتوسع في بيانه لست أقول إن المؤلفين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه فليس ما يمنع أن يتنبها إليه ولكني أقول إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه فمن الإنصاف أن يذكر له فضل السبق ويسجل.

وهذه حماسة مشكورة، وهي من بعض صفاتك الطيبات ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب ولكن هذه الحماسة نسفها تقابل بالإنكار حين تصدر عني، كان أقول في الرد عليك إن أول من سجل هذا الرأي في كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد.

إن كتاب "حب ابن أبي ربيعة وشعره" طبع أول مرة أوائل سنة ١٩١٩.

وهذا الرأي مدون في أول طبعة فهل تكره أن أثني على نفسي فأقول إني سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عامًا؟

وما أقول إني كنت في بالك حين سجلت للعقاد ذلك السبق فمن المحتمل أن يغيب عنك أني أول من أصدر كتابًا عن شاعر الغزل، وأن كتابي كان المنار لكل من تحدثوا عن ذلك الشاعر الفنان.

وأنا في الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية في هذا العقد فما يمر أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل في سرقات جريئة من مؤلفاتي ومقالاتي وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إني أكثر من الحديث عن نفسي.

وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبي لن يصدني أبدًا عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنتهب آرائي علانية وتعيش بها عيش السعداء.

هل تذكر ما قالب بعض الناس حين جازيت العقاد قتالاً بقتال؟

قالوا إنني أثنيت على العقاد من قبل فكيف أهدم ما بنيت بالأمس؟

والاعتراض صحيح ولكن المعترضين غفلوا عن أسباب ذلك الثناء، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقدرة لمسابقة الأدب العربي وعند ذلك تذكرت أني مدرس يعلم تلاميذ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء.

واثني على نفسي فأقول إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين أحزل النفع وقد شكا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات في عقول الطلاب، وقالا في دعاية أنهما سيرجوان وزير المعارف أن يشير بأن لا تعاد تلك الدراسات في مجلة الرسالة بعد أن ظهر أنها تكثر من عدد الفائزين.

بهذا الصدق في الأحكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثًا من رجال هذا الجيل وفيهم خصوم الداء يشرقون بريقهم حين يسمعون أسمى فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟

المازني وحده يستطيع أن يجازيني صدقًا بصدق فقد وقف جانبي وقفة كريمة، يوم قال الدكتور طه على صفحات الرسالة أن كتاب النثر الفني كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب.. ولكن هل يستطيع الأستاذ المازني أن ينصف خصومة كما أنصف أعدائي؟

لقد يئست من إنصاف الناس فكيف لا أنصف نفسي؟ في كتاب "ملامح المجتمع العراقي" ثناء على الأستاذ المازني والأستاذ الزيات، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب إلى أحد هذين الرجلين؟

عز علي أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق واستغنيت عن تقريظ الرسالة وتقريظ البلاغ.. اكتفاء بما أثنيت به على نفسي في مقدمة الكتاب وأعجب العجب إني أهديت كتابي إلى رجل لا ينتظر مني أي معروف ولا أنتظر منه أي جزاء ليكون في عملي شيء لوجه الله ولوجه الوطنية وهو رجل سبقنا جميعًا إلى التشرف بخدمة العلم في العراق ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له العراقيون.

وأنا بعد هذا سأل يؤذيهم ثنائي على نفسي، أسألهم متى يجاهــدون فــي الأدب كمــا أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟

أين الزميل الذي يقول إنه أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ؟

وأين الشخص الذي يملك الزعيم بأنه نفعني؟ ومن هو المخلوق الذي يتوهم أن له دينًا في عنقي؟

ومن هو الروح الطاهر الذي يطمع في السيطرة على شيطان روحي؟

كانت الغاية عندي أن أقيم الدليل على أن لوطني وجودية تحميه من الأباطيل وكانــت حياتي شاهدًا على صحة ما ابتغيت فما استطاعت قوة أن تهدمني ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني من أتباعه ولو كان أعظم العظماء.. أنا أخاطب رجلاً هو الأســتاذ المــازني أخاطــب رجلاً يسره أن يعلم أني أسيطر على شآبيب من الدواهي المواحق وسأصبها على أعدائي حين أشاء.

إن أدبي من صنع الله، وثقة الجمهور بأدبي من فضل الله ولن أرتاب لحظة في أنــي أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر في هذا الزمان.. هاتوا برهانكم يا خــصومي، إن كنــتم صادقين.

هاتوا برهانكم.. هاتوه.. إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام.

أنا أثني على نفسي؟

هو ذلك.. لأني أسهر الليل في مسامرة قلمي.. ولأني أؤمن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوارثين.

سنلتقي غدًا وبعد غد وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف وإلى اللقــاء.. ولعله قريب.

٥١

تحول جديد في الجو المصري(*):

أخذ الجو يتحول في الأعوام الأخيرة بأسلوب لم نعهده من قبل، فقد صار شتاء مصر عنيفًا جدًا، وصار صيفها أعنف وأصبحنا نتذوق الطعوم المختلفة للحياة الجوية على نحو ما كان يتذوق الآباء والأجداد قبل أجيال.

والمنتظر أن يكون لهذا التحول الجديد في الجو المصري تأثير يزيد في قوة الحيوية وقوة الشعور بالوجود، فقد كان اعتدال الجو في مصر يخلق ألوانًا من البلادة، وكاد يضعف الإحساس بتغير الفصول.

والمنتظر أيضًا أن يكون لهذا التحول فضل في التسويق بمعرفة الأجواء المختلفة بالديار المصرية، فسيصير من المألوف أن تكون لنا مواسم في الجنوب أيام الشتاء، كما صارت لنا مواسم في الشمال أيام الصيف، وسيكون من الحتم أن نعرف الأقصر وأسوان كما نعرف الإسكندرية ودمياط.

والواقع إن إقبال المصريين على مصايفهم الجميلة ليس إلا وثبة جديدة في تذوق الحياة، فما أعرف أن في الدنيا مصيفًا يشبه مصيف الإسكندرية، ولا أعرف أن في الدنيا بقعة يتجمهر فيها الجمال كما يتجمهر في ذلك المصيف والذي يقدر على قضاء أيام بالإسكندرية أو بورسعيد أو دمياط ثم يبخل على نفسه بذلك النعيم فهو من أعيان السفهاء.

صار الاصطياف بحمد الله من صميم التقاليد المصرية، وصار من منهاج الحياة في مصر أن يدخر الناس ما يعين على الاصطياف، ولم تعد الشواطئ مقصورة على من يعرف فضلها من الأجانب، قد أضحت ملاعب مصرية تحت سيطرة الشبان المصريين، وصار من السهل أن ترى من كبار الرجال من يرتاد تلك الملاعب في الضحى والأصيل.

هل شهدتم ملاعب التنس فوق الشواطئ؟

إنها مواكب من الحياة البهيجة تتهاوى في كل صيف وتشهد بأن مصر مقبلة على فترة مرحة سيزدهر بها الشعر والحياة.

(*) العدد ٥٢٦ من مجلة الرسالة بتاريخ الثالث من أغسطس سنة ١٩٤٣.

في هذه اللحظة صلصل الهتاف من الإسكندرية يحمل صوت الأستاذ محمد علي حماد محرر مجلة الشعلة، وهو يستعجل مقالاً وعدته به عن الديوان الجديد للشاعر علي محمود طه فابتسمت وقلت: وحي الشاطئ هو الذي أثار العطف على الملاح التائه، لطف الله بـــه وهـــداه إلى شاطئ الأمان.

إن مصر ديار بحرية، ديار تحيط بها البحار من أكثر الجوانب، وتجري بها الأنهـــار في كل جانب، ومع هذا تقل فيها الآداب البحرية والنهرية، فما هذا الجمود!

إن أسلافنا عاشوا بأفضل مما نعيش، فقد كانت في مدينة القاهرة مشابه مـــن مدينـــة البندقية، يوم كانت القاهرة تتماوج بين الخلجان، ويوم كانت الملاهي بتلك الخلجان في أصائل الجمع والأحاد تزعج رجال الدين فيفتون بأن النزهة في السفائن حرام لا حلال؟

كانت حياة أسلافنا شعرًا في شعر، وكان النيل في حياتهم وجود، ألـــم تـــسمعوا أنهـــا أحاطوه بطرائف من الأقاصيص؟

ومع هذا رأينا من يقول بأن "عروس النيل" أسطورة خلفهـــا العـــرب لا الفـــراعين، وحجتهم أنها لم توجد في غير الكتاب العربية، فإن صح ما قالوه فالعرب أبلـــغ فـــي الـــشعر والذوق، لأنهم تخيلوا النيل فتى لا يعيش بلا عروس وتلك وثبة من وثبات الخيال.

في القاهرة حي اسمه "بركة الرطلي" فما تكل البركة في التاريخ؟

نقل الدكتور عبد الوهاب عزام في "مجالس السلطان الغـــوري" أن وصـــلها بـــالخليج الحاكمي في أيام الفيضان كان يوجب إعداد عرس تزف فيه نساء جمـــيلات، وأن الـــسلطان الغوري قد استفتى الشيخ البلقيني فأفتى بأنها بدعة، وكل بدعة ضلال[٢٣].

ألا تكون عروس البركة صورة جديدة من عروس النيل؟

والشيخ البلقيني كان من ظرفاء المشايخ، وهو الذي قال بأن الميت يسأل فـــي القبـــر باللغة السريانية لا العربية، وفي هذا قال أحد الناظمين:

ومن عجيب ما ترى العينان — أن ســـؤال القبـــر بالـــسرياني
أفتى بهذا شـــيخنا البلقينـــي — ولـــــم أره لغيـــــره بعينـــــي

---

(23) الخليج الحاكمي هو الخليج المصري، والتسمية الثانية جديدة.

وقبر البلقيني معروف بالقاهرة، وهو قريب من قبر الشعراني عليهما أطيب الرحمات.

قال الأستاذ حماد وقد راعه أن يعرف أني أكتب مقالاً في ظهيرة هذا اليوم القائظ: في مثل هذه اللحظة تكتب؟

فقلت لأنها أنسب اللحظات لموضوع هذا الحديث، فما كان أدبي إلا صورة من شعوري بالوجود.

قال: متى تزورنا في الإسكندرية؟

قلت: أنا أقضي في الإسكندرية عشرة أيام من كل أسبوع.

قال: ولا نراك؟

قلت: وهل أزور الإسكندرية لأراك؟

في الإسكندرية ذخائر وجدانية يعرفها من يمشي على قدميه من محطة الرمل إلى المحطة الفلانية، وفي صحبته الروح التي أوحت رسالة "غناء وغناء" وهل كانت "جنية الشاطئ" إلا مصدر نعيمي وعذابي؟

رواد الإسكندرية غرباء، ولست فيها بالغريب، فلي هنالك تلك الروح

ومن بينات الحب أن كان أهلها   أعز على قلبي وعيني من أهلي

رواد الإسكندرية غرباء، أما أنا فالإسكندرية داري، بفضل تلك الروح.

أيجوز الارتياب في القوة الربانية، ومن إبداعها ذلك التمثال من الجمال؟

تبارك من هذا فنه في تحويل الأنوار إلى شخوص تصافحها القلوب؟

إن إبداع الشمس والقمر والنجوم لا يدل على قدرة الله بأقوى مما يدل عليها إبداعه الفائق لتلك الروح، بذلك اللطاف الوهاج.

هي آية من آيات الله، آية أعظم من البحر ومن السماء، وأنضر من جميع ما في الوجود.

أيكون الله أراد أن يجزيني جميلاً بجميل؟

أيكون الله أراد أن يجعل ثوابي في الثناء عليه بخلق تلك الشواطئ الملاح ثوابًا روحيًا يمثله تفردي بالسيطرة على ذلك الروح المليح؟

من كان له في الإسكندرية رمال وأمواج، فلي فيها أرواح وأضواء.

في هالة ذلك القمر أجد مؤلفاتي ومقالاتي وأشعاري، وأجد حول كل سطر شروحًا تفضح المكنون من أسراري، وأجد حول كل حرف نيرانًا أرثتها أشواقي، فأومن بأن لله فضلاً عظيمًا في وصل روحي بتلك الروح.

كان من حظ الشعر أن يكون لي في الإسكندرية مكان، وأين الشاعر الذي يستطيع الإجادة وهو لم ير الإسكندرية في الصيف؟

يا مدينة أحلامي ويا دار هواي، متى نلتقي؟

وهل افترقنا حتى نفكر في التلاقي؟

وهل فارقتني تلك الروح حتى أفكر في اللقاء؟

هي في رحابي ولو مضيت لاستكشاف أقطار السماء.

روح الشيخ رشيد:

حول إليَّ سعادة الأستاذ مصطفى باشا عبد الرزاق خطابًا وصل إليه من السيد عبد الرحمن عاصم بطرابلس، الشام، وصاحب الخطاب يعترض على ما نشرناه من حديث دار بيني وبين الشيخ مصطفى حول تأثر الشيخ رشيد رضا بروح الشيخ محمده عبده، وحول الدقة في ترجمة الأستاذ الإمام، رحمه الله.

وأقول إن ما نقلته من حديث الشيخ مصطفى راعيته في الأمانة العلمية، فلم أضف إليه أي حرف، ولم أشبه بأي عدوان، لأني أعرف فضل السيد رشيد في إحياء مآثر الشيخ محمد عبده، ولأن هذا الرجل كان من أعز أصدقائي.

إن لهذه المسألة وضعًا آخر، وهو تحري الصدق في تقدير الرجال، وما كان يجوز أن أطوي حديثًا للشيخ مصطفى يزن به الصلة بين روح الشيخ عبده وروح الشيخ رشيد، مع العلم بأن الشيخ مصطفى حجة في وزن هذين الرجلين، لأنه تلميذ الأول وزميل الثاني، ولأنه معروف بكراهة التزيد على الناس.

والذي عرفته وتحققته أن روح الشيخ رشيد شابته شوائب من العنف شوائب خلقها اتصاله بالمجتمع في نواحيه الصواخب، فلم تكن عنده تلك البشاشة الروحية التي اتصف بها الأستاذ الإمام في جميع العهود.

وإليكم النادرة الآتية:

قبل أن أكتب هذه الكلمة رأيت أن أحادث جماعة من محبي الشيخ رشيد عساني أعرف من أحواله في التسامح الديني ما لم أكن أعرف، وكانت النتيجة أن يقول فلان وهو رجل ضعيف: كيف يجوز لسعادة مصطفى باشا أن يرتاب في تسامح الشيخ رشيد مع أن له حكاية تنقض ذلك الارتياب؟

فما تلك الحكاية؟

قال الأستاذ أسعد داغر للشيخ رشيد: أنا نصراني يحترم الفضائل الإنسانية ويرى أن محمدًا آية في الكرامة الأخلاقية، فكيف يجوز أن تغلق أبواب الجنة في وجهي؟

فأجاب السيد رشيد: ستدخل الجنة يا أسعد قبل كثير من فقهائنا.

ذلك هو تسامح الشيخ رشيد في نظر ذلك الرجل الحصيف.

وأنا أرى في هذا التسامح دليلاً على التحامل، التحامل على الفقهاء، وكانت بينهم وبين صاحب المنار ضغائن وحقود.

ولأجل أن نفهم هذه الحقيقة يجب أن نرجع إلى مقالين في رثاء الشاعر عبد المحسن الكاظمي، المقال الأول في مجلة "الرسالة" بقلم الشيخ عبد القادر المغربي، والمقال الثاني في مجلة المنار بقلم صاحبه السيد رشيد.

في المقال الأول عطف ورفق، وفي المقال الثاني قسوة وعنف، فقد قال الشيخ رشيد في الكاظمي كلمات لا تليق، وسلفة بقلم دونه بأس الحديد.

أكانت إهانة الكاظمي بتلك الصورة فرضًا يوجبه التاريخ؟

وما الذي يعكر التاريخ الأدبي لو بقي الكاظمي كما صوره الشيخ عبد القادر المغربي؟

الأمر كله يرجع إلى أن الشيخ رشيد عانى متاعب من معاصريه، متاعب ثقيلة جدًا، فقد كان الناس يستكثرون عليه أن ينفرد بإعلان مآثر الشيخ محمد عبده والإفصاح عن آرائه الدينية والاجتماعية، وكانوا يرون ظالمين أن الأمر لا يعدو المهارة في الاستغلال.

من خطاب السيد عبد الرحمن عاصم عرفت أن فضيلة الشيخ محمد شاكر كتب إلى الشيخ محمد عبده يدعوه إلى كف يده عن رعاية الشيخ رشيد وأن الأستاذ الإمام أجاب:

"كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان أفكاري؟"

وأنا أعرف الشيخ محمد شاكر جيدًا، فقد كان على جانب من العنف وكانت عداوته مرة المذاق، وكان يحارب خصومه في الرأي محاربة المستميت فمن المؤكد أن خصومته تركت في نفس الشيخ رشيد عقابيل.

أما جاب محمد عبده فهو جواب محمد عبده، جواب فلاح مصري شريف يؤازره أنصاره ولو تألبت عليهم الأرض والسماء.

مضيت عصر يوم لتنسم الهواء بحديقة الجزيرة فوجدت الشيخ عبد الرحمن قراعة هناك، وكانت الشيخوخة لا ترحم يديه من الارتعاش، فدار بيني وبينه حديث وأحاديث، وجاءت قصة الشيخ محمد عبده فقال:

- هل تعرف أن الشيخ عبده لم يعز أحدًا كما أعزاني؟
- وكيف؟
- لأني زرته أيام اعتقاله بعد انهزام الثورة العربية.
- ولتلك الزيارة هذه القيمة؟
- أنا وجهت إليه هذا السؤال فكان جوابه أن هذه التفاتة لا ينساها كرام الرجال.

ماذا أريد أن أقول؟

زيارة عابرة للشيخ محمد عبده في معتقله تقرر في نفسه هذا الحق فكيف يكون نصيب الشيخ رشيد من نفسه وهو يرفع العلم لآرائه في كل مكان؟

أترك هذا واذكر أن قول الشيخ مصطفى بأن تاريخ الشيخ عبده لم يدون على الوجه الصحيح ليس معناه اتهام، الشيخ رشيد، ولكن معناه أن تاريخ الشيخ عبده روعيت في تدوينه أشياء من الاعتبارات السياسية، وهي اعتبارات يراعيها أكثر الباحثين في التاريخ الحديث، وعلى الأستاذ مصطفى باشا أن يحررها بقلمه إن تناسى أنه من السياسيين.

أما قول السيد عاصم بأن السيد رشيد لم يجد من يترجم له بعد أن يموت فجوابه حاضر: ذلك بأن الشيخ رشيد رضا ترجم لنفسه بنفسه، ولم يمت إلا بعد أن كتب سطور حياته في صفحات الخلود.

٥٢

الوساطة بين الدكتور طه والأستاذ المازني(*):

لم يعد القراء يلتفون إلى ما يقع في الجرائد اليومية من المصاولات الأدبية فقد صنعت أزمة الورق ما صنعت في صد الجرائد عن الآداب والفنون، وبهذا أصبح مجال الأدب مقصورًا على المجلات الأدبية، فمن الخير أن نحدث قراء الرسالة عما يفوتهم الاطلاع عليه، مما يقع من الصيال الأدبي فوق صفحات الجرائد اليومية من حين إلى حين.

وكلمة اليوم في شرح مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والأستاذ المازني على صفحات جريدة البلاغ، وهي مناوشة تمثل التجني والتظالم على أعنف ما يكون بغي الرجال على الرجال وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضي العادل، فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء، بعد أن ظلا صديقين حيناً من الزمان.

والذي يهمني من هذه الكلمة هو أولاً تسجيل حادثة أدبية لا ينبغي أن تضيع، وهو ثانيًا إنصاف رجلين عزيزين على الأدب وقد بغى كلاهما على أخيه بتحامل وإسراف، وهو ثالثًا توضيح لألغاز ساقها الدكتور طه بك مع اعترافه بأن فهمها لا يتيسر لأكثر القراء.

وأصل القضية أن الأستاذ عزيز بك أباظة مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها "أنات حائرة" مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين: فلما بدا للأستاذ إبراهيم المازني أن يتحدث عن تلك المجموعة بدأ الهجوم على صاحب التصدير، فغضب الدكتور طه وكتب ردًا به دفع العدوان بما هو أقسى من العدوان.

ولأجل أن يدرك القراء حيثيات الحكم في هذه القضية أسوق إليهم كلمات الخصمين قبل الشروع في الحساب.

قال الأستاذ المازني بعد التمهيد:

"وتوكلت على الله فقرأت التصدير الذي كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله هذا طه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة، فما خلق لها بل للأدب، وإنه ليضيع نفسه في هذه المناصب التي تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء

(*) العدد ٥٢٧ من مجلة الرسالة ١٠ أغسطس ١٩٤٣م.

بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذي لا محصول وراءه، ولا أعرف رأسًا من ذنب فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا العرض الزائل والذي أهمل أو ترك أبقى؟ كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه – وهو مالا غني بأديب عنه– وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب وهو مشغول في ليله ونهاره بهذا الذي لا آخر له من شئون الوظيفة واللجان وما إليها.. وهو يتولى أعمالاً، كل واحد منها كاف للإرهاق: فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون صفرًا، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيرًا، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل".

عناصر الهجوم:

وخلاصة هذه الكلمة:

١- إن الدكتور طه خسره الأدب ولو لم تكسبه الحكومة ومعنى ذلك أنه يتولى عملاً لم يخلق له، وسنرى كيف ثار الدكتور طه على هذه العبارة وعدها تحديًا لقدرته على الأعمال الحكومية.

٢- وأن الدكتور يضيع نفسه في مناصب تشغله وتستنفد جهده ووقته فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب.

٣- وأن الأفضل للدكتور طه أن يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل وهو عمله في الحكومة ويتفرغ للأدب.

٤- وأنه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو يتفرغ للتجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منهما كاف للإرهاق.

كلمة الدكتور طه:

وجه الدكتور كلمته إلى صاحب البلاغ ثم قال بعد التمهيد:

"أؤكد للأستاذ المازني أني آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظة لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير، إذًا لكان له المحصول، ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية.

وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملي في وزارة المعارف وفي جامعة فاروق، إذًا لكسبته الحكومة والأدب جمعيًا. والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء

قصة مع الشريف المرتضى، وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القضية شيئًا، فالسرقة في الأدب مباحة، ولا سيما حين تكون في العلن لا في السر، وهي حينئذ أشبه بالسطو، ولست أسرق من قصة أبي العلاء، أو لست أسطو منها إلا بمقدار، فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق، وأن يقرأ مطولة لبيد ومطولة طرفة وعينية سويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التي في مطلعها:

ألا يا أسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيانًا ناعدا آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها:

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وسحن الصبر زموا لا الجمالا

وسيقول القراء أني ألغز بهذا الكلام، ولكني أعتذر إليهم، فإني لا اكتب لهم وإنما أكتب للأستاذ المازني، وأنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه، فمن المحقق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس، لأنهم لم يقرءوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي لا رأس له ولا ذنب... وأحبب إلي بأن أستقيل وأفرغ للأدب ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني فيستريح من هذا السخف الذي نحن فيه، وإما أن يكتب الأستاذ المازني فيجدوا شيئًا جديدًا عليهم من هذا القيظ المهلك، ويقرءوا كلامًا له الرءوس كل الرءوس، والأذناب كل الأذناب".

حل الألغاز:

ونسارع فنذكر إن الإشارة إلى سورة الفلق منصبة على آية "ومن شر حاسد إذا حسد" وإن الإشارة على مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها

وأنه يريد من مطولة طرفة هين البيتين:

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عني الأعادي جرأتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

ومن عينية سويد أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين:

رب مــن أنــضجت غيظًــا قلبــه قــد تمنــى لــي موتًــا لــم يطــع

ويرانــي كالــشجا فــي حلقــه عــسرًا مخرجــه مــا ينتــزع

وأراد من رائية الأخطل في هذين البيتين:

تنق بــلا شــيء شــيوخ محــارب وما خلتها كانت تــريش ولا تبــرى

ضفادع في ظلمــاء ليــل تجاوبــت فدل عليهــا صــوتها حيــة البحــر

ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين:

أرى المتــشاعرين غــروا بــذمي ومــن ذا يحمــد الــداء العــضالا

ومــن يــك ذم فــم مــر مــريض يجــد مــرًا بــه المــاء الــزلالا

وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازني، وإنما أردت منفعة القراء، والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين.

غمزات الدكتور طه:

١- كان يستطيع أن يقول إنه "يستعير" قصة أبي العلاء مع الشريف و"يستعير" هي اللفظة المطلوبة في هذا الموقع، ولكنه قال إنه "يسرق" ليندد بالأستاذ المازني. ولــم يكتــف بذلك بل جعل سرقته علنية، وهي "حينئذ أشبه بالسطو" كما قال.

٢- صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان.

٣- وصوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني بوزارة المعارف ومن يعجز عن إدارة جامعة فاروق.

الدكتور طه في الأعمال الحكومية والأدبية:

لقد فصلنا الخصومة بين الرجلين بوضوح، ولم يبق إلا أن نكشف شر الأستاذ المازني عن الدكتور طه، وشر الدكتور عن الأستاذ المازني، لأننا نكره أن تختل الموازين فــي هــذه البلاد.

وإذا كان الأستاذ المازني هو البادئ بالظلم فأنا أبدأ بالدفاع عن الدكتور طه، والهجوم عليه ذو شعب: فهو تارة أديب أضاع نفسه بالأعمال الحكومية، وتارة موظف لا يحسن إدارة الأعمال، وتارة حائر لا يهتدي إلى ساحل الأمان.

وأشهد أن الدكتور طه من أقدر الرجال على إدارة الأعمال الحكومية، فما تولى عملاً إلا أقبل عليه بهمة وقوة، ولا سما إلى مطلب إلا وصل إليه بأيسر أو أعسر مجهود. والدكتور طه مثال نادر من أمثلة البراعة في الشئون الإدارية، وهو مفطور على سرعة التصرف، وأخطاؤه القليلة أو الكثيرة لا تقاس إلى صوابه الملحوظ في الابتكارات الديوانية.

وما الذي يمنع من الحكم بأن الدكتور طه دفع عن رجال الأدب مقالة من أسوأ المقالات، فقد مرت أزمان والناس يتوهمون أن رجال الأدب لا يصلحون للأعمال الإدارية، وكان من أثر هذا التوهم أن لم نر لأحدهم مكانًا في المناصب العالية من الوجهة السمية، فجاء بنجاح الدكتور طه ردًا حاسمًا على أوهام أولئك المتوهمين.

وكذلك يقال في تولي الدكتور طه إدارة جامعة فاروق، فذلك مغنم عظيم لرجال اللغة العربية، وكانت الحكومة لا تكل إلى أحد منهم إدارة مدرسة ابتدائية، وهل ننسى أن مدرسة دار العلوم ظلت آمادًا طوالاً تحت نظارة رجال من غير أبنائها، مع أن فيهم كثيرًا من الأكفاء؟

ويسرني أن تشهد البواكير بأن الدكتور طه سيفلح في إدارة جامعة فاروق، كما أفلح من قبل في إدارة كلية الآداب بجامعة فؤاد، وكما أفلح في أعماله بوزارة المعارف.

أما قول الأستاذ المازني بأن شواغل الدكتور طه تصرفه عن تزويد عقله بالمطالعات والمراجعات فهو قول صحيح، ولكنه لا يؤذي الدكتور طه في شيء، لأن الدكتور طه قد اختار لنفسه أن يكون من رجال الدولة لا من رجال الأدب، وهو لن يزاحم أحدًا من الباحثين، ولن يقول أنه أوحد الناس في جميع الفنون، فما يجوز لمن يكون في مثل حصافته أن يتناسى أن الأستاذية في الأدب توجب الانقطاع إلى الأدب، وتفرض الخلوة إلى النفس ساعات من كل يوم، وذلك لا يتيسر لمن تكون الأعمال الإدارية عناءه بالنهار وهمه بالليل.

المازني ضحية الأدب، ولكنه لن يضيع:

من التقاليد الموروثة بمصر احترام الوظائف والموظفين، وقد كان الآباء في عهد الفراعنة يوصون أبناءهم بطاعة الرؤساء، ويحضونهم على تنفيذ الأوامر بلا اعتراض، ليظفروا من مناصب الدولة بأكثر نصيب:

وأنا لا أرى في هذا شيئًا من الذلة في طلب المجد، كما رأى بعض الناس وإنما أراه شاهدًا على أصالة المصريين من الوجهة النظامية، فطاعة المرءوس للرئيس يوجبها نظام الأعمال إذا حسنت النيات وزال معنى الخضوع الممقوت.

واحترام الوظيفة في مصر له أصل، فقد كانت الوظائف من أنصبة الأغنياء والأقوياء، وكان مفهومًا أن الرجل لا يظفر بوظيفة إلا أن كانت له عصبية تحميه من الكائدين، أو تعينه على تحقيق السيطرة في الأقاليم الذي يشرف عليه بأية صورة من صور الإشراف.

ونحن اليوم نخضع لتلك التقاليد خضوعًا يعترف به القلب وإن أنكره اللسان، فمن السهل أن يسأل سائل عن مكانة الأستاذ المازني في الدواوين الحكومية، وكان قبل ثلاثين سنة أستاذًا في مدرسة من كبريات المدارس الثانوية، ومن زملائه من وصل إلى مكانة تضيفه إلى المحسودين بين كبار الموظفين، فماذا صنع المازني بنفسه حتى تخلف هذا التخلف وحتى صار من حق أي إنسان أن يقول له: داعب هذا المنصب إن كنت تستطيع؟ حظ المازني يظهر واضحًا إن تذكرنا ما صار إليه ناصحه الأمين، وهو الأستاذ عبد الفتاح صبري وكيل المدرسة السعيدية، يوم كان المازني أستاذًا بالسعيدية، فقد خضع الأستاذ عبد الفتاح صبري للأنظمة الإدارية خضوعًا وصل به إلى أرفع منصب في وزارة المعارف وثار المازني على الأنظمة الإدارية ثورة وصلت به إلى العيش من سنان القلم في الجرائد والمجلات.

فما النتيجة وما الغاية في حياة هذا وذاك؟

مات عبد الفتاح باشا صبري ميتة الغريب، فلم تبكه وزارة المعارف، ولم يحزن عليه مخلوق، ولن يذكر بغير الملام إن تسامح معه التاريخ!

أما المازني فلن يموت أبدًا، وهل يموت رجال الأقلام والآراء؟

المازني من أمجاد مصر الأدبية، وصفحة واحدة من اصغر كتاب ألفه المازني أبقى على الزمن من جميع المناصب، والله عز شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا بالمال.

وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد؟

اقترحت مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشًا للأستاذ المازني بحجة أنه أدى للأدب خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف.

وأن في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال.

كلمة صريحة إلى الدكتور طه حسين:

ولكن ما الذي آذاك أيها الأستاذ الجليل من تلك الغمزة المازنية؟ ما الـذي آذاك منهـا وهي حق في حق؟

أتريد أن نعفيك من النقد الأدبي؟

أتريد أن نتوهم أنك كنت معنا فطرت عنا؟

أيرضيك أن نتناسى أسمك في المناوشات الأدبية؟

إن كان هذا ما تريد فأنت وما تريد، ولكننا لن نحترم إرادتك إلا كارهين، لأننا نرفض تسليمك إلى الحكومة بأي ثمن، وسنجاهد إلى أن نستردك فجهـز نفـسك لوصـل حاضـرك بماضيك، في خدمة الأدب الرفيع.

جاذبية الشواطئ المصرية(*):

من الواضح أني لا أستطيع الإجابة على جميع أسئلة القراء ولو أني استطعت ذلك لتحولت مقالاتي إلى موضوعات يغلب عليها الضجيج، ومع ذلك فسأرد على الأستاذ أحمد فتحي القاضي لأنه احتكم إلى الشريعة في وجوب رد التحية ولأن الرد عليه يوضح مشكلة تحتاج إلى توضيح.

والأستاذ غاضب على ما وقع مني في الدعوة إلى الاصطياف ويقول إن كلامي في التغني بجاذبية الشواطئ لم يقع من أهل الصعيد موقع القبول ويصرح بأنه كان ينتظر أن أكون من الثائرين على حياة الشواطئ وقد صارت ملاعب للنساء العاريات كما قال...

وأقول إني أحترم عواطف قرائي كل الاحترام ولكن مذهبي في الأدب يأبى علي أن أبحث عما يرضي قرائي فالغاية عندي هي الصدق في التعبير عما يختلج في صدري ويطمئن إليه قلبي ولو كان فيه ما يغضب جميع القراء، ألم أقل لكم إني لست أسيرًا للوطن ولا أجيرًا للمجتمع؟

وماذا أصنع إذا كانت أومن بأن الشواطئ المصرية من أجمل ما خلق الله؟

ماذا أصنع وأنا أعتقد أن زيارة الشواطئ المصرية تزيد في قوة العقل والفكر والذوق؟؟

وهل يرضيني أن أفعل ما يفعل الشيخ أبو العيون وهو يتوهم أن زيارة الشواطئ تفيد الأخلاق؟؟ إن الشيخ أبو العيون يغرق في كوز ماء فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط؟

هل تعرفون أن الشيخ أبو العيون لم ير الشواطئ مع أنه يعيش في الإسكندرية منذ سنين ومع أنه أبو العيون؟؟

آن الوقت لأن نسمع هذا الرجل الطيب كلمة الحق.. آن الوقت لأن ننهاه عن الغض من حياة الشواطئ وهي نعمة عظيمة منَّ بها المنعم الوهاب على أهل هذه البلاد.

(*) العدد ٥٢٩ من مجلة الرسالة ٢٣ أغسطس ١٩٤٣م.

وهذا الرجل الطيب يتكلم باسم الدين فهل يستطيع أن يدلني لأية حكمة خلق الله تلـك الشواطئ بذلك المهد الجميل؟

هذا الرجل الطيب يعرف أن السباحة رياضة بدنية وهو مع ذلك يعجز عن الـسباحة في الخيال.

نفرض أن حياة الشواطئ تفتن بعض الناس فهل يجب أن نقتلع الجذور من كل جمال يدعو إلى الفتون... ما رأيه في القمر وقد قيل إنه يهيج الشهوات؟؟ أنجرد حملة لإسقاط القمر من أفق السماء؟

ما رأيه في الأزهار وقد قيل إن عطرها يوقظ الشهوات؟

أنجتث كل شجرة مزدهرة لتنام عيون أبي العيون؟

الآذان تؤهل لسماع التمائم فهل نصلم جميع الآذان؟

والجسم السليم يؤهل للمعاصي فهل تحول الخلائق إلى مهازيل ومعاليل؟

كل نعمة تعرض صاحبها لمتاعب أخلاقية فهل نطلب زوال النعم لتستقيم الأخلاق؟

إن أبا العيون الواعظ يحتاج إلى واعظ... فأنا أخشى أن يغضب الله عليه إن اسـتمر على هذا الأسلوب من الوعظ المقلوب..

أفي الحق أن الشواطئ ليست إلا مباءة رجس وخلاعة ومجون؟

أهذا كل ما يتصور الباكون على الأخلاق بدموع التماسيح؟ أين إذًا الشعور بجلال الله وجمال الوجود عند زيارة الشواطئ؟ أنتم تدعوننا لزيارة المقابر لنتعظ ونحن ندعوكم لزيـارة الشواطئ لتهتدوا..

ضميري لا يسمح بأن أُرائي قرائي فليسمعوا كلمة اللوم على غفلتهم عن الاصـطياف وليسمعوا كلمة الصدق في دعوتهم إلى تنسم هواء البحر من حين إلى حين.

أما الخوف من اللؤلؤ المنثور فوق الشواطئ فعلاجه سهل، وهل يـصعب علـيكم أن تدخلوا الشواطئ بلا عيون؟؟ عندكم الأقنعة الواقعية وقد وزعتها الدولة بالمجان منـذ سـنتين فالبسوها عند زيارة الشواطئ لتكونوا في أمان من سحر الجمال.

ولكن تلك الأقنعة فيها ثقوب تطل منها العيون فماذا تصنعون..؟

الرأي أن تظلوا في مراقدكم وأن تتركوا هواء البحـر ورمـال الـشواطئ لعقـلاء الأجانب..

ماذا يقول أحفادنا إذا قرءوا هذه الكلمة وعرفوا أن الاصطياف كان معضلة تختلف فيها الآراء؟

لو كانت الشواطئ المصرية بأيد غير أيدينا لأصبحت فراديس تصبوا إليها نجوم السماء فما يكون أن تكون في الدنيا شواطئ في سجاحة الشواطئ المصرية، ولا يمكن أن تنعم بلاد بمثل ما ينعم به أهل هذه البلاد من شواطئ تفوق الإحصاء، وماذا يرى الرائي في الشواطئ؟

قالوا إنه يرى أجسامًا عارية.

الآن فهمت وفهمت فقد طال غرام الناس بالتحجب والرياء لأن اعوجاجهم في ضمائرهم فرض عليهم أن يعيشوا في أسر الأثواب.

الكلمة الصريحة لا تصدر إلا عن صاحب الرأي الصريح.. والجسم العاري لا يتخايل به غير صاحب الجسم الجميل. والمصريون فكروا في التزود من جميع الثقافات وأهملوا الثقافة الجسدية فما الذي يمنع أن يكون في الشواطئ تذكير بما للجسد من حقوق؟؟

في رؤية اللاهين فوق رمال الشواطئ درس ينفع من تركوا أجسادهم بلا تثقيف وهو درس يحتاج إليه الشيخ أبو العيون.. يجب أن نرى العراقة فوق الشواطئ لنتذكر جنايتنا على أجسادنا بترك الرياضة البدنية.

هل تذكرون السيدة التي أثنت على القرار الخاص بتخصيص أحد الشواطئ لاستحمام النساء؟

هي سيدة لا تستطيع البروز بلباس البحر ولو كان جوازًا إلى دار الخلود.

أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أن أناسًا من خلق الله سيعترضون كما اعترض المحامي الذي يراسلني من منفلوط، أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أنه يصورني ظلمًا بصورة الماجنين مع أني صادق كل الصدق فيما أقول فالشواطئ المصرية نعمة من نعم الله وما يقع فيها من شر لا يقاس إلى ما تسوق من منافع الخير الصحيح.

لو شئت لعتبت على قرائي، فالشاعر أحمد العجمي يقول إني مجدت الإسكندرية أعظم التمجيد فهل زار الإسكندرية ليراها بعيني؟ والمحامي أحمد القاضي آذاه كلامي عن الإسكندرية فهل زارها ليعرف حقيقة كلامي...

زوروا الإسكندرية وقفوا لحظات أو ساعات بمحطة الرمل.

كان أبعد سفر عند أهل الصعيد هو زيارة طنطا في مولد السيد البدوي فهل أستطيع نقل أهل الصعيد إلى زيارة أبي العباس المرسي؟

إن كانت الدعوى إلى الحياة خلاعة ومجونًا فأنا راض بأن أضاف إلى الخلعاء والماجنين..

وهل يؤذيني الظن الآثم والجهل الطائش؟

أنا أدعو إلى الحياة، أنا أدعو كل مصري إلى تذوق الجمال بكل بقعة من بقاع هذا الوادي الجميل.

في السماء رزقي فما خوفي من أهل الزور والبهتان؟

أعجوبة الأعاجيب:

هي أن تكتب كلمة يفهمها جمهور القراء على الوجه الصحيح ثم تستغلق على محرر المجلة الأسبوعية فيؤولها أسوأ تأويل وتكون النتيجة أن يبني عليها أحكامًا أوهى من بيوت العنكبوت وهو يتوهم أنه غاية في اللوذعية والذكاء.

ولهذه الأعجوبة قصة قريبة فقد كنت كتبت في رثاء تقلا باشا سطورًا أبرزت بها خصائصه الذاتية التي جعلت حياته قدوة لرجال الأعمال، وكان الروح الذي يسود تلك السطور يفيض بمعاني العدل والإنصاف والإجلال وإن خلا من الندب واللطم والصراخ. على نحو ما صنع المحرر لتلك المجلة الأسبوعية..

كان الظن أن يفهم بعض خلق الله أني أرثي تقلا باشا في مجلة الرسالة والرسالة تترجم من ترثيهم فجوها يصلح للترجمة ولا يصلح للبكاء، وهل يحتاج تقلا باشا إلى من يبكيه؟ إنما يحتاج مثل هذا الرجل إلى من يظهر الشمائل التي وصلت به إلى أن يكون في الطليعة بين رجال الصحافة في الشرق وليس ذلك بالمجد الضئيل حتى نكمله بالتوجع والتفجع والأنين، ولكن ذلك المحرر رأى بذهنه الثاقب أن كلمتي تحتمل التأويل فانتهز الفرصة وتقرب إلى أقار صاحب الأهرام بالشفقة المكذوبة والود المدخول، فزعم أني هجمت على ميت ثم تطاول فقال كلامًا يدل على أدبه الجميل.

وأردت أن أصحح خطأه فكتبت كلمة تصحيح ولكنه عاند عنادًا يقبل ممن يكون في مثل عقله فألقاها في سلة المهملات لأني هددته بنشر ما اعترض عليه عساني أجد الفرصة لتقويم بعض المحررين. وأحب أن أعرف ما الغاية من الإيقاع بين الناس؟

قلت لذلك المحرر: إن لي أصدقاء في جريدة الأهرام على رأسهم أنطون الجميل وكامل الشناوي وعوض جبريل فكيف يسيغ ذهنك أني أستبيح إيذاء أولئك الأصدقاء في مناسبة لا يجوز فيها إيذاء الأعداء؟

وقلت لذلك المحرر: إني لا أهجم إلا على الأقوياء الأحياء فكيف أهجم على ميت لا أذكر أني عاديته لحظة من زمان؟ وقلت لذلك المحرر: إني رثيت تقلا باشا وأنا أتمثل ما عانى في حياته الصحفية فما يجوز أن أقول فيه غير الجميل، وأن ألتبس كلامي عليك.

وقلت لذلك المحرر: إن لتقلا باشا أقارب من أصدقائي في القاهرة وبيروت وأنا أتحيز دائمًا لأصدقائي.. فليس من المعقول أن أوذيهم في مثل هذا المقام الحزين.

وبرغم هذه الشروح أصر المحرر على إغفال كلمة التصحيح فما الأخلاق عندكم يا محرري بعض المجلات الاسبوعية؟

ما الأخلاق عندكم وقد أهمل ذلك المحرر رجائي في أن لا يدس بيني وبين ناس محزونين، وما هذا الإفك في الإفساد بين الناس؟

أنا حاضر لمخاصمة جريدة الأهرام ولكني أرفض أن يقال إني أخاصم صاحبها في غداة الموت وليس لحي بقاء.

وما قيمة التودد لجريدة الأهرام بمثل هذا الدس الممقوت؟ أيكون لجريدة الأهرام قوة سحرية تمنع العواقب المقدورة على الدساسين؟

القدرة الصحيحة هي قدرة الحق، فما شأنك يا كاتبًا أفلس فلم يجد زادًا غير الوقيعة بين كرام الرجال؟ ما شأنك ولن تكون كاتبًا ولو سودت وجهك بالمداد في ألوف من السنين؟

ما عتبي عليك وقد نصحتك فلم تنتصح بعد أن رأيت ما صنعت بنفسك اليوم صورت شعورك بأول غارة جوية؟

ما عتبي عليك وقد خاب أملي فيك؟

لقد فكرت في أن أشرح لك العبارة التي عجز عن وعيها فهمك، ولكني خفت أن تعجز عن فهمها بعد الشرح.

وقد فكرت في النص على المجلة التي تتسع لأوهامك وأحلامك ولكني ترفقت فلم أدل على مجلة كان زادها ولن يزال من عبث الأطفال.

إن كلمتي في رثاء تقلا باشا كلمة حق لأني رثيته باسم الحق فما قيمة كلماتك في رثائه وأنت ترائيه في الحياة وبعد الممات لغايات؟

عفا الله عنك يا فلانا بالمجلة الفلانية..

ونفعك الله بهذا الدرس البليغ..

بين القاهرة وبغداد(*):

سنحت فرصة ثمينة وما كنت أنتظر أن تسنح فقد ألفنا بخل الأيام وشح الليالي ورضا النفس على اليأس من كرم الزمان.

وتلك الفرصة هي لقاء الأستاذ طه الراوي في القاهرة بعد فراق طال ثم طال، وبعد شوق لا يتصوره القلم ولو جال وصال.. قال الأستاذ الراوي عند التلاقي: ماذا اصنع معك؟ وكيف أجازيك أنت تعلن شوقك إلى إخوانك في مجلة الرسالة فيصل صوتك إلى الشرق والغرب وأنا أضمر شوقي فلا يصل إليك منه قبس ولو أني عبرت عما في نفسي لقلت إني لم أجد أحدًا غيرك يفوقني في الوفاء.

كذلك كان الحديث عند لقاء الأستاذ طه الراوي صديق مصر الحميم والرجل الذي لا ينساه من يراه، ولو طال البعاد، تلاقينا وتسامرنا وقال وقلت: أين الأستاذ الزيات ليتم أنس الحديث، فقد سأل الأستاذ الراوي مرات عن الأستاذ الزيات وكان يشتهي أن يراه ليتحدث معه في شئون من شواجر الأدب القديم والجديد ورجائي أن أبلغه التحية إن لم يستطيع رؤيته قبل الرجوع إلى بغداد.

في رياض الزمالك:

عرفت من المفوضية العراقية أن الأستاذ الراوي يقيم بفندق الكونتننتال فطلبته بالهتاف فرد صوت محبوب هو صوت السيد خالد الشوربجي فعجبت من هذه المصادفة الغريبة وسألته عن الأستاذ الراوي فقال: تجده بكلية البنات في الزمالك، ثم قال: وأين الأستاذ الزيات؟ فقلت: تجده في كلية الزراعة على شاطئ بحر شبين.

مضيت في العصرية إلى الزمالك فكيف رأيت الزمالك؟ إني لمفتون بتلك البقعة التي يطوقها النيل من أربعة جوانب، وإني لمفتون بما فيها من قصور وبساتين وإنها لروضة من أنضر الرياض.

(*) العدد ٥٣٠ من مجلة الرسالة ٣١ أغسطس ١٩٤٣م.

أين الشاعر الذي يصور جمال الزمالك؟

وأين الروح الذي يدرك معاني تلك الجزيرة الخضراء؟

لن ينقضي فتوني بتلك الروضة المهندمة بأروع وأظرف ما تجود به الفنون فالزمالك ترى وكأنها صبت مرة واحدة في لحظة من لحظات الصفاء.

لا تجد بيتًا يبنى ولا بيتًا يهدم ولا ترى إلى سبيكة مقدودة من ضمير الحسن الأصيل. هذه كلية البنات بشارع محمد أنيس، وهذا بابها العالي فما أسعد بلدًا يكون لبناته حظ التعلم في مثل هذا المكان البهيج.. وأخطو خطوة فأجد الأستاذ الراوي في انتظار وأجد معه الأستاذ عبد الجبار الجلبي وأجد وجوهًا عراقية في سمرة النيل عند الوفاء.

وأقول بعد التحية: جئت أدعوكم لزيارة سنتريس فما يجوز لمن يزور مصر أن يغفل زيارة سنتريس.

فيقول السيد عبد الجبار الجلبي وهو يبتسم: إن مثل من يزور مصر ولا يزور سنتريس مثل من حج ولم يعتمر.. وقد يكون حاله حال من اعتمر ولم يحج فلابد من زيارة سنتريس.

سهرة روحية:

وبعد لحظات يتفرق الجمع، لأن لجمهور الحاضرين مآرب من رؤية القاهرة بالليل وانظر فأرى الأستاذ طه الراوي سيبقى بلا رفيق فأقرر مسامرته إلى أن يعود الرفاق.

قلت: أيسمح سعادة الأستاذ أن نخرج فنرتاض على ضفاف النيل؟

فقال: أنت النيل... ثم أنشد قول المتنبي:

من عبيدي أن عشت لي ألف كافو ر ولي من نداك ريف ونيل

وانطلق فقص قصة المتنبي بعد أن رحل عن مصر قصها بصورة خلابة كأنه كان رفيق المتنبي حين فارق مصر في ليلة عيد، وخلاصة القصة أن المتنبي كان يعلق آماله على "فاتك" وكان فاتك يريد السيطرة على الصعيد فبث كافور العيون ليعرف من أحواله كل شيء وكان المتنبي يعرف هذه الحقيقة فكان يخرج بحجة الحرص على ترويض حصانه ليلقي فاتكا في مكان مجهول... ثم هلك. فاتك فلم يبقى للمتنبي غير الرحيل.. ولكن إلى أين؟

رحل إلى الكوفة وهي وطنه ولعله كان فهيا من الفقراء فأرسل غليه سيف الدولة هدية يستعين بها على العيش فرد المتنبي بقصيدة منها هذا البيت:

من عبيدي أن عشت لي ألف كافو ر ولي مـن نـداك ريـف ونيـل

ومضى الحديث في شجون مصرية وعراقية فكان من ذلك دليل جديـد علـى الثقـة الموصولة بيني وبين هذا الرجل النبيل –أحكي، أحكي– وماذا أحكي؟

أنا تعبت من الحكي فأحكي أنت – ميعاد الحكي في سنتريس.

وخرجت أبحث عن سيارة بعد انتصاف الليل وأنا في نشوة روحيـة قليلـة الأمثـال. رياض الزمالك وأحاديث الراوي في ليلة واحدة؟ تبارك من جعل هذه الحظوظ من نصيبي في أوقاتها قل فيها الظفر بأطايب الحياة.

لمحة وجدانية:

وقفنا على جسر الرياح المنوفي بالقناطر الخيرية لحظات، فقلت للأستاذ الراوي: مـا رأيك في أن ننزل فنقطع هذا النهر سابحين إلى أن نلقى الأستاذ الزيات؟

- ايش لون؟

هذا النهر يسمى هنا بالرياح المنوفي، وبعد قنطرة النعناعية يسمى بحر سنتريس وبعد قنطرة القرينين يسمى بحر شبين، ومنه تستقي مزارع الأستاذ الزيات.

- أنتم تسقون من نهر واحد؟ الآن عرفت السر فيما بينكم من وفاق.
- وهناك وشيجة ثانية.
- ما هي؟
- هي ما يوجب العقل من تلطف الشركاء بعضهم مع بعض، فأنا أستطيع سد هـذا النهر بنبابيت سنتريس.
- ولا تخاف الحكومة؟
- الحكومة تركت هذا النهر في حراستنا، فنحن نملك من أمره كل شيء.
- أنتم إذًا على استعداد لإساءة التصرف؟
- ومع هذا لم نسئ التصرف، رعاية لمعنى واحد هو البر بالـصديق، ولـو كـان الزيات عدوًا لعاملناه معاملة الأعداء، هذا مع العلم، بأن الزيات صديق مضمون.
- ما معنى هذه الكلمة الأخيرة؟

- إن لها معنى ومعاني، فالصديق المضمون هو الصديق الذي لا يخشى تغيره بأي حال، وإذًا يجوز التحيف عليه باطمئنان، فيكون البر به غاية في الوفاء.
- هذا معنى طريف، ولكنه يحتاج إلى بيان.
- بيان ذلك أن من الأصدقاء من ينهاه قلبه وروحه عن مجازاة أصدقائه غدرًا بغدر، وإيذاء بإيذاء، والصديق الذي يكون في مثل هذه الروحانية يلقى من أصدقائه متاعب ومضجرات، فالوفاء بعهده يعد أعجوبة في الحياة الأخلاقية، وأنا أطمع في الظفر بأكبر نصيب من مكارم الأخلاق.
- نحن نسمع في مصر كلامًا جديدًا.
- ولكنه أقل من كلام العراق.
- يعجبني تعصبك لأصدقائك، يا دكتور مبارك.
- ولمن أتعصب إذا لم أتعصب لأصدقائي؟ لم يبق من الكرم غير حفظ العهد، وكل ما أخشاه أن يكون حظي من هذا المعنى أقل مما أريد، إن الهجوم على العدو لا يحتاج إلى عناء، لأنه ينبعث عن ثورة تعين على القتال، أما ملاطفة الصديق فتصدر عن عواطف رفيقة لا تساعد على الاستبسال لو بذلنا في ملاطفة أصدقائنا معشار ما نبذل في محاربة أعدائنا لرضي الله عنا واصطفانا لأشرف الأعمال.
- الأدب الحق هو أدبك في معاملة من لا تخاف أن يثور عليك؟
- وهذا أيضًا كلام جديد.
- وهو أيضًا من وحي العراق.
- طيب الله أنفاسك يا دكتور مبارك...

طبائع الأرض المصرية والعراقية:

في حديقة الدار في سنتريس بدت الطلمبة أمرً عجبًا فقد دهش الضيوف العراقيون من أن نستقي الماء بلا بئر فقلت إن هذا تيسير في العراق لو أردتموه فقال الأستاذ طه الراوي أن البئر في العراق تكون مياهه غاية في المرارة إن بعد عن الشط لأن أرض العراق كثيرة الأملاح عند ذلك تذكرت عبارة عن مسيو دي كومنين حين رأى الطلمبة في سنتريس فقد قال إن هذا يمتنع في الأرض الفرنسية وإن لم يذكر الأسباب.

وعند ذلك فهمت كيف كانت بغداد مملوءة بالأنهار وهي القنوات التي كانت تنقل الماء إلى المحلات المختلفة بدار السلام... فكل مجرى ماء اسمه نهر عند أهل العراق. ولو كان قناة لا يحتاج عبورها إلى أيسر مجهود ومن هنا جاز أن نرى في كتب التاريخ أن البصرة كان فيها مئات أو ألوف من الأنهار الجاريات.

لو سمعت كلام الأستاذ الراوي قبل أن أكتب مقالي عن "عروس النيل" لكان من الممكن أن أضيف إليه توضيحات فليكن ما هنا تكميلاً لما هناك.

بين سنتريس ولبنان:

قال الأستاذ الراوي: للنسائم هنا مذاق لا نجد له مثله في لبنان فما الذي يمنع من أن تجعلوا بلدكم من بلاد الاصطياف؟

قلت: إن هواء سنتريس أتعب أهل سنتريس..

- وكيف؟؟
- لأنها جعلها مرادًا لأصحاب الأذواق فهي الملتقى لأكثر سكان المنوفية ومن أجل هذا عم فيها الغلاء.

أسجاع وأغاريد:

وعند تناول العشاء سمعنا طيورًا تسجع وتغرد بأنغام لا يسمع مثلها أهل العراق فقال الأستاذ عبد الجبار الجلبي: ما هذه الطيور؟ فقال السيد عبد المجيد مبارك هذه جماعة الكروان تصدح عند قدوم الليل وتردد الأستاذ الجلبي في تصديق ما يسمع فقال له الأستاذ الراوي: هذه بلابل تصدح بأنغام أهل سنتريس.

منظر طريف:

حين مررنا بحدائق القناطر الخيرية نبهت رفاقي إلى غابة أبي قردان، وقلت إنه طائر يصادق الفلاح فيرافقه في الحرث والسقي ليلتهم ما في الأرض من ديدان ولهذا يحرم صيده بأمر وزارة الزراعة المصرية.

قال الأستاذ الراوي هذا اسم عربي فالقرد يجمع قردان كما يجمع على غلمان ولعل هذا الطائر سمي بذلك لأنه يطهر الأرض من الحشرات.

قلت: ومن العجب أن يكون ملتقى هذه الطيور المبيت في شجرة كريمة بأحد المنازل في سنتريس وكأنها تقول: من علم الورقاء أن محلكم حرم وإنكم موئل للخائف..

ماذا دها القمر؟؟

كانت طلعة القمر طلعة بهية، وكان لألاؤه فوق بحر سنتريس غاية في البهـاء فمـاذا دهاه قبل أن نقترب من قليوب؟ قال السيد هاشم: القمر مخنوق.

فوقفنا جميعًا وتطلعنا إلى وجه القمر فرأيناه في حال تشمت العزازل.

حتى القمر تنال منه صروف الليالي؟

وتسمع السيد عبد الجبار ما يقول أهل قليوب ليوازن بين أقوالهم وأقوال أهل بغداد.

وتذكرت العبارة المصرية فقلت: "يا بنت الحور سيبوا قمرنا ينور".

فقال: إن عبارة أهل بغداد (يا حوتة يا منحوتة طلعي قمرنا العالي).

وإذًا تكون بنات الحور التي تخنق القمر في مصر وتكون الحوتة المنحوتة هي التـي تخنقه في العراق.

قلت: القمر عندنا معشوق تحتجزه الحوريات، وهو عندكم مأسور بأيـدي الحوتـات المنحوتات عليهن اللعنات.

فقال السيد عبد الجبار لقد راعني هدوء الطبيعة المصرية ففي كل ماء تنق الـضفادع بقعقعة مزعجة إلا ماء النيل.

واستطرد الأستاذ الراوي فقال: أراد صوفي أن ينظر معشوقته من ثقب الباب ليراهـا عارية.. ولكنه انزعج حين رأى ضفائرها تحجب عنه جسدها الوهاج فصرخ:

"يا حوتة يا منحوتة طلعي قمرنا الوهاج".

قتل: وما شأن الصوفي بالأجساد العارية؟؟

فأجاب: هل نسيت ما قررته في التصوف الإسلامي؟

ألم تقل إن الحب الحسي قنطرة إلى الحب الروحي؟ ألم تقل إن الصوفية تبنوا أشـعار الماجنين فحولوها إلى خطرات وجدانية؟

فائدة لغوية:

قال سعادة الأستاذ الراوي وقد شربنا القازوزة إن العرب عرفــوا القـــازوزة فقلــت القازوزة التي نشربها كلمة فرنسية فما هي في العربية؟ فقال:

وردت في قول أحد الشعراء:

أفنى تلادي وما جمعت من نـــشب   قرع القوازيز أفواه الأباريق(٢٤)

فقلت هي القوارير بالراء في المطبوعات المصرية وهي أفصح لأنها كلمـــة قرآنيـــة، وبعد لحظة قال الأستاذ: المفرد قاقوزة فقلت إذًا يكون الجمع قواقير.

وبعد العودة راجعت القاموس فوجدت قاقوزة وقازوزة بمعنى واحد وهو المـــشربة أو القدح أو الصغير من القوارير وعلى ذلك يمكن أن يكون البيت روى بروايتين.

وفائدة تاريخية:

قال الأستاذ الراوي سمعت اليوم تعليلاً أعجبني في تسمية شار الموسكي فقد حـــدثني أحد الأفاضل أنه جاء من الكلمة الفرنسية "موسكيه" وهي كلمة عربية الأصل معناها المـــسجد وسمى الشارع بذلك لأنه يوصل إلى المسجد الكبير وهو الجامع الأزهر فقلت: الموسكي بفتح السين نسبة إلى موسك أحد أمراء مصر في الأيام الخوالي وسكنت السين للتخفيف.

فضحك الأستاذ الراوي وقال: إذًا كان ذلك المحدث من الأفاضل بالقول لا بالفعل.

مروءة مصرية:

رجعنا إلى القاهرة والقمر مخنوق والظلام يطمس المعالم بميدان باب الحديد ولابد من سيارة تنقل الضيوف إلى الزمالك... تاكسي تاكسي تاكسي...

هتفنا بهذا اللفظة أكثر من خمسين مرة فما سمع سامع ولا أجاب مجيب.... ونظـــرت فرأيت فتى يخترق الظلام ليستوقف سيارة فظننته خادمًا يبحث لسيده عن واسطة أداة النقل في لغة العراق.

---

(24) كلمة "أفواه" مرفوعة لأنها فاعل المصدر وهو "قرع" فقد رفع الفاعل بعد إضافته إلى المفعول.

ثم ظهر أنها بائع متجول أراد أن يريحنا من ذلك العناء...

هل قدمنا لهذا البائع قرشًا أو نصف قرش؟

الجواب عند السيد عبد الجبار الجلبي فقد كان في الزاوية الثانية ولعله نفحه بشيء وإلا فأنا حاضر لمكافأته على ذلك الصنيع الجميل..

٥٥

حياة الأديب[*]:

دعيت لإلقاء خطبة في تأبين المرحوم عبد الحميد الديب فأجبت، وكانت نيتي أن أقول رأيي علانية في الحياة التي يحياها مثل ذلك الأديب لئلا يكون الإكثار من الثناء عليه إغـراء بذلك اللون من الحياة الفقراء.

ثم رأيت الحفلة فوق ما كنت أنتظر، فقد اشترك فيها خطباء وشـعراء مـن الطـراز الجيد، وحضرها جمهور من أفاضل الناس، وتلي فيها خطاب أرسله وزير الشئون الاجتماعية وخطاب أرسله وزير الأوقاف. وتلك مظاهرة أدبية تمنع ما أردت أن أقوله في نقـد الحيـاة التي اختارها ذلك الشاعر المسكين.

ولكن هذه الظاهرة بدت لي باعثًا جديدًا على أن أقول ما نويت أن أقول فقـد تجـسم التخوف من شيوع البوهيمية بين فريق من أدباء الجيل الجديد، وخفت أن تكون هذه المظـاهر دعوة إلى تحلل الأديب من واجبات الحياة في نظامها اللائق بأهل البيان.

وكذلك انطلقت فقلت: إن عبد الحميد الديب كان على جانب من الأدب والذكاء، ولكنه ظلم نفسه حين انخدع بالرأي المنحرف، وهو رأي من يتوهمون أن البؤس يذكي المواهـب، ويزيد في يقظة العقول، وقد آمن بهذا الرأي إيمانًا فرض عليه أن يجعل همه في الوصول إلى الظفر بلقب "شاعر البؤس" وهو لقب لا يتمناه لنفسه إلا من حرم نعمة التوفيق وماذا جني عبد الحميد الديب من ذلك اللقب الطنان؟ كل ما جناه أن يعيش في رحمة المترحمين، ولا يحتـاج إلى الترحم غير المساكين، وإذا كان الأدب لا يمتع أهله بغير المسكنة فعليه اللعنة إلـى يـوم الدين؟

ثم قلت: أين الشريعة التي توجب أن نذل أنفسنا في سبيل الأدب وما قيمة الأدب إن لم يجعلنا أعزاء؟

وما هذه الخرافة التي تقول بأن من حق الأديب أن يعيش بلا مهنة تغنيه عن سـؤال الناس؟

(*) العدد ٥٣١ من مجلة الرسالة بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣م.

وكيف نهدي الناس إلى الخير ونحن نستهديهم المال؟ هل ننسى قول أبي العتاهية:

لـــــو رأى النـــــاس نبيًـــــا سـائلاً مـــــا وصـــــلوه

إن الاحتياج إلى الناس بداية الانخذال ولو كانوا من الأهل والجيـران، فـإن احتـاج الأديب إلى معونة إخوانه وهو قادر على كسب الرزق بعرق الجبين فهو أديب زائف لا أديب صحيح.

من واجب الأديب نحو أدبه أن يصونه عن أفضال المفضلين لينطق بكلمة الحق فـي حرية وصراحة وإخلاص، وهذا لا يتيسر للأديب المحتاج إلى الإفضال.

هل تذكرون ألقاب شعرائنا وعلمائنا في العصور الخوالي؟

كانت ألقابهم أنسابًا إلى الحرف والصناعات ففيها الزجاج والقفال والتمـار والوقـاد، والصبان والبنان والسراج والحداد والزيات واللبان، وكانت هذه الأنساب من أجمل التشاريف، وهي باقية على الزمان.

وإذا كان التاريخ سجل أسماء تكسب أصحابها بالأدب فقد كان أولئك المتكسبون مـن حواشي الملوك، وقد اصطلح الناس في كل زمان ومكان على أنه هبات الملـوك تحيـات لا معونات.

وهل يتقدم ملك بتشجيع أديب إلا وهو يعرف أنه يضع جوهرة جديدة بـين جـواهر التاج؟

وما حظوظ الأدباء الذين ظفروا بهبات الخلفاء والملوك والأمراء؟ وما حظوظهم فـي التاريخ؟

كانوا من الموجهين في الحيوات السياسية والأدبية والاجتماعية، وكان إليهم المرجـع في تدبير شئون الملك، وكانوا المتصرفين في شئون السلم والحرب.

فما حظ الأديب الذي ينتظر هبات من أدباء لا ملوك؟

أعاذكم الله من احتياج الزميل إلى الزميل؟

إن قتل النفس أهون من الاحتياج إلى الأخ الشقيق، فكيـف نستـسيغ الاحتيـاج إلـى الرفيق.

وفي أدبائنا من يتوهم أن نظم أبيات في هذا الفلان أو ذلك العلان تمنحه الرزق، فـإن صح توهمه فسيكون رزقه من الرزق الحرام لا الحلال.

إن رزق الأديب من الذوق، واللمحة الواحدة من طليعة البدر قد تكون زاده الروحي إلى آخر الزمان.

إن الأديب الحق ليس أسيرًا للوطن ولا أجيرًا للمجتمع، فكيف يكون أسيرًا لفلان، أو أجيرًا لعلان؟

وعبد الحميد الديب لم يقتل نفسه عامدًا متعمدًا، أنتم خدعتموه وضللتموه، وفرضتم عليه أن يستغيث بمعروفكم يا أشحاء؟

تقول العبارة المصرية "فلان يقتل المقتول ويمشي في جنازته" وأنتم القتلة لذلك المخلوق الذي وثق بكم، وأنتم حملة المصاحف أو القماقم بجنازته العجفاء، فما قيمة براعتكم في الرثاء؟

إن دموعكم يا قاتليه لن تنجيكم من غضبتي عليكم.

فاسمعوا هذه الكلمة، واعلموا أن بكاءكم في هذا الاحتفال سيمر بلا ثواب، وقد يكون مجلبة العقاب، لأنكم تزينون لسامعيكم حياة لا ترضونها لأنفسكم إلا مكرهين.

ثم قلت: وماذا في خطاب وزير الشئون الاجتماعية؟

إن فؤاد باشا سراج الدين يعد بأن سيضع نظامًا يقي الأدباء شر التشرد، وأنا باسمكم أعلن استقلال الأدب عن الحكومة، فما يجوز أن نطلب الاستقلال لبلادنا ونطلب الحماية لأقلامنا.

إن تطوعت الدولة برعاية أديب أعجزه المرض عن طلب الرزق ذلك عمل يستأهل الثناء، ولكننا نرفض حمايتها لأديب يستطيع كسب القوت، ولو بالفأس والمحراث.

نحن لا نطالب بالدولة بشيء وإنما نطالب أنفسنا بكل شيء، فمن الواجب أن تكون لنا مشاركات في جميع الميادين، من الواجب أن نكون رجال أعمال، كالذي صنع شيخنا طلعت حرب، فقد حول ذوقه الأدبي إلى الاقتصاد. وبهذا استطاع أن ينظم أعظم قصيدة عرفتها اللغة العربية وهي "بنك مصر" ثم أردف القصيدة بمقطوعات هن تلك الشركات.

وإذًا بدا لنا أن ننسحب من ساحات الثراء فليكن انسحابنا عن زه لا عن يأس، ولنكن في فقرنا نساكًا لا عاجزين، فنية التجرد عن الدنيا نية مقبولة، على شرط أن تكون من وحي التحليق لا وحي الإسفاف.

إن الأمم القوية تستطيع تلوين الأنظمة السياسية بشتى الألـوان، وتـستطيع أن تبلـغ صوتها إلى آفاق الشرق والغرب، وتستطيع أن تعقد المعاهدات وتثير الحـروب، ولكنهـا لا تستطيع خلق الأديب، لأن الأديب لا يخلقه غير فاطر السماء.

الدنيا لنا، إن شئنا، فالمواهب الأدبية أعظم المواهب ولو بذلنا في طلب الدنيا معـشار ما نبذل في طلب الأدب لكنا أغنى الناس، فلتكف الدولة برها عنا، فنحن كأشجار الـصحراء، لا نرجو غير ندى السماء.

أيجود الله علينا بالأدب ويبخل بالرغيف؟

قولوا كلامًا غير هذا، فلن يتخلى الله عنان، وسنظل بفضله أغنى الأغنياء.

الصديق:

في هذه اللمحة صلصل الهتاف مؤذنًا برحيل الأستاذ طه الراوي عـن القـاهرة بعـد دقائق، فما الوسيلة لتوديع رجل كانت داره ولن تزال دار المصريين في بغداد؟

حين تقرر سفر الأستاذ صادق جوهر إلى العراق كان مـن الواجـب أن أقابلـه أنـا والدكتور عبد الوهاب عزام لندله على أصدقائه هناك، وقد دللناه على رجلين: طـه الـراوي ورضا البشبيشي، مع حفظ الحقوق لسائر من عرفنا من كرام الرجال بوطن دجلة والفرات.

وقد كان عجبًا للناس أن يروني أذكر العراق بالخير في كل وقت، وفاتهم أن يعرفـوا أن المصري حين يشرق لا يكون همه إلا معرفة الكنوز المجهولة من فضائل الشرق.

ونحن عرفنا العراق، فهل رأينا فيه غير الجميل؟ ولنفرض أن فريقًا ممن عاشوا فـي العراق عانوا بعض المتاعب، فمتى خلت الحياة مما يكدر الصفاء.

وهل نجد السعادة كاملة في أي أرض حتى ننشدها كاملة في العراق؟

إذا عز علي أن أصافح الأستاذ طه الراوي وهو راجع إلى بغداد فلن يعـز علـي أن أخلق فرصة وفرصة للحديث عما يتحلى به من شمائل وآداب.

قلدوا قلدوا:

كان الأستاذ عبد الجبار الجلبي قد صارحني بأنه غيـر راض عـن القـاهرة لأنهـا أصبحت صورة منقولة من المدائن الأوروبية، وقد أجبت بأن مزية مصر هي سرعة النقـل، وقد نقلت مصر فكرة الانتفاع بالسكك الحديدة قبل أن ينقلها الأتراك، مع أنها كانت في ذلـك الوقت ولاية تركية.

وحين دخلنا سنتريس قال السيد عبد الجبار: إن مدخل سنتريس مدخل قرية أوروبية لا قرية شرقية، فكيف انتقل التقليد إلى الريف؟

فأجاب الأستاذ الراوي: لقد حان الوقت لتبديد النصيحة السخيفة، نصيحة من يقول: لا تقلدوا مثل القرود، فما كان القرد أذكى أنواع الحيوان إلا أنه يقلد كما يقلد الإنسان، وهل كـان الحمار حمارًا إلا لأنه يغفل عن التقليد؟ وله أفلحت إنجلترا إلا بتقليدها ما يجد من الاختراعات الأوروبية والأمريكية؟ قلدوا مثل القرود، ولا تغفلوا غفلة الحمير، فنحن نرى قردًا يعلو ظهر حمار، ولا نرى حمارًا يعو ظهر قرد.

الشيخ المراغي:

في محطة القاهرة رأينا شيخًا من بعد، فقال ضيوفي، من هذا الشيخ المهيب؟ فقلت: هو الشيخ المراغي، فتعالوا نسلم عليه، لتقولوا إنكم سلمتم على شيخ الأزهر الشريف.

وأسرعت فاستوقفت الشيخ ليسلم عليه ضيوفي، فقال الشيخ حين رآهم: هل جئتم للسؤال عن طبيب ليلى المريضة في العراق؟

فقال الأستاذ الراوي: يا سيدي، إن الناس "يقولون ليلى في العراق مريضة" هم يقولون، يقولون.

فهتفت: وأنا أيضًا أقول، وليلى تفهم ما أريد.

وفي القطار قال الأستاذ الراوي: إن الأزهر لم ير مثل الشيخ المراغي منذ ثلاثمائة سنة، فقلت: وهل تنسى الشيخ محمد عبده؟ فأجاب: الشيخ محمد عبده شخصية دولية لا أزهرية، ولو كان الشيخ عبده في صبر الشيخ المراغي لأتى في إصلاح الأزهر بالأعاجيب. إن الشيخ عبده كان ثائرًا، والثوار لا يسلمون من أذى الجهلاء، أما الشيخ المراغي فهادئ، وهدوء المصلحين يشبه هدوء الينابيع المطمورة في جوف الأرض، فهو يتحرك والناس يظنونه في سكون ولقد قرأت له كلمات في تفسير بعض آيات القرآن تضعه في الصف الأول بين رجال الاجتهاد.

قلت: والحكم بأن الأزهر لم ير مثل الشيخ المراغي منذ ثلاثمائة سنة فيه جور على أسلافه من الأكابر، وفيه جور على الذاتية المصرية، وسأدعو الأستاذ الأكبر إلى وضع كتاب تسجل فيه المناقب الكريمة لمن تولوا مشيخة الأزهر الشريف.

النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة:

منذ أعوام أخرج الأستاذ إبراهيم مصطفى بحثًا طريفًا سماه "إحياء النحو" فـرد عليه الأستاذ محمد عرفة بكتاب جيد سماه "النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة"، ومن ذلك البحث وهذا الكتاب ظفرنا بثروة أدبية تذكر بالجهود الكريمة للنحاة القدماء.

وكان من المنتظر أن يتشعب الجدل بين هذين الرجلين، وأن تثور حرب نحوية تنتهي بأن يكون للمصريين مذهب في النحو ينافس مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين.

ثم لاحت فرصة الجدل حول "تيسير النحو" فظهرت أبحاث تبشر بطلائع جديدة في الدراسات النحوية، وتبعتها تعقيبات في الجرائد العراقية والسورية.

ثم ماذا؟ ثم سكتت الأصوات، وانصرف المجادلون عن حومة الجدال، مع أن النحو لن يحيا إلا إذا صيرناه من المشكلات العقلية، لنجذب إليه أنظار المتأدبين، ولننفض عنه غبار الخمول، فهل نرجو أن تثار معركة النحو من جديد؟

٥٦

إلى عمداء الكليات(*):

هذه كلمة أسوقها برفق إلى عمداء الكليات بجامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية، وأنا واثق بأن ما يرد فيها من المعاني قد دار بخواطر أولئك العمد.

سمعنا وقرأنا أن رجال الجامعة هنا وهناك يرون قبول الطلبة العرب بدون نظر إلى تفاوت الدرجات في شهادة الدراسة الثانوية، وهذا واقع بالفعل، وفيه دلالة صريحة على تشجيع التعليم العالي، وتقوية الروابط بين مصر وشقيقاتها في الشرق.

فما الذي يمنع من أن ينتفع الشبان المصريون بذلك الامتياز اللطيف؟

أليس من العجيب أن تكون الجنسية المصرية عائقًا يمنع بعض الشبان من الانتفاع بما يتمتع به سائر زملائهم من الطلبة العرب؟

هل يجب على الشاب المصري أن يسارع فيتجنس بالجنسية العراقية أو السورية لينجو من تلك القيود؟

الشبان في مصر وفي سائر الأقطار العربية إخوة، فما الموجب لتمييز فريق على فريق؟

وكيف يجوز أن يكون من حق الشاب المصري أن يلحق بأية جامعة أجنبية ولو كان آخر الناجحين في امتحان البكالوريا ولا يكون من حقه أن يلتحق بجامعة مصرية إلا أن كان في الرعيل الأول من الناجحين؟

وبأي حق يكون ترتيب النجاح في امتحان البكالوريا هو الفيصل في تقدير المواهب؟

يجب أن نعرف أن الشاب الذي يجوز امتحان البكالوريا بأية صورة معرض لتطورات كثيرة جدًا، لأنه لا يزال في طور التكوين، فقد يتحول إلى جذوة من النشاط لم تمر به في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي، ويجب أن نعرف أن تمكين الشاب من التعليم العالي قد يصنع أما عقله مسئوليات تنقله من حال إلى أحوال. ويجب ثم يجب أن يتذكر رجال الجامعة

(*) العدد ٥٣٣ من مجلة الرسالة ٢٠ سبتمبر ١٩٤٣م.

أن في التعليم العالي فرصًا كثيرة لإذكاء العقول، وهي فرص لا يجوز تضييعها على أي شاب، ولو شهدت درجاته بأنه كان في التعليم الثانوي من المتخلفين.

لا يجوز أن ننسى أن البكالوريا المصرية أصعب من مثيلاتها في جميع البلاد، وفوز الشاب في هذه البكالوريا بأية صورة دليل على أن فيه خصائص عقلية تؤهله لاجتياز العقب من باقي مراحل التثقيف.

لم يبق إلا أن نتقي الله في أبنائنا فلا نؤاخذهم بتقصير لا ذنب لهم فيه، ويكفيهم فوزًا أنهم زحزحوا عن نار الرسوب.

قلت مرات إنه يجب حتمًا أن تكون مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة النهائية في إعداد الشاب للحياة، وهي لم تصر كذلك إلى اليوم، فلنساعد أبناءنا على ما يطمحون إليه في التعليم العالي، ولنجد عليهم بما نجود به على أخوتهم الوافدين من أقطار الشرق.

هل تصل هذه الكلمة إلى قلوب عمداء الكليات؟

عتاب لبناني:

كان الأستاذ محمد عبد الغني حسن نشر في "الرسالة" كلمة دعا بها الأستاذ إلياس أبو شبكة إلى كتابة كلمة في التعريف بالشاعر نجيب إليان فرد الأستاذ أبو شبكة في "الجمهور" ردًا يتلخص في أنه مع إجلاله واحترامه للأستاذ الزيات لن يكتب كلمته للرسالة، لأنها كسائر المجلات المصرية لا تلتفت إلى الحركة الأدبية القائمة في لبنان.

وأقول إن هذه النغمة – كما يسميها الكاتب نفسه– نغمة جديرة بالسماع، وهي تتيح فرصة جديدة لتبديد شبهة قديمة تعتب أقلامنا في تبديدها عددًا من السنين، ثم ظلت حية لا يعتريها الموت، كأنها أفعى بسبع رؤوس؟

ثم أقول إن إغفال المجلات المصرية للحركة الأدبية في لبنان أو غير لبنان من أقطار اللغة العربية لا يرجع إلى نية صحيحة أو عليلة، وإنما هو فرع من الإغفال العام للحركة الأدبية في الديار المصرية، فجرائد مصر ومجلاتها تسكت عما يصدر في مصر نفسها من الآثار الأدبية والعلمية؛ بحيث يمكن القول بأن الحديث عن المؤلفات الجديدة، لم يعد له في جرائدنا ومجلاتنا مكان.

وقد صار هذا الإغفال في حكم القواعد المرعية، مع الأسف ولم نجد من ينبه إلى أن له عواقب في إخماد النشاط الأدبي في مصر، ولم نجد من يثور على هذا الشيخ في تشجيع

من يبذلون قواهم في التأليف، مع أن الكلام عن المؤلفات الجديدة يعد بابًا من توجيه الجيل الجديد إلى ما يجب أن يقرأ أو يتجنب من جديد المطبوعات.

وأنا نفسي راعيت هذا الإغفال، فقررت أن أغفل إهداء مؤلفاتي إلى الجرائد والمجلات، لأني أكره إحراج زملاء ليس في نيتهم أن يلتفتوا إلى التأليف والمؤلفين، واكتفيت بالإعلان عن مؤلفاتي بالفلوس، إن احتاجت إلى إعلان.

نقد الكتب قد انقرض في مصر، النقد الذي يبرز محاسنها قبل أن يبرز مساوئها، النقد الذي يراعي فيه خلق صديق للمؤلف، أما النقد الأثيم فهو بحمد الله موجود؟

وكان من عادتي فيما سلف أن ألتفت إلى المؤلفات الجديدة، فكنت أخصها بصفحات في جريدة البلاغ، ولكني لم أجز على تلك الجهود بغير الجحود، فإن أثنيت على المؤلفات قبل تقريظ وإن حاسبته قبل عدوان، وكانت النتيجة أن أعفي نفسي من عناء ليس له في مصر جزاء.

وما جرى لي جرى لكثير من النقاد، فانصرفوا عن نقد الكتب إلى غير معاد، وستظل الحال كذلك إلى أن نجد من الشجاعة ما ندوس به جميع الأهواء فنقول كلمة الحق في المؤلفات الجديرة بأن توضع في الميزان، غير مبالين بالقراء والمؤلفين.

في هذه اللحظة تذكرت أني لا أقول كلامًا جديدًا، فقد نشرت لي مجلة المكشوف في العدد الخاص بمصر مقالاً عما صار إليه النقد الأدبي في بلادنا، فأعذرونا إذا فرطنا في حقوقكم الأدبية، فقد فرطنا في حقوقنا الأدبية، وما ظلمك من ساواك بنفسه في الإجحاف؟

وأنا بعد هذا أرجو أن يكون في هذه الكلمة مقنع لمن يتهمنا ظلمًا بالتغاضي عن الحركات الأدبية في سائر البلاد العربية.

ترفق بنفسك يا صديقي:

رأى قراء الرسالة أن السيد حسن القاياتي عاداني من غير موجب للعداء وساق إلى ألفاظ لا تصدر عن صديق، مع أني لم أسيء إليه في سر ولا علانية وكانت حجته أن أناسًا حدثوه أني قلت فيه كيت وكيت، وهو يعرف أني أبالغ في إكرام أصدقائي، وأني لا أتعرض لأعدائي بكلمة مؤذية، إلا إن حاربتهم في الجهر لا في الخفاء.

والآن، ماذا يريد السيد حسن القاياتي؟

أيريد أن أجزيه إثمًا بإثم، وعدوانًا بعدوان.

أنا حاضر وفي يدي قلمي، ولكني لا أشترك في حرب يكون فيها الغالب أسوأ حالاً من المغلوب، فترفق بنفسك يا صديقي، وأذكر عهودًا يذكرها كرام الرجال.

تقول إنك كنت شاعرًا كبيرًا يوم كنت أنا طفلاً يلعب، فما قيمة هذه الحجة يا عضو المجمع اللغوي، كما ذيلت اسمك؟

هل كان يجب أن أسبقك إلى الدنيا لأسبقك إلى الأدب؟

وماذا أفدت أنت من سبقك اللطيف بحكم شهادة الميلاد؟

وماذا أفادت جهودك الشعرية في نصف قرن، وأنت الذي صرحت بأن باكورتك ظهرت قبل نصف قرن، يا عجوزًا سبقني إلى الوجود؟

أترك هذه الحجة الواهية، إن كنت تريد الحجاج.

ثم ماذا؟ طاب لك أن تتحداني وتتحدى الأستاذ العقاد بكلمتين جارحتين وهذا ظلم منك، فالعقاد يملك في محاسبتك ما لا أملك، لأنه ليس لك بصديق فهو لا يبالي تجريحك ولا يؤذيه أن تبيت معصوب الجبين.

أما أنا فأتردد ألف مرة قبل أن أصوب رمحي إلى صدرك، وقد يرضيني أن أسكت عنك، لأنجو من محاسبة الضمير على إيذاء الصديق.

أتقول إنك أعظم مني؟ هو ذلك يا أخي؟

أيؤذيك أن أكون أشهر منك؟ إن كان ذلك فأنا أخلع الشهرة عليك؟ خذه هذه الشهرة، خذها، فقد آذتني أعنف الإيذاء.

وما رأيك في الصديق الذي يجازف بصداقة دامت عشرين سنة أو تزيد؟

ما رأيك فيمن يشتم أخاه في مجلة مثل الرسالة وهو يعلم قيمة صوتها في الشرق؟

لقد ظهر السر في إخفاقك، وهو أنك رجل بلا قلب.

إن كان لك بعد اليوم حياة أدبية فهي من صنع يدي، فأنا الذي أغضبتك على كسلك، وأنا الذي رفعت النقاب عن قلبك العقوق، ولن أتركك أو تصير أديبًا يعتز بحاضرة لا بماضيه، فما يعتز بالماضي غير الفانين.

هل تذكر هذا الجميل؟ لقد سويت من قبلك ناسًا فجحدوا جميلي وادعوا أنهم نظرائي، فكن أنت خاتم الأوفياء يا عقوق.

التاريخ الأدبي[٢٥]:

في سنة ١٩١٧ رفضت وزارة الحقانية أن يستمر الشيخ محمد الخضري بك والشيخ محمد المهدي بك في التدريس بالجامعة المصرية، وكانا أستاذين بمدرسة القضاء الشرعي، وهي يومئذ تحت إشراف وزارة الحقانية، فبحثت الجامعة عن أستاذ للتاريخ الإسلامي لا تسيطر عليه الحكومة، فظفرت بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، وكان قريعًا للشيخ الخضري، فقد كانا في الأدب والتاريخ فرسي رهان.

ولكن أين من يخلف الشيخ المهدي؟

ذلك سؤال وجهه الأستاذ محمد بك وجيه سكرتير الجامعة في ذلك العهد إلى الشيخ عبد الرحمن المحلاوي أستاذ الشريعة الإسلامية بقسم الحقوق، فدله على الشيخ مصطفى القاياتي، أحد أساتذة الأدب بالأزهر الشريف.

وفي عصر ويم سمعت صوتًا يناديني وأنا في طريقي إلى الجامعة فالتفت فرأيت الشيخ مصطفى القاياتي، وانتحينا ناحية في قهوة بميدان الأزهر ليدور هذا الحديث:

- هل تهمك سمعة الأزهر؟
- تهمني جدًا.
- وتهمك سمعة الجامعة؟
- بلا ريب.
- إذًا يمكن أن أعتمد عليك إذا قبلت اقتراح الجامعة؟

تقترح أن أكون خلفًا للشيخ المهدي في تدريس الأدب العربي، وقد فكرت كثيرًا فيمن أعتمد عليه في معاونتي فلم أجد غيرك.

- هل أعطاك سكرتير الجامعة منهاج المحاضرات لهذه السنة الدراسية؟
- هذا هو.

نظرت في المنهاج –وكان من موضع الشيخ المهدي– فوجدتني أقدر على إنجازه بلا عناء، فأشرت على الشيخ مصطفى بالقبول، فمضى وأمضى العقد في الحال.

(25) الغرض من هذه الكلمة تسجيل تاريخ آراء بعض الناس أن ينالوا منه بالتحريف.

شذوذ غريب:

كان الشيخ مصطفى القاياتي من أخطب الخطباء في عصرنا كان يخطب ساعة أو ساعتين بلا تلعثم ولا توقف ولا تحيس، وكان لا يلحن أبدًا وهو يخطب، ومع هذا كانت الكتابة عسيرة عليه عسرًا لا يطاق، فما كان يسهل عليه إنشاء مقال، ولا كان في مقدوره تحرير خطاب.

والذي سمع الشيخ مصطفى خطيبًا لا يصدق هذا القول فقد كان خطيبًا ثجاجًا، خطيبًا عرفته منابر الحزب الوطني قبل أن تعرفه منابر الوفد المصري، فكيف يصعب عليه لاإنشاء وكان في الأزهر معلم إنشاء؟

يرجع إلى أنه نشأ واعظًا، وكان أهله من الواعظين، فقويت عنده ملكة الخطيب الفصيح، وضعفت عنده ملكة الكاتب البليغ.

هل أنسى يومًا أنابه الوفد المصري في تأبين الشهيد محمد فريد؟

لقد ألقى خطبة جميلة جدًا، ألقاها مرتجلاً وهو يجهل أن جريدة اللواء المصري ستطالبه بالنص، لأن خطبته هي كلمة مندوب الوفد المصري في تأبين الرئيس الثاني للحزب الوطني.

عند ذلك دعاني لقضاء لحظة في تحرير الخطبة، فأنشأتها في حدود ما قال إلا عبارات تأباها السياسية الحزبية، ولكن مكر جريدة اللواء كان أعظم فأضافت إلى الخطبة كلمات قالها الخطيب ولم يسجلها نائب الخطيب؟

وتمثل هذا الشذوذ في معرفة الشيخ القاياتي بتاريخ الأدب العربي، فقد كان برغم فصاحته الخطابية لا يفرق بين عصر وعصر، ولا يعرف الحدود بين مراحل التاريخ.

كان الشيخ مصطفى ذكيًا جدًا ولكنه كان قليل الاطلاع، فكان من الصعب أو من المستحيل أن يخلف الشيخ المهدي في تدريس الأدب الغربي.

أستاذ بالروح:

لم يكد الشيخ مصطفى يطمئن إلى معاونتي حتى شعرت بأن واجبي أن أحفظ سمعه الأزهر والجامعة المصرية، فشرقت في تاريخ الأدب وغربت وأعددت أربعين محاضرة لو نشرت اليوم لكانت غاية في دقة البحث ونضارة البيان، وهي لا تزال في حيازة الأستاذ يوسف القاياتي، فمتى ينفض عنها غبار النسيان؟

والمهم أن أسجل أن حرصي على الصدق في أن تصان سمعة الشيخ مصطفى من لغو اللاغين فرضت عليَّ أن أجعل محاضراته في قوة محاضرات الشيخ المهدي.

وقد نجحت ونجحت، وكانت جهودي في تلك السنة ذخيرة باقية لحياتي الأدبية، فقد استقصيت فيها مراحل الأدب في القديم والحديث.

وبفضل الشيخ مصطفى القاياتي كان لي تلاميذ بالجامعة المصرية سنة ١٩١٨ منهم الأستاذ حسن إبراهيم وأحمد البيلي وعبد الحميد العبادي وإبراهيم الجزيري.

ثم ماذا؟ ثم كان زكي مبارك من تلاميذي، لأنه أدى امتحاناً أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعددتها بنفسي فإن أنكر زكي مبارك أنه تلميذي فسأفحمه بشهادة السيد حسن القاياتي، وهو رجل شهد ذلك التاريخ المجيد.

سبحان المنعم الوهاب(*):

قلت لصديقي: الأستاذ عبد الحفيظ خليفة: إن فاكهة المانجو توحي إلى أكلها بأن يقول الحمد لله، لأن حلاوتها حلاوة عبقرية، فهي دون العسل في الحلاوة، ولكن لها مذاقًا يفوق الشهد بمراحل طوال، ولذلك توحي إلى معاني من الشكران لا يوحيها أطيب طعام ولا أعذب شراب.

فقال صديقي: عرضت فاكهة المانجو على أحد الناس فرفض أكلها بحجة أنه لا يستطيع شكر الله على طعمها اللذيذ، وكان أحد الصوفية حاضرًا فصرخ: وهل تستطيع شكر الله على هذا الكوب من الماء؟

وعند هذه الكلمة سألت نفسي: كيف جاز أن يرخص الماء فلا تكون له تسعيرة في أعوام الحرب؟

ثم أجبت كان ذلك لأن الماء هو أساس الحياة، فلا يعيش بدونه مخلوق، ومن أجل هذا منحه الله بسخاء، وهو الزاد الوحيد الذي يستوي الناس في الاحتياج إليه، كما يستوون في الاحتياج إلى النور والهواء.

وأنا من قبل هذا الخاطر بأعوام فكرت في صعوبة ارتفاع الأراضي الفرنسية بمياه الأنهار، لأنها كثيرة التفاوت في الارتفاع والانخفاض، ولا يمكن أن تعتمد على مياه الأنهار في صيف أو شتاء، وكان الجواب أن الله أمد تلك الأراضي بالأمطار الثجاجة بالنهار وبالليل، فهي في غنى عن الأنهار ولو كانت في حلاوة نهر السين.

وأنا أيضًا فكرت من قبل في استواء الأراضي المصرية، وهو استواء حرمها جمال التفاوت في الحزون والسهول، وكان الجواب أن الله جعلها كذلك ليقدر النيل على ريها بلا عناء.

(*) العدد ٥٣٥ من مجلة الرسالة في ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٣م.

أمر الله في خلائقه أعجب من العجب، فله تدابير تعجز عن وعيها كبار العقول، وهو قد يجعل السعادة في الكوخ الحقير أضعاف ما يجعلها في القصر الكبيـــر ليقــول بـــالتلميح لا بالتصريح إن أمره الأمر في تقدير السعادة والشقاء.

ثم نظرت في حالي وأحوالي منذ ثلاثين سنة، فقد كان من أدبي أن أفرح علانية بطعام البيت، وكان فرحي فرحًا حقيقيًا، لأن الطعام في تلك السنين كان غاية في نـــضارة المنظـــر وحلاوة المذاق، بحيث صح عندي أن زوجتي هي وحدها الصيد الصناع في تأليف الـــصنوف الطريفة من أطايب الطعام المحبوب.

ولكن يومًا صائفًا جاء بما لا أريد، فقدم إليَّ طعام لا أشتهيه في أيام الصيف، وكانـــت النتيجة أن أهم بالاعتراض وعلى من أعترض؟

إن زوجتي تحتمل غضبي، ولا يصعب عليها أن تترضاني فهل ألومها علـــى الـــذي اختارت من الطعام في ذلك اليوم الصائف؟

في أقصر من لمح البصر تيقظ قلبي، وأدركت أن الاعتراض علـــى رزق الله بدايـــة الانخذال، وأني لو جحدت الرزق في أية صورة لذهب إلى غير معاد.

أقبلت على الطعام كارهًا لأتقي غضب الله وإيذاء زوجتي فرأيته طعامًا شهيًا لم أتذوق مثله من قبل، وكان العاقبة أن أحمد الله من صميم الوجدان.

إن نعم الله تواجهنا من كل جانب، ويكذب من يزعم أن الله يتخلى عمن يتوكلون عليه في النعماء والبأساء.

الله لا يتخلى عنها إلا حين ننساه.

وهل يتخلى الله عنها حين ننساه؟

إنه يتركنا لما نريد بأنفسنا، فيحبب إلى من نعتمد عليهم أن يشغلونا عنه بالجاه والمال، تأديبًا للانحراف عن طريق الرشاد، والعقاب الصارم هو أن تستغني عـــن الله وتحتـــاج إلـــى الناس.

الديدان الجاهلات في أجواف الأحجار والثلوج أصدق إيمانًا بالله من أشياء العلماء.

والشجرة اليتيمة في البادية القاسية ترى الله بأقوى مما تراه الأشجار المزودة بالأنهار الجارية.

وهل حفظ تاريخ الملوك بقدر ما حفظ تاريخ الصوفية؟

إن الفاجرين الذين صدقوا في فجورهم كانت لهم مكانة في التاريخ القديم والحــديث، فكيف يضيع من آمنوا بصاحب العزة والجبروت؟

كن مع الله تر الله معك:

صديقي العزيز:

هل تذكر حديثنا منذ أيام ونحن نقطع الطريق في وهج الظهيرة من وزارة المعــارف إلى ميدان باب الحديد، مع أننا نملك اجتياز المسافة بسيارة لا تكلفنا غير دراهم معدودات؟

هل تذكر أني قلت لك إني أحب أن أرى نعم الله على عباده ليزداد إيمان ماذا رأينا في ذلك الطريق؟

أنت لم تر شيئًا، لأنك كنت مشغولاً بمحادثتين في شئون لا ينقلها سمعي إلــى قلبــي، وسيطول بلاؤك بتلك الشئون، فهي لا تخرج عن منصبك وراتبك، ولا تزيد عن شكواك مــن نظام الترقيات والعلاوات، يا عبد الوظيفة ويا عبد التراب؟

أما أنا فقد رأيت ورأيت، فهل تحب أن تعرف بعض ما رأيت؟

لقد اقتنعت بأن الله لم يجعل القاهرة مدينة البؤس، كما يقول بعض النسا، فمن الــسهل أن ترى العيون ألوفًا من المنعمين بالثورة والعافية والجمال.

في كل لحظة يقع النظر على وجه الصبح، ويقع القلب على روح لطيف.

وفي كل خطوة ترى طلائع من طلاب الرزق، الحال، ترى عمالاً يكدحون ليعــودوا إلى أهليهم في المساء وجيوبهم عامرة وأنفسهم في ابتهاج.

وهل قامت تلك البنايات الشامخات إلا بسواعد أولئك الفتيان الضاحكين برغم شــظف العيش وخشونة الثياب؟

إن منظر ذلك البواب سرني، فقد أسند رأسه إلى الباب وغفا غفوة مريحة لن تظفــر بمثلها في سريرك، يا مشغولاً بحظك الفضفاض في دنياك.

ومن العجب العجاب أن ترى رجلاً يقرأ في مصحف وهو على كيس أحد المخــازن التجارية، كأنه لم يسمع أن بدعة العصر توجب نسيان المصاحف والأناجيل؟

وفي الشارع رأينا جنودًا يحتضنون زجاجات البيرة، وبالقرب مــنهم رأينــا عمــالاً يحتضنون القلل القناوية، فأين السعداء من أولئك وهؤلاء؟

صاحب الزجاجة يبتلعها ابتلاعًا قبل أن يحل عليه أمر الحاكم العسكري بانتهاء الوقت المحدد للشراب، وصاحب القلة يمتص منها رشفة بعد رشفة وهو في أمان.

هل رأيت ذلك الفتى؟

إنه غلام لم يظفر بمثله قصور الملوك في عصور الترف والطغيان، فكيف رضى أن يكون عاملاً فقيرًا، وهو يستطيع بشبابه وجماله أن يكون زهرة في بستان أحد الأغنياء؟

في مصر معنى اسمه الشرف، وهو معنى ظفرت منه مصر بأعظم نصيب.

وله رأيت تلك الفتاة؟

إنها ريحانة مطلولة، وهي تستطيع الاتجار بالقلوب لو أرادت ولكنها لا تريد لأنها مصرية، والمصرية نموذج في التصون والعفاف، ويكذب من يزعم أن مخاطر الحرب غيرت أخلاق المصريات.

نحن بنينا مدينة القاهرة بأخلاقنا قبل أن نبنيها بسواعدنا، والساعد المتين فرع من الخلق المتين.

إنك لا ترى جلال الله في أي مكان كما تراه في القاهرة، ولعلها أول مدينة ينتصر فيها الجد وينهزم الهزل.

ألا ترى أن روح القاهرة ظلت قهارة برغم عوادي الحرب؟

والذي يعوزك يا صديقي هو أن تكون مصريًا مؤمنًا بالله، لتنتصر على أوهامك، ولتكون من أعاظم الرجال.

إنك تلومني على أن أظل بين أقلامي وأوراقي ساعات من كل يوم، فهل تعرف السبب فيما اخترت لنفسي؟

أني أؤدي زكاة العافية، وأنا أفهم كيف أراد الله أن يحميني من قضاء ليلة واحدة في سرير المرض، على طول ما شرقت وغربت في السنين العجاف. وأنت يا صديقي تنكر أن أضيع حظي ممن عرفت من أكابر الوزراء.

وأقول إني أخشى أن يغضب الله عليَّ إن اعتمدت على سواه قال صاحبي كن مع الدنيا لترتفع معك.

فقلت: وأنا لا أنخفض ليرتفع أصحابي؟

سخافات الأغاني الشعبية:

تقدم محطة الإذاعة من يوم إلى يوم ومن ليلة إلى ليلة أشياء تسميها الأغاني الشعبية، وهي أغان يغلب عليها السخف، لأنها تحاول دائمًا أن تجعل لغة الشعب المصري لغة بعض أبنائه من أهل الصعيد(!؟).

والخطأ ظاهر في هذه المحاولة؛ لأن اللغة العامية للشعب المصري هي لغة أهل القاهرة، كما أن اللغة العامية للشعب الفرنسي هي لغة أهل باريس.

وقد كان للصعايدة لغة خاصة يوم كانوا لا يتصلون بالعاصمة إلا بعد سفر يطول حتى يخترع أسابيع وأسابيع، فكيف تكون لهم لغة خاصة بعد أن صارت المسافة بين القاهرة وأسيوط لا تزيد عن المسافة بين القاهرة ودمياط إلا بدقائق، والمسافة هنا وهناك يقطعها القطار في مدة أقصر مما بين باريس وليون؟

سمعت في مساء اليوم الثالث والعشرين من شهر أيلول مغنيًا يقول:

"طال بعدك ولا ساجل عني"

و"ساجل" وهي "سائل" فهل سمعتم في أية أرض عربية أن الهمزة تنطق جيمًا على على ألسنة الجهلة من أصحاب الأغاني الشعبية في محطة الإذاعة المصرية؟

إن لغة الخرطوم هي لغة القاهرة بالضبط الصحيح، فهل ترون الخرطوم أقرب إلى القاهرة من أسيوط؟

أتقوا الله في مصر يا جماعة المتحذلقين من أنصار العامية، فما يقول "ساجل" وهو يريد "سائل" إلا سخيف بلغ سخفه حدًا لا يطاق.

"طال بعدك ولا ساجل عني"

ذلك ما هتف به مغن في محطة الإذاعة ولي عليه شهود، فلماذا يبتغي هذا الظريف؟ أيزعم أن الصعايدة يجعلون الهمزة جيمًا وذلك زعم سخيف؟

إن لغة المصريين ارتقت رقيًا عظيمًا، وصار في مقدور صغار العوام عندنا أن يفهموا ما تنشره أعظم المجلات الأدبية بأيسر مجهود.

ولكن محطة الإذاعة لا تفهم هذا القول.

وأين محطة الإذاعة؟ حدثوني فقد غاب عنوانها عني!

إن جاريت المطرب الذي فرحت به في محطة "القزاعة" بالقاف، ولـــن ألتفــت إلـــى "سقالها" إن وجهت إلي "السؤال".

الأغاني الشعبية في محطة الإذاعة هي ردة سخيفة إلى عهود لا نحب أن تعود.

إن كانت محطة الإذاعة تريد أن تكون محطة بهلوانية فهي وما تريد، على شـــرط أن تصرح بأن أغانيها الشعبية عبث أطفال.

الجد هو دستور الحياة ولو كان في صورة الهزل، فجدي يا محطة الإذاعـــة لتكـــوني صوت الحق في هذه البلاد.

الكتاب...(*):

إن الكتاب هو سر العظمة الأوروبية، فما تفوقت أوروبا إلا بفضل الحرص على مسايرة الحيوات العقلية في الشرق والغرب، وما ارتفع رجل في أوروبا إلا وهو مزود بأصدق وأجود ما صدر في العقول في القديم والحديث.

ويستطيع من يعرف إحدى اللغات الأوروبية أن يطلع على أشهر ما جادت به القرائح في أكثر البلاد، وهذه حقيقة يعرفها من عاش زمنًا في لندن أو باريس أو برلين.

الحق أننا لم نفهم أوروبا فهمًا صحيحًا، ولم نعرف السر في حيويتها العارمة، ولم نلمح من خصائصها غير أطياف.

إن أوروبا مزودة بأزواد عقلية لا تخطر لأكثر الناس في بال، وقد نعرف غدًا أو بعد غد أن المستر تشرشل لم تصرفه مكاره الحرب عن صلاته بالمكاتب ودور التجليد، وقد نعرف أنه لم يخرج من بلد إلا وفي يده كتاب على كثرة ما زار من البلاد في أعوام الحرب.

أوروبا المحاربة لا تخيفني، فقد هزمناها في الحروب الصليبية، وإنما تخيفني أوروبا المفكرة، أوروبا التي تؤلف وتقرأ وتستفيد في كل وقت، بلا استثناء وقت الحروب.

هل تذكرون كلمة كارليل حين قال إن إنجلترا تفضل آثار شكسبير على أقطار الهند، لو أكرهتها الحوادث على الاكتفاء بأحد هذين المغنمين؟

تلك هي العقلية الأوروبية، وذلك هو الفهم الذي يمتاز به أولئك الناس.

ماضينا في صحبة الكتاب:

لنا ماض مجيد حفظه التاريخ، فقد سبقنا أوروبا إلى تمدين الشرق والغرب وخلف أجدادنا آثارًا عجز عن محوها الزمان فكيف ظفروا بذلك الحظ من الخلود؟

الكتاب هو السر في عظمة أجدادنا، فقد كان فيهم من يحج بيت الله وهو يرمي إلى غاية غير أداء فريضة الحج، كان يقف في عرفات للسؤال عن كتاب.

(*) العدد ٥٣٧ من مجلة الرسالة ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٣م.

وعدوان المغول على بغداد لم تسجل فظائعه في غير ظاهرة واحدة هي تزويد أسماك دجلة بما كان في بغداد من نفائس المؤلفات.

والحريق الذي صاول الفسطاط ستين يومًا ولم يذكر المؤرخون من بلائه غير اجتياحه لذخائر المكتبات.

وكان المسلمون حين يستنفرون إخوانهم للدفاع عن بلد من بلاد الأندلس يقولون إنه وطن النوابغ من المؤلفين والشعراء.

وحين تفرق شمل المسلمين في بعض العهود الماضية وجد النابهون لآثارهم العلمية والأدبية والتشريعية ما يعمر مئات المكاتب، ويضمن الزاد النفيس للأفهام والعقول، بحيث لا تخلو مدينة من آثارهم الجياد.

إن أساس المدنية يرتكز على العلم في جميع العصور، حتى عصور الظلم والاستبداد، ألم تروا أن مغامرات هتلر أوحى بها كتاب؟

إن المدافع والطيارات والأساطيل ليست إلا تعابير عن جانب من طغيان القوة الفكرية، كما أن الآداب والفنون تعابير عن جانب من ذلك الطغيان؟

لا تسمعوا لمن يثبطونكم عن الحياة الفكرية بحجة أن هذا الزمن ليس زمن الفكر وإنما هو زمن القوة، فالفكر هو المصدر لكل قوة، ولو تمثلت في أبشع الألوان.

ومصر تتمتع اليوم بسمعة طيبة من الناحية الفكرية، وهي تدعوكم إلى مواصلة الجهاد العلمي والأدبي، لتصلوا بها إلى ما تسموا إليه من العزة بين كبار الشعوب.

أنا لا أكتفي بأن يكون حفظ مصر من المجد القديم هو الأستاذية لفلاسفة اليونان في التاريخ القديم، وأكره أن يكون حظ مصر في العهد الإسلامي مقصورًا على رعايتها للحضارة الإسلامية بعد سقوط بغداد.

انظروا إلى الإمام ولا تنظروا إلى الوراء، فالفكر من حظ مصر في جميع العهود، وسيكون لها في المستقبل تاريخ يفوق جميع التواريخ، وستعرفون صدق هذه النبوءة بعد حين.

الأستاذ محمد الههياوي:

فجمع الأدب وفجعت الوطنية في رجل كان من الأعلام بين رجال الأدب ورجال الوطنية، وهو أخونا الأستاذ محمد الههياوي، على روحه ألف تحية وألف سلام.

مات الههياوي بعد أن كافح في سبيل الأدب وفي سبيل الوطن أعوامًا نيفت على الثلاثين، والذين عرفوا الههياوي كما عرفته يؤمنون بأنه كان قوة وطنية وأدبية قليلة الأمثال.

نشأ الههياوي نشأة أزهرية – وكان أبوه من كبار العلماء بالأزهر الشريف ولكنه تمرد على الأزهر في وقت مبكر، وانطلق إلى ميدان الحياة الأدبية والوطنية بقوة وعنف، ومضى يصاول ذات اليمين وذات الشمال، إلى أن ظفرت من قلوب عارفيه بمنزلة لا يظفر بمثلها إلا كرام الكاتبين.

يجب أن نقول كلمة الحق في الأستاذ الههياوي، بعد أن رأينا أنه لم يرث إلا بكلمات قصار لا تنقل من شمائله غير ملامح غامضة المعاني، وبعد أن رأينا أصدقاءه يمنون على الوفاء بأنهم جازفوا براحتهم فشيعوا جنازتهم في عصرية وهاجة القيظ؟

كان الههياوي يجد في كل ما يكتب، وكان جده أثرًا من صدق العقدية في الأدب والوطنية والدين، وكان مع جده الصارم في حلاوة الدعابة فهو المنشئ لأكثر دعابات "الكشكول" يوم كان لمجلة الكشكول سلطان.

وفي الأعوام التي أشتد فيها الخلاف بين الحزب الوطني والوفد المصري كان الههياوي أخطر كاتب كافح عن الحزب الوطني، وقد أبلى بلاءً حسنًا في مقاومة "مشروع ملنر" ولم يتركه إلا بعد أن مزقه كل ممزق، ومجموعة "جريدة الأمة" تشهد بصدق ما نقول.

اشترك الههياوي في تحرير كثير من الجرائد والمجلات وكتب في الجد وفي الهزل، ولكنه في جميع أحواله كان قوي المنطق، متين الأسلوب.

وكان الههياوي شاعرًا من الطراز الجيد، ولو جمعت قصائده الجدية لكون من مجموعها ديوانًا نفيسًا، أما قصائده الهزلية فهي غاية في اللطافة، وكانت توقع باسم "الشاعر إياه" في مجلة الكشكول.

وإذا كان الرجوع إلى الجرائد القديمة يتعب من يريد معرفة القيمة الصحيحة لهذا الكاتب، فأنا أوصى بمراجعة الكتاب "الطبع في الشعر" وقد نشرته "مكتبة النهضة" وهو كتاب يشهد لمؤلفه بالبراعة الفائقة في شرح الدقائق من أسرار البيان.

وللهيهاوي كتاب اسمه "مصر في ثلثي قرن" وهو كتاب يصور آمال مصر وآلامها في العصر الحديث، وفيه ثبات من الفكر وبوارق من الخيال.

وقالت إنجلترا بعد رفع الحماية "الكلمة الآن لمصر" فنشر الهيهاوي رسالة بعنوان: "الكلمة لمصر، ولكن ليس لمصر أن تتكلم".

وهي رسالة شرح فيها ما كانت تعاني مصر بسبب الاحتلال.

وكان المنفلوطي هدفًا للناقدين في أوج شهرته الأدبية، ولكن الهيهاوي تفرد برسالة طريفة سماها "قصص المنفلوطي" وسيكون لها مكان حين يؤرخ النقد الأدبي في هذا الجيل.

وأول كتاب نشره الهيهاوي هو "الرائد" وهو مجموعة ما كتب في مطلع صباه، ولو رجعنا إليه لرأيناه على سذاجته صورًا تشهد بحيوية الإحساس ويقظة الوجدان.

أخي الأستاذ الهيهاوي.

أفي الحق أنك لم تمت وأني لن أجدك إن حاولت أن أراك؟

لا يتعبني أن أتحيز لك فأختلق محاسن لم تكن فيك، وإنما يتعبني أن أبرز محاسنك الأصلية على الوجه اللائق بمكانها الرفيع، أفي الحق أننا لن نلتقي في الدنيا مرة ثانية، ولن نقضي أيامًا كالأيام التي قضيناها في سنتريس بين الزهر والقمر والماء؟

أفي الحق أننا لن نتصاول بالعقول كما كنا نصنع عند التلاقي؟ تلك أيام خلت، ولن تعود، فعليك وعليها تحية الشوق الذي لا يموت لو رأيت فيك ما يعاب لخفت حزبي عليك، ولكن لم أرك إلا روحًا أرق من الزهر وأقسى من الزمان، وتلك هي الخصيصة الأساسية لأحرار الرجال.

كنا صديقين، وكنت أنت الأكرم والأطيب، فكيف أجزيك وقد ضاعت فرص الجزاء؟

وهل تنتفع بكلمة في رثائك وقد مضيت إلى نيعم لا يعادله نعيم؟

إن موتك دليل على خلود الروح، فما يجوز في نظر العقل أن تكون نهايتك هي النهاية، وقد قضيت حياتك في شقاء بسبب الحرص على صدق الوطنية وصدق اليقين.

عل تعرف "ههيا" أنك نقشت اسمها على جبين الزمان؟ وهل تعرف "مصر" أنها فجعت فيك؟ وهل تعرف قيثارة الشعر أنها فقدت وترًا كان غاية في حنان الرنين؟

هذا ما أملك في رثائك، أيها الصديق الغالي، وهو أقل مما يجب لك، وعلى عهد الله أن أشيد بذكراك إلى آخر الزمان.

بين المدارس والكليات:

بدت في هذا العام ظاهرة تستحق التسجيل، لأنها لم تقع من قبل، وهي تأخر المدارس عن الكليات في العودة إلى استئناف الجهاد ومحاربة الجهل أشرف ضروب الجهاد.

أيكون ذلك لأن الطلبة أقوى من التلاميذ؟ أيكون ذلك لأن الأساتذة أحرص من المدرسين.

لا هذا ولا ذاك، وإنما هي فرصة أتاحها القدر لنعرف كيف أسرفنا في استعجال الناشئين إلى ساحات النضال.

الطالب في الكلية غير التلميذ في المدرسة، فالأول جاز دور التكوين الجسماني فعليه أن يحمل الواجب في صدره وإن كان في أجازة رسمية، أما التلميذ فلا يزال جسمه في دور التكوين، وراحته من متاعب الدرس تعود عليه بالنفع الجزيل.

الطالب يعود إلى الكلية وهو على بينة مما سيدرس، فهو يعود جذلان أما التلميذ فيجهل ما سيعاني من مصاعب الدروس، لأنه تلميذ، والمنهاج يفرض فرضًا على التلاميذ، والأستاذ بالكلية غير المدرس بالمدرسة فالأول يضع موضوعات الدرس كما يشاء في حدود ما يطيق، أما الثاني فيواجه موضوعات يوجبها الجدول، وقد يكون فيها ما ألقاه بالنص والفص عددًا من السنين.

أما بعد فماذا أريد أن أقول؟

أنا أريد النص على أن الأجازات ليست من الأوقات الضوائع، كما يتوهم بعض الناس، وإنما هي مواسم لتكوين الأبدان والأرواح والأحاسيس وتلاميذ المدارس أحوج إليها من طلبة الكليات، وما وقع في هذه السنة وقع بالمصادفة، ولكني أحب أن يكون واجبًا نراعيه في الأعوام المقبلات.

هل تذكرون أن أجازات المدارس الأولية زادت في هذا العام عن ثلاثة أشهر وأن أناسًا عدوها ترفقًا خرج عن الحدود؟

أنتم تذكرون هذا، ولكنكم تنسون أن الأطفال بالمدارس الأولية كانوا يعودون إلى الدروس في شهر أغسطس وهو "آب" اللهاب، كما يسميه أهل الشام والعراق.

ترفقوا قليلاً بالأطفال، واذكروا أنهم في عهد التكوين وأن راحتهم من الدروس غذاء يفوق كل غذاء.

ثم ماذا؟ ثم انتهز الفرصة فأتحدث عن مشكلة تعانيها المدارس ولا تعانيها الكليات، وسأفصل حديثها بدون إسهاب:

هذا مدرس عينته الحكومة بمدرسة ابتدائية وفرضت عليه أن يلقي أربعة وعشرين درسًا في الأسبوع، فاحتمل العبء راضيًا لا كارهًا في عنفوان الشباب.

وهذا المدرس نفسه ظل يخدم العلم بالمدارس الابتدائية إلى أن شارف التاسعة والخمسين، فكيف يجوز أن يحمل من أعباء الدروس ما كان يحمل قبل أن يصل إلى الثلاثين؟

عليه أن يحتمل أو يعتزل، فالمدارس تعرف التلاميذ ولا تعرف المدرسين لأن نتائج الامتحان هي العنوان؟ ولو أنها خففت العبء عن المدرس الذي تقدمت به السن لقدم لها منافع تفوق الحدود.

المدرسة الفلانية هي أولى المدارس، لأن تلاميذها بلغوا حدود التفوق، ولم تكن أولى المدارس لأن مدرسيها ظلوا من نكد العيش في أمان.

التلميذ هو المقصود بالعطف والرعاية، أما المدرس فهو جلمود لا يجوز عليه الإفضال.

هو مدرس، ومهنة التدريس "مهنة بلا مجد" فلصبر كارهًا على جدول كان يطيقه قبل الثلاثين، ليقل "راضيًا" إنه يطيقه في التاسعة والخمسين!

إلى من نوجه القول؟

نوجهه إلى المراقبين بوزارة المعارف وقد اكتوت أيديهم بالتعليم، ولطف الله بهم فلم يرهقهم بالجدول الكامل إلى أن يشارفوا سن المعاش.

إني أنظر إلى أولئك المراقبين بعين الاحترام، لماضيهم الجميل في خدمة النهضة التعليمية، لكن أعجب من سكوتهم عن مشكلة لا يجوز عنها السكوت، وهي اختلاف القدرة البشرية باختلاف أعمارهم.

ثم ماذا؟ هذا مدرس قاتل المتاعب حتى انتصر، فبلغ الستين وهو بعافية فكيف يحال إلى المعاش ليعاني الفاقة في أعوامه الباقية؟

أما بعد –وقد تعبت من أما بعد– فهذه ملاحظات أقدمها إلى معالي وزير المعارف، راجيًا أن تظفر من اهتمامه بما هي له أهل، مع الاعتراف بأن مهنتنا قامت على أساس التضحية، وأن حظنا هو أجمل الحظوظ في أسوأ الفروض.

وهل يشكو من يستطيع القول بأن له تلاميذ هم الدرة الغالية في تاج الوجود؟

الزواج بعد العشق(*):

في أحوال كثيرة ينتهي الزواج بعد العشق بعد الانفصال ثم إلى العداء، بحيث لا يحب أحد الزوجين المنفصلين أن يسمع خبرًا عن صاحبه في أي معرض من معارض الحديث فما تعليل هذه الظاهرة وهي من الغرابة بمكان؟

كانت المنتظر أن يكون الزواج المنبعث عن العشق أقوى وأمتن وأبقى من سائر أنواع الزواج، ولكن النتيجة تخالف ما انتظرناه، وتشهد بأن العشق يكون أحيانًا من أسباب الطلاق.. فما تعليل هذه الظاهرة، وقد قلت إنها من الغرابة بمكان؟

يجب أولاً أن نعرف موجبات العشق، لنرى كيف يمكن أن يصبح من منغصات الزواج، في أكثر الأحايين، فما تلك الموجبات؟

يخطئ من يقول إن العشق اتصال روح بروح، بغض النظر عما يساور حياة العاشقين من الاختلاف الطارئ وهو الاختلاف الذي تخلقه ظروف المعاش، وهي ظروف تتجدد في كل يوم بأشكال وألوان.

أساس العشاق أن يكون المعشوق صورة مثالية، صورة يراها العاشق نهاية النهايات في الجمال والجلال، صورة منزهة عن كل ما يغض من نضارة الجسم وحلاوة الروح.

ونحن نعرف أن العاشق لا يرى معشوقته ولا تراه إلا بعد تأهب وتهيؤ واستعداد، فيكون كل لقاء شبيهًا باللقاء المنشود في ليلة العرس، وتكون الأنفاس في حرارة محرقة لا يخمدها التلاقي، وتلاقي العشاق أقصر من طيف الخيال.

وهذا البناء ينهدم حين يصبح العاشقان زوجين، ينهدم بسرعة، لأن المرأة لا تتجمل للزوج كما تتجمل للعاشق، ولأن الرجل لا يغازل الزوجة كما يغازل المعشوقة، وبهذا يضيع ما كان ينتظر الزوجان من سعادة الحياة حياة العشق الذي لا يكدره فضول الرقباء، وهما لا يدريان أنهما بعد الزواج ينوبان عن الرقباء في التجسس والسخافة والفضول؟

(*) العدد ٥٣٩ من مجلة الرسالة أول نوفمبر سنة ١٩٤٣م.

العشاق لا يغفوا أبدًا والمعشوقة لا تغفو أبدًا، فأيسر انحراف من أحد الزوجين العاشقي يخلق متاعب لا تداوى بغير الفراق.

أيكون معنى هذا الكلام أن ننهي عن الزواج بعد العشق؟

لا، فإننا نرجو أن يكون العشق من وسائل الزواج وإنما ندعو إلى الفهم الصحيح لحياة الزوجية، وهي تختلف عن حياة العشق بعض الاختلاف أو كل الاختلاف.

إذا تزاوج العاشقان فقد وجب أن ينتهيا عن دلال الحياة الغرامية، وأن يعرفـا أنهمـا مقبلان على تكاليف ثقال يوجبها نظام البيت ونظام المعاش.

الزوج الذي يصابح زوجته ويماسيها لا يطالب بما يطالب به العاشـق الـذي يلقـى معشوقته من أسبوع إلى أسبوع، الزوجة في الأصل سكن للزوج، ومزية السكن أنهـا مـأوى صاحبه في أوقات الفرح والترح، ولحظات التفتح والذبول، فمن واجب الزوجـة أن تفهـم أن الزوج لا يصلح في كل وقت للمصارحات الوجدانية، ولا يستطيع أن يبتسم في جميع الأحوال.

إذًا فهمت الزوجة المعشوقة هذه الحقيقة أمكنها أن تستريح من متاعب كثيرة، متاعب تخلقها الغيرة السخيفة، فقد ثبت أن الزوجة لا ترد سكوت الزوج عن الملاطفة إلى أسباب من اشتغاله بمتاعب الحياة، وإنما تردها إلى أسباب من اشتغاله بغيرها من النـساء، والمـرأة لا تدرك إن للرجال متاعب غير الاشتغال بالنساء.

وأنا لا أبتدع هذا الرأي فقد التفت إليه أقطاب القصص الفرنـسي، وعنـدهم عبـارة يضيفونها إلى الزوجة عند معاتبة الزوجة أتفه الشئون، وهي عبارة: "لم تعد تحبني".

وهي عبارة تعاد بحروفها في أكثر الأقاصيص، بحيث جنى عليها التكرار فلم تعد تثير الإحساس، برغم ما يصحبها من التوجع والأنين!

والظاهر أن المرأة تخلفت عن موكب الحياة فهي لا تزال تنظر إلـى النعـيم بـالعين الحيوانية، ولم تدرك أن النعيم صارت له ألوان من التطلع والتوثب والتسامي إلى مراتـب لا تخطر للحيوان في بال.

والحق أن الرقي العقلي والروحي والأدبي والمدني، الرقي الذي نقل الإنسانية من حال إلى أحوال بصورة تفوق أحلام القدماء بمراحل طوال، هذا الرقي من صنع الرجل، وليس بـه للمرأة نصيب، وستظل في تأخر إلى الأبد، ما دامت تؤمن بأن النعيم في الحياة الزوجية هـو نعيم الحيوان.

ضعوا المرأة حيث وضعتها الطبيعة، ولا تدللوها أكثر مما فعلتم، يا أغبياء التمدن الحديث!

من هذه المحامية الحسناء:

خصصت مجلة الشعلة صفحة لمقال دبجته إحدى المحاميات في تنفير الفتاة من الزواج، فما حجج تلك المحامية؟

لا حجج ولا براهين، وإنما هو دلال فتاة وجدت فرصة التنويه بأنها ردت جماعات من الخاطبين، لتنعم بحياة الاستقلال، كأن الزواج عبودية لا ترضى بها غير الفتاة العاجزة عن الاستقلال.

نحن نعرف من نسنن الحياة أكثر مما تعرف تلك المتمردة، نحن نعرف أن لفتاة لا تزهد في الزواج إلا إذا كان بها نقص في الحيوية، وهذا النقص يعتري بعض النساء وبعض الرجال، وهو السبب في شيوع العزوبة عند فريق من هذا الجنس أو ذاك، فلا موجب للتباهي بغنى هو أقبح من الإملاق.

إن احتياج المرأة إلى الرجل دليل على كمال الأنوثة، كما أن احتياج الرجال على المرأة دليل على كمال الرجولة، وتباهي المرأة بزهدها في الرجل لا يقل قبحًا عن تباهي الرجل بزهده في المرأة، وإذا جاز للفتاة الجاهلية أن تقع في مثل هذا التباهي الأحمق، فصدوره عن الفتاة المثقفة إثم فظيع في نظر الطبيعة، والطبيعة تبغض الانحراف.

وهنالك بدعة جديدة تمضغها بعض الفتيات، بدعة القول بأن الزواج يحكم على الزوجة بالتبعية للزوج، ونحن في عصر المطالبة بالتحرر والاستقلال؟

وهذا كلام في غاية من الضعف، لأن تبعية المرأة للرجل تبعية طبيعية، وهي مجردة كل التجرد من معاني الاستعباد وسيادة الرجل على المرأة تشريف، لا سيادة تكليف وخضوع المرأة للرجل يزيدها جمالاً إلى جمال، ويؤيد رسالتها في تعمير الوجود.

كنت ظننت أن تلك المحامية شخصية خرافية، ولكن محرر الشعلة أكد لي أنها شخصية حقيقية، وأني لو رأيتها لفتنتني بجمالها الوهاج.

وأقول إن الفتاة التي تنفر أترابها من الزواج لا تفتن أحدًا، ولو كانت في جمال أفروديت، لأن سحر المرأة يرجع إلى الحيوية في الطبيعة الأنثوية، ولا قيمة للجاه المجلوب جاه العلم والمال والجمال.

جمال المرأة أنها مرأة، وجمال الرجل أنه رجل فاتركوا هذه الحذلقة، وتجنبوا الجادل في شئون يقسدها الجدال.

قيمة الصدق:

الصدق لا يقوم بأي ثمن، لأنه فوق التقويم وفوق التثمين، وما قال قائل في أي زمن أو في أي بلد إن الصدق آذاه بأية صورة من صور الإيذاء، وما فاز فائز بغير الصدق ولا خسر خاسر إلا بسبب مجانبة الصدق، فتدبر هذا القول ثم انظر أين أنت فيما اخترت لنفسك من مذاهب السلوك.

إن اقترفت ذنبًا فاعترف لتظفر بأول سبب من أسباب النجاة وهو الصدق، ونذكر دائمًا أن الكذب لن ينجيك من غضب الله وإن صرف عنك غضب الناس، وأنا مع هذا واثق بأن من يبوء بغضب الله لن ينجو أبدًا من طغيان الناس. فالله يسلطهم على من يكذبون عليه أشنع تسليط، ليعرف أن الكذب على الله يلاحقه في كل مكان.

لا تحوج القضاة إلى شهود، وكن أنت الشاهد على نفسك فإن فعلت فسيصبح القاضي محاميًا عنك لتمسي وأنت من الناجحين.

ومتى تقف أمام القضاء.

إن الوقوف أمام القضاء الإنساني قد لا يصادفك في حياتك غير مرة أو مرتين على أسوأ الفروض، وقد لا يصادفك أبدًا لأن القضاء الإنساني لا يتعرض لغير من يتبجح بالاحترام، وأنت فيما أفترض تنزه نفسك عن مسايره المجترمين المتبجحين.

أنا أخاف عليك غضب المحكمة السماوية، لا لأنها قد تسارع إلى البطش بك، ولكن لأنها قد تملي لك إلى أن تفضح نفسك باقتراف الآثام الغلاظ، من أمثال الزور والبهتان.

تعوَّد الصدق مع الله في سرِّك قبل جهرك، وإن صدقت مع الله فستصدق مع الناس، ستصدق معهم صدق الترفق لا صدق التخوف، وستقضي دهرك وأنت من الأعزاء.

لو سلطت إحدى الحكومات على أحد اللصوص ألف رقيب لاستطاع ألنجاة بأيسر مجهود من التحفظ والاختفاء، ولكن الهرب من غضب الله لن يتيسر، ولو اعتصم الهارب الأثيم بشعاب الجبال.

أصدق مع الله لتذوق نعيم الصدق، ولتؤمن بأن كل شيء ما خلا الله باطل وأن رضاه أنفس من جميع الحظوظ.

بين الأدب والحياة:

كنت اليوم مقسم الفكر بين شجون من الأحاديث لا يتصل بعضها ببعض إلا برباط ضعيف، فأحاديث الصبحية كانت خاصة بمشكلات التعليم، وأحاديث الظهرية كانت تدور حول الزراعة، وأحاديث العصرية، كانت حوارًا بيني وبين أبنائي في مسائل منوعة الفنون، وأحاديث العشوائية كانت حوارًا بيني وبين أبنائي في مسائل منوعة الفنون، وأحاديث العشوائية دارت في مكان لا تدور فيه الأحاديث إلا ممزوجة بالنجوى الرفيقة بين روح وروح، ثم كان حديث مع الصديق الذي لقيني مصادفة وأنا راجع إلى داري، وهو حديث لم يطل، فقد انتهى في دقائق، ولكنه ترك في نفسي أشياء!

لو دونت هذه الأحاديث كلها لكانت ثروة أدبية، ثورة حية كل الحياة، لأنها مقبوسة من جمر الحياة، فمتى نجعل الأدب تصويرًا لما نرى ونسمع وندرك في اللحظات التي تستيقظ فيها الحواس، أو الأيام التي تكثر فيها التجاريب؟

لو تحدثنا بصراحة عن المشكلات التي تحيط بنا في كل يوم لساد التجاوب المنشود بين القارئ والكاتب، ولأصبح الأدب تعبيرًا عن المتاعب التي تساور هذا الجيل.

إننا لا نملك الفرار من روح العصر، مهما تعالينا عليه، فلنا صلات يومية مع القصاب والخباز والبقال، ومن إلى هؤلاء من أصحاب الحرف والصناعات، ولنا صلات بمن نراهم في الطريق كل يوم، ولو كانوا في الظاهر من المجاهيل.

جزئيات:

هي جزئيات مضحكة في نظر القارئ الذي لا يرى للأدب حياة في غير الحديث عن النجوم والأزهار والرياحين، ولكن لها مغازي تستحق الشرح والتوضيح، وتستأهل اهتمام الأديب الحصيف، وإليك طائفة من هذه الجزئيات.

١- من النادر أن يقدم راكب الترام ثمن التذكرة إلى التذكري بدون أن يحوجه إلى الباقي، ومعنى هذا أن الشخص الذي يركب الترام مرة أو مرتين في اليوم لا يفكر في إعداد ثمن التذكرة، وأنه لا يتأذى من رؤية التذكري وهو يحار في صرف النقود لعشرين أو ثلاثين من الركاب، مع أنه يقوم بهذه المهمة الثقيلة وهو على حافة الترام وفي قلق لا يحتاج إلى بيان. لو كتبنا مقالة في استهجان هذه المعاملة لوجدنا من ينكر أنها مقالة أدبية لأنها خلت من الحديث عن الأزهار والنجوم والرياحين.

٢- هذا موظف يركب الترام في بذلة نظيفة وإن لم تكن جديدة، لأن العمل في الدواوين يوجب أن تكون الأثواب على جانب من القبول، وهذا عامل يركب الترام وثوبه مزيت، لأن شغله لا يمكنه من تغيير الثوب في كل انتقال، وهو مع ذلك يرى من حقه أن يجلس بجانب الموظف غير مبال بما سيصنع ثوبه المزيت... هل نكتب مقالة في النهي عن هذا النصف من السلوك؟ إن فعلنا سنجد من يقول إننا نجسم الفروق بين الطبقات.

٣- هذا فلاح يسيء معاملة المالك، فيأخذ خيرات الأرض، ويترك المالك في حيرة إلى أن يستنجد بالقضاء... هل نستطيع تأنيب الفلاح على هذه الألاعيب؟

إن فعلنا فسنجد كتابًا يبكون حظ الفلاحين بدموع التماسيح!

وخلاصة القول أن الأدب لا يحيا كل الحياة إلا إن عبر عما في الصدور تعبيرًا يشمل جميع الألوان، ألوان الإحساس بما في الحياة من آلام وآمال، بلا استثناء للجزئيات الصغيرة في الحياة اليومية.

سؤر الحديث:

حين أنست القاهرة بزيارة الوفد السوري، الوفد الذي قبلته مصر بأحسن القبول، تذكرت أن الأستاذ محمد خالد حدثني إن جماعة من أدباء سورية ضاقت صدورهم بأدبي، فاعتزموا إرسال وفد يقنع مجلة الرسالة بوجوب التخفيف من مقالاتي.

فمتى يجيء الوفد السوري الجديد؟ متى يجيء فتستريح "الرسالة" وأستريح؟

الحق أني لم أفكر يومًا في ملاطفة قرائي، وهل ألاطف نفسي حتى ألاطف قرائي؟

أنا أمشي على الشوك في كل سطر أو في كل حروف وما يعجبك أو يغضبك لا يخطه القلم إلا بعد أن يعتلج في الصدر أيامًا وليال وأسابيع وما حاجتكم إلى كاتب لطيف لا يكتب في غير ما تحبون؟

ألم ترو كيف تقهرنا الحياة على الاعتصام بالرموز والتلاميح؟

إن الذي يغضبكم مني هو السر فيما بيني وبينكم من جاذبية يعجز عن إخمادها الزمان.

آمال يحققها الهلالي باشا(*):

إن قراء الرسالة عرفوا ما انتهت إليه قضية المدرسين بالمدارس الحرة، فقد نشرت الجرائد اليومية خلاصة الخطب التي ألقاها رفعت النحاس باشا ومعالي الهلالي باشا وسعادة الدكتور طه بك حسين، ونقل المذياع تلك الخطب إلى جميع الأسماع.

وأقول إن الذي يجب تسجيله هو تحقيق آمال المدرسين بالمدارس الحرة بعد أن كان تحقيقها من أربع المستحيلات. فهذا الوزير نفسه كان يستصعب حل هذه القضية، بدليل أنه لم يحلها في الوزارة الماضية، وإن لم يوفقه الله في هذه المرة لظلت تلك القضية عقدة العقد ومشكلة المشكلات إلى آخر الزمان.

كان الأمل الذي أطمح إليه هو تعيين المدرسين بالمدارس الأجنبية على وظائف تذكارية، كالذي نصنع في معاملة المدرسين الذين نرسلهم إلى الأقطار العربية، وقد كتبت في تزكية هذا الاقتراح عدة تقارير، منها تقارير نشرته مجلة الرسالة منذ سنين بإمضاء مجهول.

كان اقتراحي يبدو وكأنه طيف الخيال، ولم أكن أصدق أنه سيتحقق، ثم كانت المعجزة الطريفة، وهي جعل المدرسين جميعًا في منزلة واحدة، بلا تفرقة بين المدارس الحرة والمدارس الأميرية.

وأعترف بأني أكاد أكذب ما قرأت وما سمعت، فهل من الحق أن وزارة المعارف رضيت وهي طائعة مختارة أن تجعل مدرسي المدارس الحرة في منزلة مدرسي المدارس الأميرية؟

أنا لا أصدق، فالمألوف أن تجود الحكومة بالخير بعد أن تدعى إليه ألوف المرات، ومدرسو المدارس الحرة لم يطلبوا يومًا مساواتهم بمدرسي المدارس الأميرية في جميع الحقوق، وإنما طلبوا حقوقًا سهلة هينة لا تزعج وزارة المعارف، وهل طلبوا غير التدفق في تحديد المرتبات، وكانت من الضآلة بمكان؟

(*) العدد ٥٥٧ من مجلة الرسالة في سنة ١٩٤٤م.

لأول مرة في تاريخ الحكومة المصرية يبذل الخير لمن لم يطلبوه، وهذه أريحية جديدة لم نعرف لها مثيلاً فيما سلف من العهود.

الهلالي باشا يقول إن النحاس باشا هو صاحب الفكرة، والنحاس باشا يقول إن الهلالي هو صاحب الفكرة، والنتيجة معروفة، وهي أن هذين الرجلين يتسابقان إلى الخير تسابق الجياد، أعزهما الله وكتب لهما دوام التوفيق.

حكومة تثأر للأمة:

قال الهلالي باشا في خطبته إن الأمة كانت أسبق من الحكومة إلى نشر التعليم، وتحدث عما صنع مصطفى كامل وسعد زغلول، ولم يفته النص على جهود الجمعيات الخيرية وجهود الأفراد، وهذه الالتفاتة هي أجمل ما ورد في خطبة الهلالي باشا؛ لأنها صورت هذه الوزارة بصورة الحكومة التي تثأر للأمة، وهذا معنى جديد، فقد كانت الحكومة، تنظر إلى الأمة بمنظار يعف قلمي عن وصف مرآه الجميل.

تاريخ الجامعة المصرية:

تحدث الهلالي باشا عن الجامعة المصرية الأولى، الجامعة التي أنشأتها الأمة، وقال إن حكومة ذلك العهد كانت تحارب الجامعة بحجة أن مصر لا تحتاج إلى جامعات وإنما تحتاج إلى كتاتيب.

فهل يذكر الهلالي باشا قيمة الإعانة التي كانت تقدمها وزارة المعارف إلى الجامعة المصرية بألفين اثنين من الجنيهات، ومع هذا كانت تماطل في الدفع، والشواهد تحت يدي، وسأقدمها إلى معالي الوزير أن أراد.

لا موجب للتذكير بهذا التاريخ، فما تمثلته إلا توجعت مما كانت تصنع الحكومة في مغايظة الأمة.. على تلك العهود ألف عفاء!

زكي مبارك وإعجاز القرآن:

هذا عنوان الكلمة التي نشرها الأستاذ محمد أحمد الغمراوي بمجلة الرسالة، وهي كلمة مؤذية سبقتها كلمات مؤذيات بقلم هذا الكاتب المفضال.

هذا الكاتب يتحداني لأشرح ما غاب عليه من أسرار كتاب "النثر الفني" وهو يرجو أن يجد فرصة جديدة تؤيد غرامه باتهامي في إسلامي.

وأقول مرة ثانية إني لا أقيم لتحديه أي ميزان، ولن أعترف بأن من حقه أن يساجل صاحب النثر الفني، فقد ظهر أنه لم يفهم كتابي.

قال هذا الكاتب إنه لا يبغي إلا أن يعرفني الناس فيحذروني وهذا القول مسروق من كلامي، فقد نبهت الناس ألف مرة إلى أن يحذروني، لأني لا أبالي في الحق أي ملام، ولا ألتفت إلى أوهام المتزمتين.

ثم دعاني هذا الكاتب إلى التبرؤ من كتاب النثر الفني لبيك ثم لبيك، يا كاتبًا يدعو إلى تبرؤ الآباء من نجباء الأبناء.

كتاب النثر الفني كتابي، وقد استكثره ناس عليَّ فزعموا أنه من وحي الجن، وليس بيني وبين الجنة نسب حتى أستوحى ما عندهم من آراء وأهواء، فهو كتابي، وقد سطرته بيميني في فورة شبابي، ولن أتبرأ منه ولو صرت إلى جهنم الحامية، فسأكون به أشرف مذنب يصطلي نار السعير، وفي جهنم مكان لأحرار الرجال.

الجنة لا تستهويني، لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب، وأنا أكره الحياة الخالية من المتاعب.

مضيت مرة للبحث عن مكان هادئ في إحدى ضواحي باريس فوجدت بيتًا كُتبت على بابه هاتان الكلمتان: هدوء مطلق.

فانزعجت، لأني أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون إلا في مساكن الأموات، وفي بغداد اخترت دارًا يجاورها مصنع حديد، لأفر من الهدوء المطلق.

وبنيت داري بمصر الجديدة في مكان يجاور ضجيج الحياة ولأسمع اشتجار المعاني في صدر الوجود.

ماذا يقع إن كان مصيري إلى جهنم؟

تلك فرصة ثمينة أتذكر بها ذنوبي، وأعرف أن لي وزنًا عند فاطر الأرض والسماء، وهل تكون جهنم نقمة وهي مكان التطهير من الذنوب؟

ليس الدين هو الباعث على محاربتك إياي، فهناك باعث آخر هو غرامك بأن يقرن اسمك باسم الدكتور زكي مبارك.

أنا مفطور على التسامح، ولكن لن أسامحك، وسأدعو الله أن يغضب عليك، إلا أن تتوب، ولن تكون من التائبين.

عند الله جزائي، فقد أكون أول مؤمن يعلن الكفر ليصحح عقيدة الإيمان... الله المجاهدين، فلا تصدقوا من يزعمون أن الله للمنافقين.

الفتنة نائمة:

لقيني الأستاذ إميل بك زيدان في مكتبة المعارف فقال: "الفتنة نائمة" فابتسمت وقلت: "ولعن الله من أيقظها!"... فهل فهم جوابي؟

إنه يشير إلى مقالاتي في مصاولة بعض أداء لبنان، وأنا لم أكتب حرفًا واحدًا في إيذاء الأدباء اللبنانيين، وإنما يتجنى فريق منهم علينا من يوم إلى يوم، ويقعون في أخطاء تنكرها الأذواق، فهل ثار الأستاذ إميل زيدان على تلك الأخطاء، وهو يعرف إن إخوانه هنالك هم الموقظون للفتنة والداعون إلى التفريق؟

لقد تعبت في معاتبة أولئك الرفاق، فما استمع مستمع ولا أجاب مجيب، فهل نلام على تذكيرهم بالواجب، وهل يكون من إيقاظ الفتنة أن نصحح تاريخ الأدب الحديث بعد أن طغى عليه التحريف؟

سأقول وأقول إن مصر هي باعثة الأدب العربي بعد أن طال عهده بالهجود، وسأذكر بالتفصيل ما أخذه الأدباء اللبنانيون عن الأدباء المصريون، نحن خلفاء العرب، والمصحف لا يطبع إلا في بلادنا وسنرفع راية العروبة في جميع الميادين.

من هؤلاء؟؟

جاءت مجلة الأديب البيروتية وفيها اتهام صريح بالدعوى إلى التفريق، اتهام موجه إلى "عصبة" تدعو إلى عزل لبنان عن الأمة العربية، وهي نفسها العصبة التي تتجنى على الأدباء المصريين من حين إلى حين.

ولو كنت أعرف أن هذا هو رأي اللبنانيين في تلك العصبة لكففت قلمي عما جرى فوق صفحات جريدة المصري.

ولهذا أعتذر لحضرة الأستاذ سهيل إدريس، وأتلقى عتابه المنشور في مجلة الرسالة بأحسن القبول.

الآن عرفت أن التجني على مصر لم يكن نزعة لبنانية وإنما هو نزوة تطوف برءوس حرمها الله نعمة العقل، وكتب عليها الخذلان.

محمد فهيم:

اشتركت في الحفلة التي تُقام لتكريم المربي الكبير الأستاذ محمد بك فهيم، ولكن لم أستطع الوصول إلى مكان الاحتفال بسبب الزحام، فلم يبق إلا أن أحييه بهذه الكلمات.

إن لهذا الرجل تأثيرًا في حياتي الأدبية، فهو الذي قهرني قهرًا على السفر لخدمة العلم في العراق، وكانت حجته أن وزارة المعارف العراقية طلبتني باسمي، وانه لا يجوز أن أرفض هذا التشريف، وبهذا قضيت في بغداد عامًا هو أجمل أعوام حياتي.

وللأستاذ محمد بك فهيم خصائص يجهلها أكثر الناس، فهو على تحضره وغناه لا يزال يقيم في دار أبيه بجوار جامع شيخون، وهو يتصل بالريف كل أسبوع، بحيث يجوز أن نعده من أعيان الفلاحين.

أما أدب النفس فخصيصة أساسية يمتاز بها هذا الرجل المهذب إلى أبعد حدود التهذيب.

ولعل هذه الحفلة ترده بحرارتها إلى فورة العافية، فقد سمعت أنه كان مريضًا لبضعة أسابيع.

محمد فهيم أحد رجالنا الأماجد، وأنا أشترك في تكريمه بهذه السطور وهي أقل ما يجب لمن يتحلى بمثل أدبه النفيس.

آمال يحققها الهلالي باشا(*):

تكلمت بعض المجلات السورية واللبنانية عن قلة اهتمام الأدباء المصريين بما يسمونه "أدب الحرب" ورأت في ذلك تضييعًا لإحساسات تستحق التسجيل ونصت بالذات على خلو أدبي من أحاديث الحرب، والتفاتي إلى شئون لا تمس أهوال الحرب من قريب ولا من بعيد.

وأقول إن موقفي وموقف سائر الأدباء المصريين من الحرب هو موقف الإنسان الجديد، وهو يختلف عن الإنسان القديم كل الاختلاف أو بعض الاختلاف.

وتفصيل ذلك إن الإنسان اليوم يدرك أكثر مما يشعر، وكان الإنسان قديمًا يشعر أكثر مما يدرك، والفرق بعيد بين الشعور والإدراك.

إن حروب طروادة المشهورة في التاريخ القديم أنطقت اليونان بأعظم القصائد وأعمق الأقاصيص، وهي حروب تعتبر ألعاب أطفال بالنسبة إلى حروب هذه الأزمان، ومع ذلك لن يكون في شعراء هذا الجيل من يؤرخ الحروب الحاضرة، كما أرخ القدماء تلك الحروب.

الإنسان القديم كان يحارب وهو مدفوع بعوامل الازدهاء والاختيال، أما الإنسان الجديد فيحارب وهو مدفوع بعمليات حسابية تراعى فيها الخسائر والأرباح، فالفرق بين هذين الإنسانين هو الفرق بين الشاعر والحاسب، وثروة الأول أحلام، وثروة الثاني أرقام.

كانت أعظم موقعة في بداية هذه الحرب هي موقعة دنكرك وقد انسحب منها الإنجليز، فكيف كان شعورهم عند الانسحاب؟

أنا لا أظن أنهم حزنوا، وإنما أرجح أنهم فرحوا، لأن الغاية من الحرب هي الربح، الربح الذي يفهمه الإنسان الجديد، وهو ضمان السلامة في الأموال والأرواح.

(*) العدد ٥٥٨ من مجلة الرسالة سنة ١٩٤٤م.

شاهد طريف:

إذا تصاول أسدان كان على الأسد المغلوب أن ينسحب إلى أن يتأهب لاستئناف الصيال، وإذا تقاتل ديكان كان على الديك المغلوب أن يثبت في الميدان إلى أن يموت.

وكان ذلك لأن الأسد يدرك أكثر مما يشعر، وأن الديك يشعر أكثر مما يدرك، والشعور أحط مرتبة من الإدراك، فما في الوجود شعور أقوى من شعور الأطفال.

وأبو تمام الذي بلغ الغاية في الرثاء بهذا البيت في وصف أحد المستشهدين:

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

هو نفسه أبو تمام الذي اختار في ديوان الحماسة أبياتًا في تبرير الهرب من ميدان القتال، وهي أبيات عن روح الحماسة، ولكنها من شواهد العقل.

فقد علل الشاعر هربه من الميدان بأنه يفر من أعدائه "طمعًا بعقاب يوم مرصد"، ثم قال:

وعلمت أني إن أقاتل واحدًا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدي

وعلى هذا يكون إيثار العقل على الشعور في ميادين القتال مما آمن به العرب قبل مئات السنين، وبهذا كان هذا الشاعر من تباشير الإنسان الجديد.

أدب وأدب:

الأدب الأول سبق تسهيل المواصلات، والأدب الثاني جاء بعد تسهيل المواصلات، فاختلفت الصور هنا وهناك، جان جاك روسو لن يخلف بعد اليوم، فما تسمح الدنيا في أيامنا هذه بأن يتشرد فتى مثل هذا الفتى، بحيث يقطع مئات الأميال على قدميه، وبحيث ينفع بمناظر السهول والجبال، فيكتب الروائع في وصف ما رأت عيناه وهو ينتقل من مكان إلى مكان في الشهور الطوال.

أدب الرحلات سينقرض، ولعله انقرض، بسبب ذيوع السفر بالطيارات، وهو سفر لا يتيح أية فرصة لدرس ما نمر عليه من مختلف البلاد.

وأدب التشفي والانتقام لن يعود، وهو الروح الذي أملى على أبي تمام هذه الأبيات عندما أحرق المعتصم مدينة عمورية:

ما ربــع ميـــة معمـــورًا يطيـــف بـــه غيلان أبهى ربي من ربعها الخـــرب

ولا الخدود ولـــو أدمـــين مـــن خجـــل أشهى إلى ناظر من خـــدها التـــرب

ســـماجة غنيـــت منهـــا العيـــون بهـــا عن كل حسن بدا أو منظـــر عجـــب

وحــــسن منقلــــب تبقــــى عواقبــــه جاءت بشاشته مـــن ســـوء منقلـــب

فما تقبل اليوم الشماتة بمدينة تحترق، ولو كان أهلها من أخطر الأعداء.

ولأبي تمام عذر فيما صنع، فقد استطال إمبراطور الدولـــة الرومانيـــة الـــشرقية ثـــم استطال، وكانت نيته أن يزعزع هيبة الإسلام في الشرق، فلم يكن بد لأمير المؤمنين المعتصم بالله من تأديب تيوفيلس بإحراق مدينته التي أعجزت المحاربين من أكابر الملوك.

والإنسان الجديد يتمثل في نابليون يوم دخل موسكو فقد راعـــه أن يحرقهـــا الـــروس بأعنف النيران، وكان يتمنى أن تعيش بعافية، ليبلغ من تحضيرها ما يريد، وإن كان فاتـــه أن يفهم أن بداوة الاستقلال، أفضل من حضارة الاحتلال.

والإنسان الجديد يتمثل في حكومة فرنسا يوم رأت أنها ستنهزم في هذه الحرب، فقـــد طلبت إعفاء باريس من القتال لتسلم باريس وهي عصارة أجيال وأجيال.

متاعبنا الجديدة:

الحرب عندنا ليست بحرب، ألم أقل لكم إنها عملية حسابية في نظر الجيل الجديد؟

والتاريخ ليس عندنا بتاريخ، وما أضيع من يعيش في ضيافة التاريخ متاعبنا الجديـــدة هي أن نعرف سرائر نفوسنا معرفة لا يفسدها التزييف يجب أن نفهم ماذا نريد مـــن الحيـــاة، وماذا تريد منا الحياة.

فإن حددنا الجواب عن هذين السؤالين فسنمضي إلى الغاية المنشودة بلا إبطاء.

ندخل حدائق الحيوان بالقاهرة أو بأية مدينة فنرى جميع أصناف الحيوان في أمان من الانحراف، لأنها بعيدة عن جهالة الناس، ففي الناس أعور وأعمى وأكمه وأبرص، والحيـــوان لا يعاني من هذه العاهات، لأن خلو حياته من التعقيد يضمن لها السلامة والبقاء.

تكريم الدكتور طه حسين:

قلت مرة: إن الأدب الحديث يحتاج إلى مؤرخ مثل أبي الفرج الأصفهاني ففي حيوات أدباء هذا العصر أشياء تستحق التسجيل، وإن بدت من توافه الأشياء.

وأنا سأحاكي أبا الفرج في منهاجه الأدبي فأقص قصة يرتاح لها القراء، لأنهم سيقرءونها مبتسمين، والابتسام يفوق جميع الأثمان.

نشرت في جريدة المصري كلمة أدعو بها إلى تكريم الدكتور طه حسين بمناسبة ظهور الجزء الثالث من كتابه "على هامش السيرة" وأنا موقن بأن الناس سيقولون:

"لأمر ما دعا زكي مبارك إلى تكريم طه حسين".

ولم أتهيب هذا القيل، فقد علمت من أساتذتي في باريس أن أخطر مقتل في شمائل الفرنسيين هو تهيبهم من أن يقال، عند مواجهة الأعمال.

ماذا تقولون؟

وقد وقع ما توقعت، فقد نشرت مجلة الاثنين كلمة "لطيفة" سجلت بها دعوتي إلى تكريم الدكتور طه بعد أن كنت من خصومه الألداء، وحدثني صديق أن أناسًا من خلق الله زعموا أني أحاول استعطاف المستشار الفني لوزارة المعارف، لأظفر بدرجة ترفعني إلى الصف الذي ارتقى إليه بعض النجباء من تلاميذي.

ولقد أحزنني ما قرأت وما سمعت، فما خطر في بالي أن لي مسألة عند الدكتور طه حسين، ولا أنا استجيز استغلال النقد الأدبي لمنفعة شخصية، ولا أنا أقبل عطفًا من أي إنسان في أي حال، والدكتور طه نفسه يعرف أني لا أقبل منه ولا من غيره أية مساعدة، لأني أغنى منه ومن جميع الناس، بفضل النعم التي يسوقها الله إليَّ بغير حساب... وأنا أخشى أن تقتلني هذه النعم، كما تصنع الأزاهير والرياض، بمن يعانقها في ليلة صفاء.

٦٢

صاحبك من بختك[*]:

هذا مثل مصري، وهو يمثل متاعبنا في الحياة أصدق تمثيل فما نشكو في حياتنا غير قلة الصاحب وانعدام الصديق.

وأخطر ما يؤذيني في حياتي هو الشعور بأن لا أجد روحًا يجاوب روحي وأنا لا أتهم أحدًا بالغدر، فما خلق الله روحًا يقدر على مجاوبة روحي.

أنا أعيش بلا صاحب وبلا صديق، لأني رجل ليس له بخت، ولأني رجل أغناه الله عن البخت، فليشبع أصدقائي بما عندهم من أطايب البخوت.

وسيبكي الناس على أنفسهم إن فقدوني، ولن يفقدوني فما تطيب نفسي بالصدوف عمن رضيت صحبتهم لحظة من زمان.

لن يقول أحد إنه طوق عنقي بجميل، فأنا دائمًا صاحب الجميل.

تباركت وتعاليت، يا فاطر الأرض والسماء، فقد أغنيتني عن مجاملة الصاحب، وملاطفة الصديق.

في لحظة من لحظات الضيق دعوتك فقلت: "اللهم ألا تحوجني إلى أحد من خلقك".

وقد استجبت لدعائي، فلم تحوجني إلى أحد من خلقك.

وأنا بعد هذا أشكر لك نعمة لم تجد بها على أحد من خلقك إلا أن يكون في مثل إيماني بك، وأدبي معك، وهي نعمة الصفح عن الصديق الكافر بالجميل.

إن قدرتك على خلق البرية بما فيها من أنهار وبحار وجبال ونجوم وكواكب، إلى آخر ما تعمل وأجهل، لا تقاس إلى قدرتك على إغنائي عن خلقك.

علمني كيف أثني عليك، فقد عجزت عن الثناء عليك.

(*) العدد ٥٥٩ من مجلة الرسالة سنة ١٩٤٤م.

ثلاثون سنة، ثلاثون، وثلاثون، وأنا أحارب الناس، ولم يهزموني، لأنهم جهلوا سـر قوتي، وأنا أعتز بك، وصاحبك من بختك، وأنت يا إلهي صاحبي وبختي، ولـم يبـق إلا أن أرجوك أن تعلمني كيف أثني عليك.

محرجات النقد الأدبي:

تمرست بالصحافة السياسية والأدبية عددًا من السنين، ولم أشعر بحرج يماثل الحـرج الذي عانيته في الأسبوع الماضي، ولكن كيف؟

كنت أعددت مقالاً لمجلة الرسالة أصاول به بعض المتجنين علينا من أدباء لبنان.

ثم صلصل الهاتف بما معناه: "إن صاحب الدولة رياض بك الصلح أمر بـألا يكتـب حرف في صحيفة لبنانية تجنيًا على الأدباء المصريين".

وكان في مقدوري أن أتجاهل هذه الإشارة التليفونية وأن أقدم إلى مجلـة "الرسـالة" مقالي، وأستريح من تحبير مقال جديد.

ولكن الرقيب الأعظم نهاني، وهو ضميري، فطويت مقالي، وكتبت لمجلـة الرسـالة غير ذلك الحديث، في لحظة محرجة لم أكن أستطيع فيها كتابة أي حديث.

وأنا أعتذر عما جرى به قلمي في مصاولة أدباء لبنان، وأتمنى لهم مثل الذي أتمنـى لنفسي، وهو تصويب النظر إلى استكشاف محاسن الصديق.

ثم أرجوهم أن يذكروا أننا نعاني محنة قاسية في حياتنا الأدبيـة، فالكاتـب اللبنـاني يستطيع الظهور بمقالة أو مقالتين، والشاعر اللبناني يستطيع الظهور بقصيدة أو قصيدتين، ولا كذلك الكاتب المصري أو الشاعر المصري، فبلادنا لا تسمح بالظهور لكاتب أو شاعر إلا بعد أن يشقى بالنثر والنظم عشرين سنة أو تزيد.

الفرق بين متاعبنا ومتاعبكم هو الفرق بين متاعب القاهرة ومتاعب بيروت نحن فـي حياتنا الأدبية نشقى شقاء لا يخطر لكم في بال، ولهذا ننتظر عطفكم علينا، ونرجو أن تترفقوا بنا ترفق الصديق بالصديق.

وزعامة مصر الأدبية عبء ألقاه القدر علينا، ولولا الحياء لفررنا من حمل ذلك العب الثقيل.

أكرمونا بعطفكم، أكرمونا، لنصبر على حمل الراية في ذلك الميدان.

إلى معالي الهلالي باشا:

إنك تذكر أيها –الوزير الجليل– أني تجشمت السفر إلى الإسكندرية في الصيف الماضي وبيدي مذكرة أزكي بها إنشاء مدرسة ابتدائية في سنتريس(*)، ينتفع بها عشرون بلدًا هناك، وتذكر أني أخبرتك منذ أسبوع بما انتهت إليه تحريات مراقبة التعليم الابتدائي ففرحت وقلت: سأمضي لافتتاح هذه المدرسة بنفسي في مطلع العام الدراسي المقبل.

ومع أني واثق بأنك ستنجز وعدك، وبأني أستطيع أن أستهديك ما أريد لخير تلك البلاد العشرين، فقد جدت حالة توجب أن أسارع برفع ما يعترض هذا المشروع من العقبات والله بالتوفيق كفيل.

كانت ميزانية المعارف للعام المقبل تتضمن إنشاء خمس مدارس ابتدائية وبهذا كان الأمل قويًا في إنشاء مدرسة سنتريس، ثم سمعت أن الوزارة عدلت الميزانية فاكتفت بإنشاء ثلاث مدارس، وخفت أن تؤجل مدرسة سنتريس، وإنما كان الخوف لأن الوزير نفسه حدثني أنه سينشئ مدرسة في الدرب الأحمر ومدرسة في بولاق، فهل تكون المدرسة الثالثة هي مدرسة سنتريس؟ ليت ثم ليت.

أنا أرجو معالي الوزير أن يتذكر أن القاهرة تنتهب حقوق الأقاليم، ثم أرجوه أن يضع حدًا لهذا الانتهاب، فما يجوز أن تأخذ القاهرة أكثر مما أخذت، ولا يجوز أن ننسى أن مواصلات القاهرة تعين القاهريين على الوصول إلى المدارس بأمان، ولو كانوا من أهل الدرب الأحمر أو بولاق ولا كذلك الحال في الأقاليم، فالمواصلات هنالك في غاية الصعوبة، ولا يتيسر الانتقال إلا مع التعب العنيف.

قد يقال إن نائب بولاق يراعي أهل دائرته فيطلب إنشاء مدرسة، وإن نائب الدرب الأحمر يراعي أهل دائرته فيطلب إنشاء مدرسة، وأنا لا أعترض على مساعي هذين النائبين، فمن واجب كل نائب أن يقدم لأهل دائرته أقصى ما يستطيع من الخدمات.

وهنا تظهر خطورة هذه القضية: فقد مضت عشرون سنة وسنتريس مسرح للحفلات الانتخابية، وكان كل مرشح يمنينا بأنه سينشئ في سنتريس مدرسة ابتدائية، ثم ينفض السامر وتذهب تلك الأماني!

لم يبق إلا أن أستهدي وتذهب تلك الأماني!

(*) أنشئت المدرسة وهي الآن مدرسة الدكتور زكي مبارك الإعدادية.

لم يبق إلا أن أستهدي عطف وزير المعارف على عشرين بلدًا هي أخصب بلاد المنوفية، ففي سنتريس وحدها أكثر من ثلاثين شهادة عالية، وموقع سنتريس الجغرافي أجمل من موقع شبين وأظهر من موقع أشمون.

أيكون من حق النواب أن يصل صوتهم إلى وزير المعارف قبل صوتي؟

هذا مستحيل، فأنا من أمناء وزير المعارف، وأنا سفيره على جميع البلاد المصرية فمن أوضح الواضحات أن أكون سفيره في البلاد التي تجاور بلدي، وأنا أعرفها كما أعرف نفسي.

لوزير المعارف أن يتفضل فيطلب التقرير الذي قدمته لمراقبة التعليم الابتدائي ومعه تقرير الرقيب، وأي رقيب؟

هو رجل من أكابر المربين دعاه مراقب التعليم الابتدائي إلى مصاحبتي لمعانية مدرسة سنتريس لئلا يطغى على حبي لبلدي فأقول إن اسمها سنتريس.

لمعالي وزير المعارف أن يقرأ هذين التقريرين ثم يفكر فيما يصنع فأنا واثق بأنه سيكرم تلك البلاد العشرين، وندائي لمعاليه هو نداء تلك البلاد العشرين.

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدي: ١١٧٩٤ رمسيس

www. Egyptianbook.org

E- mail: info@egyptianbook.org